فتح الباري

على

شرح السنة للبربهاري

تأليف

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري

الجزء الأول

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ

فتح الباري

على

شرح السنة للبربهاري

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الحميد بن يحيى بن زيد
الحجوري الزعكري

التاريخ: ١٤/جماد ثاني/١٤٣٣

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم
ومن والاه أما بعد:
فهذا كتاب «فتح الباري على شرح السنة للبربهاري»
أقدمه للطباعة في طبعته الأولى وقد أذنت للأخ
طارق حسني صاحب دار الآثار بالقاهرة بطبعتها
وفقنا الله وإياه ولا حول ولا قوة إلا بالله

أبو محمد
١٤/٦/١٤٣٣
الحجوري

اليمن -صعدة- دار الحديث بدماج - جوال: ٧٧٧١٦٥٣٦١(٠٠٩٦٧)
الموقع على الانترنت (شبكة المعلومات) www.alzoukory.com

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لدينه القويم، وأرشدنا إلى صراطه المستقيم، وألهمنا الحمد له على ما خولنا من جزيل نعمه، وجعل نعمه علينا مضافة إلى سائر مننه، أحمده حمد معترف بالتقصير فيما يلزمه من شكر هباته، وأسأله التوفيق للعمل بما يقرب إلى مرضاته.

وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة تبلغ معتقدها أمله، ويختم الله لقائلها بالسعادة عمله، وأشهد أن محمدًا عبده المنتخب من بريته، ورسوله الداعي لخلقه إلى طاعته، أرسله بالحق المبين، وابتعثه بالشرع المتين، فجلى غوامض الشبهات، وأنار حنادس الظلمات، وأباد حزب الكفر وأنصاره، وشيد أعلام الدين ومناره، صلى الله عليه صلاة يعطيه فيها أمنيته، ويرفع بها في الآخرة درجته، وعلى إخوانه من النبيين وآله الأخيار المنتخبين، وتابعيهم بالإحسان أجمعين، أما بعد:

فإن الله تبارك وتعالى أنقذ الخلق من ثائرة الجهل، وخلص كثيرًا من الورى من زخارف الضلالة بالكتاب الناطق والوحي الصادق، المُنزلَين على سيد الورى نبينا محمد المصطفي، ثم أوجب النجاة من النار، والبعد عن منزل الذل والخسار، لمن أطاعه في امتثال ما أمر والكف عما عنه نهى وزجر، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[النور:٥٢]، وطاعة الله في طاعة رسوله، وطاعة

رسوله في اتباع سنته، إذ هي النور البهي والأمر الجلي والحجة الواضحة والمحجة اللائحة، من تمسك بها اهتدى، ومن عدل عنها ضل وغوى(١).

والعلم أنواع، وأجله ما تعلق بعلم العقيدة والتوحيد.

لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وأشرف العلوم وأزكاها وأفضلها وأغلاها وأرفعها وأعلاها هو: علم العقيدة الصحيحة المستنبطة من الكتاب والسنة الصحيحة؛ لأن كثيرًا من أهل البدع وقعوا في الضلالة البعيدة والهُوّة السحيقة؛ بسبب البعد عن هذين الأصلين العظيمين: الكتاب، والسنة الصحيحة. وهروعهم خلف علم الكلام الذي قد زُين ظاهره، والسم الزعاف في باطنه. كما قال الله : ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحديد:١٣].

فتعين الاهتمام بالأهم فالأهم، وكان من أهم الواجبات والمسائل المتحتمات لهو: معرفة الطرق المرضيات، والسبل السويات اقتداء بالسلف الصالحين ومن تبعهم بإحسان من اللاحقين، ففي سنن ابن ماجه رقم (٦١) وغيره عن جندب قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا. والمراد بالإيمان هنا ما يتعلق بالعقيدة.

وقد لحق أهل الإسلام بسبب أهل البدع من البلاء الشيء العظيم قال ابن القيم في الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٣٥٦-٣٦٠): لما أظلمت الأرض، وبعد عهد أهلها بنور الوحي، وتفرقوا في الباطل فرقًا وأحزابًا لا يجمعهم جامع، ولا يحصيهم إلا الذي خلقهم، فإنهم فقدوا نور النبوة ورجعوا إلى مجرد العقول، فكانوا كما قال النبي فيما يروي عن ربه أنه قال: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ**

---

(١) من مقدمة كتاب الكفاية للخطيب البغدادي .

كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» أخرجه مسلم عن عياض بن حمار (٢٨٦٥) فكان أهل العقول كلهم في مقته إلا بقايا متمسكين بالوحي، فلم يستفيدوا بعقولهم حين فقدوا نور الوحي إلا عبادة الأوثان أو الصلبان أو النيران أو الكواكب والشمس والقمر أو الحيرة والشك أو السحر أو تعطيل الصانع والكفر به، فاستفادوا بها مقت الرب سبحانه لهم وإعراضه عنهم، فأطلع الله شمس الرسالة في تلك الظلم سراجًا منيرًا، وأنعم بها على أهل الأرض في عقولهم وقلوبهم ومعاشهم ومعادهم، نعمة لا يستطيعون لها شكورًا، فأبصروا بنور الوحي ما لم يكونوا بعقولهم يبصرونه، ورأوا في ضوء الرسالة لما لم يكونوا بآرائهم يرونه، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧].

وقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[إبراهيم:١]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورًا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢]، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتًا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورًا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٍ مِّنۡهَا﴾[الأنعام:١٢٢].

فمضى الرعيل الأول في ضوء ذلك النور لم تطفئه عواصف الأهواء، ولم تلتبس به ظلم الآراء، وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم، وأن لا

يخرجوا عن طريقهم فلما كان في أواخر عصرهم حدثت الشيعة والخوارج والقدرية والمرجئة فبعدوا عن النور الذي كان عليه أوائل الأمة.

ومع هذا فلم يفارقوه بالكلية بل كانوا للنصوص معظمين، وبها مستدلين، ولها على العقول والآراء مقدمين ولم يدع أحد منهم أن عنده عقليات تعارض النصوص وإنما أتوا من سوء الفهم فيها والاستبداد بما ظهر لهم منها دون من قبلهم ورأوا أنهم إن اقتفوا أثرهم كانوا مقلدين لهم فصاح بهم من أدركهم من الصحابة وكبار التابعين من كل قطر ورموهم بالعظائم وتبرأوا منهم وحذروا من سبيلهم أشد التحذير ولا يرون السلام عليهم ولا مجالستهم وكلامهم فيهم معروف في كتب السنة وهو أكثر من أن يذكر هاهنا فلما كثرت الجهمية في أواخر عصر التابعين كانوا هم أول من عارض الوحي بالرأي ومع هذا كانوا قليلين أولا مقموعين مذمومين عند الأئمة وأولهم شيخهم الجعد بن درهم.

وإنما نفق عند الناس بعض الشيء لأنه كان معلم مروان بن محمد وشيخه، ولهذا كان يسمى مروان الجعدي، وعلى رأسه سلب الله بني أمية الملك والخلافة وشتتهم في البلاد ومزقهم كل ممزق ببركة شيخ المعطلة النفاة.

فلما اشتهر أمره في المسلمين طلبه خالد بن عبدالله القسري، وكان أميرًا على العراق حتى ظفر به، فخطب الناس في يوم الأضحى، وكان آخر ما قال في خطبته: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوًا كبيرًا، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر فكان ضحية.

ثم طفئت تلك البدعة فكانت كأنها حصاة رمي بها، والناس إذ ذاك عنق واحد أن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال، وأنه كلم عبده ورسوله موسى تكليمًا، وتجلى للجبل فجعله دكًا هشيمًا.

إلى أن جاء أول المائة الثالثة وولي على الناس عبدالله المأمون، وكان يحب أنواع العلوم، وكان مجلسه عامرا بأنواع المتكلمين في العلوم، فغلب عليه حب المعقولات فأمر بتعريب كتب يونان، وأقدم لها المترجمين من البلاد فعربت له واشتغل بها الناس والملك سوق ما سوق فيه جلب إليه.

فغلب على مجلسه جماعة من الجهمية مما كان أبوه الرشيد قد أقصاهم وتبعهم بالحبس والقتل فحشوا بدعة التجهم في أذنه وقلبه فقبلها واستحسنها، ودعا الناس إليها، وعاقبهم عليها.

فلم تطل مدته فصار الأمر بعده إلى المعتصم وهو الذي ضرب الإمام أحمد بن حنبل، فقام بالدعوة بعده والجهمية تصوب فعله وتدعوه إليه وتخبره أن ذلك هو تنزيه الرب عن التشبيه والتمثيل والتجسيم، وهم الذين قد غلبوا على قربه ومجلسه، والقضاة والولاة منهم فإنهم تبع لملوكهم، ومع هذا فلم يكونوا يتجاسرون على إلغاء النصوص، وتقديم الآراء والعقول عليها، فإن الإسلام كان في ظهور وقوة وسوق الحديث نافقة ورءوس السنة على ظهر الأرض ولكن كانوا على ذلك يحومون، وحوله يدندنون، وأخذوا الناس بالرغبة والرهبة، فمن بين أعمى مستجيب ومن بين مكره مقيد نفسه منهم بإعطاء ما سألوه وقلبه مطمئن بالإيمان.

وثبت الله أقوامًا جعل قلوبهم في نصر دينه أقوى من الصخر، وأشد من الحديد، وأقامهم لنصر دينه وجعلهم أئمة يقتدي بهم المؤمنون لما صبروا وكانوا

بآياته يوقنون، فإنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة:٢٤].

فصبروا من الجهمية على الأذى الشديد، ولم يتركوا سنة رسول الله لما أرغبوهم به من الوعد، وما تهددوهم به من الوعيد، ثم أطفأ الله برحمته تلك الفتنة، وأخمد تلك الكلمة، ونصر السنة نصرًا عزيزًا، وفتح لأهلها فتحًا مبينًا، حتى خرج بها على رءوس المنابر، ودعي إليها في كل باد وحاضر، وصنف ذلك الزمان في السنة ما لا يحصيه إلا الله.

ثم انقضى ذلك العصر وأهله، وقام بعدهم ذريتهم يدعون إلى كتاب الله وسنة رسوله على بصيرة إلى أن جاء ما لا قبل لأحد به، وهم جنود إبليس حقًا المعارضون لما جاءت به الرسل بعقولهم وآرائهم من القرامطة والباطنية والملاحدة، ودعوتهم إلى العقل المجرد، وأن أمور الرسل تعارض المعقول فهم القائمون بهذه الطريقة حق القيام بالقول والفعل.

فجرى على الإسلام وأهله منهم ما جرى، وكسروا عسكر الخليفة مرارًا عديدة، وقتلوا الحاج قتلًا ذريعًا، وانتهوا إلى مكة فقتلوا بها من وصل من الحاج إليها، وقلعوا الحجر الأسود من مكانه، وقويت شوكتهم، واستفحل أمرهم، وعظمت بهم الرزية، واشتدت بهم البلية، وأصل طريقهم أن الذي أخبرت به الرسل قد عارضه العقل، وإذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، قالوا: فنحن أنصار العقل الداعون إليه المخاصمون به المحاكمون إليه.

وفي زمانهم استولى الكفار على كثير من بلاد الإسلام في الشرق والغرب، وكاد الإسلام أن ينهد ركنه لولا دفاع الذي ضمن حفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

ثم خمدت دعوة هؤلاء في المشرق، وظهرت من المغرب قليلًا قليلًا حتى استفحلت وتمكنت، واستولى أهلها على كثير من بلاد المغرب، ثم أخذوا يطوون البلاد حتى وصلوا إلى بلاد مصر فملكوها وبنوا بها القاهرة، وأقاموا على هذه الدعوة مصرحين بها غير متحاشين منها هم وولاتهم وقضاتهم وأتباعهم.

وفي زمانهم صنفت (رسائل إخوان الصفا) و(الإشارات) و(الشفا) وكتب ابن سينا، فإنه قال: كان أبي من أهل الدعوة الحاكمية، وعطلت في زمانهم السنة وكتبها والآثار جملة إلا في الخفية بحيث يكون قارؤها وذاكرها وكاتبها على أعظم خطر.

وشعار هذه الدعوة تقديم العقل على الوحي، واستولوا على بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز، واستولوا على العراق سنة، وأهل السنة فيهم كأهل الذمة بين المسلمين، بل كان لأهل الذمة من الأمان والجاه والعز عندهم ما لا يصل إليه أحد من أهل السنة، ولا يطمع فيه، فكم أغمدت سيوفهم في أعناق العلماء، وكم مات في سجونهم من ورثة الأنبياء.

وكم ماتت بهم سنة، وقامت بهم بدعة وضلالة، حتى استنقذ الله الأمة والملة من أيديهم في أيام نور الدين وابن أخيه صلاح الدين، فأبل الإسلام من علته بعدما وطن المسلمون أنفسهم على العراء، وانتعش بعد طول الخمول حتى استبشر أهل الأرض والسماء، وأبدر هلاله بعد أن دخل في المحاق، وثابت إليه روحه بعدما بلغت التراقي، وقيل من راق.

واستنقذ الله سبحانه بعبده وجنوده بيت المقدس من أيدي عبدة الصليب، وأخذ كل من أنصار الله ورسوله من نصرة دينه بنصيب، وعلت كلمة الإسلام

والسنة وأذن بها على رءوس الأشهاد، ونادى المنادي: يا أنصار الله لا تنكلوا عن الجهاد، فإنه أبلغ الزاد ليوم المعاد.

فعاش الناس في ذلك النور مدة حتى استولت الظلمة على بلاد الشرق، وطفا نور النبوة والوحي، وقدموا العقول والآراء والسياسة والأذواق والرأي على الوحي، فظهرت فيهم الفلسفة والمنطق وتوابعها، فبعث الله عليهم عبادًا له أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وعاثوا في القرى والأمصار، وكاد الإسلام أن يذهب اسمه وينمحي رسمه.

وكان مشار هذه الفرقة وعالمها الذي يرجعون إليه، زعيمها الذي يعولون عليه، شيخ شيوخ المعارضين بين الوحي والعقل وإمامهم في وقته نصير الكفر والشرك الطوسي، فلم يعلم في عصره أحد عارض بين العقل والنقل معارضته، فرام إبطال السمع بالكلية وإقامة الدعوة الفلسفية، وجعل الإشارات بدلا عن السور والآيات، وقال: هذه عقليات قطعية برهانية قد عارضت تلك النقليات الخطابية.

واستعرض علماء الإسلام وأهل القرآن والسنة على السيف فلم يبق منهم إلا من أعجزه قصدًا لإبطال الدعوة الإسلامية، وجعل مدارس المسلمين وأوقافهم للنجسة السحرة والمنجمين والفلاسفة والملاحدة والمنطقيين، ورام إبطال الآذان وتحويل الصلاة إلى القطب الشمالي، فحال بينه وبين ذلك من تكفل بحفظ الإسلام ونصره وهذا كله من ثمرة المعارضين بين الوحي والعقل وتقديم العقل على السمع.

ولتكن قصة شيخ هؤلاء القديم منك على ذكر كل وقت، فإنه أول من عارض بين العقل والنقل، وقدم العقل فكان من أمره ما قص الله عليك، وورث هذا الشيخ تلامذته هذه المعارضة، فلم يزل يجري على الأنبياء وأتباعهم منها كل محنة وبلية،

وأصل كل بلية في العالم كما قال محمد الشهرستاني من معارضة النص بالرأي وتقديم الهوى على الشرع.

والناس إلى اليوم في شرور هذه المعارضة، وشؤم عاقبتها، فإلى الله المشتكى، وبه المستعان، ثم إنه خرج مع هذا الشيخ المتأخر المعارض بين العقل والنقل أشياء لم تكن تعرف قبله، (جست العميدي) و(حقائق ابن عربي) و(تشكيكات الرازي)، وقام سوق الفلسفة والمنطق وعلوم أعداء الرسل التي فرحوا بها لما جاءتهم رسلهم بالبينات، وصارت الدولة والدعوة لأرباب هذه العلوم.

ثم نظر الله إلى عباده، وانتصر لكتابه ودينه، وأقام جندًا تغزوا ملوك هؤلاء بالسيف والسنان، وجندًا تغزوا علماءهم بالحجة والبرهان، ثم نبغت طائفة منهم في رأس القرن الثامن، فأقام الله لدينه شيخ الإسلام أبا العباس ابن تيمية قدس الله روحه، فأقام على غزوهم مدة حياته باليد والقلب واللسان، وكشف للناس باطلهم وبين تلبيسهم وتدليسهم، وقابلهم بصريح المعقول وصحيح المنقول، وشفي واشتفي وبين مناقضتهم ومفارقتهم لحكم العقل الذي به يدلون وإليه يدعون.

وإنهم أترك الناس لأحكامه وقضاياه، فلا وحي ولا عقل، فأرداهم في حفرهم، ورشقهم بسهامهم، وبين أن صحيح معقولاتهم خدم لنصوص الأنبياء شاهدة لها بالصحة، وتفصيل هذه الجملة موجودة في كتبه، فمن نصح نفسه ورغب عن قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣].

يتبين له حقيقة الأمر، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور:٤٠].

والمقصود أن كل بلية طرقت العالم عامة أو خاصة فأصلها من معارضة الوحي بالعقل، وتقديم الهوى على الأمر، والمعصوم من عصمه الله. اهـ

ثم اعلم أن النبي أخبر بافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كما في حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٥٩٦)، وأخبر عن هلاك هذه الفرق وأنها كلها في النار - أي: مستحقة لها - كما في حديث معاوية عند أحمد (٤/ ١٠٢)، وجاء عن أنس عند أحمد (٣/ ١٢٠) نحوه - إلا واحدة، وهي أهل السنة والجماعة، الطائفة المنصورة، التي قال عنها الإمام البخاري وغير واحد من أهل العلم: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَنْ هم، وعبر عنهم الإمام أحمد بن حنبل بأنهم أهل الحديث، ومن أخذ بمذهبهم وطريقتهم، فلما كان الأمر على ما تقدم وقد حدث في الأمة الافتراق الذي ذكره رسول الله ، وكانت أصول البدع أربعة.

فعند الآجري (٢٠) وغيره عن يوسف بن أسباط قال: (رءوس البدع أربعٌ: الروافض والخوارج والقدرية والمرجئة، ثم تشعبت كل فرقة ثمانية عشر طائفة فتلك اثنتان وسبعون فرقة، والثالثة والسبعون الجماعة التي قال عنها النبي : إنها الناجية).

فتعين على من سلك هذا السبيل وعرفه أن يدعوَ الناس إليه ويحذر مما يناقضه، وكان مبدأ البدع الكلام في الأسماء والأحكام كما قرر ذلك ابن رجب وغيره، ثم تشعب الخلاف لأهل السنة حتى تكلم المبتدعة في الرب جل وعلا فعطلوا أسمائه وصفاته، وكان هذا متمثلًا في طائفة الجهمية والمعتزلة والأشاعرة على ما يأتي بيانه، وكان في نقيضهم طائفة مثلوا الله بخلقه تعال الله عن قول الطائفتين علوًّا كبيرًا، وهدى الله أهل السنة والجماعة لأحسن الطرق وأقوم السبل صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا فانبرى أهل السنة والجماعة فدونوا العقائد الموافقة للكتاب والسنة والرادة على أهل الزيغ

والبدعة، فأُلفت الكتب المطولة والمختصرة ومن هذه الكتب كتاب الشريعة للآجري أبي بكر محمد بن الحسين، وكتاب السنة لعبدالله بن الإمام أحمد، وكتاب أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل، وكتاب الإبانة عن أصول الديانة لابن بطة العكبري، وكتاب الحجة في بيان المحجة للأصفهاني، وكتاب خلق أفعال العباد للبخاري، وكتاب السنة لابن أبي عاصم، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وكتاب السنة للخلال، وكتاب أصول السنة لابن أبي زمنين، ولي بحمد الله شرح عليه، وكتاب اعتقاد أهل الحديث لأبي بكر الإسماعيلي، وكتاب اعتقاد السلف أصحاب الحديث للصابوني، وكتاب السنة للمروزي، وكتاب شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة للالكائي، و العقيدة الطحاوية لأبي جعفر الطحاوي.

أما من حيث الكتب المتضمنة فأعظمها وأجلها كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وكذا ما تضمنه صحيح البخاري و صحيح مسلم، وما تضمنه المسانيد والسنن والمصنفات والمعاجم، وكل هذا من باب حفظ الله لدينه.

إذن، فدراسة العقيدة السلفية التي تدل عليها الأدلة النبوية عن محمد خير البرية، والآثار المروية عمن صار على الطريقة المرضية، أمر مطلوب ومرغب فيه، ومن هذا الباب يسر الله تدريسي لهذا الكتاب الذي هو شرح السنة للإمام البربهاري، والذي هو اسم على مسمى كتاب فيه شرح للسنة وتحذير من البدعة، في (دار الحديث بدماج) في عام (١٤٣١هـ).

ثم رغب إليَّ بعض الإخوة الأعاجم في عمل تعليق حتى يُفهم ما يدرسونه معي، ثم شرح الله صدري لشرحه شرحًا فيما أرجو أن يكون وافيًا علَّ الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتي وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، مع أني أشكو إلى الله ضعف حالي وقلة باعي، لكن فضل الله عظيم يؤتيه من يشاء، وبه استعين، والحمد رب العالمين.

ولأني لم أر للكتاب شرحًا مكتوبًا إلا ما كان من شرح الشيخ العلامة أحمد بن يحيى النجمي والشيخ العلامة صالح الفوزان، وكلاهما شرح مفرغ من أشرطة، ومعلوم ما يعوز الشروح المفرغة، مع اعترافنا بجلالة الشيخين، ولشيخنا يحيى حفظه الله تعالى شرحًا عليه غير مطبوع، ورأيت في مراجعتي الأخيرة شرحًا عليه للشيخ العلامة ربيع المدخلي- حفظه الله-.

فنسأل الله أن يجعل فيه النفع والخير وأسأله أن يغفر لي ولوالديَّ ولمشايخي وجميع المسلمين.

وأسميته: فتح الباري على شرح السنة للبربهاري ، والحمد لله رب العالمين.

ترجمة الإمام الحسن بن علي بن خلف البربهاري

اسمه ونسبه:

هو: أبومحمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، ولد سنة (٢٥٣هـ) في خلافة المعتز بالله بن الخليفة المتوكل على الله: جعفر بن المعتصم العباسي.

والبربهاري بفتح الموحدة، وسكون الراء المهملة، وفتح الباء الثانية أيضًا والراء المهملة أيضًا بعدها الهاء والألف، وهذه نسبة إلى بربهار وهي: الأدوية التي تجلب من الهند.

مذهبه وثناء العلماء عليه:

هو سني سلفي على عقيدة الإمام أحمد السلفية التي هي امتداد لطريقة رسول الله المرضية، ناظر وجادل وألف في نصرها، وكان رئيس الحنابلة في زمنه.

قال الذهبي : شيخ الحنابلة القدوة الإمام الفقيه. اهـ

وقال ابن العماد: الفقيه القدوة شيخ الحنابلة بالعراق قالًا وحالًا، وكان له صيت عظيم وحرمة تامة. اهـ

وقال ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة : شيخ الطائفة في وقته ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع والمباينة لهم باليد واللسان، وكان له قدم عند السلطان، وقدم عند الأصحاب، وكان أحد الأئمة العارفين والحفاظ للأصول المتقنين والثقات المأمونين.

من صفاته:

كان قوالًا بالحق لا يخاف في الله لومة لائم داعية إلى الأثر، وكان طويل الباع في العلم يظهر لك جليًا من كثرة المسائل التي طرقها في كتابه، ولا جتماع أهل السنة في عصر عليه.

ومن عباراته:

سترى في هذه العقيدة الشيء الكثير العظيم الذي ينم عن ذكاء وبلاغة وشجاعة، وقوة جئش وشكيمة، وبسالة، ومنها قوله : أهل البدع مثل العقارب يخفون رءوسهم، فإذا وجدوا فرصة لسعوا.

وقال ابن بطة: سمعت البربهاري يقول: المجالسة للمناصحة فتح باب الفائدة، والمجالسة للمناظرة غلق باب الفائدة.

محنته:

لما كان ذا بسالة وسيط واسع تنكر له المخالفون، وألبوا عليه السلطان مع أنه كان ذا حضوة عنده، ولكن الوشاية والنميمة تصنعان الشر العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال الذهبي في السير (١٥/ ٩١-٩٢): كان للبربهاري مجاهدات ومقاومات في الدين، وكان المخالفون يغلظون قلب السلطان عليه، ففي سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة أرادوا حبسه، فاختفي، وأُخذ كبار أصحابه، وحملوا إلى البصرة، فعاقب الله الوزير ابن مقلة، وأعاد الله البربهاري إلى حشمته، وزاد، وكثر أصحابه، فبلغنا أنه اجتاز بالجانب الغربي، فعطس فشمته أصحابه، فارتفعت

ضجتهم، حتى سمعها الخليفة، فأخبر بالحال، فاستهولها، ثم لم تزل المبتدعة توحش قلب الرضي، حتى نودي في بغداد: لا يجتمع اثنان من أصحاب البربهاري، فاختفي، وتوفي مستترًا في رجب سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة، فدفن بدار أخت توزون، وفي تاريخ محمد بن مهدي أن في سنة ثلاث وعشرين أوقع بأصحاب البربهاري فاستتر وتُتُبع أصحابه ونهبت منازلهم، وعاش سبعًا وسبعين سنة وكان آخر عمره قد تزوج بجارية.

زهده وورعه:

قيل أنه ترك ميراث أبيه تورعًا وكان سبعين ألفًا.

مشايخه وطلابه:

أخذ عن أحمد بن محمد بن الحاج أبوبكر المروذي، وصحب سهل بن عبدالله التستري والفتح بن شخرف أحد العباد الزهاد وهم من أصحاب أحمد، ومن تلاميذه أبو عبدالله عبيد الله بن محمد العكبري ابن بطة، وأبوبكر محمد بن محمد بن عثمان، وأبو الحسن بن سمعون، ومحمد بن أحمد بن صالح بن الإمام أحمد.

مؤلفاته:

قال ابن أبي يعلى: صنف البربهاري كتبًا منها: شرح كتاب السنة . وهو كتابنا هذا.

وذكر أغلب الكتاب من قوله: احذر صغار المحدثات من الأمور... إلى نهايته.

وفاته:

تقدم أنه توفي في رجب، سنة ثمانية وعشرين وثلاثمائة؛ إلا أن ابن العماد ذكره في وفيات تسع وعشرين وثلاث مئة.

مصادر ترجمته:

السير (١٠/ ٩٠-٩٤)، و شذرات الذهب (٤/ ١٥٨-١٦٤)، و العبر (٢/ ٢٢٢-٢٢٣)، و الكامل لابن الأثير (٨/ ٣٧٨)، و المنهج الأحمد (٢/ ٢٦-٣٩)، و طبقات الحنابلة (٣/ ٣٦) رقم الترجمة (٥٨٨).

كتاب شرح السنة للبربهاري

هو كتاب نفيس، ويعتبر من المراجع المهمة في بيان عقيدة السلف وموقفهم من أهل البدع، والسبب في ذلك: أن مؤلف هذا الكتاب كان رأس أهل السنة في زمنه، وتتلمذ على تلاميذ وأصحاب الإمام الرباني: أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني .

فكان لهذا التتلمذ أثره، وكذا كثرة أهل البدع مما جعل الإمام البربهاري يحذر من مجالستهم ومجادلتهم، ويبين فساد ما هم عليه من الضلال والانحراف، وبيّن خطر علم الكلام وشؤمه على الأمة.

وستجد هذه الأهمية متجلية في نقول العلماء من هذا الكتاب والإشادة به، كما سيأتي بيانه إن شاء الله ؛ إلا أن الكتاب كغيره من الكتب المصنفة عمل بشر يصيب ويخطئ، ويعلم ويجهل، ويقع منه السهو والذهول، فيعوز الكتاب شيء من الترتيب والتنسيق بين أبوابه ومواضيعه، ولذا تجد المصنف يكرر بعض العبارات، ويقحم بعض العبارات، ومع ذلك نقول:

وَإِنْ تَجِـدْ عَيْبًـا فَـسُدَّ الْخَلَـلَا   قَدْ جَلَّ مَنْ لَا عَيْـبَ فِيـهِ وَعَـلَا

إلا أن المآخذ الأكثر على الكتاب في شيئين:

الأوَّل: كثرة الإطلاق في التكفير في كثير من المواطن، وفي كثيرها لا يوافق على إطلاقه؛ لأن مسألة التكفير مسألة خطيرة، وهي حق الله ، وحق رسوله فلا يكفر إلا من كفره الله ، ورسوله ، ويكون الكفر كما هو معلوم تارة بفعل اعتقادي، وتارة بفعل قولي، وتارة بفعل جارحة، وربما اجتمعت في شخص واحد،

وبحمد الله قد أشرنا وبيَّنا القول الحق في هذه المسائل جميعها إن شاء الله تعالى في مواطنه.

ومن أحسن ما رأيت من العلماء الذين شرحوه بيانًا لخطأ هذه الاطلاقات لهو العلامة: أحمد بن يحيى النجمي [المتوفي عام: ١٤٣١هـ]، وكذا شيخنا يحيى بن علي الحجوري لما درسنا عليه الكتاب لعله في سنة (١٤٢٠هـ).

وقد أعلن عن الدرس في ذلك الوقت إمامنا وشيخنا: مقبل بن هادي الوادعي ، وقال: إن في الكتاب شيئًا من الإطلاق في التكفير لكن أخانا يحيى حفظه الله لديه معرفة وبصيرة في بيان ذلك.

ومع هذا؛ فهذه الإطلاقات لا تؤثر في أهمية الكتاب كمرجع من مراجع أهل السنة والجماعة.

الثَّاني: الإطراء لهذا الكتاب حتى يزعم أن من ردَّ حرفًا منه كما سترى في آخر الكتاب فقد كفر، وقد بينَّا بطلان هذا القول، وخطأ هذا الإطلاق، وأن هذا الإطلاق لا يكون؛ إلا في حق كتاب الله الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢].

قال ابن خزيمة : من رد آية من كتاب الله، أو حديثًا يعتقد صحته فقد كفر.

ومع ذلك فإن الكتاب قد تناول كثيرًا من عقيدة السلف رضوان الله عليهم والرد على المخالفين من أهل البدع الضالين،

والكتاب كتاب البربهاري ولا شك في ذلك، ومما يدل عليه: ما ذكره ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة وأن له كتاب شرح السنة ثم ذكره إلا أسطر يسيرة من مقدمته، وكذا ذكره ابن العماد في شذرات الذهب ، ونقل شيئًا منه وأغلب من ترجم للبربهاري ذكر هذا الكتاب، وممن نقل عنه وأذكر ذلك على سبيل الاختصار لا الاستقصاء شيخ الإسلام في بغية المرتاب (٢٥٨)، كما في المستدرك على المجموع (٢/ ٢٦١)، وفيه: قال أبو محمد في شرح السنة العقل مولود... الفقرة. وستأتي. والذهبي في العلو رقم (٥٠١)، وفي تاريخ الإسلام (٢٤/ ٢٥٨)، و السير كما تقدم، ونقل عنه ابن مفلح في الفروع (٢/ ١٤٩)، وفي الآداب الشرعية (٣/ ٢٧٠، ٥٤٩-٥٥٠)، وفي المقصد الأرشد (١/ ٣٢٩)، والحافظ ابن حجر في فتح الباري تحت باب فضل الفقر (١١/ ٢٧٦-٢٧٧). وغيرهم كثير، والحمد لله رب العالمين.

تنبيهان:

الأول: تقسيم الكتاب إلى فقرات، ووضع العناوين من عندي وليس هو من عند المصنف .

الثاني: اعتمدت في متن الكتاب على نسخة مخطوطة ، حصلت عليها من مكتبة الحرم المدني - حرسها الله - بواسطة الوالد الشيخ حسن مجلي - وفقه الله تعالى - وعلى نسختين مطبوعتين، الأولى: طبعة دار السلف التي حققها الأخ خالد الردّادي، والثانية: المتن الموجود ضمن طبقات الحنابلة، ولم أُشر هنا إلى اختلاف الطبعات لأمرين:

الأول: عدم تثقيل الحواشي وتشتيت القارئ.

الثاني: أني لم أعتمد سياقة واحدة، بل بذلتُ جهدي في الحصول على نص المؤلف بحسب الإمكان، وسيُرى ذلك عند طباعة المتن منفرِدًا.

كتـــبه

أبومحمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري

كانت المراجعة الأخيرة في شهر صفر ١٤٣٢هـ

ثم أخرى في شهر ربيع الثاني ١٤٣٣هـ

والبدء فيه في شهر رجب ١٤٣١هـ

[مقدمة المؤلف]

١- الحَمْدُ لله.

الشرح:

تعريف الحمد:

الحمد: هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه قاله ابن القيم في البدائع (٢/ ٩٣) وهذا أحسن تعريف لها؛ وإلا فإن أكثر العلماء يذهبون في تعريفها إلى أنها: الثناء على الله، وذهب بعضهم إلى أنها شكر الله ، وسيأتي الفرق بينهما إن شاء الله تعالى.

وقال كما في بدائع التفسير (١/ ١٢٢): نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلًا ووصفًا واسمًا، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلًا ووصفًا واسمًا فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه منزه من العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه. اهـ

كما أن قول: (**سبحان الله**) يتضمن تنزيه الله عن جميع النقائص والعيوب، ويستلزم إثبات جميع المحامد.

ولعظم هذه الكلمة (**الحمد لله**) افتتح سبحانه وتعالى بها خمس سور من القرآن الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر.

وكم يجمع الله ورسوله بينهما وبين التسبيح لما تقدم بيانه.

وقد قال رسول الله كما في حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (٢٢٣): «وَالحَمْدُ لله تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ الله وَالحَمْدُ لله تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وقال كما في حديث أبي سلام عن مولى رسول الله عند أحمد (٣/ ٤٤٣)، وهو في الصحيح المسند لشيخنا «بَخٍ بَخٍ! لَخَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَاهُ».

ويسمع الله لحامده كما في حديث أبي موسى عند مسلم (٤٠٤) قال النبي : «وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ».

وأخرج الإمام مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة في قراءة الفاتحة في الصلاة، وفيه: «فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي».

وهي من أحب الكلام إلى الله كما في حديث سمرة بن جندب «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى الله أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ» أخرجه مسلم (٢١٣٧).

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٢٣): فإنه سبحانه يحمد على أفعاله كما حمد نفسه عليها في كتابه وحمده عليها رسله وملائكته والمؤمنون من عباده فمن لا فعل له البتة كيف يحمد على ذلك فالأفعال هي المقتضية للحمد ولهذا

تجده مقرونًا بها كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١].

وكقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[الكهف:١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[فاطر:١]. اهـ

قال السمعاني في تفسير سورة الفاتحة (١/ ٣٦٤): ثم اعلم أن حمد الله تعالى لنفسه حسن لا كحمد المخلوقين لأنفسهم لأن المخلوق لا يخلوا عن نقص فلا يخلوا مدحه نفسه عن كذب فيقبح منه أن يمدح نفسه وأما الله جل جلاله بريء عن النقص والعيب فكان مدحه نفسه حسنًا. اهـ

الفرق بين الحمد والشكر:

وقد ذهب ابن جرير إلى أن الحمد لله هو الشكر لله سبحانه وتعالى ورد هذا التعريف ابن كثير في تفسيره : فقال: وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر:

أَفَــادَتْكُمُ الــنَّعْمَاءُ مِنِّــي ثَلَاثَــةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

وهذا التعريف الذي ذهب إليه ابن كثير قد رده ابن القيم كما في البدائع (٢/ ٩٥) وبين أن الثناء هو الحمد إذا تكرر فقال:

فإن الإخبار عن المحاسن إما بتكرار أولا فإن تكرار فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد فالثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه إلى بعض ومنه

تثنية الثوب ومنه تثنية الاسم، واستدل على ذلك بحديث أبي هريرة عند الإمام مسلم (٣٩٥): «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»؛ لأنه كرر الحمد.

واللام في الحمد للاستغراق أي إستغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيمًا وتمجيدًا قاله القاسمي في تفسيره .

وقال القرطبي في التفسير (١/ ١٧٧): الحمد في كلام العرب، معناه: الثناء الكامل، والألف واللام للإستغراق الجنسي من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا. اهـ

وكل ما شمله سبحانه وتعالى ملكه وقدرته شمله حمده، قاله ابن القيم . اهـ من طريق الهجرتين .

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين الحمد والشكر من حيث أن الشكر أعم آله أي أنه يكون بالقلب خضوعًا واستكانة وباللسان ثناءً واعترافًا وبالجوارح طاعةً وانقيادًا بينما الحمد يكون باللسان وبالقلب فقط.

والشكر يكون على الصفات المتعدية فقط فتقول شكرته على إحسانه وفضله وعدله ولا تقول شكرته على سمعه وبصره وجماله.

بينما الحمد يكون على الصفات المتعدية واللازمة تقول حمدته على جماله وإحسانه وحمدته على سمعه وبصره. اهـ بتصرف من المدارج (٢/ ٢٤٦).

قال ابن كثير : واختلفوا أيهما أعم الحمد أم الشكر على قولين والتحقيق أن بينهما عموم وخصوص ثم ذكر بنحو ما تقدم من كلام ابن القيم.

وقد تكلم أهل العلم في هذه الفروق، وأجمعها ما قال ابن القيم في البدائع : فنقول الإخبار عن محاسن الغير له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث المخبر به، واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر، واعتبار من حيث حال المخبر.

فمن حيث الإعتبار الأول ينشأ التقسيم إلى الحمد والمجد، فإن المخبر به إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها، أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور على معنى الإتساع والكثرة، فمنه قولهم: أمجد الدابة علفا أي أوسعها علفا، ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس، قال الشاعر:

أَنْتَ تَكُونُ مَاجِدٌ نَبِيلُ إِذَا تَهُبُّ شَمْأَلٌ بَلِيلُ

ومنه قولهم في شجر الغار: واستمجد المرخ والعفار، أي كثرت النار فيهما.

ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر، أو لا، فإن تكرر فهو الثناء، وإن لم يتكرر فهو الحمد، فإن الثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض، ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الإسم فالمثنى مكرر لمحاسن من يثنى عليه مرة بعد مرة.

ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبر عن محاسن الغير إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد، وإلا فهو المدح، فحصل هذه الأقسام وميزها. اهـ

مسألة: اختلف العلماء أيهما أفضل قول: (الحمد لله رب العالمين) أم قول: (لا إله إلا الله)، فقال بعضهم: (الحمد لله رب العالمين) أفضل؛ لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله ففي قوله: (توحيد وحمد)، وفي قول لا إله إلا الله توحيد فقط، وقالت طائفة لا إله إلا الله أفضل؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك وعليها يقاتل الخلق، وهذا القول هو الراجح لعموم أدلة فضل لا إله إلا الله.

وبدأ بالحمد اقتداءً بكتاب الله، وعملًا بسنة رسول الله حيث كان يفتتح خطبه بالحمد لله كما هو المشهور من خطبة الحاجة ففي حديث عبدالله بن مسعود عند أبي داود (٢١١٨) قال: عَلَّمَنَا رَسُولُ الله خُطْبَةَ الحَاجَةِ: «**إِنَّ الحَمْدَ لله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا مَنْ يَهْدِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴿اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾».

وفي حديث جابر عند مسلم رقم (٨٦٧) قال: كان رسول الله يخطب الناس ويحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: «**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الحَدِيثِ كِتَابُ الله**».

وفي رواية: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

وفي حديث ابن عباس عند مسلم (٨٦٨) أَنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ قَالَ: فَلَقِيَهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**إِنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ**».

والكلام على الحمد ومواطنه يطول، فيا حبذا لو يُفرد بمؤلف مستقل، فهذا اللفظ من أحب الكلام إلى الله كما هو معلوم.

تنبيه: افتتاح الكتب إما أن يكون بالبسملة ثم الحمدلة فيكون الابتداء بالبسملة حقيقي وبالحمدلة نسبي، وقد جاءت الأدلة بالافتتاح بالبسملة بينتها في شرحي على أصول السنة لابن أبي زمنين وشرحي للقواعد الأربع .

ثم لو اقتصر المؤلف على الحمدلة وحدها فإن ذلك يكفي؛ لما تقدم من الأدلة، والله أعلم.

[أقسام الهداية]

٢- الَّذِي هَدَانَا.

الشرح:

الهداية هي البيان والدلالة ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة ولا سبيل إلى البيان، والدلالة إلا من جهة الرسل. اهـ من المدارج (١/ ٩).

والرسول كان ملازمًا لسؤال الهداية فعن عبدالله بن مسعود عند مسلم (٧٠٧٩) أنه كان يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**». وعلم سبطه الحسن بن علي أن يقول في دعاء الوتر «**اللهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ**» أخرجه أبوداود (١٤٢٥) وأصحاب السنن. وعلم علي بن أبي طالب أن يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسَّدَادَ**» أخرجه مسلم (٢٧٢٥). وكان يدعو بها لكثير من المسلمين.

والهداية أربعة أقسام:

الأولى: هداية توفيق: وهي خاصة بالله قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦]، أي: يوفق.

الثانية: هداية الدلالة والإرشاد: وهذه مشتركة قال الله عن نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]، أي: تدل وترشد.

الثالثة: هداية إلى الجنة أو النار: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[يونس: ٩]، وقال الله تعالى عن أهل النار: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٣].

الرابعة: هداية عامة للخلق لمعايشهم ولما فيه صلاح أمورهم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:٥٠].

قال الراغب في مفردات القرآن: وهداية الله للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التى عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعمَّ منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:٥٠].

الثاني: الهداية التى جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾[الأنبياء: ٧٣].

الثالث: التوفيق الذى يختص به من اهتدى وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[محمد:١٧] وقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾[التغابن:١١] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾[يونس:٩] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت:٦٩]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾[مريم:٧٦]، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة:٢١٣]، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[البقرة:٢١٣].

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٥]، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾[الأعراف:٤٣].

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التى قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله. اهـ

وقد أوجب الله علينا سؤال الهداية فهي آية من سورة الفاتحة التي تجب قرأتها في كل ركعة من الصلاة مفروضة أم نافلة سواء كان إمامًا أم مأمومًا قال الله : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦].

قال ابن القيم في المدارج (١/ ٩-١٠): وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا وإلهامنا له وجعلنا مريدين لإتباعه ظاهرا وباطنا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة، ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة وبطلان قول من يقول إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية، فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر ونحن محتاجون إلى الهداية التامة فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام، وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها وهي الهداية يوم

القيامة إلى طريق الجنة وهو الصرط الموصل إليها فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يحبوا حبوا ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القذة بالقذة جزاء وفاقا ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[النمل:٩٠]، ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦]، فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر. اهـ

وقال في الصواعق (٣٧٩): إن الله سبحانه ضمن الهدى والفلاح لمن اتبع القرآن، والضلال والشقي لمن أعرض عنه، فكيف بمن عارضه بمعقول، أو رأي أو حقيقة باطلة، أو سياسة ظالمة، أو قياس إبليسي، أو خيال فلسفي، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾[طه:١٢٣-١٢٦].

فضمن سبحانه لمن اتبع هداه وهو كلامه الهدى في الدنيا والآخرة والسعادة في الدنيا والآخرة فهاهنا أمران: طريقة وغاية، فالطريقة الهدى، والغاية السعادة والفلاح، فمن لم يسلك هذه الطريقة لم يصل إلى هذه الغاية، والله سبحانه قد أخبر أن كتابه الذي أنزله هو الهدى والطريق فلو كان العقل الصريح يخالفه لما كان طريقًا إلى الفلاح والرشد.

وقد أخبر سبحانه أن الذين اتبعوا النور الذي أنزل مع رسوله هم المفلحون لا غيرهم، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة:١-٥].

وكما جعل سبحانه الهدى والفلاح لمن اتبع كتابه وآمن به وقدمه على غيره، وجعل الضلال والشقاء لمن أعرض عنه واتبع غيره وعارضه برأيه ومعقوله وقياسه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[القمر:٤٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:١٢٤]، فوصفه بالعمى الذي هو ضد الهدى، وبالمعيشة الضنك التي هي ضد السعادة، فكتاب الله أوله هداية، وآخره سعادة، وكلام المعارضين له بمعقولهم أوله ضلال وآخره شقاوة. اهـ

[الإسلام]

لِلإِسْلامِ.

الشرح:

الإسلام: بمعناه الخاص هو دين الله الذي أرسل به محمدًا ، وبمعناه العام هو الدين الذي أرسل الله به جميع الرسل، قال الله عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩].

وجميع الأنبياء اتفقوا في الدعوة إلى التوحيد: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]. كما أنهم متفقون في الأركان الخمسة للإسلام المذكورة في حديث عبدالله بن عمر عند البخاري (٨)، ومسلم (١٦): «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»، وأركان الإيمان الستة، وهي المذكورة في حديث عمر عند مسلم (٨) لما سئل عن الإيمان فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، فيدخل في ذلك الإيمان بجميع المغيبات وغير ذلك. وللشوكاني رسالة ضمن الفتح الرباني بعنوان إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات .

واختلفوا في الشرائع قال الله : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة: ٤٨] أي: طريقًا وسنة، وقد بينتُ هذا بتوسع في كتابي الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب مع الأديان .

والإسلام في الاصطلاح: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك والبدع وأهلها.

والهداية للإسلام أعظم نعمة حيث والإسلام أعظم النعم قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، فبالإسلام صلاح الحال والمآل، وصلاح الدنيا والدين وهو فضل الله قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:٥٨]، ولما كانت الهداية للإسلام أعظم هداية حيث تؤدي إلى مرضاة رب العالمين وإلى جنة النعيم أخبر الله أن المؤمنين حين يدخلون الجنة يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣].

[منة لله على عباده بالإسلام]

٣- وَمَنَّ عَلَيْنَا بِهِ.

الشرح:

أي: أحسن علينا به.

والهداية للإسلام والسنة هي منة الله على عباده ومحض تفضله قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[النور:٢١].

ونعم الله علينا ومننه كثيرة، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل:١٨].

وقال الله مخبرًا عن يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[يوسف:٣٨].

ومنن الله على عباده عظيمة، قال الله : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[النحل:٨١].

في نعم كثيرة قال شيخ الإسلام في الرد على الشاذلي (٨٤-٨٥): والله تعالى وإن كان يحب المتقين والمحسنين والصابرين والتوابين، ويفرح بتوبة التائبين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهو الذي جعلهم كذلك، هو الذي جعل المسلم مسلمًا والمصلي مصلِّيًا، كما قال الخليل: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾[البقرة:١٢٨]، وقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[إبراهيم:٤٠].

وإذا كان كذلك فليس يمكن أن يكون للعبد على ربه نعمة حتى يُقال إنه أحسن إليه بل إحسانُ العبد إلى نفسه وإرضاؤه لربه وثوابُ ربه له هو من نعمة ربه عليه وإحسانه إليه كلُّ نعمةٍ منه فَضْل وكلُّ نقمةٍ منه عَدْل.

وأَمْر الله عبادَه ليس لحاجته إليهم كأمر المخلوق للمخلوق مثل ما يأمر السيدُ عبدَه والأميرُ جندَه ولا نَهْيه بخلًا عليهم بل أَمْرُه لهم بالطاعة وتوفيقُهم لها وإثابَتُهم عليها كلُّ ذلك من إحسانه أَمَرَهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأحلَّ لهم الطيبات وحرَّمَ عليهم الخبائث فالعبد إذا عصاه ظَلَم نفسَه وضرَّ نفسَه لم يضرَّ الله شيئًا. اهـ

والرسول كان يقول: «**الحَمْدُ لله الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا فَأَفْضَلَ، وَأَعْطَانَا فَأَجْزَلَ**» أخرجه أحمد (٨/ ١٨٥) من حديث ابن عمر .

وفي حديث عبدالله بن زيد عند البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)؛ أن الرسول قال للأنصار: «**أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا؛ فَهَدَاكُمُ الله بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ؛ فَأَلَّفَكُمُ الله بِي، وَعَالَةً؛ فَأَغْنَاكُمُ الله بِي**» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «**مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ الله**» قَالَ: كُلَّمَا قَالَ: شَيْئًا، قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «**لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ! وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا**

وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً؛ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ».

قال الحافظ في الفتح : قَوْله: (كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: الله وَرَسُوله أَمَنُّ) بِفَتْحِ الهَمْزَة وَالمِيم وَالتَّشْدِيد: أَفْعَل تَفْضِيل مِنَ المَنّ، وَفِي حَدِيث أَبِي سَعِيد: فَقَالُوا: مَاذَا نُجِيبك يَا رَسُول الله وَللهِ وَلِرَسُولِهِ المَنّ وَالفَضْل. اهـ

وكان جواب الرسول لهم: «**لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا**»، قال الحافظ ابن حجر : وإنما قال ذلك تواضعًا منه وإنصافًا؛ وإلا ففي الحقيقة الحجة البالغة والمنة الظاهرة في جميع ذلك له عليهم. اهـ

ومن أسماء الله المنان وهو المنعم المعطي من المنِّ العطاء لا من المِنَّة وكثيرًا ما يرد المن في كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه، ولا يطلب الجزاء عليه، ومنه الحديث: «**مَا أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيْنَا مِنِ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ**» أي: ما أحد أجود بماله وذات يده، وقد يقع المنان على الذي لا يعطي شيئًا إلا منَّه، واعتد به على من أعطاه وهو مذموم؛ لأن المنة تفسد الصنيعة. اهـ من النهاية .

[أمة محمد ﷺ خير الأمم]

4- وَأَخْرَجَنَا فِي خَيْرِ أُمَّةٍ.

الشرح:

خيريَّة الأمة يدل عليها قول الله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠]، وقول النبي : «إِنَّكُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

قال ابن كثير : إن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلَتِ الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠]، وفي المسند والسنن عن بَهْزِ بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله : «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ» أخرجه أحمد (٥/ ٣) عن معاوية بن حيدة .

وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم الذي شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله، جعله مهيمنا عليه، وناسخا له، وخاتمًا له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجما بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه، فكل مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة، وأعظم الأمم المتقدمة هم اليهود والنصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى، والنصارى من ثمّ إلى أن بعث محمد ، ثم استعمل أمته إلى قيام الساعة، وهو المشبه بآخر النهار، وأعطى الله المتقدمين قيراطا قيراطا، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفي ما أعطى أولئك، فقالوا: أي ربنا، ما لنا أكثر عملا وأقل أجرا؟

فقال: هل ظلمتكم شيئًا؟ قالوا: لا قال: فذلك فضلي أي: الزائد على ما أعطيتكم أؤتيه من أشاء كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[الحديد:٢٨-٢٩].

وقال في توجيه قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[البقرة:٤٧].

يذكرهم تعالى سَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الدخان:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[المائدة:٢٠].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالمًا. وقيل: المراد تفضيلهم بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقًا، حكاه فخر الدين الرازي وفيه نظر. وقيل: إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم، حكاه القرطبي في تفسيره، وفيه نظر؛ لأن ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عام يشتمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو

أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان (٥/٣٠٦): قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾[الحج:٧٨]، أي: اصطفاكم، واختاركم يا أمة محمد. ومعنى هذه الآية أوضحه بقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾[الحج:٧٨]، الحرج: الضيق كما أوضحناه في أول سورة الأعراف. وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيدنا محمد ، أنها مبنية على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج. وقد رفع الله فيها الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا. اهـ

وفي حديث أبي هريرة ، في مسلم: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» أخرجه مسلم (٢٤٠).

قال النووي : وأما الحديث ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد ، وقوله: «**لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ**» أي: ممن هو موجود في زمني، وبعدي إلى يوم القيامة، تنبيهًا على من سواهما؛ لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى. اهـ

وأما الأدلة من السنة على فضيلة هذه الأمة فأكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، لكن هذه إشارات تغني عن كثرة العبارات، وبالله أستعين على أمور الدنيا والدين: فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «**يَقُولُ الله تَعَالَى: يَا آدَمُ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ؛ فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ**

قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج:٢]» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا» ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ»؛ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ»؛ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ»؛ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ؛ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ» متفق عليه، البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

وعَنْ عَبْدِالله قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ». متفق عليه، البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله يَقُولُ: «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا الله، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، اليَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ : عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ فَقَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ فَعَمِلَتِ

اليَهُودُ ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ فَأَنْتُمْ هُمْ فَغَضِبَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً قَالَ هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ قَالُوا لَا قَالَ فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ» أخرجه البخاري (٥٥٧).

وعَنْ أَبِي مُوسَى ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «مَثَلُ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ فَعَمِلُوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ فَقَالَ لَهُمْ لَا تَفْعَلُوا أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا فَأَبَوْا وَتَرَكُوا وَاسْتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ فَقَالَ لَهُمَا أَكْمِلَا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الأَجْرِ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينُ صَلَاةِ العَصْرِ قَالَا لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ وَلَكَ الأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ فَقَالَ لَهُمَا أَكْمِلَا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ فَأَبَيَا وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ» أخرجه البخاري (٥٥٨).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله : «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هَذَا أُمَّتِي هَذِهِ قِيلَ بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ قِيلَ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ قِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ» ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ القَوْمُ وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِالله وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا

فِي الإِسْلَامِ؛ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ فَخَرَجَ فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**» أخرجه البخاري (٣٤١٠)، ومسلم (٢٢٠). وقد جاء هذا الحديث عن عدة من الصحابة .

ومن فضائلها أنها تشهد على الناس يوم القيامة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «**يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ، فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ، فَيَقُولُونَ: لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ، فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:١٤٣] وَالوَسَطُ العَدْلُ**» أخرجه البخاري (٤٤٨٧).

وقد تكلمت على فضائل هذه الأمة وفضائل النبي في كتابي الذي رددت به على أصحاب حوار الأديان.

معاني الأمة:

وقوله: (أمة) الأمة وردت في القرآن على أربعة معانٍ:

الأولى: الجماعة والطائفة من الناس كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠]

الثاني: الإمام في الخير: كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النحل: ١٢٠] أي: إمامًا.

الثالث: الفترة من الزمن: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾[يوسف:٤٥] أي بعد فترة.

الرابع: الملة: كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٢].

[سؤال الله عز وجل التوفيق]

٥- فَنَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ لِـمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَالحِفْظَ مِمَّا يَكْرَهُ وَيَسْخَطُ.

الشرح:

دعاء الله واللجوء إليه مطلوب شرعًا وعقلًا فلا غنى للعبد عن توفيق الله وتسديده، ولهذا أمرنا الله أن نطلبه العون ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥].

وكان رسول الله يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**» أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢) من حديث النواس وجاء عن عائشة وأم سلمة ، وله طرق.

وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص في مسلم (٢٦٥٤): «**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**».

قال شيخ الإسلام في الرد على الشاذلي (١١): الصواب الذي اتفق عليه سلف الأمة أن الدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب ودفع المرهوب وقد جرب الناس أن من لم يكن سائلًا لله سألَ خلقَه فإن النفسَ مضطرة إلى من يُحَصِّل لها ما ينفعها ويدفع عنها ما يضرها فإن لم تطلب ذلك من الله طلبته من غيره ولهذا يُوجد من يحض على ترك دعاء الله ويمدح من يفعله سائلًا للخلق فيرغبون عن دعاء الخالق ويدعون المخلوقين وهذه حال المشركين. اهـ

والله يحب الطاعات ويكره المعاصي والسيئات قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر:٧].

ومما يدل على أن الله يحب قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة: ٥٤]. وصفة المحبة من الصفات الفعلية التي تتعلق بمشيئة الله ومما يدل على أنه يرضى قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[المائدة:١١٩].

ومما يدل على أنه يكره قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾[التوبة: ٤٦].

ومما يدل على أنه يسخط قوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[المائدة:٨٠].

وهذه من صفات الأفعال التي يتصف الله بها على ما يليق بجلاله.

وهذه الصفات ينكرها الأشاعرة الذين ينكرون قيام الأفعال الاختيارية لله وهم في هذا مخالفون لكتاب الله وسنة رسوله على ما يأتي بيانه إن شاء الله .

ومن أعظم أسباب حفظ الله للعبد حفظ العبد لأمر الله ، ونهيه، ففي حديث ابن عباس عند الترمذي (٢٥١٦): «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ».

ويكون حفظ الله بالتمسك بدينه وشرعه ومراقبته، وقد تكلمت عن هذه الخلة بتوسع في كتابي الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية .

فلا موفق ولا مسدد؛ إلا من وفقه الله وسدده وأعانه وأرشده.

ولا غنى للعبد عن سؤال الله ، ومن قال: إن العبد قد يستغني عن سؤال الله ودعائه فهو بمنزلة من قال: إنه يستغني عن عبادة الله وطاعته، بل سؤال الخلف لربهم أكثر من عبادتهم فإنه يسأله المؤمن والكافر ولا يعبده إلا المؤمن، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩]. أفاده شيخ الإسلام في رده على الشاذلي ص (٥٥).

[السنة والإسلام]

٦- اعْلَمُوا أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ السُّنَّةُ، وَالسُّنَّةَ هِيَ الْإِسْلَامُ، وَلَا يَقُومُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِالْآخَرِ.

الشرح:

السنة: هي الطريقة سواء كانت في الخير أو الشر، قال الشاعر: ولكل قوم سنة وإمامها، والمراد بها هنا طريقة رسول الله وهديه وما كان عليه الرعيل الأول من الصحابة والتابعين في الاعتقادات والمعاملات والعبادات.

قال ابن رجب في جامع العلوم صـ(٤٩٥): والسُّنة: هي الطريقة المسلوكةُ، فيشمل ذلك التمسُّك بما كان عليه هو وخلفاؤه الرَّاشدونَ مِنَ الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السُّنةُ الكاملةُ، ولهذا كان السلف قديمًا لا يُطلقون اسم السُّنَّةِ إلا على ما يشمل ذلك كلَّه، ورُوي معنى ذلك عن الحسن والأوزاعي والفُضيل بن عياض، وكثيرٌ من العُلماء المتأخرين يخصُّ اسم السُّنة بما يتعلق بالاعتقادات؛ لأنَّها أصلُ الدِّين، والمخالفُ فيها على خطرٍ عظيم. اهـ

وتطلق عند الفقهاء على المندوبات، وهي عند أصحاب الحديث والعقائد أعم من ذلك فتشمل الواجب والمستحب والفرض.

وقوله: **(اعلم)** أي تعلم، واعلم كلمة يؤتى بها لبيان الاهتمام بما بعدها قال تعالى عن محمد : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[محمد:١٩].

قال ابن حزم في الأحكام (١٢٩): السنن تنقسم ثلاثة أقسام: قول من النبي ، أو فعل منه عليه السلام، أو شيء رآه وعلمه فأقر عليه ولم ينكره.

فحكم أوامره عليه السلام الفرض والوجوب ما لم يقم دليل على خروجه من باب الوجوب إلى باب الندب، أو سائر وجوه الأوامر، وحكم فعله عليه السلام الإئتساء به فيه وليس واجبًا إلا أن يكون تنفيذًا لحكم، أو بيانًا لأمر...

وأما إقراره عليه السلام على ما علم وترك إنكاره إياه فإنما هو مبيح لذلك الشيء فقط وغير موجب له ولا نادب إليه؛ لأن الله افترض عليه التبليغ، وأخبره أنه يعصمه من الناس، وأوجب عليه أن يبين للناس ما نزل إليهم، فمن ادعى أنه عليه السلام علم منكرًا فلم ينكره فقد كفر؛ لأنه جحد أن يكون عليه السلام بلغ كما أمر ووصفه بغير ما وصفه به ربه تعالى، وكذبه في قوله عليه السلام: «**اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتَ؟**» فقال الناس: نعم، فقال: «**اللهُمَّ اشْهَدْ**» قال ذلك في حجة الوداع. أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر . اهـ

وأما كون الإسلام هو السنة؛ فلأن الإسلام الحق هو ما جاء به رسول الله ودعا إليه وشرعه وكذا السنة؛ فالسنة هي الإسلام الحق الذي ارتضاه الله ، والإسلام هو طريقة رسول الله ، قال الله : ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٣].

وقوله: **(والسنة هي الإسلام)** لا فرق بينها وبين الإسلام إذا فسرت بالطريقة على ما تقدم بيانه، والعجب أن كثيرًا من الناس بسبب البعد عن العلم والتعليم وتوغل الجهل يعتبرون السنة وأهلها على دين جديد، وما علم هؤلاء أن الإسلام الحق هو السنة، وسنة النبي هي الإسلام الحق على ما تقدم بيانه، والميل عن الإسلام والسنة إما أن يكون جزئيًّا أو كليًّا، فمن كان ميله كليًّا كفر وارتد عن

الإسلام، ومن كان ميله جزئيًّا كان انحرافه بقدر ما عنده من الميل عن طريق النبي ، فقد يكون مبتدعًا وقد يكون فاسقًا، وما أكثر أصحاب الميل في هذا الزمان، فالواجب على المسلم عدم التفريق بين السنة والإسلام، ولا والله، لا يكون تعظيم الإسلام إلا بتعظيم السنة، والعكس.

قوله: (**لا يقوم أحدهما إلا بالآخر**) بيانه أن العمل لا يقبله الله إلا إذا توفر فيها شرطان شرط الإخلاص الذي هو الاستسلام لله ، وشرط المتابعة الذي هو لزوم سنة رسول الله وطريقته فمن عبدالله بالإخلاص وحده أو بالمتابعة وحدها لم يقبل عمله وأيضًا المبين للإسلام الذي أمر الله به هو رسول الله في سنته فلا يمكن لأي شخص كان أن يكون على الإسلام الحق إلا بأخذه بطريقة النبي ، فمن رام الهدى بغير الإسلام والسنة كان في ضلال بعيد.

قال ابن رجب في جامع العلوم (١٨): وإنّما لامرىءٍ ما نوى، إخبارٌ أنَّه لا يحصلُ له مِنْ عمله إلاّ ما نواه به، فإنْ نَوى خيرًا حصل له خير، وإنْ نَوى به شرًّا حصل له شرٌّ، وليس هذا تكريرًا محضًا للجُملة الأولى، فإنَّ الجُملةَ الأولى دلَّت على أنّ صلاحَ العمل وفسادَه بحسب النِّيَّة المقتضيةِ لإيجاده، والجملة الثّانية دلَّت على أنّ ثوابَ العاملِ على عمله بحسب نيِّته الصالحة، وأنَّ عقابَه عليه بحسب نيَّته الفاسدة، وقد تكون نيَّتُه مباحة، فيكون العملُ مباحًا، فلا يحصل له به ثوابٌ ولا عقابٌ، فالعملُ في نفسه صلاحُه وفسادُه وإباحَتُه بحسب النيّة الحاملةِ عليه، المقتضية لوجودِهِ، وثوابُ العامل وعقابُه وسلامتُه بحسب نيته التي بها صار العملُ صالحًا، أو فاسدًا، أو مباحًا. اهـ

وقال (١٠٧) في شرح حديث عائشة عند البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»: وهذا الحديث أصلٌ عظيم من أُصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أنّ حديث: (الأعمال بالنيَّات) ميزان للأعمال في باطِنها، فكما أنَّ كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلُّ عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله، فهو مردودٌ على عامله، وكلُّ مَنْ أحدثَ في الدِّين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس مِنَ الدين في شيء. اهـ

فعلم من هذا أن من قصد التفريق بين السنة والإسلام فقد فرق بين المتماثلات، ولا شك أن سيجمع بين المتناقصات وهذا غاية الضلال والخذلان.

وأخرج اللالكائي في أصوله (٢٠) عن سعيد بن جبير قال: لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يقبل عمل إلا بقول، ولا يقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بنية موافقة للسنة.

[وجوب لزوم طريقة الجماعة]

٧- فَمِنَ السُّنَّةِ لُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَمَنْ رَغِبَ غَيْرَ الْجَمَاعَةِ وَفَارَقَهَا فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، وَكَانَ ضَالًّا مُضِلًّا.

الشرح:

العقائد والشرائع كثيرة وبما أن الإسلام هو السنة والسنة هي الإسلام فمن السنة: لزوم الجماعة، ومن للتبعيض ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم فرض وحتم، قال رسول الله لحذيفة لما قال له: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَ: صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِالسِنَتِنَا**» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**» قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**» متفق عليه، البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

وفي شرح أصول السنة للالكائي (٤٨) قال الأوزاعي: كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد والتابعون باحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المساجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله.

معنى الجماعة:

قال الشاطبي في الاعتصام (٢/ ٢٥٠-٢٥٥): اختلف الناس في معنى الجماعة المرادة في هذه الأحاديث على خمسة أقوال:

أحدها: إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام، وهو الذي يدل عليه كلام أبي غالب: إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية، سواء خالفهم في شيء من الشريعة، أو في إمامهم وسلطانهم فهو مخالف للحق.

وممن قال بهذا أبومسعود الأنصاري وابن مسعود، فروى أنه لما قتل عثمان سئل أبومسعود الأنصاري عن الفتنة فقال: عليك بالجماعة، فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة، واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر.

وقال: إياك والفرقة، فإن الفرقة هي الضلالة.

وقال ابن مسعود: بالسمع والطاعة فإنها حبل الله الذي أمر به، ثم قبض يده، وقال: إن الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفرقة.

وعن الحسين قيل له: أبوبكر خليفة رسول الله ؟ فقال: أي والذي لا إله إلا هو، ما كان الله ليجمع أمة محمد على ضلالة.

فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم؛ لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا، وهم نهبة الشيطان، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع؛ لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة لم يدخلوا في سوادهم بحال.

والثاني: إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميته جاهلية؛ لأن جماعة الله العلماء جعلهم الله حجة على العالمين، وهم المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ لَنْ يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ» عن عبدالله بن عباس أخرجه الحاكم (١/ ١١٦). وذلك أن العامة عنها تأخذ دينها، وإليها

تفزع من النوازل، وهي تبع لها، فمعنى قوله: (لن تجتمع أمتي) لن يجتمع علماء أمتي على ضلالة.

وممن قال بهذا عبدالله بن المبارك وإسحاق بن راهوية وجماعة من السلف، وهو رأي الأصوليين، فقيل لعبدالله بن المبارك: من الجماعة الذين ينبغي أن يقتدي بهم؟ قال: أبوبكر وعمر فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت والحسين بن واقد فقيل: هؤلاء ماتوا: فمن الأحياء؟ قال: أبوحمزة السكري.

وعن المسيب بن رافع قال: كانوا إذ جاءهم شيء من القضاء ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله سموه صوافي الأمراء، فجمعوا له أهل العلم، فما أجمع رأيهم عليه فهو الحق، وعن إسحاق بن راهوية نحو مما قال ابن المبارك.

والثالث: إن الجماعة هي الصحابة على الخصوص فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلًا، وقد يمكن فيمن سواهم ذلك، ألا ترى قوله عليه الصلاة والسلام: «**وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ اللهُ**» أخرجه مسلم (١٤٨) عن أنس ، وقوله: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ**» أخرجه مسلم (٢٩٤٩) عن ابن مسعود ، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن من الأزمان أزمانًا يجتمعون فيها على ضلالة وكفر، قالوا: وممن قال بهذا القول عمر بن عبدالعزيز، فروى ابن وهب عن مالك قال: كان عمر بن عبدالعزيز يقول: سن رسول الله وولاه الأمر من بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فيها! من اهتدى بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا، فقال مالك: فأعجبني عزم عمر على ذلك.

فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى في قوله عليه الصلاة والسلام: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

والرابع: إن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم، وهم الذين ضمن لنبيه عليه الصلاة والسلام أن لا يجمعهم على ضلالة فإن وقع بينهم اختلاف فواجب تعرف الصواب فيما اختلفوا فيه.

قال الشافعي: الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا سنة ولا قياس، وإنما تكون الغفلة في الفرقة.

وكأن هذا القول يرجع إلى الثاني وهو يقتضي أيضًا ما يقتضيه، أو يرجع إلى القول الأول وهو الأظهر وفيه من المعنى ما في الأول من أنه لا بد من كون المجتهدين فيهم، وعند ذلك لا يكون مع اجتماعهم على هذا القول بدعة أصلًا فهم إذا الفرقة الناجية.

والخامس: ما اختاره الطبري الإمام من أن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير فأمر عليه الصلاة والسلام بلزومه ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم؛ لأن فراقهم لا يعدو إحدى حالتين، إما للنكير عليهم في طاعة أميرهم والطعن عليه في سيرته المرضية لغير موجب بل بالتأويل في إحداث بدعة في الدين كالحرورية التي أمرت الأمة بقتالها، وسماها النبي مارقة من الدين، وإما لطلب إمارة من انعقاد البيعة لأمير الجماعة فإنه نكث عهد ونقض عهد بعد وجوبه، وقد قال : «مَنْ جَاءَ إِلَى أُمَّتِي لِيُفَرِّقَ جَمَاعَتَهُمْ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ» عن عرفجة أخرجه مسلم (١٨٥٢). قال الطبري: فهذا معنى الأمر بلزوم الجماعة.

قال: وأما الجماعة التي إذا اجتمعت على الرضى بتقديم أمير كان المفارق لها ميتا ميتة جاهلية فهي الجماعة التي وصفها أبومسعود الأنصاري، وهم معظم الناس وكافتهم من أهل العلم والدين وغيرهم وهم السواد الأعظم.

قال: وقد بين ذلك عمر بن الخطاب فروي عن عمر بن ميمون الأودي قال: قال عمر حين طعن لصهيب: صل بالناس ثلاثًا، وليدخل علي عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن، وليدخل ابن عمر في جانب البيت وليس له من الأمر شيء، فقم يا صهيب على رءوسهم بالسيف، فإن بايع خمسة ونكص واحد فاجلد رأسه بالسيف، وإن بايع أربعة ونكص رجلان فاجلد رأسيهما حتى يستوثقوا على رجل.

قال: فالجماعة التي أمر رسول الله بلزومها، وسمى المنفرد عنها مفارقا لها نظير الجماعة الي أوجب عمر الخلافة لمن اجتمعت عليه، وأمر صهيبًا بضرب رأس المنفرد عنهم بالسيف فهم في معنى كثرة العدد المجتمع على بيعته وقلة العدد المنفرد عنهم.

قال: وأما الخبر الذي ذكر فيه أن لا تجتمع الأمة على ضلالة، فمعناه أن لا يجمعهم على إضلال الحق فيما نابهم من أمر دينهم حتى يضل جميعهم عن العلم ويخطئوه، وذلك لا يكون في الأمة.

هذا تمام كلامه وهو منقول بالمعنى وتحر في أكثر اللفظ.

وحاصله: أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة، وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة المذكور في

الأحاديث المذكورة كالخوارج ومن جرى مجراهم. فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع وأنهم المرادون بالأحاديث. اهـ

وقد جاء من حديث الحارث الأشعري عند الترمذي (٢٨٦٣): «**وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالجِهَادُ، وَالهِجْرَةُ، وَالجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ**» وفي هذا وعيد شديد لمن فارق جماعة المسلمين.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢٦٦): وما أحسن ما قال أبومحمد عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب الحوادث والبدع : حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي وأصحابه، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. اهـ

قوله: **(فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه)** قال ابن الأثير في مادة (ربق): مُفارقةُ الجماعةِ: تُرْكُ السُّنة وإتِّباع البِدْعة، والرِّبْقة في الأصل: عُرْوة في حَبْل تُجعل في عُنُق البهيمة أو يَدِها تُمسِكها فاستعارها للإسلام يعني: ما يَشدُّ به المُسلم نفسَه من عُرَى الإسلام، أي: حُدُوده وأحكامه وأوامره ونواهيه، وتُجمعُ الرِبقة على رِبَق مِثل كِسرة وكِسر، ويقال: للحَبْل الذي تكونُ فيه الرِّبْقة: رِبْق وتُجْمع على أرْباق ورِباق. اهـ

ثم إن مفارقة الجماعة تبيح دم المفارق ففي حديث عبدالله بن مسعود عند البخاري (٦٨٨٧) ومسلم (١٦٧٦): «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**». وجاء هذا الحديث خارج الصحيح عن عائشة، وعثمان بن عفان .

قوله: (**وكان ضالًا مضلًا**) الضلال ضد الهدى والضال هو المنحرف في نفسه والمضل هو المؤثر في غيره قال القرطبي في تفسيره : والضلال في لغة العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ومنه ضل اللبن في الماء أي غاب، ومنه ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[السجدة:١٠] أي: غبنا بالموت وصرنا ترابًا قال:

أَلَمْ تَــسْأَلْ فَتُخْــبِرْكَ الــدِّيَارُ   عَنِ الحَيِّ الْمُضَلَّلِ أَيْنَ سَارُوا. اهـ

ومن أعظم أسباب الوقيعة في الضلال الجهل وحب الدنيا والبغي والحسد وحب الظهور.

قال الآجري في الشريعة : إن الله بمنه وفضله أخبرنا في كتابه عمن تقدم من أهل الكتابين اليهود والنصارى أنهم إنما هلكوا لما افترقوا في دينهم، وأعلمنا مولانا الكريم أن الذي حملهم على الفرقة عن الجماعة والميل إلى الباطل الذي نهوا عنه إنما هو البغي والحسد بعد أن علموا ما لم يعلم غيرهم، فحملهم شدة البغي والحسد إلى أن صاروا فرقا فهلكوا فحذرنا مولانا الكريم أن نكون مثلهم فنهلك كما هلكوا. اهـ

قال الله : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة:٢١٣].

قال شيخ الإسلام في السياسة الشرعية (٢٠٠): وأكثر سبب الأهواء الواقعة بين الناس في البوادي والحواضر إنما هو البغي وترك العدل. اهـ

[أساس الجماعة هم أصحاب محمد ﷺ]

٨- وَالْأَسَاسُ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ وَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ عَنْهُمْ فَقَدْ ضَلَّ وَابْتَدَعَ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَالضَّلَالَةُ وَأَهْلُهَا فِي النَّارِ.

الشرح:

أصحاب محمد هم أساس المنهج السلفي الذي يسير عليه أهل السنة والجماعة وخلافهم ضلال وفساد قال الله : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

والمؤمنون هنا هم أصحاب محمد أزكى الناس عقولًا وأطهرهم قلوبًا، وأصفاهم معتقدًا فمن سلك غير سبيلهم جاهلًا زل، ومن تركه متعمدًا ضل، قال الله : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠].

وفي حديث أبي موسى عند مسلم (٢٥٣١) قال: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ الله ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ العِشَاءَ قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «**مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِب، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ العِشَاءَ، قَالَ: «**أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ**» قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا

يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «**النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ**».

وفي حديث ابن مسعود عند أحمد (٣٦٠٠): «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ**».

ثم تعجب من قوم جاؤا بعدهم قليل فقه قلوبهم كثيرة زيغ عقولهم فيقولون رادين سبيل المؤمنين الخلص: هم رجال ونحن رجال -ولهم عقول ولنا عقول-، وهذا القول من أسوء الأقوال التي يريد أن يتوصل بها صاحبها إلى رد فهمهم والطعن في فقههم، وتمرير ما شاء من الأقوال البائرة والآراء المنحرفة إلى الإسلام وأهله، فإذا ما حوجج بفهم السلف قال: هم رجال ونحن رجال. وقد تكلمت على هذه النقطة في كتابي المبحث البديع في أسباب ونتائج وحلول التمييع. وسيأتي مزيد بيان لفضلهم في موطنه إن شاء الله.

سبب البدعة:

قوله: (**فمن لم يأخذ عنهم فقد ضل وابتدع**) أي من لم يأخذ بطريهم، ولأن الدين إنما جاء من قبلهم فهم حفاظه وحملته ورواته، وأولى الناس بتطبيقه والعمل به والدعوة إليه، وفي سنن أبي داود (٤٦١٢) وغيره قَالَ: كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ يَسْأَلُهُ عَنِ القَدَرِ فَكَتَبَ، أَمَّا بَعْدُ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ وَالِاقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ،

وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَتَرْكِ مَا أَحْدَثَ الْمُحْدِثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ وَكُفُوا مُؤْنَتَهُ، فَعَلَيْكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ، فَإِنَّهَا لَكَ بِإِذْنِ اللهِ عِصْمَةٌ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْتَدِعِ النَّاسُ بِدْعَةً إِلَّا قَدْ مَضَى قَبْلَهَا مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهَا أَوْ عِبْرَةٌ فِيهَا، فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَلِمَ مَا فِي خِلَافِهَا وَلَمْ يَقُلِ ابْنُ كَثِيرٍ مَنْ قَدْ عَلِمَ مِنَ الْخَطَإِ وَالزَّلَلِ وَالْحُمْقِ وَالتَّعَمُّقِ، فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا، وَهُمْ عَلَى كَشْفِ الْأُمُورِ كَانُوا أَقْوَى وَبِفَضْلِ مَا كَانُوا فِيهِ أَوْلَى، فَإِنْ كَانَ الْهُدَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَهُمْ مَا أَحْدَثَهُ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ، وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ هُمُ السَّابِقُونَ فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِمَا يَكْفِي وَوَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي، فَمَا دُونَهُمْ مِنْ مَقْصَرٍ، وَمَا فَوْقَهُمْ مِنْ مَحْسَرٍ، وَقَدْ قَصَّرَ قَوْمٌ دُونَهُمْ فَجَفَوْا، وَطَمَحَ عَنْهُمْ أَقْوَامٌ فَغَلَوْا، وَإِنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ. اهـ

وبهذا تعلم ضلال أهل علم الكلام ومن إليهم من أهل البدع، فما من بدعة كبرت أو صغرت إلا وهي نتائج لترك سبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين؛ ولهذا قال ابن عباس لما جاء إلى الخوارج: جئتكم من عند أصحاب رسول الله ، وليس فيكم منهم أحد. أخرجه النسائي في الخصائص (١٩٥) وفيه قصة. فعلى هذا فمن علامات أهل البدعة مخالفة طريقة الصحابة رضوان الله عليهم؛ لأن الدين الحق هو الذي كانوا عليه، لا ما حصل بعدهم.

وقوله: (**وكل بدعة ضلالة**) **البدعة:** هي طريقة أحدثت في الدين على غير مثال سابق وعرفها شيخ الإسلام كما في الاستقامة (١/ ٥) هي الدين الذي لم يأمر الله به ورسوله، فمن دان دينًا لم يأمر الله ورسوله به فهو مبتدع، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[الشورى: ٢١].

وقال (١/ ٤٢): والبدعة مقرونة بالفرقة كما أن السنة مقرونة بالجماعة. اهـ قال النجمي في إرشاد الساري (٤١).

أي كل ما ابتدع في الدين فهو ضلالة، لأن المبتدع يلزمه بابتداعه أمران:

١- إمَّا أن يقول: أن الإسلام قد كمل، وليس بحاجةٍ إلى زيادة ولا إلى تكميل وحينئذٍ يعتبر قد شهد على نفسه بالضلالة؛ لأنه أدخل في الدين ما ليس منه.

٢- وإمَّا أن يقول: أنَّ الدِّين ليس بكامل، وهذا يلزم كلَّ مبتدع، فكأنَّه يقول بلسان حاله إنَّ الدِّين ناقص، فهو يحتاج إلى إكمال، وهذا فيه استدراكٌ على القرآن، واتهامٌ لمبلِّغ الشريعة صلوات الله وسلامه عليه بأنَّه قد انتقص من الشرع أو جهل شيئًا منه، وهذا المبتدع يدَّعي أنَّه علم ما لم يعلمه رسول الله ولهذا قال مالكٌ : من ابتدع في الإسلام بدعةً يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمدًا خان الرسالة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[المائدة:٣] فما لم يكن يومئذٍ دينًا فلا يكون اليوم دينا، ومن هنا يتبين أنَّ كلَّ بدعةٍ في الإسلام فهي تسمَّى ضلالة لاستلزامها هذه الأمور. اهـ

وكل من ألفاظ العموم تفيد أن كل ما أحدث في الدين بعد رسول الله على غير مثال سابق بأنه بدعة وضلالة وإن رآه الناس حسنًا، فالحسن ما شرعه الله ، وفي هذا رد على من قسم البدع إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة، ومما يدل على أن كل بدعة ضلالة حديث العرباض بن سارية عند أبي داود (٤٦٠٧) وغيره وفيه: «... **فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

قوله: **(والضلال وأهله في النار)** بيان أن أصحاب البدع مستحقين للنار بسبب ما هم فيه من المخالفة والمشاقة، نسأل الله السلامة، ومع ذلك البدع ليست

على حد سواء منها المكفرة كبدعة التجهم والرفض والباطنية، ومنها المفسقة كبدع الموالد وبدعة التحزب، فالبدعة المكفرة صاحبها مخلد في النار، والبدع المفسقة أصحابها تحت المشيئة.

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٥٠١): فقوله : «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، فكل من أحدث شيئًا، ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه، فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة، وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع، فإنما ذلك في البدع اللغوية، لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد، وخرج ورءاهم يصلون كذلك فقال: نعمت البدعة هذه. وروي عنه أنه قال: إن كانت هذه بدعة، فنعمت البدعة هي. اهـ

واعلم أن تقسيم البدع إلى حسنة وسيئة تقسيم سيء مخالف لما صح عن رسول الله قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٠/ ٣٧١): وبهذا يتبين لك أن البدعة في الدين وإن كانت في الأصل مذمومة كما دل عليه الكتاب والسنة سواء في ذلك البدع القولية والفعلية، وقد كتبت في غير هذا الموضع أن المحافظة على عموم قول النبي : «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» متعين وأنه يجب العمل بعمومه، وأن من أخذ يصنف البدع إلى حسن وقبيح ويجعل ذلك ذريعة إلى ألا يحتج بالبدعة على النهي فقد أخطأ كما يفعل طائفة من المتفقهة والمتكلمة والمتصوفة والمتعبدة؛ إذا نهوا عن العبادات المبتدعة والكلام في التدين المبتدع، ادعوا أن لا بدعة مكروهة إلا ما نهي عنه فيعود

الحديث إلى أن يقال: كل ما نهي عنه، أو كل ما حرم، أو كل ما خالف نص النبوة فهو ضلالة، وهذا أوضح من أن يحتاج إلى بيان بل كل ما لم يشرع من الدين فهو ضلالة، وما سمي بدعة، وثبت حسنه بأدلة الشرع فأحد الأمرين فيه لازم: إما أن يقال: ليس ببدعة في الدين وإن كان يسمى بدعة من حيث اللغة. كما قال عمر: نعمت البدعة هذه، وإما أن يقال: هذا عام خصت منه هذه الصورة لمعارض راجح كما يبقى فيما عداها على مقتضى العموم كسائر عمومات الكتاب والسنة، وهذا قد قررته في اقتضاء الصراط المستقيم، وفي قاعدة السنة والبدعة. اهـ

[العذر بالجهل]

٩- وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ : لَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِي ضَلَالَةٍ رَكِبَهَا حَسِبَهَا هُدًى، وَلَا فِي هُدًى تَرَكَهُ حَسِبَهُ ضَلَالَةً، فَقَدْ بُيِّنَتِ الْأُمُورُ، وَثَبَتَتِ الحُجَّةُ، وَانْقَطَعَ الْعُذْرُ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالجَمَاعَةَ قَدْ أَحْكَمَا أَمْرَ الدِّينِ كُلِّهِ.

الشرح:

الأثر أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى رقم (١٦٢)، وأخرجه المروزي في السنة برقم (٩٥)، وأخرجه أبو يوسف في الخراج (٣٢)، وابن شيبة في تاريخ المدينة (٢/ ١٢)، والخطيب في الفقيه والمتفقه رقم (٣٩٢) وإسناده منقطع بين عمر والأوزاعي.

قوله: **(فقد بينت الأمور)** نعم، ويدل عليه قول الله : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣].

وفي حديث أبي الدرداء عند ابن ماجه (٥) «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ**».

وقد قال الله : ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾[الأنعام:١١٩]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[الحديد:٢٥].

فالدين بين واضح بحمد الله ، والحجة ثابتة قال الله : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[الإسراء:١٥].

وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء:١٦٥]، لكن لا بد عند إلقاء الحجة من فهمها ورفع الشبه التي يتلبس بها المدعو.

والدليل الشرعي الذي هو حجة على المخالف الكتاب والسنة والإجماع؛ فلا يجوز لأحد أن يعارض الكتاب والسنة بأقوال الرجال؛ لأن أقوال الرجال تابعة للكتاب والسنة فيُردُّ عند الاختلاف للكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥].

وإما الإجماع فلكون الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولقول الله : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[النساء:١١٥].

قوله: **(وانقطع العذر)** قال الشيخ النجمي في إرشاد الساري (٤٢): وهذا يستلزم أنَّ من ركب ضلالة حسبها هدىً أوترك هدىً حسبه ضلالة، فإنَّه لا عذر له عند الله، لأنَّه لا يفعل ذلك إلا من قصَّر في البحث عن الحق في الكتاب والسنَّة، فلذلك لا عذر له. اهـ

قال الشوكاني في الفتح الرباني (١/ ١٤٥): ومن وقع في الشرك جاهلًا لم يعذر؛ لأن الحجة قامت على جميع الخلق بمبعث محمد ، فمن جهل فقد أتى من قبل نفسه بسبب الإعراض عن الكتاب والسنة، وغلا ففيهما البيان الواضح كما قال سبحانه في القرآن: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾[النحل:٨٩].

وكذلك السنة قال أبوذر : توفي محمد وما ترك طائرًا يقلب جناحيه بين السماء والأرض إلا ذكر لنا منه علمًا، فمن جهل فبسبب إعراضه ولا يعذر أحد بالإعراض. اهـ

أقول: قد يقع الجهل لدى كثير من الناس بسبب بعدهم عن العهد النبوي، ولوجود علماء السوء إلى غير ذلك من الأسباب، لكن هذا في حق من فرط في معرفة الحق والبحث عنه مع الاستقامة، وارتفاع المعاذير المقبولة.

والعذر بالجهل ثابت بالكتاب والسنة وهو المؤيد بالأصول السلفية قال الله : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، وفي الحديث: «هَلَّا عَلَّمْتَ إِذَا كَانَ جَاهِلًا»، وقال الله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:٦].

وفي حديث الأسود بن سريع وأبي هريرة عند أحمد (٤/ ٢٤) أن نبي الله قال: «أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرَمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا». الحديث مخرج في الصحيح المسند للوادعي .

وقد أنكر صحة الحديث القرطبي في تفسيره عند قول الله : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥].

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٢/ ٤٩٣): فإن الكتاب والسنة قد دلا على أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسًا، ومن بلغته جملة دون بعض التفضيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية. اهـ

وقد أخرج البخاري (٣٤٨١) ومسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ**».

فهذا رجل شك في قدرة الله وفي إعادته إذا ذري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، ولكن كان جاهلًا لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه فغفر له بذلك. أفاده شيخ الإسلام كما في المجموع (٣/ ٢٣١).

إحكام أمر الدين:

قوله: (**وذلك أن السنة والجماعة قد أحكما أمر الدين كله**) قد تقدم معنى السنة وأنها طريقة رسول الله في الاعتقادات والمعاملات والعبادات والجماعة هم الصحابة الذين اجتمعوا على الكتاب والسنة، ومما يبين ويدل على إحكام الله للدين قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١].

والمحكم هو الواضح الجلي، والله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣]، ويقول: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨].

والرسول يقول: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**» أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه رقم (٤٣) عن العرباض بن سارية . وجاء عنده عن أبي الدرداء رقم (٥). ويقول : «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ**» أخرجه مسلم رقم (١٨٤٤). وقيل لسلمان : علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة؟ قال: نعم نُهينا أن نستقبل القبلة بغائط أوبول. الحديث. أخرجه مسلم (٢٦٢)، وقال أبو ذر : ما ترك رسول الله شيئًا حتى الطائر يقلب جناحيه في السماء إلا أتانا علم منه. أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣).

وقد تكلمت بشيء من ذلك في كتابي فتح الحميد المجيد في الراجح في خطبة العيد .

قال شيخ الإسلام في الفتوى الحموية (١٧٥): فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردُّوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بُعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة، وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته، محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبها، ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع

عليه، فإنّ معرفة هذا أصل الدين، وأساس الهداية، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصّلته النفوس، وأدركته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب، وذلك الرسول، وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يُحكموا هذا الباب اعتقادًا وقولًا! ومن المحال أيضًا أن يكون النبي قد علّم أمته كل شيء.

وقال عمر بن الخطاب : قام فينا رسول الله مقاما فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه. رواه البخاري (٣١٩٢).

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين -وإن دقّت- أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم ربِّ العالمين، الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية، فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام. اهـ

والسلف رضوان الله عليهم فهموا عن رسول الله ثم بلغوا البلاغ المبين وطريقتهم أسلم وأعلم وأحكم؛ لأنهم انقادوا للكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦]، وقال الله في وصفهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠].

وقد تكلمنا عن شيء من مناقبهم وما هم عليه في غير ما كتاب، من باب أن يعرف فضلهم وخيرهم وبرهم، والحمد لله رب العالمين، وسيأتي مزيد من ذلك إن شاء الله .

[بيان النبي ﷺ الدين للناس وطرق ذلك]

١٠- وتبيِّن لِلنَّاسِ.

الشرح:

قال الله : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[النحل:٦٤].

قال ابن كثير : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ يعني: القرآن، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من ربهم، أي: لعلمك، بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل. اهـ

فرسول بين ثم أصحابه كذلك قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[المائدة:٦٧] وهم كذلك.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٥/ ١٥٥-١٥٩): ومما جاء به الرسول أمر الله له بالبلاغ المبين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[العنكبوت: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[المائدة:٦٧].

ومعلوم أنه قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئًا؛ فإن كتمان ما أنزله الله إليه يناقض موجب الرسالة؛ كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة.

ومن المعلوم من دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشيء من الرسالة، كما أنه معصوم من الكذب فيها. والأمة تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما أمره الله، وبين ما أنزل إليه من ربه، وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين، وإنما كمل بما بلغه؛ إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه، فعلم أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده كما قال : «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**». وقال : «**مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الجَنَّةِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ يُبْعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ بِهِ**». وقال أبو ذر: لقد توفي رسول الله وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا.

إذا تبين هذا، فقد وجب على كل مسلم تصديقه فيما أخبر به عن الله تعالى من أسماء الله وصفاته، مما جاء في القرآن وفي السنة الثابتة عنه، كما كان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

فإن هؤلاء هم الذين تلقوا عنه القرآن والسنة، وكانوا يتلقون عنه ما في ذلك من العلم والعمل، كما قال أبوعبدالرحمن السلمي: لقد حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.

وقد قام عبدالله بن عمر وهو من أصاغر الصحابة في تعلم البقرة ثماني سنين، وإنما ذلك لأجل الفهم والمعرفة. وهذا معلوم من وجوه:

أحدها: أن العادة المطردة التي جبل الله عليها بني آدم، توجب اعتناءهم بالقرآن المنزل عليهم لفظًا ومعنى، بل أن يكون اعتناؤهم بالمعنى أوكد، فإنه قد علم أنه من قرأ كتابًا في الطب أو الحساب، أو النحو أو الفقه أو غير ذلك، فإنه لابد أن يكون راغبًا في فهمه، وتصور معانيه، فكيف بمن قرءوا كتاب الله تعالى المنزل إليهم، الذي به هداهم الله، وبه عرفهم الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والرشاد والغي؟!

فمن المعلوم أن رغبتهم في فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات، بل إذا سمع المتعلم من العالم حديثًا فإنه يرغب في فهمه، فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلغ عنه، بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول ﷺ في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه، فإن معرفة الحروف بدون المعاني لا تحصل المقصود؛ إذ اللفظ إنما يراد للمعنى.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى قد حضهم على تدبره وتعقله واتباعه في غير موضع، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص:٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد:٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون:٦٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٢٨].

فإذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره، علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها، فكيف لا يكون ذلك ممكنًا للمؤمنين، وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم.

الوجه الثالث: أنه قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف:٣]، فبين أنه أنزله عربيًا لأن يعقلوا، والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه.

الوجه الرابع: إنه ذم من لا يفهمه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[الإسراء:٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[النساء:٨٧]، فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضًا لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى به.

الوجه الخامس: أنه ذم من لم يكن حظه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:١٧١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[محمد:١٦] وأمثال ذلك.

وهؤلاء المنافقون سمعوا صوت الرسول ﷺ ولم يفهموا وقالوا: ماذا قال آنفا؟ أي الساعة، وهذا كلام من لم يفقه قوله، فقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[محمد:١٦]

فمن جعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، غير عالمين بمعاني القرآن، جعلهم بمنزلة الكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى عليه.

الوجه السادس: أن الصحابة فسروا للتابعين القرآن، كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أقف عند كل آية منه وأسأله عنها، ولهذا قال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكان ابن مسعود يقول: لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته. وكل واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس نقل عنه من التفسير ما لا يحصيه إلا الله. والنقول بذلك عن الصحابة والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها. اهـ

وقال (٩/ ٦٣): وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباهها عليه، كما قال : «الحَلَالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ» الحديث. أخرجه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير . وقد قرئ قوله تعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[الأنعام:٥٥] بالرفع والنصب، أي: ولتتبين أنت سبيلهم.

فالإنسان يستبين الأشياء. وهم يقولون: قد بان الشيء، وبينته، وتبين الشيء وتبينته، واستبان الشيء واستبنته، كل هذا يستعمل لازمًا ومتعديًا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات:٦]، هو هنا متعد، ومنه قوله: ﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾[النساء:١٩]، أي: متبينة. فهنا هو لازم. والبيان كالكلام، يكون مصدر بان الشيء بيانا، ويكون اسم مصدر لبين، كالكلام والسلام لسلم وبين فيكون البيان بمعنى تبين الشيء، ويكون بمعنى بينت الشيء، أي: أوضحته. وهذا هو الغالب عليه. ومنه قوله : «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا» أخرجه البخاري (٥١٤٦).

والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع، حتى يتبين له الشيء ويستبين؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٨]. ومع هذا، فالذي لا يستبين له كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[فصلت:٤٤]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤].

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤]، وقال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[النور:٥٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التوبة:١١٥]، وقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾[النساء:١٧٦].

وقال: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ الآية [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[هود:١٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[النور:٣٤]، وقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[النور:٦١].

فأما الأشياء المعلومة التي ليس في زيادة وصفها إلا كثرة كلام وتفيهق وتشدق وتكبر، والإفصاح بذكر الأشياء التي يستقبح ذكرها، فهذا مما ينهي عنه. اهـ

وقد بين رسول الله الدين غاية البيان سواء بفعله أو بقوله، وهكذا تناقل هذا البيان أصحابه ومن بعدهم فحفظ الله الدين.

وأخذ الله الميثاق على أهل العلم بالبيان بعيدًا عن الكتمان، قال الله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[آل عمران:١٨٧]، وفي الحديث: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ».

[وجوب إتباع النبي ﷺ]

١١- فَعَلَى النَّاسِ الاتِّبَاعُ.

الشرح:

الإتباع من المتابعة للشيء والسير خلفه ويطلق على الممدوح منه والمذموم قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص:٢٦].

قال عبدالله بن مسعود: (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم) أخرجه الدارمي (٢٠٥)، والاتباع الممدوح هو إتباع الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة وصدرها الأول، قال ابن عبد البر: (الإتباع ما ثبتت عليه الحجة وهو إتباع كل من أوجب عليك الدليل إتباع قوله، فالرسول هو المثل الأعلى في إتباع ما أُمر به. اهـ

ولا طريق للجنة؛ إلا بالإتباع لنبي الهدى والرحمة ؛ ففي حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٢٨٠) قال: قال رسول الله : «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**».

وقبل ذلك قول الله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران:٣١].

وقال الله : ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٦-١٥٨].

فانظر كيف جعل الله بسبب الفلاح والهداية والبشارة لأصحاب الإتباع جعلنا الله منهم وبلغنا منازلهم.

وفي الفقيه والمتفقه (٤٠١): عن سفيان قال: ملاك الأمر الإتباع.

وأخرج رقم (٤٠٣): عن عبدالله بن داود الخريبي يقول: والله لو بلغنا أن القوم لم يزيدوا في الوضوء على غسل أظفارهم لما زدنا عليه. قال ابن خزيمة: يريد أن الدين الإتباع.

وأخرج رقم (٤٠٧): عن الجنيد قال: الطرق كلها مسدودة على الخلق؛ إلا من اقتفي أثر الرسول واتبع سنته، ولزم طريقته؛ فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه.

[مجيء الدين من عند الله عز وجل وبيان فساد الرأي]

١٢- وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لَمْ يُوضَعْ عَلَى عُقُولِ الرِّجَالِ وَآرَائِهِمْ، وَعِلْمُهُ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ.

الشرح:

قوله: (**رحمك الله.. الخ**) أي تجاوز عن سيئاتك الماضية، ووفقك في أعمالك الآتية.

والدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدين كالملة لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة، والمراد بالدين هنا دين الإسلام الذي جاء عن الله وعن رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

وبيان ذلك في قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[الأعراف:٣٥].

وقال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١٣] وقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[الشورى:٢١].

وقال الله آمرًا لمحمد : ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[الكهف:١١٠]، وقال الله : ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[يونس:١٥].

قال ابن كثير : أي ليس هذا إليّ، إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله. اهـ

وفي حديث مالك بن نضلة أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص(٩٩) قال: «أَتَتْنِي رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّي فَضِقْتُ بِهَا ذَرْعًا فَقِيلَ: لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيُفْعَلَنَّ بِكَ» فالعصمة هي في اتباع الكتاب والسنة؛ لأن كلاًّ من عند الله قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[النساء:٨٢].

وَدَعْ عَنْكَ آرَاءَ الرِّجَالِ وَقَوْلِهِمْ فَقَوْلُ رَسُولِ الله أَزْكَى وَأَشْرَحُ

والرسول مبلغ عن ربه قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤]، ويقول : «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» أخرجه أحمد (٤/ ١٣١) عن المقدام بن معديكرب، وأخرج اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٩) بسند صحيح عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على النبي بالسنة كما ينزل القرآن عليه، يعلمه إياه كما يعلمه القرآن.

ولو وضع الدين على آراء الرجال لكان الاختلاف عظيمًا جدًّا؛ لأن مدارك وعقول الرجال ومقاصدهم تختلف، وأهوائهم متضادة قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾[المؤمنون:٧١]؛ فالعصمة كل العصمة في الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة والصحابة رضوان الله عليهم أزكى الناس وأحرصهم على الخير.

وأعلم الناس بمراد الله ومراد رسوله ومع ذلك كانوا إذا اختلفوا عادوا إلى الكتاب والسنة لعلمهم أنا فيهما العصمة قال رسول الله : «أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ

فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ، أَحَدُهُمَا: كِتَابُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللهَ مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ» أخرجه مسلم(٢٤٠٨).

بيان أن سبب ضلال أهل البدع تقديم العقل على النقل:

وما وقع أهل الضلال فيما وقعوا فيه إلا لما جعلوا عقولهم هي الأدلة وقدموها على الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن القيم في الصواعق المرسلة (٢٤٨): قولهم: إن تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل؛ لأنه لا يمكن الجمع بينهما، ولا إبطالهما، ولا تقديم النقل؛ لأن العقل أصل النقل، فلو قدمنا عليه النقل لبطل العقل وهو أصل النقل، فلزم بطلان النقل، فيلزم من تقديم النقل بطلان العقل والنقل، فتعين القسم الرابع وهو تقديم العقل.

فهذا الطاغوت أخو ذلك القانون، فهو مبني على ثلاث مقدمات:

الأولى: ثبوت التعارض بين العقل والنقل.

الثانية: انحصار التقسيم في الأقسام الأربعة التي ذكرت فيه.

الثالثة: بطلان الأقسام الثلاثة ليتعين ثبوت الرابع.

وقد أشفى شيخ الإسلام في هذا الباب بما لا مزيد عليه. اهـ

يشير إلى كتاب درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية .

وقال شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل (١/٨-١١): وجماع الأمر أن الأدلة نوعان: شرعية، وعقليه. فالمدعون لمعرفة الإلهيات بعقولهم، من المنتسبين إلى الحكمة والكلام والعقليات، يقول من يخالف نصوص الأنبياء

منهم: إن الأنبياء لم يعرفوا الحق الذي عرفناه، أو يقولون: عرفوه ولم يبينوه للخلق كما بيناه، بل تكلموا بما يخالفه من غير بيان منهم.

والمدعون للسنة والشريعة واتباع السلف من الجهال بمعاني نصوص الأنبياء يقولون: إن الأنبياء - والسلف الذين اتبعوا الأنبياء - لم يعرفوا معنى هذه النصوص التي قالوها والتي بلغوها عن الله، أو إن الأنبياء عرفوا معانيها ولم يبينوا مرادهم للناس، فهؤلاء الطوائف قد يقولون: نحن عرفنا الحق بعقولنا، ثم اجتهدنا في حمل كلام الأنبياء علي ما يوافق مدلول العقل، وفائدة إنزال هذه المتشابهات المشكلات اجتهاد الناس في أن يعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدوا في تأويل كلام الأنبياء الذي لم يبينوا به مرادهم، أو أنا عرفنا الحق بعقولنا، وهذه النصوص لم تعرف الأنبياء معناها، كما لم يعرفوا وقت الساعة، ولكن أمرنا بتلاوتها من غير تدبر لها ولا فهم لمعانيها.

أو يقولون: بل هذه الأمور لا تعرف بعقل ولا نقل، بل نحن منهيون عن معرفة العقليات، وعن فهم السمعيات، وإن الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون العقليات، ولا يفهمون السمعيات.

..ولما كان بيان مراد الرسول صلي الله عليه وسلم في هذه الأبواب لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي، وامتناع تقديم ذلك علي نصوص الأنبياء، بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر، إذ كان أي دليل أقيم علي بيان مراد الرسول لا ينفع إذا قدر أن المعارض العقلي القاطع ناقضه، بل يصير ذلك قدحًا في الرسول، وقدحًا فيمن استدل بكلامه، وصار هذا بمنزلة المريض الذي به أخلاط فاسدة تمنع انتفاعه

بالغذاء، فإن الغذاء لا ينفعه مع وجود الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع علي نفي الصفات أو بعضها، أو نفي عموم خلقه لكل شيء، أو نفي أمره ونهيه، أو امتناع المعاد، أو غير ذلك، لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة إلا مع بيان فساد ذلك المعارض.

وفساد ذلك المعارض قد يعلم جملة وتفصيلًا.

أما الجملة: فإنه من آمن بالله ورسوله إيمانًا تامًا، وعلم مراد الرسول قطعًا تيقن ثبوت ما أخبر به، وعلم أن ما عارض ذلك من الحجج فهي حجج داحضة من جنس شبه السوفسطائية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[الشورى:١٦].

وأما التفصيل: فبعلم فساد تلك الحجة المعارضة، وهذا الأصل نقيض الأصل الذي ذكره طائفة من الملحدين، كما ذكره الرازي في أول كتابه نهاية العقول حيث ذكر أن الاستدلال بالسمعيات في المسائل الأصولية لا يمكن بحال لأن الاستدلال بها موقوف علي مقدمات ظنية، وعلي دفع المعارض العقلي، وإن العلم بانتفاء المعارض لا يمكن، إذ يجوز أن يكون في نفس الأمر دليل عقلي يناقض ما دل عليه القرآن، ولم يخطر ببال المستمع.

وقد بسطنا الكلام علي ما زعمه هؤلاء من أن الاستدلال بالأدلة السمعية موقوف علي مقدمات ظنية، مثل نقل اللغة والنحو والتصريف ونفي المجاز والإضمار والتخصيص قديمًا من نحو ثلاثين سنة، وذكرنا طرفًا من بيان فساده في الكلام على المحصل وفي فذاك كلام في تقرير الأدلة السمعية، وبيان أنها قد تفيد اليقين والقطع، وفي هذا الكتاب كلام في بيان انتفاء المعارض العقلي، وإبطال قول من زعم تقديم الأدلة العقلية مطلقًا.

وقد بينا في موضع آخر أن الرسول بلغ البلاغ المبين، وبين مراده، وأن كل ما في القرآن والحديث من لفظ يقال فيه إنه يحتاج إلى التأويل الاصطلاحي الخاص الذي هو صوف اللفظ عن ظاهره، فلا بد أن يكون الرسول قد بين مراده بذلك اللفظ بخطاب آخر، لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل، ويسكت عن بيان المراد الحق، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه، لإمكان معرفة ذلك بعقولهم، وأن هذا قدح في الرسول الذي بلغ البلاغ المبين الذي هدى الله به العباد وأخرجهم به من الظلمات إلى النور، وفرق الله به بين الحق والباطل، وبين الهدي والضلال، وبين الرشاد والغي، وبين أولياء الله وأعدائه، وبين ما يستحقه الرب من الأسماء والصفات وما ينزه عنه من ذلك، حتى أوضح الله به السبيل، وأنار به الدليل، وهدى به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فمن زعم أنه تكلم بما لا يدل إلا علي الباطل لا علي الحق، ولم يبين مراده، وأنه أراد بذلك اللفظ المعنى الذي ليس بباطل، وأحال الناس في معرفة المراد علي ما يعلم من غير جهته بآبائهم، فقد قدح في الرسول، كما نبهنا على ذلك في مواضع.

كيف والرسول أعلم الخلق بالحق، وأقدر الناس علي بيان الحق، وأنصح الخلق للخلق؟ وهذا يوجب أن يكون بيانه للحق أكمل من بيان كل أحد.

فإن ما يقوله القائل ويفعله الفاعل لا بد فيه من قدرة وعلم وإرادة، فالعاجز عن القول أو الفعل يمتنع صدور ذلك عنه، والجاهل بما يقوله ويفعله لا يأتي بالقول المحكم والفعل المحكم، وصاحب الإرادة الفاسدة لا يقصد الهدي والنصح والصلاح، فإذا كان المتكلم عالمًا بالحق قاصدًا لهدى الخلق قصدًا تامًا، قادرًا علي

ذلك وجب وجود مقدوره، ومحمد صلي الله عليه وسلم أعلم الخلق بالحق، وهو أفصح الخلق لسانًا، وأصحهم بيانًا، وهو أحرص الخلق علي هدي العباد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة١٢٨]، وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[النحل:٣٧]، وقد أوجب الله عليه البلاغ المبين، وأنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم، فلا بد أن يكون بيانه وخطابه وكلامه أكمل وأتم من بيان غيره، فكيف يكون مع هذا لم يبين الحق، بل بينه من قامت الأدلة الكثيرة علي جهله ونقص علمه وعقله؟! وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

ولما كان ما يقوله كثير من الناس في باب أصول الدين والكلام والعلوم العقلية والحكمة يعلم كل من تدبره أنه مخالف لما جاء به الرسول، أو أن الرسول لم يقل مثل هذا، واعتقد من اعتقد أن ذلك من أصول الدين، وأنه يشتمل علي العلوم الكلية والمعارف الإلهية، والحكمة الحقيقية أو الفلسفة الأولية ـ صار كثير منهم يقول: إن الرسول لم يكن يعرف أصول الدين، أو لم يبين أصول الدين، ومنهم من هاب النبي، ولكن يقول: الصحابة والتابعون لم يكونوا يعرفون ذلك، ومن عظّم الصحابة والتابعين مع تعظيم أقوال هؤلاء يبقي حائرًا كيف لم يتكلم أولئك الأفاضل في هذه الأمور التي هي أفضل العلوم. ومن هو مؤمن بالرسول معظم له يستشكل كيف لم يبين أصول الدين مع أن الناس إليها أحوج منهم إلى غيرها. اهـ

فانظر إلى نتائج القول بتقديم العقل على النقل! فلا حول ولا قوة إلا بالله.

قال في نفس الكتاب (١/ ١١٠-١١٢): أن العقل لا يكون دليلًا مستقلًّا في تفاصيل الأمور الإلهية واليوم الآخر، فلا أقبل منه ما يدل عليه إن لم يصدقه

الشرع ويوافقه، فإن الشرع قول المعصوم الذي لا يخطئ ولا يكذب، وخبر الصادق الذي لا يقول إلا حقًا، وأما آراء الرجال فكثيرة التهافت والتناقض، فأنا لا أثق برأيي وعقلي في هذه المطالب العالية الإلهية، ولا بخبر هؤلاء المختلفين المتناقضين الذين كل منهم يقول بعقله ما يعلم العقلاء أنه باطل، فما من هؤلاء أحد إلا وقد علمت أنه يقول بعقله ما يعلم أنه باطل، بخلاف الرسل، فإنهم معصومون، فأنا لا أقبل قول هؤلاء إن لم يزك قولهم ذلك المعصوم: خبر الصادق المصدوق.

ومعلوم أن هذا الكلام أَوْلَى بالصواب، وأليق بأُولي الألباب، من معارضة أخبار الرسول، الذي علموا صدقه وأنه لا يقول إلا حقًّا، بما يعرض لهم من الآراء والمعقولات، التي هي في الغالب جهليات وضلالات.

فإنا في هذا المقام نتكلم معهم بطريق التنزل إليهم، كما نتنزل إلى اليهودي والنصراني في مناظرته، وإن كنا عالمين ببطلان ما يقوله، اتباعًا لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[النحل:١٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[العنكبوت:٤٦].

وإلا فعلمنا ببطلان ما يعارضون به القرآن والرسول، ويصدون به أهل الإيمان عن سواء السبيل - وإن جعلوه من المعقول بالبرهان - أعظم من أن يبسط في هذا المكان.

وقد تبين بذلك أنه لا يمكن أن يكون تصديق الرسول فيما أخبر به معلقًا بشرط، ولا موقوفًا على انتفاء مانع، بل لا بد من تصديقه في كل ما أخبر به تصديقًا جازمًا، كما في أصل الإيمان به، فلو قال الرجل: أنا أؤمن به إن أذن لي أبي أو شيخي، أو: إلا أن ينهاني أبي أو شيخي لم يكن مؤمنًا به بالاتفاق، وكذلك من قال: أؤمن

به إن ظهر لي صدقه، لم يكن بعد قد آمن به، ولو قال: أؤمن به إلا أن يظهر لي كذبه، لم يكن مؤمنًا.

وحينئذ فلا بد من الجزم بأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل قطعي: لا سمعي ولا عقلي، وأن ما يظنه الناس مخالفًا له إما أن يكون باطلًا، وإما أن يكون مخالفًا، وأما تقدير قول مخالف لقوله وتقديمه عليه: فهذا فاسد في العقل، كما هو كفر في الشرع.

ولهذا كان من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه يجب علي الخلق الإيمان بالرسول إيمانًا مطلقًا جازمًا عامًا: بتصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أوجب وأمر، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل، وأن من قال: يجب تصديق ما أدركته بعقلي، ورد ما جاء به الرسول لرأيي وعقلي، وتقديم عقلي علي ما أخبر به الرسول، مع تصديقي بأن الرسول صادق فيما أخبر به، فهو متناقض، فاسد العقل، ملحد في الشرع.

وأما من قال: لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي، فكفره ظاهر، وهو ممن قيل فيه: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[الأنعام:١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾[غافر:٨٢-٨٥].

ومن عارض ما جاءت به الرسل برأيه فله نصيب من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[غافر:٣٤]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ

ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[غافر:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾[غافر:٥٦]، والسلطان: هو الكتاب المنزل من السماء، فكل من عارض كتاب الله المنزل بغير كتاب الله الذي قد يكون ناسخًا له أو مفسرًا له، كان قد جادل في آيات الله بغير سلطان أتاه.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[غافر:٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾[الكهف:٥٦]، وأمثال ذلك مما في كتاب الله تعالى مما يذم به الذين عارضوا رسل الله وكتبه بما عندهم من الرأي والكلام.

والبدع مشتقة من الكفر، فمن عارض الكتاب والسنة بآراء الرجال كان قوله مشتقًّا من أقوال هؤلاء الضُّلَّال، كما قال مالك: أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد لجدل هذا؟ اهـ

بيان أن الدين توقيفي:

وقوله: (وعلمه عند الله وعند رسوله) أي أن أمور الدين توقيفية لو تُرك الناس على أهوائهم ورغباتهم لضلوا ضلالًا بعيدًا، ولكنها تؤخذ من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، قال الأوزاعي كما في الشريعة (٦٣): عليك بآثار السلف وإن رفضك الناس وإياك وأراء الرجال وإن زخرفوها لك بالقول. اهـ

وقال الشافعي كما في الحلية (٩/ ١٠٧): إذا وجدتم سنة رسول الله خلاف قولي فخذوا بالسنة ودعوا قولي، فإني أقول بها.

فالحجة في الكتاب والسنة لا الرأي والظن قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[يونس:٣٦].

فالحق في الشريعة المحمدية والسنن المروية، قال تعالى لنبيه : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الجاثية:١٨-١٩].

[النهي عن اتباع الهوى]

١٣- فَلَا تَتَّبِعْ شَيْئًا بِهَوَاكَ فَتَمْرُقُ مِنَ الدِّينِ فَتَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا حُجَّةَ لَكَ، فَقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ الله ﷺ لِأُمَّتِهِ السُّنَّةَ، وَأَوْضَحَهَا لِأَصْحَابِهِ وَهُمُ الْجَمَاعَةُ، وَهُمُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ، وَالسَّوَادُ الْأَعْظَمُ الحَقُّ وَأَهْلُهُ، فَمَنْ خَالَفَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فَقَدْ كَفَرَ.

الشرح:

قوله: (**فلا تتبع شيئًا بهواك**) قال الراغب في مفردات القرآن [مادة: هوى]: وقد عظم الله تعالى ذم اتباع الهوى؛ فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية:٢٣]، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾[ص:٢٦]، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[الأعراف:١٧٦]، وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾[البقرة:١٢٠]؛ فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيها على أن لكل واحد هوى غير هوى الاخر، ثم هوى كل واحد لا يتناهى، فإذا اتباع أهوائهم نهاية الضلال.

والحيرة، وقال : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الجاثية:١٨]، ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أي: حملته على اتباع الهوى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾[المائدة:٧٧]، ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ﴾[الأنعام:٥٦] ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[الشورى:١٥]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[القصص:٥٠]، والهوى ذهاب في انحدار. اهـ

فاتباع الهوى غاية الضلال والخسارة والعياذ بالله.

وتقديم الهوى على الكتاب والسنة ليس من طريقة الصلحاء المحبين لله ، ورسوله ، وإنما هي طريقة المشاقين والمخالفين لسبيل المؤمنين، وما سُميَّ أهل البدع بأهل الأهواء؛ إلا بسبب اتباع أهوائهم وتقديمها على أدلة الكتاب والسنة.

ففي السنة لابن أبي عاصم رقم (١) عن معاوية قال: قال رسول الله : «**يَكُونُ أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الأَهْوَاءُ، كَمَا يَتَجَارَى الكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**».

وعنده رقم (١٣) عن زياد بن علاقة، عن عمه قال: كان رسول الله يدعوا بهذه الدعوات: «**اللهُمَّ جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ، وَالأَعْمَالِ، وَالأَهْوَاءِ، وَالأَدْوَاءِ**».

وأخرج رقم (١٤) عن أبي برزة أن النبي قال: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ بَعْدِي بُطُونَكُمْ وَفُرُوجَكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الأَهْوَاءِ**» فتأمل كيف أخبر النبي في الحديث الأول عن حال أصحاب الأهواء بعد أن تتجارى بهم، وفي الحديث الذي يليه يدعو الله أن يجنبه الأهواء وما إليها وفي الحديث الثالث يتخوف رسول الله من مضلات الأهواء.

بيانُ خطإٍ في إطلاقٍ للمؤلف:

وقوله: (**فتمرق من الدين فتخرج من الإسلام**) هذا الكلام ليس على إطلاقه؛ فإن من الهوى ما يكون صاحبه كافرًا، ومنه ما يكون صاحبه مبتدعًا، ومنه ما يكون صاحبه فاسقًا، ومن الأمور مباحات إذا اتبع الهوى فيها ليس عليه شيء، ومن كان هواه اتباع الكتاب والسنة فلا يذم، بل يمدح على ذلك، ولا بد من هذا التفصيل، فالكفر لا يطلق إلا على من تحقق وقوعه فيه وانتفت عنه الموانع هذا عند التعيين،

وعند الإطلاق حكم آخر سيأتي بيانه على أن العمل قد يكون كفرًا، وصاحبه ليس بكافر.

قال النجمي في إرشاد الساري (٤٥) معلقًا على هذه العبارة: تتردد مثل هذه العبارة في كلام المؤلف ، ومثل هذا يحمل على واحدٍ من ثلاثة أمور:

١- إمَّا أن يحمل على أنَّه يريد من جحد شيئًا من عقائد الدِّين الأساسية فقد كفر.

٢- وإمَّا أن يريد بأنَّ عمله ربما أدَّى إلى الكفر.

٣- وإمَّا أن يريد أنَّ المقصود به كفرٌ دون كفر، أي: كفر النِّعمة، وليس كلَّ من خالف شيئًا ممَّا عليه أصحاب رسول الله يكفر كفرًا يخرج من الإسلام فهذا ليس من عقيدة أهل السنَّة والجماعة. اهـ

قال تعالى محذرًا من اتباع الهوى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان:٤٣].

والهوى سبب الضلال قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص:٢٦].

وقد تقدم شيء من بيان النبي الدين لأمته، فالحق فيما شرعه والدين ما كان هو عليه ، ونقله وعمل به أصحابه، أما ما أحدث بعدهم في الدين فهو بدعة وضلال وهوى، ورأي والواجب على الجميع الاتباع للكتاب والسنة والآثار لا الابتداع، وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف، وخذ هذا الشعار في ما لم يفعلوه: (لو كان خيرًا لسبقونا إليه).

القول في تكفير المعين:

وأما قوله: (**من الدين فقد كفر**) يقال فيه ما في نفس التفصيل السابق؛ لأن من منهج أهل السنة والجماعة وعقيدتهم: أنهم لا يكفرون أحدًا من المسلمين بذنب؛ إلا أن يكون شركًا أكبر أو جحدُ شيء معلوم من الدين بالضرورة وغير ذلك من نواقض الإسلام القولية والفعلية والاعتقادية.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٣/ ١٥١-١٥٢): وهم في ذلك -أي: أهل السنة- لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج؛ بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه وتعالى في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:١٧٨]، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات:٩-١٠].

ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان في مثل قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[النساء:٩٢]، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[الأنفال:٢].

وقوله : «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»، ويقولون: هو مؤمن

ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته؛ فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم. اهـ

وقال (١٢/ ٤٨٥-٥٠١): إذا ظهرت هذه المقدمات في اسم المؤمن والكافر والفاسق الملي وفي حكم الوعد والوعيد والفرق بين المطلق والمعين وما وقع في ذلك من الاضطراب ف مسألة تكفير أهل البدع والأهواء متفرعة على هذا الأصل.

ونحن نبدأ بمذهب أئمة السنة فيها قبل التنبيه على الحجة فنقول المشهور من مذهب الإمام أحمد وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية وهم المعطلة لصفات الرحمن فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب وحقيقة قولهم جحود الصانع ففيه جحود الرب وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسله ولهذا قال عبدالله بن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وقال غير واحد من الأئمة: إنهم اكفر من اليهود والنصارى يعنون من هذه الجهة ولهذا كفروا من يقول: إن القرآن مخلوق وإن الله لا يرى في الآخرة، وإن الله ليس على العرش، وإن الله ليس له علم ولا قدرة ولا رحمة ولا غضب ونحو ذلك من صفاته.

وأما المرجئة فلا تختلف نصوصه أنه لا يكفرهم؛ فإن بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع، وكثير من كلامهم يعود النزاع فيه إلى نزاع في الألفاظ والأسماء؛ ولهذا يسمى الكلام في مسائلهم باب الأسماء وهذا من نزاع الفقهاء لكن يتعلق بأصل الدين فكان المنازع فيه مبتدعًا.

وكذلك الشيعة المفضلون لعلي على أبي بكر لا يختلف قوله: إنهم لا يكفرون فإن ذلك قول طائفة من الفقهاء أيضًا وإن كانوا يبدعون.

وأما القدرية المقرون بالعلم والروافض الذين ليسوا من الغالية والجهمية والخوارج فيذكر عنه في تكفيرهم روايتان هذا حقيقة قوله المطلق مع أن الغالب عليه التوقف عن تكفير القدرية المقرين بالعلم والخوارج مع قوله ما أعلم قومًا شرًا من الخوارج.

ثم طائفة من أصحابه يحكون عنه في تكفير أهل البدع مطلقًا روايتين حتى يجعلوا المرجئة داخلين في ذلك وليس الأمر كذلك وعنه في تكفير من لا يكفر روايتان أصحهما لا يكفر وربما جعل بعضهم الخلاف في تكفير من لا يكفر مطلقًا وهو خطأ محض والجهمية عند كثير من السلف مثل عبدالله بن المبارك ويوسف ابن أسباط وطائفة من أصحاب الإمام احمد وغيرهم ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة التي افترقت عليها هذه الأمة بل أصول هذه عند هؤلاء هم الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية وهذا المأثور عن أحمد وهو المأثور عم عامة أئمة السنة والحديث إنهم كانوا يقولون من قال القرآن مخلوق فهو كافر ومن قال إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر ونحو ذلك.

ثم حكى أبو نصر السجزي عنهم في هذا قولين: أحدهما أنه كُفْرٌ ينقل عن الملة قال وهو قول الأكثرين والثاني إنه كفر لا ينقل ولذلك قال الخطابي إن هذا قالوه على سبيل التغليظ وكذلك تنازع المتأخرون من أصحابنا في تخليد المكفر من هؤلاء فأطلق أكثرهم عليه التخليد كما نقل ذلك عن طائفة من متقدمي علماء الحديث كأبي حاتم وأبي زرعة وغيرهم وامتنع بعضهم من القول بالتخليد.

وسبب هذا التنازع تعارض الأدلة فإنهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم ثم إنهم يرون من الأعيان الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمتنع أن يكون كافرًا فيتعارض عندهم الدليلان وحقيقة الأمر أنهم أصابهم في ألفاظ العموم في كلام الأئمة ما أصاب الأولين في ألفاظ العموم في نصوص الشارع كلما رأوهم قالوا من قال كذا فهو كافر اعتقد المستمع أن هذا اللفظ شامل لكل من قاله ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين وان تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه فإن الإمام أحمد مثلا قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن ونفي الصفات وامتحنوه وسائر علماء وقته وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات وقطع الأرزاق ورد الشهادة وترك تخليصهم من أيدي العدو بحيث كان كثير من أولى الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم يكفرون كل من لم يكن جهميًّا موافقًا لهم على نفي الصفات مثل القول بخلق القرآن ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر، فلا يولونه ولاية، ولا يفتكونه من عدو ولا يعطونه شيئًا من بيت المال ولا يقبلون له شهادة ولا فتيا ولا رواية ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة والافتكاك من الأسر وغير ذلك فمن أقر بخلق القرآن حكموا له بالإيمان ومن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان ومن كان داعيًا إلى غير التجهم قتلوه أو ضربوه وحبسوه.

ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب.

ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره ممن ضربه وحبسه واستغفر لهم وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية الذين كانوا يقولون القرآن مخلوق وإن الله لا يرى في الآخرة وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفر به قومًا معينين.

فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر أو يحمل الأمر على التفصيل فيقال من كفر بعينه فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير وانتفت موانعه ومن لم يكفره بعينه فلنتفاء ذلك في حقه هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم، والدليل على هذا الأصل الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار.

أما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾[الأحزاب:٥]، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:٢٨٦].

وقد ثبت في صحيح مسلم (١٢٥) عن أبي هريرة عن النبي أن الله تعالى قال: «قَدْ فَعَلْتُ» لما دعا النبي والمؤمنون بهذا الدعاء.

وروى مسلم (٨٠٦) عن ابن عباس قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**».

وإذا ثبت بالكتاب المفسر بالسنة أن الله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان فهذا عام عمومًا محفوظًا وليس في الدلالة الشرعية ما يوجب أن الله يعذب من هذه الأمة مخطئًا على خطئه، وإن عذب المخطيء من غير هذه الأمة.

وأيضًا قد ثبت في الصحيح البخاري (٣٤٨١) ومسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة أن رسول الله قال: «**قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ، لِأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ**».

وهذا الحديث متواتر عن النبي رواه أصحاب الحديث والأسانيد من حديث أبي سعيد وحذيفة وعقبة بن عمرو وغيرهم عن النبى من وجوه متعددة يعلم أهل الحديث أنها تفيدهم العلم اليقينى وإن لم يحصل ذلك لغيرهم ممن لم يشركهم في أسباب العلم فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم بعد ما أحرق وذرى وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك وهذان أصلان عظيمان:

أحدهما: متعلق بالله تعالى وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير.

والثانى: متعلق باليوم الآخر وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ويجزيه على أعماله، ومع هذا فلما كان مؤمنًا بالله في الجملة ومؤمنًا باليوم الآخر في الجملة وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت وقد عمل عملًا صالحًا وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح.

وأيضًا فقد ثبت في الصحيح البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣) عن النبي قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ».

وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي يدل انه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وان كان قليلا وان الإيمان مما يتبعض ويتجزأ ومعلوم قطعا أن كثيرًا من هؤلاء المخطئين معهم مقدار ما من الإيمان بالله ورسوله إذ الكلام فيمن يكون كذلك.

وأيضًا فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل واتفقوا على عدم التكفير بذلك مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام معروف وكذلك لبعضهم في قتال بعض ولعن بعض وإطلاق تكفير بعض أقوال معروفة.

وكان القاضي شريح ينكر قراءة من قرأ: (بَلْ عَجِبْتُ) ويقول: إن الله لا يعجب، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال: إنما شريح شاعر يعجبه علمه، كان عبدالله أفقه منه، فكان يقول: (بَلْ عَجِبْتُ) فهذا قد أنكر قراءة ثابتة، وأنكر صفة دل عليها الكتاب والسنة، واتفقت الأمة على انه إمام من الأئمة، وكذلك بعض السلف أنكر بعضهم حروف القرآن، مثل إنكار بعضهم قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[الرعد: ٣١] وقال: إنما هي: (أو لم يتبين الذين آمنوا)، وإنكار الآخر قراءة قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣] وقال: إنما هي: (ووصى ربك)، وبعضهم كان

حذف المعوذتين، وآخر يكتب سورة القنوت، وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر.

وأيضًا فإن الكتاب والسنة قد دل على أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إبلاغ الرسالة فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسًا ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، وقوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾[الأنعام:١٣٠].

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[فاطر:٣٧]، وقولهم: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾[الزمر:٧١]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[الإسراء:١٥].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾[القصص:٥٩]، وقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾[الملك:٨-٩].

وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾[طه:١٣٤]، وقوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[القصص:٤٧]، ونحو هذا في القرآن في مواضع متعددة.

فمن كان قدم آمن بالله ورسوله ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول فلم يؤمن به تفصيلًا إما أنه لم يسمعه أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها أو اعتقد معنى

آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله وبرسوله ما يوجب أن يثيبه الله عليه وما لم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التى يكفر مخالفها.

وأيضًا فقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع ان من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفه بل ولا يفسق بل ولا يأثم مثل الخطأ في الفروع العملية وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن المخطيء فيها آثم وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب فهذان القولان شاذان ومع ذلك فلم يقل أحد بتكفير المجتهدين المتنازعين فيها ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع فيها بالنصوص والإجماع القديم مثل استحلال بعض السلف الخلف لبعض أنواع الربا واستحلال آخرين لبعض أنواع الخمر واستحلال آخرين للقتال في الفتنة.

وأهل السنة والجماعة متفقون على أن المعروفين بالخير كالصحابة المعروفين وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين لا يفسق أحد منهم فضلا عن أن يكفر حتى عدى ذلك من عداه من الفقهاء إلى سائر أهل البغي فأنهم مع إيجابهم لقتالهم منعوا أن يحكم بفسقهم لأجل التأويل كما يقول هؤلاء الأئمة إن شارب النبيذ المتنازع فيه متأولًا لا يجلد ولا يفسق وقد قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾[الأنبياء:٧٨-٧٩]، وقال تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[الحشر:٥].

وثبت في الصحاح من حديث عمرو بن العاص أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦)، ومن حديث أبي هريرة عن النبي أنه قال: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**».

وثبت في مسلم (١٧٣١) عن بريدة بن الحصيب أن النبي قال: «**وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا**».

وأدلة هذا الأصل كثيرة لها موضع آخر.

وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبي فلم يؤمن به فهو كافر لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة ولأن العذر بالخطأ حكم شرعي فكما أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر والواجبات تنقسم إلى أركان وواجبات ليست أركانا فكذلك الخطأ ينقسم إلى مغفور وغير مغفور والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهذه الأمة وإذا كان كذلك فالمخطىء في بعض هذه المسائل إما أن يلحق بالكفار من المشركين وأهل الكتاب مع مباينته لهم في عامة أصول الإيمان وإما أن يلحق بالمخطئين في مسائل الإيجاب والتحريم مع أنها أيضًا من أصول الإيمان، فإن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة هو من أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين والجاحد لها كافرا بالاتفاق مع أن المجتهد في بعضها ليس بكافر بالاتفاق مع خطئه

وإذا كان لا بد من إلحاقه بأحد الصنفين فمعلوم أن المخطئين من المؤمنين بالله تعالى أشد شبها منه بالمشركين وأهل الكتاب فوجب أن يلحق بهم وعلى هذا مضى عمل الأمة قديما وحديثا في أن عامة المخطئين من هؤلاء تجري عليهم أحكام الإسلام التي تجري على غيرهم هذا مع العلم بأن كثير من المبتدعة منافقون النفاق الأكبر وأولئك كفار في الدرك الأسفل من النار فما أكثر ما يوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون بل أصل هذه البدع هو من المنافقون الزنادقة ممن

يكون أصل زندقته عن الصابئين والمشركين فهؤلاء كفار في الباطن ومن علم حاله فهو كافر في الظاهر أيضًا.

وأصل ضلال هؤلاء الإعراض عما جاء به الرسول من الكتاب والحكمة وابتغاء الهدى في خلاف ذلك فمن كان هذا أصله فهو بعد بلاغ الرسالة كافر لا ريب فيه مثل من يرى أن الرسالة للعامة دون الخاصة كما يقوله قوم من المتفلسفة وغالية المتكلمة والمتصوفة أو يرى أنه رسول إلى بعض الناس دون بعض كما يقوله كثير من اليهود والنصارى.

فهذا الكلام يمهد أصلين عظيمين:

إحدهما: أن العلم والإيمان والهدى فيما جاء به الرسول وأن خلاف ذلك كفر على الإطلاق فنفي الصفات كفر والتكذيب بأن الله يرى في الآخرة أو أنه على العرش أو أن القرآن كلامه أو أنه كلم موسى أو أنه اتخذ إبراهيم خليلا كفر وكذلك ما كان في معنى ذلك وهذا معنى كلام أئمة السنة وأهل الحديث

و الأصل الثاني: إن التكفير العام كالوعيد العام يجب القول بإطلاقه وعمومه.

وإما الحكم على المعين بأنه كافر أو مشهود له بالنار فهذا يقف على الدليل المعين فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه.

ومما ينبغي أن يعلم في هذا الموضع أن الشريعة قد تأمرنا بإقامة الحد على شخص في الدنيا إما بقتل أو جلد أو غير ذلك ويكون في الآخرة غير معذب مثل قتال البغاة والمتأولين مع بقائهم على العدالة ومثل إقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة فإنا نقيم الحد عليه مع ذلك كما أقامه النبي على ماعز ابن مالك وعلى الغامدية مع قوله لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له،

ومثل إقامة الحد على من شرب النبيذ المتنازع فيه متأولًا مع العلم بأنه باق على العدالة، بخلاف من لا تأويل له فإنه لما شرب الخمر بعض الصحابة واعتقدوا انها تحل للخاصة تأول قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾[المائدة:٩٣]، اتفق الصحابة مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهما على أنهم ان أقروا بالتحريم جلدوا وإن أصروا على استحلال قتلوا.

وكذلك نعلم أن خلقًا لا يعاقبون في الدنيا مع أنهم كفار في الآخرة مثل أهل الذمة المقرين بالجزية على كفرهم ومثل المنافقين المظهرين الإسلام فأنهم تجري عليهم أحكام الإسلام وهم في الآخرة كافرون كما دل عليه القرآن في آيات متعددة كقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء: ١٤٥].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[الحديد: ١٣-١٥].

وهذا لأن الجزاء في الحقيقة أنما هو في الدار الآخرة التي هي دار الثواب والعقاب وأما الدنيا فإنما يشرع فيها من العقاب ما يدفع به الظلم والعدوان كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:١٩٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[الشورى:٤٢].

وهذا لأن المقصود بإرسال الرسل وإنزال الكتب هو إقامة القسط كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد:٢٥].

وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ولا بالعكس ولهذا أكثر السلف يأمرون بقتل الداعي إلى البدعة الذي يضل الناس لأجل إفساده في الدين سواء قالوا هو كافر أو ليس بكافر.

وإذا عرف هذا فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدكم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل وان كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر.

وهكذا الكلام في تكفير جميع المعينين مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين، وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحبة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة. اهـ

بيان السواد الأعظم:

والصحابي هو من لقي النبي مؤمنًا به ومات على ذلك ولو تخللت ردة على الصحيح، وسموا الجماعة لاجتماعهم على الأمر الأول وهو أمر الله وأمر رسوله ، وهم السواد الأعظم، ومن سار على سيرهم، وإن كانوا قليل؛ لأن الحق عظيم، ومن كان الله معه، فهو السواد، وإن كان وحده.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٣/ ٣٤٤): ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة، وهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم. وأما الفرق الباقية، فإنهم أهل الشذوذ. اهـ

وقال ابن القيم أعلام الموقعين (٣/ ٣٩٦): واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق، وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض، قال عمرو بن ميمون الأودى: صحبت معاذًا باليمن فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت من بعده أفقه الناس عبدالله بن مسعود فسمعته يقول: عليكم بالجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، ثم سمعته يوما من الأيام وهو يقول: سيولى عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها فهى الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة.

قال: قلت يا أصحاب محمد ما ادري ما تحدثون؟ قال: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول لي: صل الصلاة وحدك وهي الفريضة، وصل مع الجماعة وهي نافلة، قال: يا عمرو بن ميمون، قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، أتدري ما الجماعة؟ قلت: لا، قال: إن جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة، الجماعة ما وافق الحق وان كنت وحدك.

وفي لفظ آخر: فضرب على فخذي وقال: ويحك أن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وان الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى.

وقال نعيم بن حماد: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وان كنت وحدك فإنك أنت الجماعة، حينئذ ذكرهما البيهقى وغيره، وقال بعض أئمة الحديث وقد ذكر له السواد الأعظم فقال: أتدرى ما السواد الأعظم؟ هو

محمد بن أسلم الطوسي وأصحابه، فمسخ المختلفون الذين جعلوا السواد الأعظم والحجة والجماعة هم الجمهور، وجعلوهم عيارًا على السنة، وجعلوا السنة بدعة والمعروف منكرًا لقلة أهله، وتفردهم في الإعصار والأمصار، وقالوا: من شذ شذ الله به في النار، وما عرف المختلفون أن الشاذ ما خالف الحق وان كان الناس كلهم عليه إلا واحدًا منهم فهم الشاذون.

وقد شذ الناس كلهم زمن أحمد بن حنبل إلا نفرًا يسيرًا فكانوا هم الجماعة، وكانت القضاة حينئذ والمفتون والخليفة وأتباعه كلهم هم الشاذون، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة، ولما لم يتحمل هذا عقول الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين، أتكون أنت وقضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون كلهم على الباطل، وأحمد وحده هو على الحق؟ فلم يتسع علمه لذلك، فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل. اهـ

فانظر إلى نظرة السلف الذين يعظمون الدليل لا الكثرة والرجال.

[ترك السنة ظهور للبدعة]

١٤- وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَبْتَدِعُوا بِدْعَةً قَطُّ حَتَّى تَرَكُوا مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَهَا؛ فَاحْذَرِ الْمُحْدَثَاتِ مِنَ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَالضَّلَالَةُ وَأَهْلُهَا فِي النَّارِ.

الشرح:

هذا حق لا مرية فيه؛ فإن السنة والبدعة لا تجتمعان.

حُبُّ الْقُرَانِ وُحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا   فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

فالسنة دين الله ، والبدعة دين الهوى والرأي، فإذا ترك العبد سنة فقد ترك المأمور به وهو السنة وارتكب المحظور، وهو البدعة؛ فيقع في نقص من دينه بقدر بدعته التي تقمص بها، والله المستعان، بينما العمل بالسنة تُرد به البدع، فعند اللالكائي (١٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: وَاللهِ مَا أَظُنُّ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَى الشَّيْطَانِ هَلَاكًا مِنِّي. فَقِيلَ: وَكَيْفَ؟ فَقَالَ: وَاللهِ إِنَّهُ لَيُحْدِثُ الْبِدْعَةَ فِي مَشْرِقٍ أَوْ مَغْرِبٍ، فَيَحْمِلُهَا الرَّجُلُ إِلَيَّ، فَإِذَا انْتَهَتْ إِلَيَّ قَمَعْتُهَا بِالسُّنَّةِ، فَتُرَدُّ عَلَيْهِ.

وعنده برقم (١٢٢) عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: يَجِيءُ قَوْمٌ يَتْرُكُونَ مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَ هَذَا - يَعْنِي مَفْصِلَ الْأُصْبُعِ - فَإِنْ تَرَكْتُمُوهُمْ جَاءُوا بِالطَّامَّةِ الْكُبْرَى، وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَهْلُ كِتَابٍ قَطُّ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ مَا يَتْرُكُونَ السُّنَّةُ، وَإِنَّ آخِرَ مَا يَتْرُكُونَ الصَّلَاةُ، وَلَوْلَا أَنَّهُمْ يَسْتَحْيُونَ لَتَرَكُوا الصَّلَاةَ.

وبرقم (١٢٥) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ عَامٌ إِلَّا أَحْدَثُوا فِيهِ بِدْعَةً وَأَمَاتُوا سُنَّةً، حَتَّى تَحْيَا الْبِدَعُ وَتَمُوتَ السُّنَنُ. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَتَّى تَظْهَرَ الْبِدَعُ.

وبرقم (١٢٧) عَنْ عَبْدِالله بْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: إِنَّ أَوَّلَ ذَهَابِ الدِّينِ تَرْكُ السُّنَّةِ، يَذْهَبُ الدِّينُ سُنَّةً سُنَّةً، كَمَا يَذْهَبُ الْحَبْلُ قُوَّةً قُوَّةً.

وبرقم (١٢٨) وَقَالَ ابْنُ الدَّيْلَمِيِّ: سَمِعْتُ ابْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: مَا ابْتُدِعَتْ بِدْعَةٌ إِلَّا ازْدَادَتْ مُضِيًّا، وَلَا تُرِكَتْ سُنَّةٌ إِلَّا ازْدَادَتْ هَوِيًّا.

وبرقم (١٢٩) عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ، قَالَ: مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بِدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلَّا نَزَعَ اللهُ مِنْ سُنَّتِهِمْ مِثْلَهَا، ثُمَّ لَا يُعِيدُهَا عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ومخالفة السنة منها ما هو موجب للكفر، ومنها ما هو موجب للبدعة، ومنها ما هو موجب للفسق، ومنها ما يؤدي إلى عدم كمال الاتباع؛ فمن خالف السنة وارتكب أمرًا مكفرًا ترك من السنة مثل المخالفة التي وقع فيها وعلى التفصيل المذكور؛ فالواجب على المسلمين متابعة الكتاب والسنة، فإن في ذلك الخير العظيم قال رسول الله : «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**» أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

التحذير من المحرمات:

قوله: (**واحذر المحرمات... الخ**) قال الراغب: الحرام الممنوع منه إما بتسخير إلهي، وإما بمنع قهري وإما بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره، فقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾[القصص:١٢] فذلك تحريم بتسخير وقد حمل على ذلك: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾[الأنبياء:٩٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[المائدة:٢٦] وقيل: بل كان حراما عليهم من جهة القهر لا بالتسخير الإلهي، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾[المائدة:٧٢] فهذا من جهة القهر بالمنع وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الأعراف:٥٠].

والمحرم بالشرع كتحريم بيع الطعام بالطعام متفاضلا، وقوله : ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾[البقرة:٨٥] فهذا كان محرما عليهم بحكم شرعهم ونحو قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾[الأنعام:١٤٥]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾[الأنعام:١٤٦].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾[التحريم: ١] أي لم تحكم بتحريم ذلك وكل تحريم ليس من قبل الله تعالى فليس بشيء نحو: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾[الأنعام:١٣٨]. اهـ

فالواجب على المسلم ترك ما نهى الله عنه وحرمه والحلال بين والحرام بين كما في حديث النعمان بن بشير، وسيأتي فالحلال يُؤتى والحرام يُترك، ففي حديث أبي هريرة عند الشيخين البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»، وقوله: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**» تقدم الكلام عليها.

والمحدث هو ما لم يكن معروفًا في كتاب ولا سنة ولا إجماع، قال في النهاية : والحدث الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعتاد ولا معروف في السنة والمحدث بفتح الحاء هو الأمر المبتدع نفسه. اهـ

والبدعة والإحداث خطرها عظيم ففي السنة لابن أبي عاصم رقم (٣٧) عن أنس قال: قال رسول الله : «**إِنَّ اللهَ حَجَزَ - أَوْ قَالَ: حَجَبَ - التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتَهُ**» الحديث صحيح له طرق، وقد خرجه العلامة الألباني في الصحيحة رقم (١٦٢٠).

فالبدعة خطرة على متعاطيها ولا يوفق صاحبها للتوبة غالبًا.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٠/ ١٨): ولهذا قال أئمة الإسلام، كسفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها. ومعنى قولهم: إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ دينًا لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسنًا، فهو لا يتوب ما دام يراه حسنًا؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه، أو بأنه ترك حسنًا مأمورًا به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله. فما دام يرى فعله حسنًا وهو سيئ في نفس الأمر فإنه لا يتوب.

ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق، كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من أهل البدع والضلال، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه، فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم. اهـ

وسيأتي بيان شروط التوبة من البدعة في موطنها إن شاء الله.

[الحذر من صغار المحدثات]

١٥- وَاحْذَرْ صِغَارَ الْمُحْدَثَاتِ مِنَ الْأُمُورِ، فَإِنَّ صَغِيرَ البِدَعِ يَعُودُ حَتَّى يَصِيرُ كَبِيرًا، وَكَذَلِكَ كُلُّ بِدْعَةٍ أُحْدِثَتْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَانَ أَوَّلُهَا صَغِيرًا يُشْبِهُ الْحَقَّ، فَاغْتَرَّ بِذَلِكَ مَنْ دَخَلَ فِيهَا، ثُمَّ لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَخْرَجَ مِنْهَا فَعَظُمَتْ وَصَارَتْ دِينًا يُدَانُ بِهَا فَخَالَفَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَخَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ.

الشرح:

هذا كلام صحيح؛ وقد تقدم أن المحدثات كلها من الضلالات لما صح عن النبي : «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». والمحدثات تخرج أولًا بصورة الحق حتى لا يتفطن لها الخلق، فبدعة الخوارج كان مبدؤها رد ذلك المنافق على رسول الله آمرًا له بالعدل، وبدعة القدر، وبدعة الاعتزال، وغير ذلك تبدأ صغيرة بصورة الحق.

فإذا ما تعمق الناس في البدعة خالفوا صحيح المنقول والأصول، بل والمعقول.

أسباب الوقوع في البدع:

والسبب في الوقوع في البدع:

١) الشبه. وما حذّر الله رسوله من مجالسة أهل البدع إلا اتقاءً لما يُلقون من الشبه المردية والأفكار الزرية على ما يأتي بيانه في التحذير من مجالسة أهل الأهواء.

٢) الشهوات النفسية وغيرها من حب المال والدنيا. قال الله ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[التوبة:٦٩].

٣) الجهل. حيث يتمكن الشيطان وأعوانه من زعزعة الجهال عن دينهم القويم، والصراط المستقيم؛ ولهذا كان من أعظم أسباب انتشار البدع والضلالات اتخاذ المفتين الجهلة، ففي حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣). وفي رواية للبخاري (٧٣٠٧): «**فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ**».

٤) واتباع الهوى. على ما تقدم بيانه ويدخل فيه: اتباع الرأي، واتباع العقل، وهجر الأدلة، إلى غير ذلك. ذكر ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله رقم (١٤٦٠) وقال بشر بن السري السقطي: نظرت في العلم فإذا هو الحديث والرأي، فوجدت في الحديث: ذكر النبيين والمرسلين، وذكر الموت، وذكر ربوبية الرب وجلاله وعظمته، وذكر الجنة والنار، والحلال والحرام، والحث على صلة الأرحام،

وجماع الخير. ونظرت في الرأي فإذا فيه: المكر والخديعة، والتشاح، واستقصاء الحق، والمماكسة في الدين، واستعمال الحيل، والبعث على قطع الأرحام، والتجرؤ على الحرام. اهـ

هذه أصول أسباب البدع، وإلا فإن مسالك أهل البدع كثيرة جدًّا، حصرها متعذر.

قال الشاطبي في الاعتصام (١/ ٢٩٤): وأما الاستقراء فغير نافع أيضًا في هذا المطلب لأنا لما نظرنا في طرق البدع من حين نبتت وجدناها تزداد على الأيام ولا يأتي زمان إلا وغريبة من غرائب الاستنباط تحدث إلى زماننا هذا.

وإذا كان كذلك فيمكن أن يحدث بعد زماننا استدلالات أخر لا عهد لنا بها فيما تقدم لا سيما عند كثرة الجهل وقلة العلم وبعد الناظرين فيه عن درجة الاجتهاد فلا يمكن إذا حصرها من هذا الوجه ولا يقال: إنها ترجع إلى مخالفة طريق الحق فإن أوجه المخالفة لا تنحصر أيضًا فثبت أن تتبع هذا الوجه عناء. اهـ

فمن هذه الأوجه والمسالك: اعتمادهم على الأحاديث الضعيفة والواهية والمكذوب فيها على رسول الله ، والتي لا يقبلها أهل الصناعة الحديثية في البناء عليها.

ومنها: ضد هذا، وهو ردهم للأحاديث التي جاءت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم، ويدعون أنها مخالفة للمعقول وغير جارية على مقتضى الدليل فيجب ردها.

ومنها: ردهم للأدلة الصحيحة على أنها غير مفيدة للعلم وإنما تفيد الظن، قال الشاطبي في الاعتصام (١/ ٣٠٥): وربما احتج طائفة من نابته المبتدعة على رد

الأحاديث بأنها إنما تفيد الظن وقد ذم الظن في القرآن كقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[النجم:٢٣].

وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[النجم:٢٨]، وما جاء في معناه حتى أحلوا أشياء مما حرمها الله تعالى على لسان نبيه ﷺ وليس تحريمها في القرآن نصا وإنما قصدوا من ذلك أن يثبت لهم من أنظار عقولهم ما استحسنوا، والظن المراد في الآية وفي الحديث أيضًا غير ما زعموا وقد وجدنا له محال ثلاثة:

أحدها: الظن في أصول الدين فإنه لا يغني عند العلماء لاحتماله النقيض عند الظان بخلاف الظن في الفروع فإنه معمول به عند أهل الشريعة للدليل الدال على إعماله فكان الظن مذموما إلا ما تعلق منه بالفروع وهذا صحيح ذكره العلماء في هذا الموضع.

والثاني: أن الظن هنا هو ترجيح أحد النقيضين على الآخر من غير دليل مرجح ولا شك أنه مذموم هنا لأنه من التحكم ولذلك أتبع في الآية بهوى النفس في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[النجم:٢٣]، فكأنهم مالوا إلى أمر بمجرد الغرض والهوى ولذلك أثبت ذمه بخلاف الظن الذي أثاره دليل فإنه غير مذموم في الجملة لأنه خارج عن اتباع الهوى ولذلك أثبت وعمل بمقتضاه حيث يليق العمل بمثله كالفروع.

والثالث: أن الظن على ضربين: ظن يستند إلى أصل قطعي وهذه هي الظنون المعمول بها في الشريعة أينما وقعت لأنها استندت إلى أصل معلوم فهي من قبيل المعلوم جنسه وظن لا يستند إلى قطعي بل إما مستند إلى غير شيء أصلا وهو مذموم كما تقدم وإما مستند إلى ظن مثله فلذلك الظن إن استند أيضًا إلى قطعي فكالأول أو

إلى ظني رجعنا إليه فلا بد أن يستند إلى قطعي وهو محمود أو إلى غير شيء وهو مذموم فعلى كل تقدير: خبر واحد صح سنده فلا بد من استناده إلى أصل في الشريعة قطعي فيجب قبوله ومن هنا قبلناه مطلقا. اهـ

ومنها: انحرافهم عن الأصول الواضحة إلى اتباع المتشابهات التي للعقول فيها موافق وطلب الأخذ بها تأويلًا كما أخبر الله تعالى في كتابه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[آل عمران:٧].

وفي الصحيحين البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ الله هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله : «**فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**».

قال الشاطبي في الاعتصام : وقد علم العلماء أن كل دليل فيه اشتباه وإشكال ليس بدليل في الحقيقة حتى يتبين معناه ويظهر المراد منه ويشترط في ذلك أن لا يعارضه أصل قطعي فإذا لم يظهر معناه لإجمال أو اشتراك أو عارضه قطعي كظهور تشبيه فليس بدليل لأن حقيقة الدليل أن يكون ظاهرا في نفسه ودالا على غيره وإلا احتيج إلى دليل فإن دل الدليل على عدم صحته فأحرى أن لا يكون دليلًا.

ولا يمكن أن تعارض الفروع الجزئية الأصول الكلية لأن الفروع الجزئية إن لم تقتض عملا فهي في محل التوقف وإن اقتضت عملًا فالرجوع إلى الأصول هو الصراط المستقيم ويتناول الجزئيات حتى إلى الكليات فمن عكس الأمر حاول

شططا ودخل في حكم الذم لأن متبع الشبهات مذموم فكيف يعتد بالمتشابهات دليلا؟ أو يبنى عليها حكم من الأحكام؟ وإذا لم تكن دليلًا في نفس الأمر فجعلها بدعة محدثة هو الحق. اهـ

ومنها: تحريف الأدلة عن مواضعها وهذا الحال الذي وصل إليها أهل البدل هو مأخوذ عن اليهود والنصارى، كما قال الله : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء:٤٦] والتحريف على ضربين: تحريف لفظي، وتحريف معنوي، وكل تحريف لفظي يؤدي إلى التحريف المعنوي، على ما تجد في تحريفهم لقول الله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥] قالوا: استولى، وهكذا دواليك.

ومنها: اتباع الرأي، على ما تقدم في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عند البخاري (١٠٠) وفيه: «**فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**».

ومنها: تعظيم الرجال تعظيمًا غير شرعي، الذي يؤدي إلى الغلو فيهم، ومن أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل.

ومنها - وهو أضعفها -: الاستدلال بالمنامات، وهذا صنيع الصوفية، وقد فصل وأطال الشاطبي في الاعتصام ، فمن أراد الزيادة رجع إليه.

ومن وقع في معصية سهل رجوعه؛ لأنه يعتقد أنه على خطأ بينما صاحب البدعة يتعمق الهوى في قلبه بسبب عرض الفتن كما في حديث حذيفة في الصحيحين البخاري (٧٠٩٦)، ومسلم (١٤٤): «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا**

دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

فإذا تعمقت البدعة في القلب صعب إخراجها منه وصار يتدين لله ويتعبد بما لم يشرعه وبما لم يأذن به الله ، فخالف الصراط المستقيم، والدين قال الراغب في مفردات القرآن : يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدين كالملة لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة. اهـ

مخالفة البدعة للصراط المستقيم:

والبدع مخالفة للصراط المستقيم؛ لأن الصراط المستقيم هو الإسلام كما هو مبين في حديث النواس بن سمعان عند أحمد (٤/ ١٨٢) وغيره: «ضَرَبَ الله مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ الله تَعَالَى، وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ الله تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ الله ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

والصراط: هو الطريق قال القرطبي في تفسيره (١/ ١٩٢): أصل الصراط في كلام العرب الطريق والصراط المستقيم هو دين المنعم عليهم، قال الله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة:٦-٧]. اهـ

والمنعم عليهم هم المذكورون في قول الله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[النساء:٦٩].

والصراط نوعان:

حسي: وهو الموضوع على متن جهنم.

ومعنوي: وهو الإسلام.

ولا سلامة على الصراط الحسي إلا بالثبات على الصراط المعنوي.

قال السعدي في تفسيره: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط. فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا. اهـ

قوله: (**فخرج من الإسلام**) على التفصيل السابق من البدع ما يخرج صاحبها من الإسلام وهي البدع المكفرة مثل: التجهم والقول بالحلول أو الاتحاد وبدعة الرفض وبدعة الباطنية والعجاردة من الخوارج، ومنها ما ليست بمكفرة مثل بدعة الاعتزال والتمشعر والإرجاء والتحزب وغير ذلك.

[عرض الأمور على طريقة الصحابة رضوان الله عليهم]

١٦- فَانْظُرْ - رَحِمَكَ اللهُ - كُلَّ مَنْ سَمِعْتَ كَلَامَهُ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكَ خَاصَّةً، فَلَا تَعْجَلَنَّ وَلَا تَدْخُلَنَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى تَسْأَلَ وَتَنْظُرَ هَلْ تَكَلَّمَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَإِنْ وَجَدتَّ فِيهِ أَثَرًا عَنْهُمْ فَتَمَسَّكْ بِهِ، وَلَا تُجَاوِزْهُ لِشَيْءٍ وَلَا تَخْتَرْ عَلَيْهِ شَيْئًا، فَتَسْقُطَ فِي النَّارِ.

الشرح:

الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أو الخطأ، أو الزلل، والمطلوب منا العودة إلى الكتاب والسنة، وعدم أخذ الأقوال المجردة المخالفة للكتاب والسنة، والرجال مهما بلغ علمهم ووصلت منزلتهم فإن أقوالهم يستدل لها لا يستدل بها، فإذا سمعت قولاً وأشكل عليك هل موافق للكتاب والسنة أم لا فاعرضه على الكتاب والسنة واسأل عنه.

لأن الحي لا تؤمن عليه الفتنة فعن ابن مسعود : «إِنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ؛ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا» متفق عليه، البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٦٤٣).

وإن لم تحصل له الفتنة؛ فإنه قد يخطئ، والخطأ لا يجوز أن يتابع عليه أحد، لكن إجماع الصحابة معصوم عن الخطأ، وكذا إجماع الأمة؛ لحديث ابن عباس عند الحاكم - وقد تقدم -: «لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ» قال ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦١٠): وعندي أن إجماع الصحابة لا يجوز خلافهم؛ لأنه لا يجوز على جميعهم جهل التأويل، وفي قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:١٤٣] دليل على أن جماعتهم إذا اجتمعوا حجة على من خالفهم، كما أن رسول الله حجة على جميعهم، ودلائل الإجماع من الكتاب والسنة كثيرة. اهـ

وإن أشكل عليك شيء من كتاب الله وسنة رسوله فأعرضه على أهل العلم واستفد منهم وفوق كل ذي علم عليم؛ فإن الله يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣].

وإن أفتوك بآثار السلف فخذها ولا تجاوزها فما كان في عهدهم دين فهو دين لنا، وقد قال سفيان: لو استطعت أن لا تحك ظهرك إلا بأثر فعلت.

قال عمر بن عبدالعزيز : قف حيث وقف القوم فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، وقد وصفوا منه ما يشفي وتكلموا منه بما يكفي فما فوقهم محسِّر وما دونهم مقصر. اهـ

ودعك ممن يقول: هم رجال ونحن رجال؛ فهذا رجل خبيث بل هم أكثر علمًا وحلمًا وتقيً، نزل القرآن بلغتهم فعرفوا أسباب نزوله وعرفوا عامه وخاصه ومجمله، وكذا تتلمذوا على خير الخلق طرًّا وهو محمد بن عبدالله الذي لا ينطق عن

الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وعقولهم أزكى العقول وزد على ذلك كون الله اصطفاهم لحمل الدين ونصرته ونشره.

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (١/ ٢٢٧): ولا تتجاوزوا القرآن والحديث واتبع في ذلك سبيل السلف الماضين الذين هم أعلم الأمة بهذا الشأن نفيا وإثباتا وأشد تعظيما لله. اهـ

قال الشوكاني في التحف (٥٨): ومع هذا فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم فكان غاية ما ظفروا به من هذه الأعلمية لطريق الخلف أن تمنى محققوهم وأذكياؤهم في آخر أمرهم دين العجائز وقالوا هنيئا للعامة فتدبر هذه الأعلمية التي حاصلها أن يهنى من ظفر بها للجاهل الجهل البسيط ويتمنى أنه في عدادهم وممن يدين بدينهم ويمشي على طريقهم فإن هذا ينادي بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة على أن هذه الأعلمية التي طلبوها الجهل خير منها بكثير فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه أن الجهل خير منه وينتهي عند البلوغ إلى غايته والوصول إلى نهايته أن يكون جاهلا به عاطلا عنه ففي هذا عبرة للمعتبرين وآية بينة للناظرين فهلا عملوا على جهل هذه المعارف التي دخلوا فيها بادئ بدء وسلموا من تبعاتها وأراحوا أنفسهم من تعبها وقالوا كما قال القائل: أرى الأمر يفضي إلى آخر يصير آخره أولًا. اهـ

وفي هذه العبارة التحذير من التقليد الذي فيه الضلال البعيد على ما يأتي بيانه وفيها الحث على التؤدة في تلقي أقوال الرجال وفيه الزجر عن الأخذ بالأقوال والأفعال ما لم يكن فيها سلف؛ لأن الدين جاءنا عن طريقهم.

قوله: (**فتسقط في النار**) إن كانت المخالفة لهم بمكفر فتسقط في النار سقوط الخلود قال الله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾[الأحزاب:٦٥].

وإن كان بما دون ذلك من كبائر الذنوب أو صغائرها ومات عليها فهو تحت المشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾[النساء:٤٨].

[أنواع الخروج عن الطريق]

١٧- وَاعْلَمْ أَنَّ الْخُرُوجَ مِنَ الطَّرِيقِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَجُلٌ قَدْ زَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ وَهُوَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ، فَلَا يُقْتَدَى بِزَلَلِهِ؛ فَإِنَّهُ هَالِكٌ، وَآخَرُ عَانَدَ الْحَقَّ وَخَالَفَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ شَيْطَانٌ مَرِيدٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، حَقِيقٌ عَلَى مَنْ يَعْرِفُهُ أَنْ يُحَذِّرَ النَّاسَ مِنْهُ، وَيُبَيِّنَ لَهُمْ قِصَّتَهُ لِئَلَّا يَقَعَ فِي بِدْعَتِهِ أَحَدٌ فَيَهْلِكَ.

الشرح:

قوله: (**واعلم أن الخروج عن الطريق على وجهين... الخ**) نعم إما أن يكون الخروج والمخالفة عن عمدٍ أو خطإٍ واجتهاد؛ ففي كلا الحالين لا يتابع الخطأ؛ لأن الله يقول: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٣]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

والخطأ إن كان عن غير عمدٍ أو اجتهاد فإنه مُتجاوز عن صاحبه.

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٦٩٣): فأما الخطأ والنسيان، فقد صرَّح القرآن بالتَّجاوُزِ عنهما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾، وقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾.

وفي الصحيحين البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦) عن عمرو بن العاص سمع النَّبيَّ يقول: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ».

وقال الحسن: لولا ما ذَكَر الله من أمر هذين الرجلين - يعني: داود وسليمان - لرأيت أنَّ القُضاةَ قد هلكوا، فإنَّه أثنى على هذا بعلمه، وعَذَرَ هذا باجتهاده، يعني: قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾. اهـ

هذا من حيث الخطأ، أما المخطئ إن كان عامدًا لمخالفة أمر رسول الله ؛ فهذا هلاك والعياذ بالله تعالى لما تقدم، وإما إن كان مجتهدًا فإن أخطأ فله أجر، ولا يتابع على خطئه، ومن تبع رخص العلماء وزلاتهم تزندق، فالعالم مأجور على خطئه؛ لأنه عن اجتهاد والمتابع له آثم لأنه قلده دينه من غير حجة على ذلك من كتاب الله ولا سنة رسول الله ، والتقليد هو قبول قول القائل من غير ذكر حجة على قوله، وسبب ضلال بني آدم ناتج من هذه البلية العظيمة قال الله : ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٢] مقتدون.

قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٦٦): وفي هذه الآية دليل على إبطال التقليد، لذمه إياهم على تقليد آبائهم، وتركهم النظر فيما دعاهم الرسول عليه الصلاة والسلام إليه. اهـ

وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ٥٧٣): وكانوا يسمون المقلد الإمعة ومحقب دينه كما قال ابن مسعود: الإمعة الذي يحقب دينه الرجال، وكانوا يسمونه الأعمى الذي لا بصيرة له، ويسمون المقلدين أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يركنوا إلى ركن وثيق كما قال فيهم أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة[١]، وكما سماه الشافعي حاطب ليل ونهى عن تقليده وتقليد غيره فجزاه الله عن الإسلام خيرًا، لقد نصح لله ولرسوله والمسلمين، ودعا إلى كتاب الله وسنة رسوله، وأمر باتباعهما دون قوله: وأمرنا بأن نعرض أقواله عليهما فنقبل منها ما وافقهما ونرد ما خالفهما، فنحن نناشد المقلدين هل حفظوا في ذلك وصيته وأطاعوه أم عصوه وخالفوه. اهـ

الحذر من زلات العلماء:

وقال مبينًا فساد اتباع العالم في زلته (٣/ ٤٥٣-٤٥٤): والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله وبيان زلة العالم ليبينوا بذلك فساد التقليد، وأن العالم قد يزل ولا بد إذ ليس بمعصوم فلا يجوز قبول كل ما يقوله وينزل قوله منزلة قول المعصوم فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض وحرَّموه وذموا أهله، وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل فيه وليس لهم تمييز بين ذلك فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويشرعون ما لم يشرع ولا بد لهم من ذلك إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه فالخطأ واقع منه ولا بد، وقد ذكر البيهقي وغيره من حديث كثير هذا عن أبيه عن جده مرفوعًا: «**اتَّقُوا زَلَّةَ العَالِمِ وَانْتَظِرُوا فَيْئَتَهُ**»[٢].

وذكر من حديث مسعود بن سعد عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله : «**أَشَدُّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي ثَلَاثًا: زَلَّةَ عَالِمٍ، وَجِدَالَ مُنَافِقٍ بِالقُرْآنِ، وَدُنْيَا تَقْطَعُ أَعْنَاقَكُمْ**»[٣].

---

(١) الأولى أن يترضى عليه كبقية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

(٢) الحديث في الضعيفة للألباني برقم (١٧٠٠).

(٣) أقول: الحديث ضعيف فيه يزيد بن أبي زياد

ومن المعلوم أن المخوف في زلة العالم تقليده فيها إذ لولا التقليد لم يخف من زلة العالم على غيره فإذا عرف أنها زلة لم يجز له أن يتبعه فيها باتفاق المسلمين؛ فإنه اتباع للخطأ على عمد ومن لم يعرف أنها زلة فهو أعذر منه وكلاهما مفرط فيما أمر به.

وقال الشعبي: قال عمر: يفسد الزمان ثلاثة أئمة مضلون وجدال المنافق بالقرآن والقرآن حق وزلة العالم.

قال أبو محمد: الشعبي لم يسمع من عمر .

وقد تقدم أن معاذًا كان لا يجلس مجلسا للذكر؛ إلا قال حين يجلس: الله حكم قسط هلك المرتابون الحديث، وفيه: وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق قلت لمعاذ: ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال لي: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال: ما هذه ولا يثنيك ذلك عنه؛ فإنه لعله يراجع وتلق الحق إذا سمعته فإن على الحق نورًا.

وذكر البيهقي من حديث حماد بن زيد عن المثنى بن سعيد عن أبي العالية قال: قال ابن عباس: ويل للأتباع من عثرات العالم قيل وكيف ذاك يا أبا العباس قال: يقول: العالم من قبل رأيه، ثم يسمع الحديث عن النبي ؛ فيدع ما كان عليه وفي لفظ فيلقى من هو أعلم برسول الله منه فيخبره فيرجع ويقضي الأتباع بما حكم وقال تميم الداري: اتقوا زلة العالم؛ فسأله عمر ما زلة العالم قال: يزل بالناس فيؤخذ به فعسى أن يتوب العالم والناس يأخذون بقوله.

وقال شعبة: عن عمرو بن مرة، عن عبدالله بن سلمة قال: قال معاذ بن جبل: يا معشر العرب كيف تصنعون بثلاث دنيا تقطع أعناقكم وزلة عالم وجدال منافق

بالقرآن فسكتوا، فقال: أما العالم؛ فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم وإن افتتن فلا تقطعوا منه إياسكم فإن المؤمن يفتتن ثم يتوب وأما القرآن فله منار كمنار الطريق فلا يخفي على أحد فما عرفتم منه فلا تسألوا عنه وما شككتم فكلوه إلى عالمه وأما الدنيا فمن جعل الله الغني في قلبه فقد أفلح ومن لا فليس بنافعته دنياه.

وذكر أبو عمر من حديث حسين الجعفي عن زائدة، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختري قال: قال سلمان: كيف أنتم عند ثلاث، زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم، فأما زلة العالم فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم، وأما مجادلة المنافق بالقرآن فإن للقرآن منار كمنار الطريق فلا يخفي على أحد فما عرفتم منه فخذوه وما لم تعرفوه فكلوه إلى الله، وأما دنيا تقطع أعناقكم فانظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم.

قال أبوعمر: وتشبه زلة العالم بانكسار السفينة؛ لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير، قال أبو عمر: وإذا صح وثبت أن العالم يزل، ويخطىء لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه وقال غير أبي عمر: كما أن القضاة ثلاثة قاضيان في النار وواحد في الجنة، فالمفتون ثلاثة، ولا فرق بينهما إلا في كون القاضي يلزم بما أفتى به والمفتي لا يلزم به.

وقال ابن وهب: سمعت سفيان بن عيينة يحدث عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود أنه كان يقول: اغد عالما أو متعلما، ولا تغد إمعة فيما بين ذلك، قال ابن وهب: فسألت سفيان عن الإمعة فحدثني عن أبي الزناد، عن أبي الأحوص، عن أبي مسعود قال: كنا ندعو الإمعة في الجاهلية الذي يدعى إلى الطعام فيأتي معه بغيره وهو فيكم المحقب دينه الرجال. اهـ

ذم التقليد:

وخلاصة الأمر ما ذكره شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٠/ ١٥ -١٧):

أما التقليد الباطل المذموم فهو: قبول قول الغير بلا حجة قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ في البقرة، وفي المائدة، وفي لقمان: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وفي الزخرف: ﴿قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ﴾ وفي الصافات: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾، وقَالَ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ الآيات.

وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ وقال: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ وقال: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾.

فهذا الاتباع والتقليد الذي ذمه الله هو اتباع الهوى إما للعادة والنسب كاتباع الآباء وإما للرئاسة كاتباع الأكابر والسادة والمتكبرين فهذا مثل تقليد الرجل لأبيه أو سيده أو ذي سلطانه وهذا يكون لمن لم يستقل بنفسه وهو الصغير: فإن دينه دين أمه فإن فقدت فدين ملكه وأبيه: فإن فقد كاللقيط فدين المتولي عليه وهو أهل البلد الذي هو فيه فأما إذا بلغ وأعرب لسانه فإما شاكرًا وإما كفورًا.

وقد بين الله أن الواجب الإعراض عن هذا التقليد إلى اتباع ما أنزل الله على رسله؛ فإنهم حجة الله التي أعذر بها إلى خلقه. والكلام في التقليد في شيئين: في كونه حقًا؛ أو باطلًا من جهة الدلالة. وفي كونه مشروعًا؛ أو غير مشروع من جهة الحكم.

أما الأول: فإن التقليد المذكور لا يفيد علمًا؛ فإن المقلد يجوز أن يكون مقلده مصيبًا: ويجوز أن يكون مخطئًا وهو لا يعلم أمصيب هو أم مخطئ؛ فلا تحصل له ثقة ولا طمأنينة فإن علم أن مقلده مصيب؛ كتقليد الرسول أو أهل الإجماع فقد قلده بحجة وهو العلم بأنه عالم وليس هو التقليد المذكور، وهذا التقليد واجب؛ للعلم بأن الرسول معصوم؛ وأهل الإجماع معصومون.

وأما تقليد العالم حيث يجوز فهو بمنزلة اتباع الأدلة المتغلبة على الظن. كخبر الواحد والقياس؛ لأن المقلد يغلب على ظنه إصابة العالم المجتهد كما يغلب على ظنه صدق المخبر لكن بين اتباع الراوي والرأي فرق يذكر إن شاء الله في موضع آخر. اهـ

قوله: (**فلا يقتدي بزلة فإنه هالك**) الصواب أن يقال: مخطئ؛ لأن الله يقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾[البقرة:٢٨٦].

وأما من خالف الحق عامدًا فهو ضال مضل شيطان أي: شط عن الطاعة قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾[الأنعام:١١٢] فهو ضال في نفسه مضل لغيره نسأل الله العافية، وهذا الذي هو معرض للهلاك وسبب للإهلاك.

قوله: (**حقيق على من عرفه أن يحذر الناس منه... الخ**) هذا من باب النصيحة للأمة ولدين الإسلام، ورسول الله يقول: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا:

لِمَنْ؟ قَالَ: «للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ» أخرجه مسلم (٥٥) عن تميم الداري ، ومن باب تغيير المنكر.

ورسول الله يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ» أخرجه مسلم عن أبي سعيد .

وهذا من باب جرح أهل البدع الذي يعتبر من الجهاد في سبيل الله وعلى مشروعيته إجماع أهل السنة.

وقد تنكر لمنهج الجرح لأهل البدع، كثير من الناس بل ربما يكون بعضهم ممن يدعي العلم والصلاح، وربما اعتبروا التحذير من أهل البدع غيبة وتكلم في الأعراض، ولا تعجب؛ ففي الحديث: «قَبْلَ السَّاعَةِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيهَا الكَاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ» أخرجه أحمد عن أنس .

فهذا من تقليب الحقائق فيجعلون جرح أهل البدع الذي هو جهاد في سبيل الله غيبه حتى ينفر الناس منه؛ فلا إله إلا الله أين بلغ الجهل بأصحابه.

والكلام في أهل البدع فيه مصلحة للأتباع بتحذيرهم من البدع والمنكرات وتخفيف الحمل، والشيعة على المتبوعين من دعاة البدع، وفيه نصرة للدين، وتخفيف للشر وإزهاق للباطل، وهو من أعظم الجهاد في سبيل الله ، وهو طريق السلف رضوان الله عليهم أجمعين، إلى غير ذلك، وقد تكلمت عن أهمية جرح أهل البدع في كتابي الوسائل الجلية في نصرة الدعوة السلفية .

[وجوب الاستسلام والانقياد]

١٨- وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ لَا يَتِمُّ إِسْلَامُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ مُتَّبِعًا مُصَدِّقًا مُسْلِمًا.

الشرح:

إن كان يريد بالتمام لا يكتمل إسلام عبد؛ فنعم، وإن كان يريد بقوله: لا يتم أي: لا يكون مسلمًا فليس على الإطلاق بل يكون مسلمًا مع تضييعه لكثير من أمور الدين إن لم يأت بمكفر قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر:٣٢].

ومما يدل إلى ما ذهب إليه قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥].

وكذلك يجب على المرء مع التسليم التصديق؛ لأن الشك خطره عظيم، ومن أسهل أبواب الشياطين التي يتوصلون بها إلى إخراج العباد من الدين، الذي قال الله عن المنافقين: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[التوبة:٤٥].

وسمي المسلم مسلمًا لتسليمه في شأنه لله ، قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية : فالواجب كمال التسليم للرسول والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق. اهـ

وقال ابن القيم كما في التفسير (٢/ ٢٠٩): والذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله. اهـ

[تبليغ السلف لجميع الدين]

١٩- فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكْفُونَاهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَدْ كَذَّبَهُمْ، وَكَفَى بِهِ فُرْقَةً وَطَعْنًا عَلَيْهِمْ، وَهُوَ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ مُحْدِثٌ فِي الْإِسْلَامِ مَا لَيْسَ فِيهِ.

الشرح:

قال الله : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[المائدة:٣]، وقال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾[الأنعام:٣٨].

والرسول يقول: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**» أخرجه ابن ماجه (٤٣) من حديث أبي الدرداء، وقد تقدم الكلام عن دور الصحابة في نشر الدين، وعدم تفريطهم فيه.

فما من خير إلا وسبقونا إليه ودلونا عليه وما من شر إلا وحذرونا منه؛ فمن زعم أنهم كتموا أو جهلوا أو لم يفهموا، فقد أزرى برسول الله وطعن في عدالة الصحابة وآثار القوم والطعن فيهم من أعظم أسباب الفرقة والشر وإنما طعن فيهم الروافض الزنادقة، والباطنية الكفرة، والخوارج المارقة.

وَلَا تَكُ مِنْ قَوْمٍ تَلَهَّوْا بِدِينِهِمْ ... فَتَطْعَنُ فِي أَهْلِ الْحَدِيثِ وَتَقْدَحُ
وَقُلْ خَيْرَ قَوْلٍ فِي الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ ... وَفِي الْفَتْحِ آيٌ فِي الصَّحَابَةِ تَمْدَحُ

ثم أيها الطاعنون المطعون في عدلتكم إذا كانوا كتموا؛ فمن أين آتانا الدين إذا من عقولكم البائرة؟ أم من أفكاركم الحائرة؟ فلا إله إلا الله! ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦].

والله للطعن في أفهامكم وطريقتكم أولى وأحرى، فلا يزري بهم ويطعن فيهم إلا من خُرمت عدالته، وبارت طريقته، وفسدت فطرته، وقل ورعه، وعظم جهله، وتبلد فكره.

حكم ساب الصحابة:

والطعن في أصحاب رسول الله بحسبه فقد يكون كفرًا، وقد يكون معصية، فمن طعن فيهم من أجل الدين الذي حملوه وبلغوه فهو كافر بالله العظيم، قال الله تعالى: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾[التوبة:٦٥-٦٦].

وسبب نزول الآية أن قومًا طعنوا في أصحاب رسول الله ، فجعل الله ذلك كفرًا بعد إسلام.

قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول (٣٦٦): ونحن نرتب الكلام في فصلين: أحدهما: في سبهم مطلقًا، والثاني: في تفصيل أحكام الساب.

أما الأول: فسب أصحاب رسول الله حرام بالكتاب والسنة، -ثم ذكر الأدلة على ذلك-، وذكر قول مالك : إنما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النبي عليه الصلاة والسلام؛ فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه حتى يقال: رجل سوء ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين. اهـ

وقال (٣٧٥): أما من اقترن بسبه دعوى أن عليًّا إله، أو أنه كان هو النبي، وإنما غلط جبرائيل في الرسالة؛ فهذا لا شك في كفره بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره.

و كذلك من زعم منهم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت أو زعم أن له تأويلات باطنة، تسقط الأعمال المشروعة ونحو ذلك، وهؤلاء يسمون القرامطة والباطنية، ومنهم التناسخية، وهؤلاء لا خلاف في كفرهم.

و أما من سبهم سبًا لا يقدح في عدالتهم، ولا في دينهم مثل: وصف بعضهم بالبخل، أو الجبن، أو قلة العلم، أو عدم الزهد ونحو ذلك؛ فهذا هو الذي يستحق التأديب والتعزير، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من أهل العلم.

وأما من لعن وقبح مطلقًا؛ فهذا محل الخلاف فيهم لتردد الأمر بين لعن الغيظ، ولعن الاعتقاد، وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ إلا نفرا قليلًا يبلغون بضعة عشر نفسًا أو أنهم فسقوا عامتهم؛ فهذا لا ريب أيضًا في كفره لأنه كذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضى عنهم والثناء عليهم، بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين؛ فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق وأن هذه الآية التي هي ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠] وخيرها هو القرآن الأول كان عامتهم كفارًا أو فساقًا ومضمونها أن هذه الأمة شر الأمم وأن سابقي هذه الأمة هم شرارهم وكفر هذا مما يعلم باضطرار من دين الإسلام.

ولهذا تجد عامة من ظهر عليه شيء من هذه الأقوال؛ فإنه يتبين أنه زنديق وعامة الزنادقة إنما يستترون بمذهبهم وقد ظهرت لله فيهم مثلات، وتواتر النقل بأن وجوههم تمسخ خنازير في المحيا والممات وجمع العلماء ما بلغهم في ذلك ممن صنف فيه الحافظ الصالح أبوعبدالله محمد بن عبدالواحد المقدسي كتابه في النهي عن سب الأصحاب وما جاء فيه من الإثم والعقاب .

وبالجملة: فمن أصناف السابَّة من لا ريب في كفره، ومنهم من لا يحكم بكفره، ومنهم من تردد فيه. اهـ

[القول في القياس]

٢٠- وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ لَيْسَ فِي السُّنَّةِ قِيَاسٌ، وَلَا يُضْرَبُ لَهَا الْأَمْثَالُ، وَلَا تُتَّبَعُ فِيهَا الْأَهْوَاءُ، وَ إِنَّمَا هُوَ التَّصْدِيقُ بِآثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بِلَا كَيْفٍ وَلَا شَرْحٍ، وَلَا يُقَالُ: لِمَ، وَلَا كَيْفَ.

الشرح:

تعريف القياس:

القياس في اللغة: المساواة، يقال: قيس فلان بفلان أي: ساواه، وفي الإصطلاح: إلحاق فرع بأصل لعلة بينهما، واختلف العلماء فيه هل هو من الأصول المعمول بها، فذهب بعضهم إلى أن الأصول المعمول بها الكتاب والسنة والإجماع، وزاد بعضهم القياس.

أركان القياس

وأركان القياس عند من يرى العمل به أربعة:

١) الأصل وهو محل الحكم المشبه به كالخمر؛ فإنه أصل النبيذ، وقلنا ذلك؛ لأن الأصل ما كان حكم الفرع مقتبسًا منه ومردودًا إليه.

٢) الفرع وهو المحل الذي لم ينص على حكمه كالنبيذ، فإنه فرع والخمر أصل؛ لأن الجميع مسكر، وقلنا ذلك؛ لأن الفرع هو المفتقر إلى غيره والمردود إليه.

٣) العلة وهو الوصف المعرف للحكم، وينبغي أن يكون هذا الوصف ظاهرًا منضبطًا مجاوزًا مشتملًا على معنى مناسب للحكم كالإسكار بالنسبة لتحريم الخمر.

٤) حكم الأصل وهذا الحكم الشرعي الذي ورد به نص من كتاب أو سنة أو إجماع ويراد إثبات مثله في الفرع.

حكم القياس:

وللعلماء في حكمه قولان:

الأول: أن القياس حجة وإلى هذا القول ذهب جمهور العلماء، وبيان ذلك أن القياس دليل من الأدلة الشرعية المعتبرة لأثبات أحكام شرعية، واستدل مجيزي القياس بقول الله : ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[الحشر:٢]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾[البقرة:٢٦].

والقول الثاني: أن القياس ليس بحجة وليس من الأدلة الشرعية، وإلى هذا القول ذهب أهل الظاهر وغيرهم.

وذهب شيخنا مقبل إلى أن للعالم المجتهد أن يقيس لكن لا يلزم غيره بالأخذ بهذا القياس، وهذا فيه أنه ليس بحجة، لكن المجتهد يعمل بقدر ما يوصله إليه اجتهاده.

قال الخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٤٧-٣٤٨): والقياس: مثاله مثال الميزان، أن يوزن به الشيء من الفروع ليعلم ما يوازنه من الأصول فيعلم أنه نظيره، أو لا يوازنه، فيعلم أنه مخالفه، والاجتهاد أعم من القياس، والقياس داخل فيه والقياس: حجة في إثبات الأحكام العقلية، وطريق من طرقها مثل حدوث العالم، وإثبات

الصانع والتوحيد وما أشبهه، ومن الناس من أنكر ذلك، والدليل على فساد قوله إثبات هذه الأحكام لا يخلو إما أن يكون بالضرورة، أو بالاستدلال والقياس، ولا يجوز أن يكون بالضرورة، لأنه لو كان كذلك لم يختلف العقلاء فيها، فثبت أن إثباتها بالقياس والاستدلال بالشاهد على الغائب وكذلك: هو حجة في الشرعيات، وطريق لمعرفة الأحكام، ودليل من أدلتها من جهة الشرع.

وذهب إبراهيم النظام والرافضة إلى أنه ليس بطريق للأحكام الشرعية، ولا يجوز ورود التعبد به من جهة العقل وقال داود بن علي، وأهل الظاهر: يجوز أن يُراد التعبد به من جهة العقل، إلا أن الشرع ورد بحظره والمنع منه فأما الدليل على جواز وورود التعبد به من جهة العقل فهو أنه إذا جاز الحكم في شيء بحكم لعلة منصوص عليها، جاز أن يحكم فيه بعلة غير منصوص عليها، وينصب عليها دليل يتوصل به إليها، ألا ترى أنه لما جاز أن يؤمر من عاين الكعبة بالتوجه إليها في صلاته جاز أيضًا أن يؤمر من غاب عنها أن يتوصل بالدليل إليها.

وأما داود ومن تابعه فقد احتجوا بأن الله تعالى حرم علينا القول بما لا نعلم، فقال الله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣] والعلم إنما يدرك بالكتاب والسنة، وقال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩] معناه: فردوه إلى الكتاب والسنة.

وهذا يمنع من القياس قالوا: ولأن القصد بالقياس طلب الحكم فيما لا نص فيه، ولا توقيف، وليس عندنا حكم إلا وقد تناوله نص وتوقيف، فلم يكن للقياس

معنى مع أن الأحاديث عن رسول الله قد جاءت بالمنع منه، والصحابة والتابعون قد أنكروه، فدل على أن هذا إجماع منهم. اهـ

ثم بوب (٣٤٩) ذكر الأحاديث الواردة في ذم القياس وتحريمه والمنع منه، وذكر رقم (٣٨٦) عن ابن مسعود : إنكم إذا عملتم في دينكم بالقياس أحللتم كثيرًا مما حُرِّم عليكم وحرمتم كثيرًا مما أحل لكم.

وذكر عن مسروق بن الأجدع قوله: لا أقيس شيئًا بشيء قيل له لماذا؟ قال: أخشى أن تزل قدمي.

وأخرج رقم (٤٩٨) عن ابن أبي ليلى قال: كان الشعبي لا يقيس.

وقال صالح بن مسلم: كنت عند الشعبي ونحن ثلاثة أو أربعة فقال من غير أن يسأله أحد منا عن شيء: إنما هلكتم حين تركتم الآثار وأخذتم بالمقاييس يعلم الله لقد بغضوا إليَّ هذا المسجد حتى لهو أبغض إليَّ من كناسة داري هؤلاء الصعافقة.

وأخرج رقم (٥٠٢) عن المرُّوذي قال: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل ينكر على أصحاب القياس ويتكلم فيهم بكلام شديد.

وأخرج رقم (٥٠٦) عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس وقال: ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

وذكر ابن شبرمة نحوه، ثم ذكر أبوابًا في تجويز القياس يرجع إليه من أراد التوسع والذين يُجيزون القياس قسموه إلى صحيح وفاسد، فالصحيح معمول به والفاسد مردود قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٩/ ٢٨٨-٢٨٩):

وكل قياس دل النص على فساده فهو فاسد، وكل من ألحق منصوصا بمنصوص يخالف حكمه، فقياسه فاسد وكل من سوى بين شيئين، أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسد، لكن من القياس ما يُعلم صحته، ومنه ما يُعلم فساده ومنه ما لم يتبين أمره، فمن أبطل القياس مطلقا فقوله باطل، ومن استدل بالقياس المخالف للشرع فقوله باطل.

ومن استدل بقياس لم يقم الدليل على صحته فقد استدل بما لا يعلم صحته، بمنزلة من استدل برواية رجل مجهول لا يعلم عدالته، فالحجج الأثرية والنظرية تنقسم إلى: ما يعلم صحته وإلى ما يعلم فساده، وإلى ما هو موقوف حتى يقوم الدليل على أحدهما، ولفظ النص يراد به تارة ألفاظ الكتاب والسنة سواء كان اللفظ دلالته قطعية أو ظاهرة.

وهذا هو المراد من قول من قال: النصوص تتناول أحكام أفعال المكلفين، ويراد بالنص ما دلالته قطعية لا تحتمل النقيض كقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[البقرة: ١٩٦]، و﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾[الشورى:١٧].

فالكتاب هو النص والميزان هو العدل، والقياس الصحيح من باب العدل؛ فإنه تسوية بين المتماثلين وتفريق بين المختلفين، ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص، فكل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد ولا يوجد نص يخالف قياسا صحيحا كما لا يوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح، ومن كان متبحرا في الأدلة الشرعية أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام بالنصوص وبالأقيسة. اهـ

أقول: إذا عرفت هذا، فالقياس الصحيح يستطيع الطرف الذي لا يجيز القياس أن يأخذ الحكم من عمومات الأدلة وبقي أن القياس المذموم هو الرأي المحض الذي لا يدل عليه النقل والحمد لله.

حكم القياس في التوحيد والعقائد:

وأما القياس في التوحيد والعقائد فقد اتفق أهل السنة على أن القياس لا يجري في هذا الباب إن أدى إلى البدعة أو الإلحاد أو تشبيه الخالق بالمخلوق وتعطيل أسماء الله وصفاته، وهذا هو الذي أراده لمؤلف، قال الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢٩٧): القياس على ضربين: ضرب منه في التوحيد، وضرب في أحكام الشريعة: فالقياس في التوحيد على ضربين:

ضرب هو القياس الصحيح وهو: ما استدل به على معرفة الصانع تعالى وتوحيده، والإيمان بالغيب، والكتب، وتصديق الرسل، فهذا قياس محمود فاعله، مذموم تاركه.

والضرب الثاني من القياس في التوحيد: هو القياس المذموم الذي يؤدي إلى البدع والإلحاد، نحو تشبيه الخالق بالخلق، وتشبيه صفاته بصفات المخلوقين، ودفع قايسه ما أثبت الله تعالى لنفسه، ووصفته به رسله مما ينفيه القياس بفعله.

وأما الضرب الثاني من الأصل وهو المتعلق بأحكام الشريعة فهو على وجهين أيضًا: أحدهما: قياس الشيء على نظيره وشبيهه، فذلك محمود والآخر: قياسه على غير نظيره وشبيهه، فذلك مذموم. اهـ

وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧٤): لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة، وهم أهل الفقه والحديث في نفي القياس في التوحيد. اهـ

أنواع القياس في باب التوحيد:

والقياس في باب التوحيد ثلاثة أقسام:

١) قياس الأولى: ومضمونة كل كمال ثبت للمخلوق وجاز أن يتصف الله به؛ فالله أولى به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق، فالخالق أحق بالتنزه عنه وهذا يستخدمه بعض السلف في الرد على أهل البدع والضلال، وهذا القياس وهو وجوب تنزيه الله عن كل نقص ينزه عنه غيره ويذم به سواه فهو أمر فطري.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٢/ ٣٥٠): ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الإلهية قياس الأولى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾[النحل:٦٠]، إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولا يتماثلان في شيء من الأشياء، بل يعلم أن كل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه. اهـ

٢) قياس التمثيل: وهو القياس الذي يستوي فيه الأصل والفرع والله منزه عن هذا بل هذا النوع من الأقيسة في حقه كفر وضلال؛ لأن من مثل الله بخلقه كفر.

٣) قياس الشمول: وهو الذي تستوي أفراده وضابطه عندهم الاستدلال بكلي على جزئي بواسطة اندراج ذلك الجزئي مع غيره تحت هذا الكلي، وهذا قياس باطل وضلال وكفر؛ لأنه يؤدي إلى مماثلة الخالق بالمخلوق.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٥/ ٢٠٠): ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الرب سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى، فكل كمال حصل للمخلوق فالخالق أحق به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق أن ينزه عنه؛ ولهذا كان لله المثل الأعلى، فإنه لا يقاس بخلقه ولا يمثل بهم، ولا تضرب له الأمثال. فلا يشترك هو والمخلوق في قياس تمثيل بمثل؛ ولا في قياس شمول تستوي أفراده، بل ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[الروم:٢٧]. اهـ

فالواجب على المسلمين أن يثبتوا ما أثبته الله لنفسه وما أثبته رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل مع إثبات الكمال المقدس لله سبحانه وتعالى، وسيأتي بيان مذهب السلف الصالح في هذا الباب إن شاء الله تعالى. فكما أن القياس محرم في باب التوحيد والعقائد، ولا يجوز كذلك رد الأدلة بالأقيسة الفاسدة، فلا يجوز كذلك ضرب الأمثال الباطلة المخالفة للأدلة والتي تؤدي إلى ترك الحق والسنة، فما جاءك من أمر الله وأمر رسول الله فخذه واعمل به على ما جاء، سواء كان اعتقادًا، أو عملًا، من غير اتباع الهوى وضرب الأمثال الباطلة؛ فإن اتباع الأهواء سبب للضلال على ما تقدم بيانه.

أركان الإيمان بالنبي :

واعلم أن الإتباع للنبي يكون بتحقيق أركان الإيمان برسول الله وهي أربعة طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر والانتهاء عما نهى عنه وزجر وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع، وهذه الأركان من لازمها سعُد في الدنيا والآخرة، ومن لازمها مضادة الهوى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾[ص:٢٦].

قال الله : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[الحشر:٧] سواء كان في باب الأحكام أو العقائد، ومن فرق بينهما فقد ضل ضلالًا بعيدًا.

وقال الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

فمن كذب أو شك في صدق خبر الرسول ؛ فليس بمؤمن لا بالله ولا برسوله ولا بكتابه؛ فيجب التصديق والإقرار والتسليم، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

قال ابن كثير : يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكم الرسول في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا. اهـ

ولا يكون التحاكم والرضى بالحكم إلا بعد التصديق والإقرار والتسليم، ولهذا عاب الله من خالف ذلك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:٦٠]، فيجب إمرارها كلها. لهذه الأدلة على مراد الله ، ومراد رسوله مع الأخذ بفهم السلف الصالحين.

الكلام على الكيف:

قوله: (**بلا كيف ولا شرح... الخ**) السلف عندما ينفون الكيفية إنما ينفون معرفتها، وإلا فما من شيء موجود إلا وله كيف، والله أخبرنا عن صفاته ولم يخبرنا عن كيفيتها.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٥/ ٣٩١): وقال أبوعثمان: قرأت في رسالة أبي بكر الإسماعيلي إلى أهل جيلان أن الله ينزل إلى السماء الدنيا، على ما صح به الخبر عن النبي ، وقد قال الله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾[البقرة:٢١٠] وقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾[الفجر:٢٢].

نؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف، فلو شاء سبحانه أن يبين كيف ذلك فعل؛ فانتهينا إلى ما أحكمه، وكففنا عن الذي يتشابه، إذ كنا قد أمرنا به في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[آل عمران: ٧].

وروى عبدالرحمن بن منده بإسناده عن حرب بن إسماعيل، قال: سألت إسحاق ابن إبراهيم، قلت: حديث النبي : «**يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»، قال: نعم ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا كما شاء وكيف شاء، وقال: عن حرب: لا يجوز الخوض في أمر الله تعالى كما يجوز الخوض في فعل المخلوقين؛ لقول الله تعالى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣].

وروى أيضًا عن حرب قال: هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الحديث والأثر وأهل السنة المعروفين بها، وهو مذهب أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، والحميدي وغيرهم. كان قولهم: إن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء وكما شاء، ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

وروي أيضًا عن حرب: قال: قال إسحاق بن إبراهيم: لا يجوز لأحد أن يتوهم على الخالق بصفاته وأفعاله توهم ما يجوز التفكر والنظر في أمر المخلوقين؛ وذلك أنه يمكن أن يكون موصوفًا بالنزول كل ليلة إذا مضى ثلثاها إلى السماء الدنيا كما شاء، ولا يسأل كيف نزوله؛ لأنه الخالق يصنع كيف شاء. اهـ

فنؤمن بصفات الله مع إثبات اللفظ والمعنى الحق، بعيدًا عن تطلب علم ما حُظِر عنا معرفته؛ ولهذا جاء عند الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث ص(٤٥) وغيره أن رجلًا سأل مالكًا: الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ فقال الإمام مالك : الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وأمر بالرجل فطرد.

وليس في هذا الكلام تفويض، فإن التفويض من شر أقوال أهل البدع، ولكن فيه أن أهل السنة يُمِرُّون الأدلة على ظاهرها من غير شرحها بما يستبشع مما يؤدي إلى التعطيل أو التمثيل.

قال العثيمين في القواعد المثلى في القاعدة السادسة من قواعد الصفات: وأما التكييف: فهو أن يعتقد المثبت أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا، من غير أن يقيدها بمماثل. وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[طه:١١٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[الإسراء: ٣٦]، ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفات ربنا؛ لأنه تعالى أخبرنا عنها ولم يخبرنا عن كيفيتها، فيكون تكييفنا قفوًا لما ليس لنا به علم، وقولًا بما لا يمكننا الإحاطة به.

وأما العقل: فلأن الشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته، أو العلم بنظيره المساوي له، أو بالخبر الصادق عنه. وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله ، فوجب بطلان تكييفها.

وأيضًا فإننا نقول: أيُّ كيفية تقدرها لصفات الله تعالى؟

إن أيَّ كيفية تقدرها في ذهنك فالله أعظم وأجل من ذلك.

وأيَّ كيفية تقدرها لصفات الله تعالى فإنك ستكون كاذبا فيها؛ لأنه لا علم لك بذلك.

وحينئذ يجب الكف عن التكييف تقديرًا بالجنان، أو تقريرًا باللسان وتحريرًا بالبنان.

ولهذا لما سئل مالك عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ أطرق برأسه حتى علاه الرحضاء (العرق) ثم قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعه)، ورُوِيَ عن شيخه ربيعة أيضًا: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول).

وقد مشى أهل العلم بعدهما على هذا الميزان. وإذا كان الكيف غير معقول ولم يرد به الشرع، فقد انتفى عنه الدليلان العقلي والشرعي، فوجب الكف عنه.

فالحذر الحذر من التكييف أو محاولته، فإنك إن فعلت وقعت في مفاوز لا تستطيع الخلاص منها، وإن ألقاه الشيطان في قلبك فاعلم أنه من نزغاته، فالجأ إلى ربك فإنه معاذك، وافعل ما أمرك به فإنه طبيبك، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[فصلت:٣٦]. اهـ

وأصل ضلال كثير من الناس اعتراضهم على الله (لِمَ فعل كذا؟ ولِمَ لَمْ يفعل كذا؟) والله يقول: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣]، فالخلق خلقه والأمر أمره، ولا يجوز الاعتراض عليه.

وأما قوله: (وكيف؟) كذلك لا يقال كيف صفاته ولا كيف ذاته، والكيفية هي حقيقة الشيء وماهيته، ولا يعرف كيف الله؛ إلا الله سبحانه وتعالى، إذ لا تعرف كيفية الشيء إلا برؤيته أو رؤية مثيله، أو الأخبار عن كيفيته ممن يعرفها.

والإمام مالك بن أنس لما دخل عليه رجل وقال: يا إمام، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، كيف استوى؟ غضب وعلاه الرحضاء، فلما سري عنه قال: الكيف مجهول، والاستواء معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

والتكييف لصفات الله ضلال بعيد وقول على الله بلا علم، والله قد حرم القول عليه بلا علم، وقرنه بالشرك، بل إن بعض أهل العلم يجعله أعظم من الشرك؛ لأن الشرك إنما وقع بسبب القول على الله بلا علم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣].

ثم اعلم أن ما من صفة إلا ولها كيفية لكن علم كيفية الصفات من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، وكل هذا ممتنع في حق الله .

[بدعة علم الكلام والخصومة والجدال]

٢١- وَالْكَلَامُ وَالْخُصُومَةُ وَالْجِدَالُ وَالْمِرَاءُ مُحْدَثٌ يَقْدَحُ الشَّكَّ فِي الْقَلْبِ، وَإِنْ أَصَابَ صَاحِبُهُ الْحَقَّ وَالسُّنَّةَ.

الشرح:

مراده بالكلام الكلام المذموم الذي يزيح الكتاب والسنة.

قال الإمام الشافعي : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في الأسواق.

ولم يكن شيء أبغض إلى السلف رضوان الله عليهم من علم الكلام والخصومات بالباطل.

فقد جاء رجل إلى مالك فقال له: ناظرني، فقال: اذهب إلى شاك مثلك.

وفي الشريعة للآجري رقم (١٩٧٧): جاء رجل إلى الحسن فقال: يا أباسعيد تعالى أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أما أنا فقد بصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه.

وقال عمر بن عبدالعزيز كما في مقدمة سنن الدارمي (٣٠٩)، واللالكائي في أصول أهل السنة (٢١٦): من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل.

وعند اللالكائي في أصول أهل السنة (٢١٨) عن الحكم بن عتبة.

وقيل له: ما حمل أهل الأهواء على هذا؟ قال: الخصومات، وذكره أحمد في رسالته إلى المتوكل رقم (١٣).

وقال معاوية بن قرة: إياكم وهذه الخصومات؛ فإنها تحبط الأعمال. أخرجه اللالكائي (٢٢١)، وهو في رسالة أحمد رقم (١٤).

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٩/٤١): وأما أهل الأهواء والخصومات فهم مذمومون في مناقضاتهم؛ لأنهم يتكلمون بغير علم، ولا حسن قصد لما يجب قصده. اهـ

وأما الجدل: فمنه ما هو كفر، وهو الجدل في الله وغيره من أمور الإيمان بالباطل.

ومنه الجدل المحرم وهو الجدل بالباطل جدل أهل البدع والمعاصي لرد الحق.

ومنه المكروه وهو الذي يؤدي إلى تضييع الأوقات من غير طائل.

ومنه الواجب وهو الذي يُحق به الحق ويبطل به الباطل قال الله: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥]، ومنه الرد على أهل البدع والضلال، وقد قال رسول الله : «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. أخرجه الترمذي عن أبي أمامة رقم (٣٢٥٣).

وسبب نهي السلف عن الجدل وعلم الكلام والخصومات كونه يزعزع القلوب عن استقامتها، ومن أعظم أسباب بث الشبه بين المسلمين، وإنما يتقمص بهذه القمص أهل البدع والأهواء لا أهل السنة النصحاء، والشبه خطافة، فكثرة

الجدل مع أهل البدع ربما أورث الشك والريب في القلب؛ فمن علمت منه قبول النصح فانصحه، ومن رأيت منه الجدل والمراء فاتركه؛ لأن كثرة الجدال قد يقدح الشك في القلب، ففي الحديث: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا» أخرجه أبو داود (٤٨٠٠) عن أبي أمامة .

وقد كان السلف ينهون وينئون عن المراء والجدال والخصومات، خشية على أنفسهم وغيرهم من الزيغ والانحراف؛ فنعد اللالكائي في أصول أهل السنة رقم (٢٤٤) عن أبي قلابة الجرمي قال: لا تجالسوهم أهل الأهواء - أو قال: أصحاب الخصومات - ولا تخالطوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويُلبسوا عليكم كثيرًا مما تعرفون. وهذا الأثر في رسالة أحمد إلى المتوكل رقم (١٥).

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢٠٨-٢١٠): حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، فيئول أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد، وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم، في كتابه تهافت التهافت : ومن الذي قال في الإلهيات شيئًا يعتد به؟

وكذلك الآمدي، أفضل أهل زمانه، وقف في المسائل الكبار حائر. وكذلك الغزالي ، انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ، فمات والبخاري على صدره. وكذلك أبوعبدالله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات:

نِهَايَـةُ إِقْـدَامِ الْعُقُـولِ عِقَـالُ وَغَايَةُ سَـعْيِ الْعَالَـمِينَ ضَـلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُـسُومِنَا وَغَايَــةُ دُنْيَانَــا أَذًى وَوَبَــالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَـالُوا
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَـالٍ وَدَوْلَـةٍ فَبَـادُوا جَمِيعًـا مُـسْرِعِينَ وَزَالُـوا
وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتِهَا رِجَـالٌ فَزَالُـوا وَالْجِبَـالُ جِبَـالُ

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[طه:١١٠]، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وكذلك قال الشيخ أبوعبدالله محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلَّهَـا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَـيْنَ تِلْـكَ المَعَـالِمِ
فَلَـمْ أَرَ إِلَّا وَاضِـعًا كَـفَّ حَـائِرٍ عَـلَى ذَقَـنٍ أَوْ قَارِعًـا سِـنَّ نَـادِمِ

وكذلك قال أبوالمعالي الجويني: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به، وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور.

وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي، وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي، لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوما، فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال، فقال: نعم، فقال: أشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، وبكى حتى أخضل لحيته، ولابن أبي الحديد الفاضل المشهور بالعراق:

فِيكَ يَا أُغْلُوطَةَ الْفِكْرِ حَارَ أَمْرِي وَانْقَضَى عُمْرِي
سَافَرَتْ فِيكَ الْعُقُولُ فَمَا رَبِحَتْ إِلَّا أَذَى السَّفَرِ
فَلَحَى اللهُ الْأُلَى زَعَمُوا أَنَّكَ المَعْرُوفُ بِالنَّظَرِ
كَذَبُوا إِنَّ الَّذِي ذَكَرُوا خَارِجٌ عَنْ قُوَّةِ البَشَرِ

وقال الخوفجي عند موته: ما عرفت مما حصلته شيئًا سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح، ثم قال: الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئًا وقال آخر: أضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقر بما أقروا به ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك، التي كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم - إذا سلموا من العذاب - بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

والدواء النافع لمثل هذا المرض، ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح صلاته: «**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ،**

وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» خرجه مسلم.

توسل ﷺ إلى ربه بربوبية جبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة: فجبريل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها، فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة، له تأثير عظيم في حصول المطلوب، والله المستعان. اهـ

[القواعد في وصف الله عز وجل]

٢٢- وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّ الْكَلَامَ فِي الرَّبِّ تَعَالَى مُحْدَثٌ، وَهُوَ بِدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي الرَّبِّ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ، وَمَا بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ.

الشرح:

بيان أن الكلام في الرب تعالى محدث:

وذلك لأن الكلام في الرب تعالى إنما أحدثه المعتزلة والممثلة، وزد على ذلك أن الخوض في هذا الباب بالباطل داخل في عموم قول النبي : «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» متفق عليه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وحرم الله القول عليه بغير علم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣]، لأنه لا يعرف كيف الله إلا الله ، ولا تعلم صفات الله إلا من كتابه وسنة رسوله ؛ ولأن العقول عاجزة عن تصور الرب سبحانه وتعالى، أو معرفة كنهه.

ولذا قال ابن قدامة رحمة الله عليه في لمعة الاعتقاد : لا تمثله العقول بالتفكير، ولا تتوهمه القلوب بالتصوير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]. اهـ

وقد جاء في حديث أبي هريرة أن رسول الله قَالَ: «قَالَ اللهُ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يَزَالُونَ يَقُولُونَ مَا كَذَا مَا كَذَا، حَتَّى يَقُولُوا هَذَا اللهُ خَلَقَ الخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ» أخرجه مسلم (١٣٥).

وفي حديث أنس «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؛ فَإِذَا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله، وَلْيَنْتَهِ» أخرجه البخاري (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٦).

فكلام أهل البدع في الرب سبحانه وتعالى من أبطل الباطل قال الله : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾[الإسراء:٣٦].

فتجد أن الجهمية والمعتزلة ومن سار على سيرهم من أهل التعطيل ينفون عن الله ما أخبر الله به عن نفسه وتجد الممثلة يثبتون لله ما نزه الله عنه نفسه فضلوا وأضلوا بينما الواجب أن لا يتكلم في هذا الباب وفي جميع أبواب الغيب إلا بعلم من الكتاب أو السنة وهو أن تصف الله بما وصف به نفسه.

لأنه أعلم بنفسه وبغيره وتصفه بما وصفه به رسوله ؛ لأنه المبلغ عن الله سبحانه وتعالى قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٣-٤] من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، تنزيه بلا تعطيل، وإثبات بلا تمثيل.

وهذه القاعدة التي ذكرها البربهاري من أعظم قواعد هذا الباب، ولذا تجد أن العلماء قد تواردوا عليها في مؤلفاتهم وكتبهم وكلامهم على هذا الباب العظيم باب الأسماء والصفات فالكلام في هذا الباب توقيفي أي متوقف على الدليل من كلام ربنا، أو كلام نبينا .

قال شيخ الإسلام في مقدمة الرسالة التدمرية : التوحيد في الصفات، فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله، نفيا وإثباتا، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد: لا في أسمائه ولا في آياته فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨٠] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[فصلت:٤٠] الآية.

فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات: إثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]. ففي قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[الشورى:١١]: رد للتشبيه والتمثيل وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]. رد للإلحاد والتعطيل. اهـ

وقال الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (٣٦): إن أصحاب الحديث، حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم، يشهدون لله تعالى بالوحدانية، وللرسول بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله، أو شهد له بها رسوله على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلته

العدول الثقات عنه، ويثبتون له جل جلاله ما أثبت لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ، ولا يعتقدون تشبيها لصفاته بصفات خلقه. اهـ

وهنا قواعد أذكرها لحاجة المتعلم إليها في هذا الباب:

القاعدة الأولى: الله موصوف بما وصف به نفسه في كتابه الكريم، وما صح عن نبيه محمد الصادق الأمين، وبيان ذلك أن أسماء الله وصفاته توقيفية.

يُتوقف في أثباتها على الكتاب والسنة الصحيحة؛ لأنه لا يعرف كيف الله إلا الله ، وقد أوحى الله بذلك إلى محمد .

والدليل على هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣].

فوصف الله أو تسميته بما لا دليل عليه قول على الله بلا علم، وهو حرام حيث قرنه الله بالشرك به.

القاعدة الثانية: يجب على جميع المسلمين أن ينقادوا للكتاب والسنة، ولاسيما في هذا الباب، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه.

والدليل قول الله : ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[آل عمران:١٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧].

ومثال الإثبات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[النساء:٥٨]، نثبت لله السمع والبصر.

ومثال النفي: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة:٢٥٥]، فينزه الله عن النوم ومقدماته لكمال قيوميته ، ولأنه نفي ذلك عن نفسه، وهنا تنبيه يعرف بالقاعدة الثالثة.

القاعدة الثالثة: عند الإثبات والنفي يجب التخلي من محاذير تجر إلى الباطل والضلال، وتجر إلى الزيغ والانحراف:

أولًا: عند الإثبات: الحذر كل الحذر من التكييف والتمثيل، والتكييف: أن تتخيل لصفة الله كيفية وهيئة، فإن اقترن هذا التكييف بشيء موجود كان تمثيلًا، وإن لم يقترن كان تكييفًا، والتكييف والتمثيل من أعظم الإلحاد في أسماء الله وصفاته، فالله يقول: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[الإخلاص:٤].

ويقول: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١]، وفي أثر نعيم بن حماد شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه كفر.

ويجب أن نؤمن أن لصفات الله كيفية وحقيقة لكننا نجهلها؛ لأنها لا تعلم كيفية الشيء إلا بالنظر إليه، أو إلى مثليه، أو يحدثك من رآه عنه، وكل هذه الأمور منتفية في حق الله تعالى.

ثانيًا: عند التنزيه: يجب التخلي من محذورين: الأول التعطيل، والثاني: التحريف، والتعطيل في اللغة: هو التفريغ، وفي الاصطلاح: هو تعطيل الله من معاني الصفات، والتحريف: هو الميل، وفي الاصطلاح: يكون التحريف إما بتغيير اللفظ بزيادة أو نقصان، أو بهما، أو تغيير المعنى.

ومن هذه الأمثلة المحذورة قول القائل: يد الله كيدي، فهذا باطل وكفر، أو قوله: يد الله كذا وكذا على كيفية ليست كالمخلوقات، نقول: وهذا باطل وكفر وحرام؛ لأنك تقول على الله ما لا تعلم.

ومن أمثلتها في باب التحريف والتعطيل أن يقول القائل: يد الله هي نعمته، نقول: هذا باطل وحرام وكفر؛ لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره الذي أراده الله ، وهو إثبات اليد لله سبحانه يدًا تليق بجلاله لا تماثل صفات المخلوقين، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

القاعدة الرابعة: كل اسم من أسماء الله يتضمن صفة، كقول الله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، فاسم الحي يتضمن صفة الحياة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، وكقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، يتضمن اسم السميع صفة السمع، واسم العليم صفة العلم؛ لأن أسماء الله أعلام وأوصاف، ولهذا كانت حسنى تدل على الذات وتدل على الوصف.

القاعدة الخامسة: كل فعل أضافه الله إلى نفسه يشتق منه صفة، كقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾[آل عمران:٥٥]، وكقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[النساء: ١٦٤]، فثبت لله صفة الكلام كما يليق بجلاله.

وكقول النبي : «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ» الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة ، البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨). فنثبت لله صفة النزول كما يليق بجلاله.

القاعدة السادسة: ما أضيف إلى الله من المعاني التي تقوم بغيرها كالوجه والعين والكلام واليد وغير ذلك، فهو إضافة صفة إلى موصوف، وما أضيف إلى الله

من المعاني التي تقوم بنفسها فإضافتها إلى الله إضافة خلق أو ملك، كناقة الله ، وبيت الله .

القاعدة السابعة: كل دليل يدل على وصف الله فإنه يبقى على ظاهره المتبادر للسان العربي، والفطرة السليمة المستقيمة، ولا يجوز تحريفه؛ لأن هذا من الإلحاد الذي حرمه الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨٠]، ومعلوم أن الله أنزل القرآن ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء:١٩٥]، فصرف اللفظ من المعاني الحقة إلى معاني باطلة يعتبر جناية على القرآن، وعلى رب العالمين.

القاعدة الثامنة: ليُعلم أن المتصف بالصفات أكمل من الذين لا صفات له، فلا يعقل أن يكون المخلوق المربوب الضعيف المحتاج يسمع ويبصر ويعلم ويقدر، والله معطل عن ذلك، بل يثبت لله الكمال اللائق به مما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله .

القاعدة التاسعة: لسنا أحرص من السلف رضوان الله عليهم، فهم قد أثبتوا لله ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فلا يلبس علينا شياطين الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، والقرامطة والفلاسفة بشبه أوهى من خيط العنكبوت، وكل خير في اتباع من سلف.

القاعدة العاشرة: طريقة السلف أعلم وأحكم، فالسير عليها في جميع جوانب الحياة، فما من خير إلا وسبقونا إليه، وما من شر وضير إلا وحذرونا منه، وقديمًا قيل: عليك بآثار من السلف وإن كرهك الناس.

القاعدة الحادية عشر: الله أنزل القرآن، وذكر فيه صفاته وأسمائه، وذكر فيه الأحكام وغير ذلك، وكل هذه الآيات تُتلى على العالم والجاهل والذكر والأنثى، ليبلغ دين الله الحق، وخصوصًا في هذا الباب.

القاعدة الثانية عشرة: أن القول في بعض الصفات كالقول في الصفات الأخرى، وهذه القاعدة رد على الأشاعرة الذين يثبتون لله سبع صفات، وهي: حي مريد قادر علام والسمع والبصر والكلام، زاعمين أن هذه دل عليه العقل، فيلزمهم أن يثبتوا لله هذه الصفات التي دل عليها الشرع والعقل الصحيح لا يعارض النقل الصحيح، والعقل يعتبر في هذا الباب منقادًا لا قائدًا.

وهنا فائدة: وهي أن ما عارض الشرع من موازين العقل فهو إما قياس فاسد، أو خيال بارد، ويدل على تقرير مذهب السلف عدة أمور:

أولًا: أن باب الأسماء والصفات يدخل في نطاق علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، أو من علمه، فالعقل لا يدرك الغيب، فلا يدرك الأسماء والصفات على وجه التفصيل.

ثانيًا: أن العلم بالأسماء والصفات على وجه التفصيل فرع من العلم بالذات، والعقل لا يدرك الذات فلا يدرك الأسماء والصفات تفصيلًا.

ثالثًا: أن العقل عاجز عن إدراك كثير ما يدور حوله؛ فلأن يثبت عجزه عن إدراك باب الصفات والأسماء على سبيل التفصيل أولى وأحرى. انظر القواعد الكلية للبريكان ص (١٤٦).

[بيان أن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير]

٢٣- وَهُوَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَاحِدٌ لَيْسَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

الشرح:

الله واحد في أسمائه وصفاته، وواحد في ذاته، وواحد في أفعاله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١]، أي قد انحصرت فيه الأحدية فهو الأحد المنفرد بالكمال الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة الذي لا نظير له ولا مثيل، أفاده السعدي في تفسيره.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[الزمر:٤]، قال السعدي : أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيها له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه. القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن مقهورا، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه. ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهارا، والقهار لا يكون إلا واحدا، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه. اهـ

فيجب أن يُفرد بما يجب له في هذا الباب وغيره من أبواب التوحيد.

وهذه الآية عمدة في باب الأسماء والصفات؛ ففيها رد على الممثلة بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]، ورد على المعطلة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

فمذهب أهل الحق الجمع بين الإثبات والتنزيه إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل، والكاف في كمثله صلة وتوكيد وبيانها: (ليس مثله شيء) ومنه قول الشاعر:

لَـيْسَ كَمِثْـلِ الْفَتَـى زُهَـيْرٍ   خَلْـقٌ يُوَازِيـهِ فِي الْفَـضَائِلِ

أي: (ليس مثل الفتى زهير) وقيل غير ذلك.

والحذر عند إثبات الصفات من زلقة التكييف والتمثيل؛ فإنها من أعظم الزلقات خطرًا وكفرًا؛ فمن مثل الله بخلقه فقد كفر، والله يقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٧٤].

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٦٠] فالمراد به الوصف الأعلى والأكمل.

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، نفي مجمل، وهذا هو الأصل في النفي، وإنما يؤتى به لبيان عموم كماله سبحانه وتعالى، ويؤتى به مفصلًا لأمرين:

الأول: دفع توهم نقص، مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق:٣٨].

والثاني: دفع ما ادعاه في حقه المبطلون، قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[الإخلاص:٣].

ثم القاعدة هنا أن لا يكون النفي محضًا، فإن النفي المحض عدم، والعدم ليس بشيء، لكن كل نفي يتضمن كمال الضد، فمثلًا قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦] لبيان كمال عدله سبحانه وهكذا.

قال نعيم بن حماد الخزاعي : من مثل الله بخلقه؛ فقد كفر، ومن عطل الله من صفاته كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه، أو وصفه به روسله تكييف ولا تمثيل.

[أزلية الله وأبديته]

٢٤- رَبُّنَا أَوَّلٌ بِلَا مَتَى، وَآخِرٌ بِلَا مُنْتَهَى.

الشرح:

يدل على ذلك قول الله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد:٣].

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٧١٣): «**اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**».

فالله خالق وما سواه مخلوق، وهذا الحديث دل على إحاطته الزمانية والمكانية بكل شيء قال الله : ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[فصلت:٥٤] فالأول والآخر بيان لإحاطته الزمانية، والظاهر والباطن بيان لإحاطته المكانية.

ومعنى (**أول بلا متى**) أي: إن أوليته مطلقة أزلية لم تسبق بعدم، وقوله: (**آخر بلا منتهى**) يدل على آخريته المطلقة من كل وجه وأنه لا يلحقه فناء.

قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٣/ ١٠٦٧): فهذه الأسماء الأربعة متقابلة اسمان لأزل الرب وأبده، واسمان لعلوه وقربه. اهـ

التسلسل في الحوادث:

وهنا تذكر مسألة: وهي ما تسمى بتسلسل الحوادث، والأقوال فيها أربعة:

الأول: أن التسلسل واقع في الماضي والمستقبل، وهذا قول أهل الحديث.

الثاني: أن التسلسل واقع في المستقبل دون الماضي، وهذا قول أهل الكلام.

الثالث: أن التسلسل غير واقع لا في الأزل ولا في الأبد، وهذا قول الجهمية القائلين بفناء الجنة والنار.

الرابع: والذي لم يقل به أحد أن التسلسل واقع في الماضي لا في المستقبل.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية: فالحاصل: أن نوع الحوادث هل يمكن دوامها في المستقبل والماضي أم لا؟ أو في المستقبل فقط؟ أو الماضي فقط؟

فيه ثلاثة أقوال معروفة لأهل النظر من المسلمين وغيرهم:

أضعفها: قول من يقول، لا يمكن دوامها لا في الماضي ولا في المستقبل، كقول جهم بن صفوان وأبي الهذيل العلاف.

وثانيها: قول من يقول: يمكن دوامها في المستقبل دون الماضي، كقول كثير من أهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغيرهم.

والثالث: قول من يقول: يمكن دوامها في الماضي والمستقبل، كما يقوله أئمة الحديث.

وهي من المسائل الكبار. ولم يقل أحد يمكن دوامها في الماضي دون المستقبل. ولا شك أن جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون: إن كل ما سوى الله تعالى مخلوق كائن بعد أن لم يكن، وهذا قول الرسل وأتباعهم من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم. ومن المعلوم بالفطرة أن كون المفعول مقارنًا لفاعله لم يزل ولا يزال معه - ممتنع محال، ولما كان تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء.

فكذا تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء. فإن الرب - سبحانه وتعالى - لم يزل ولا يزال، يفعل ما يشاء ويتكلم إذا يشاء، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[آل عمران:٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣] وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾. وقال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾.

والمثبت إنما هو الكلام. الممكن الوجود، وحينئذ فإذا كان النوع دائمًا فالممكن. هو القديم. على كل فرد من الأفراد بحيث لا يكون في أجزاء العالم شيء يقارنه بوجه من الوجوه.

وأما دوام الفعل فهو أيضًا من الكمال، فإن الفعل إذا كان صفة كمال فدوامه دوام الكمال، قالوا: والتسلسل لفظ مجمل، لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ولا سنة، ليجب مراعاة لفظه، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن: فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته، وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية.

والتسلسل الواجب: ما دل عليه العقل والشرع، من دوام أفعال الرب - تعالى - في الأبد، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيمًا آخر لا نفاد له، وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر، فهذا واجب في كلامه، فإنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، ولم تحدث له صفة الكلام في وقت.

وهكذا أفعاله التي هي من لوازم حياته، فإن كل حي فعال، والفرق بين الحي والميت: الفعل، ولهذا قال غير واحد من السلف: الحي الفعال، وقال عثمان بن سعيد: كل حي فعال، ولم يكن ربنا - تعالى - قط في وقت من الأوقات معطلًا عن كماله، من الكلام والإرادة والفعل.

وأما التسلسل الممكن: فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف، كما تسلسل في طرف الأبد، فإنه إذا لم يزل حيا قادرًا مريدًا متكلمًا، وذلك من لوازم ذاته فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدمًا لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق - سبحانه - لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

قالوا: وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده ويقضي ببطلانه، وكل من اعترف بأن الرب تعالى لم يزل قادرًا على الفعل لزمه أحد أمرين، لا بد له منهما: إما أن يقول بأن الفعل لم يزل ممكنًا، وإما أن يقول لم يزل واقعًا، وإلا تناقض تناقضًا بينًا، حيث زعم أن الرب تعالى لم يزل قادرًا على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته، لو أراده لم يمكن وجوده، بل فرض إرادته عنده محال وهو مقدور له. وهذا قول ينقض بعضه بعضًا.

والمقصود: أن الذي دل عليه الشرع والعقل، أن كل ما سوى الله تعالى محدث كائن بعد أن لم يكن، أما كون الرب - تعالى - لم يزل معطلًا عن الفعل ثم فعل، فليس في الشرع ولا في العقل ما يثبته، بل كلاهما يدل على نقيضه. اهـ

قال شيخ الإسلام في الأصبهانية (٥٧): والفرق بين التسلسل في المؤثرات وهو التسلسل في الفاعلين، بحيث يكون لكل فاعل، وبين التسلسل في الآثار والمفعولات وهو جواز دوام الفعل والآثار، وأن الأول متفق على إبطاله بين العقلاء، وإنما تنازعوا في الثاني. اهـ

[بيان علم الله عز وجل المحيط بكل شيء]

٢٥- يعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى.

الشرح:

قال الراغب في المفردات : الإسرار خلاف الإعلان قال تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾[البقرة:٢٧٤]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[البقرة:٧٧] وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾[الملك:١٣].

ويستعمل في الأعيان والمعاني، والسر هو الحديث المكتم في النفس. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه:٧]، وقال تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾[التوبة: ٧٨] وساره إذا أوصاه بأن يسره. اهـ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾[الأعلى:٧]، فما يكون بين اثنين؛ فالله مطلع عليه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[المجادلة:٧] أي: معنا بعلمه وإحاطته وسلطانه وغير ذلك من خصائص ربوبيته.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٨٢]، وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾[البقرة:٢٥٥]، ويعلم ما هو أخفي من ذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[هود:٥]، وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[غافر:١٩]، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

والله يعلم بعلم خلافًا للمبتدعة من المعتزلة وغيرهم الذين يجعلون علمه ذاته، ومعنى هذا أنه غير متصف بصفة العلم على الحقيقة والعلم كمال ومعطي الكمال أولى به، والعاجز إنما يعجز عن الشيء إما لجهله أو عدم قدرته أو لاجتماعهما والله يقول عن نفسه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴾[فاطر:٤٤].

[إثبات استواء الله عز وجل على عرشه ومعيته لخلقه]

٢٦- وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى، وَعِلْمُهُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ مَكَانٌ.

الشرح:

ذكر الله تعالى استوائه على عرشه في عدة آيات في القرآن قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، وقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤].

ومعنى الاستواء: العلو والارتفاع والاستقرار والصعود، هذا إذا عديت بعلى، أما إذا عديت بإلى فقيل معناها العلو والارتفاع، وقيل: القصد، ولا تعارض مع قوله على العرش، فإنه قصد إلى خلق السماء وهو في علوه.

وهنا مسألة يذكرها أهل العلم، وهي متى كان استواء الله على عرشه هل بعد خلق السموات والأرض، أم قبل خلقهما؟ فذهب الشيخ ابن عثيمين في تفسيره إلى أن (ثم) تفيد الترتيب، فيكون الله خلق الأرض أولًا، ثم السماء، ثم استوى على العرش، وهكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية .

قال كما في المجموع (٥/٥٠٦-٥٠٧): فإن الله أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وقبل استوائه على العرش ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت:١١]، فهذا أو نحوه مما جاء في مبداء الخلق. اهـ

ولنشرع في الكلام على صفة العلو ثم على صفة الاستواء.

إثبات صفة العلو لله عز وجل:

الله متصف بجميع أنواع العلو علو القهر، وعلو القدر، وعلو الذات، بينما الحلولية والاتحادية يزعمون أن الله في كل مكان بذاته تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا فالقول بأن الله في كل مكان بذاته يؤدي إلى أن الله حال في الحشوش والطرقات، وأن الله حال في القاذورات إلى غير ذلك من اللوازم التي ينزه الله عنها.

وقد تنوعت دلالة القرآن والسنة على إثبات هذه الصفة لله سبحانه وتعالى، فتارة تأتي بلفظ الفوقية قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النحل: ٥٠]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٨].

وقال كما في حديث أبي هريرة عند الشيخين البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١): «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**».

ولا يقال: إن الآيتين يثبت بهما فوقية القدر فقط، بل يثبت له سبحانه فوقية القدر والقهر والعلو وفوقية القدر والقهر متفق عليهما بين الأمة وإنما نازع المبتدعة في فوقية الذات.

قال شيخ الإسلام في الفتوى الحموية في نقله عن الأشعري وقد قال القائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إن معنى قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، أنه استولى وقهر وملك وأن الله في كل مكان وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق وذهبوا في الاستواء إلى القدرة فلو كان كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله قادر على كل شيء والأرض فالله قادر عليها وعلى الحشوش وعلى كل ما في العالم فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء

وهو مستول على الأشياء كلها لكان مستويا على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأقذار؛ لأنه قادر على الأشياء مستول عليها وإذا كان قادرا على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله مستو على الحشوش والأخلية لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها. وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل. اهـ

وتارة يأتي بلفظ العلو قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[الأعلى:١]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[البقرة:٢٥٥].

وجاء من حديث حذيفة عند مسلم (٧٧٢): أنه صلى مع رسول الله فسمعه يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى».

وتارة يأتي بلفظ الاستواء قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، في عدة سور من القرآن، وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤].

وتارة يأتي بلفظ في السماء قال الله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الملك:١٦] الآيتين، أي على السماء فإن أحرف الجر تتناوب، قال تعالى عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[طه:٧١]، أي على جذوع النخل، وقال تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾[الملك:١٥]، والمراد بفي في إجماع العقلاء على إذا لا يعقل أن يمشي في باطن الأرض.

وقال رسول الله كما في حديث أبي سعيد عند البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤): «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟!».

وجاء من حديث معاوية بن الحكم عند الإمام مسلم (٥٧٣): أن رسول الله سأل الجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: في السماء، قال: «مَنْ أَنَا؟» قالت: رسول الله، قال: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

وتارة يأتي بلفظ نزول الأشياء من عنده: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:١٠٢]، إلى غير ذلك من الآيات، وكقول رسول الله : «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ» الحديث. أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة، وجاء عن عدة من الصحابة رضوان الله عليهم. والنزول إنما يكون من الأعلى والصعود من أسفل إلى أعلى.

وتارة يأتي بلفظ صعود الأشياء إليه قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[فاطر:١٠].

وتارة يأتي بلفظ العروج كقوله تعالى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج:٤]، والعروج يكون صعودًا من الأسفل إلى الأعلى.

ومن أصرح الأدلة أيضًا على ذلك حديث المعراج، وأن النبي عرج به حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أخرجه الشيخان البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي حبة الأنصاري وابن عباس . وحديث أنس

وتارة يأتي بلفظ الرفع إليه قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[آل عمران:٥٥].

وتارة يأتي بالإشارة إلى السماء، فقد أخرج الإمام مسلم (١٢١٨) من حديث جابر أن رسول الله خطب يوم عرفة وكان يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الأرض ويقول: «**اللهُمَّ اشْهَدْ**».

وهذا التنوع يدل على أن صفة العلو ثابتة لله تعالى، أما الأدلة على علوه فكثيرة جدًّا، وإنما ذكرنا بعضها فائدة للمستبصر وحجة على المتكبر.

وقد أجمع السلف رضوان الله عليهم قاطبة على علو الله سبحانه وتعالى بذاته، وأنه مستوي على عرشه، بائن من خلقه، تعالى الله عن قول الحلولية علوًا كبيرًا.

والفطرة السليمة تدل على أن الله في السماء، فلا يصيب الإنسان خطب من الخطوب إلا وتعلق قلبه بالسماء.

فقد جاء عن أبي جعفر الهمذاني: أنه حضر مجلسًا لأبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو وهو يقول: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان، فقال أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط يا الله إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟ فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل، قال: وبكى وقال: حيرني الهمذاني حيرني الهمذاني.

أراد الشيخ أن هذا أمرٌ فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المعلمين يجدون في قلوبهم طلبًا ضروريًا يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو. اهـ من شرح الطحاوية .

قال ابن القيم :

وَإِلَيْهِ أَيْدِي السَّائِلِينَ تَوَجَّهَتْ ... نَحْوَ الْعُلُوِّ بِفِطْرَةِ الرَّحْمَنِ
وَإِلَيْهِ آمَالُ الْعِبَادِ تَوَجَّهَتْ ... نَحْوَ الْعُلُوِّ بِلَا تَوَاصٍ ثَانِ
بَلْ فِطْرَةُ الله الَّتِي لَمْ يُفْطَرُوا ... إِلَّا عَلَيْهَا الْخَلْقُ وَالثَّقَلَانِ
وَنَظِيرُ هَذَا أَنَّهُمْ فُطِرُوا عَلَى ... إِقْرَارِهِمْ لَا شَكَّ بِالدَّيَّانِ
لَكِنْ أُولُو التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ أَصْبَحُوا ... مَرْضَى بِدَاءِ الْجَهْلِ وَالْخُذْلَانِ

وقال في موضع آخر:

وَعُلُوُّهُ فَوْقَ الْخَلِيقَةِ كُلِّهَا ... فُطِرَتْ عَلَيْهِ الْخَلْقُ وَالثَّقَلَانِ
لَا يَسْتَطِيعُ مُعَطِّلٌ تَبْدِيلَهَا ... أَبَدًا وَذَلِكَ سُنَّةُ الرَّحْمَنِ
كُلٌّ إِذَا مَا نَابَهُ أَمْرٌ يُرَى ... مُتَوَجِّهًا بِضَرُورَةِ الْإِنْسَانِ
نَحْوَ الْعُلُوِّ فَلَيْسَ يَطْلُبُ خَلْفَهُ ... وَأَمَامَهُ أَوْ جَانِبَ الْإِنْسَانِ

قال ابن القيم في الصواعق (٣/ ١٢٨١): وجميع الطوائف تنكر قول المعطلة؛ إلا من تلقاه منهم، وأما العامة من جميع الأمم ففطرهم جميعهم مقرة بأن الله فوق العالم. اهـ

ومع أن العلو ثابت بالكتاب والسنة حتى ولو لم تدل عليه العقول لوجب الإيمان بما أخبر الله تعالى به وانتفاء الدليل لا يدل على انتفاء المدلول فالعلو ثابت

بدلالة السمع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومع ذلك قد دل العقل على هذه الصفة من عدة وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس ثم إلا علو أو سفل، والعلو صفة كمال، والسفل صفة نقص، والله جل وعز متنزه عن النقائص. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الروم:٢٧].

ومعلوم من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله لا تحيطه المخلوقات ولا تحويه جل وعز، وقد تقدم أنه متنزه عن السفل، فثبت أنه في العلو جل وعز، ولكن المعطلة قومٌ بهت لا يعقلون حديثًا، مسخت فطرهم وتبلدت أذهانهم، فلا يعرفون إلا ما أشرب من هواهم، فنعوذ بالله من الخذلان.

وزاد ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٣٢٥): الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجًا عن ذاته، والأول باطل:

أما أولًا: فبالاتفاق، وأما ثانيًا: فلأنه يلزم أن يكون محلًا للخسائس والقاذورات -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-.

والثاني: يقتضي كون العالم واقعًا خارج ذاته، فيكون منفصلًا، فتعينت المباينة؛ لأن القول أنه غير متصل بالعالم وغير منفصل غير معقول.

الثالث: أن كون الله لا داخل العالم ولا خارجه ينفي وجوده بالكلية. اهـ

وكما هي عادة أهل الزيغ والريب أنهم يتمسكون بالطحلب ويظنونه حبلًا، فقد ذهب بعضهم إلى أن المراد بالفوقية أنه خير من عباده وأفضل، وأنه خير من

العرش وأفضل منه، وما أسمج وأسخف أصحاب هذا القول الذين يتنقصون به الله تعالى وتقدس عن النقائص وهم لا يشعرون.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٣٢٣): فإن قول القائل: ابتداء الله خير من عباده، وخير من عرشه هو من جنس قول القائل: الثلج بارد والشمس حارة، والشمس أضوء من السراج، ورسول الله أفضل من فلان اليهودي، والسماء فوق الأرض، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم، ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه، فكيف بكلام الله الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، بل في ذلك تنقص كما قيل:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

ولو قال قائل: الذهب فوق قشر البصل، وقشر السمك لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما، فإن التفاوت بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك، بأن كان احتجاجًا على مبطل كما في قول يوسف: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[يوسف:٣٩]، وقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[طه:٧٣].

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن إثبات الفوقية المطلقة من كل وجه، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات، من أثبت البعض ونفي البعض فقد تنقص وعلوه سبحانه مطلق من كل الوجوه. اهـ

وقال الإمام ابن القيم في الكافية في رده على من قال: إن الفوقية فوقية القدر والقهر:

وَالْفَوْقُ وَصْفٌ ثَابِتٌ بِالذَّاتِ كُلِّ الْوُجُوهِ لِفَاطِرِ الْأَكْوَانِ

لَكِنْ نُفَاةُ الْفَوْقِ مَا وَافَوْا بِهِ ... جَحَدُوا كَمَالَ الْفَوْقِ لِلدَّيَّانِ
بَلْ فَسَّرُوهُ بِأَنَّ قَدْرَ الله أَعْـ ... ـلَى لَا بِفَوْقِ الذَّاتِ لِلرَّحْمَنِ
قَالُوا وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ النَّاسِ فِي ... ذَهَبٍ يُرَى مِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ
هُوَ فَوْقَ جِنْسِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ ... بِالذَّاتِ بَلْ فِي مُقْتَضَى الْأَثْمَانِ
وَالْفَوْقُ أَنْوَاعٌ ثَلَاثٌ كُلُّهَا ... لله ثَابِتَةٌ بِلَا نُكْرَانِ
هَذَا الَّذِي قَالُوا وَفَوْقُ الْقَهْرِ وَالْـ ... ـفَوْقِيَّةُ الْعُلْيَا عَلَى الْأَكْوَانِ

استواء الله عز وجل على عرشه:

والاستواء ثابت بكتاب الله ، حيث ذكر الله الاستواء في سبعة مواطن من القرآن، قال الله : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، والاستواء من الصفات الفعلية.

وأما الأدلة التي فيها ذكر استواء الله سبحانه وتعالى على عرشه فقد صرفها أهل التعطيل عن ظاهرها بدون مسوغ ولا دليل من الكتاب أو السنة، أو قول صاحب أو تابع ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾[النجم:٢٣]، فقالوا: هي بمعنى استولى وعمدتهم في ذلك قول قاله الأخطل النصراني:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

وقد أحسن شيخ الإسلام إذ يقول:

قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ الْقُرَانَ وَرَاءَهُ ... وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الْأَخْطَلُ

وقال ابن القيم في نونيته:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَوْلٌ قَالَهُ ... فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي

وهم والله شابهوا اليهود حين قيل لهم: ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة، فدخلوا الباب يزحفون على أساتهم وقالوا: حبة في شعيرة.

وقد قال ابن القيم في ذلك:

نُـونُ الْيَهُـودِ وَلاَمُ جَهْمِـيٍّ هُمَـا فِي وَحْـيِ دِيـنِ اللهِ زَائِـدَتَانِ

وهم يردون خبر الآحاد ويقبلون خبر هذا الواحد الكافر، وإن سلمنا أنه مسلم فهو من الشعراء المولّدين الذين لا يحتج بشعرهم في اللغة.

وكذلك رجل قد تعكرت عقيدته بالمعتقدات السابقة، فلم يتخلص منها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

وقد رد ابن القيم هذه الشبهة السقيمة العليلة التي هي أوهى من خيط العنكبوت كما في مختصر الصواعق (٢/١٢٦) بوجوه كثيرة نورد بعضها باختصار:

الأول: أن لفظ الاستواء في لغة العرب التي خاطبنا الله بلغتهم، وأنزل بها كلامه، نوعان: مطلق ومقيد، فالمطلق ما لم يوصل معناه بحرف مثل قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[القصص:١٤] وهذا معناه كمل وتم، وأما المقيد فثلاثة أضراب:

أحدها: مقيد بـ(إلى) كقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[فصلت:١١]، وهذا مذكور في موضعين من كتاب الله في سورة البقرة وسورة فصلت، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف كما سنذكره.

قال العثيمين: فيكون المعنى قصد إليه علوًا وارتفاعًا.

الثاني: المقيد بـ (على) كقوله ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[الزخرف:١٣]، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[الفتح:٤٨]، وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو مع التي تعدي الفعل إلى المفعول معه نحو: استوى الماء والخشبة، بمعنى ساواها، وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ليس فيها معنى استولى البتة، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخر والنحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية...

وقال : الوجه الثالث: أن أهل اللغة لما سمعوا ذلك -أي استوى بمعنى استولى- أنكروه غاية الإنكار ولم يجعلوه من لغة العرب.

قال ابن العربي: عند أن سئل: هل استوى بمعنى استولى؟ لا تعرف العرب ذلك، وهذا من أكابر أئمة اللغة.

الوجه الرابع: نقل قول الخطابي : لو كان الاستواء هاهنا بمعنى الاستيلاء لكان الكلام عديم الفائدة؛ لأن الله تعالى قد أحاط علمه وقدرته بكل شيء، فما معنى تخصيص العرش بالذكر، ثم إن الاستيلاء إنما يتحقق معناه عند المنع من الشيء، فإذا وقع الظفر به قيل: استولى عليه، فأي منع كان هناك، حتى يوصف بالاستيلاء. اهـ

قال ابن القيم في نونيته:

أُمِـرَ الْيَهُـودُ بِـأَنْ يَقُولُـوا حِطَّـةٌ ... فَـأَبَوْا وَقَـالُوا حِنْطَـةٌ لِهَـوَانِ

وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ قِيلَ لَهُ اسْـتَوَى ... فَـأَبَى وَزَادَ الْحَـرْفَ لِلنُّقْـصَانِ

قَالَ اسْتَوَى اسْتَوْلَى وَذَا مِنْ جَهْلِهِ ... لُغَـةً وَعَقْـلًا مَـا هُمَـا سِـيَّانِ

نُـونُ الْيَهُـودِ وَلَامُ جَهْمِـيٍّ هُـمَا   فِي وَحْـيِ رَبِّ الْعَـرْشِ زَائِـدَتَانِ
وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ عَطَّـلَ وَصْـفَهُ   وَيَهُـودُ قَـدْ وَصَـفُوهُ بِالنُّقْـصَانِ
فَهُـمَا إِذَنْ فِي نَفْـيِهِمْ لِـصِفَاتِهِ الْـ   ـــعُلْيَا كَـــمَا بَيَّنْتُـــهُ أَخَـــوَانِ

وهذا الذي ذكرنا قليل من كثير، وغيض من فيض، يسترشد به المستبصر، ويعمى عنه المعرض المتكبر. نسأل الله العون والسداد والتوفيق والرشاد، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وقد اعترض أهل الضلال والريب على الدليل الفطري وأن القلوب مفطورة على التعلق بالعلو أن السماء قبله الدعاء

والرد عليهم من وجوه:

الأول: لو كانت السماء قبلة الدعاء للزم التوجه إليها عند الدعاء، وهذا لم يرد عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة الكرام ولا التابعين لهم بإحسان، بل ورد أنه كان يستقبل القبلة في كثير من دعاءه كما في حديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه المتفق عليه البخاري (١٠٠٥)، ومسلم (٨٩٤) أنه خرج يستسقي فاستقبل القبلة يدعو، وكما في حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم (١٢١٨) في وصف حجة الوداع وأنه استقبل القبلة يدعو طويلًا في كل وقوف على الصفا والمروة، ولما كان في عرفة استقبل القبلة يدعو.. الحديث بطوله، إلى غير ذلك من الأدلة.

الثاني: أنه قد ورد النهي عن استقبال السماء ورفع البصر إليها عند الدعاء قال رسول الله ﷺ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ، أَوْ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ**» الحديث أخرجه مسلم (٤٢٨) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، وجاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه أخرجه مسلم (٤٢٩).

الثالث: أن رسول الله قد رغب في الدعاء في السجود وحال الساجد مستدبرًا للسماء كما هو معلوم، قال رسول الله كما في حديث ابن عباس : «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ» أخرجه مسلم (٤٧٩).

الرابع: قولهم: إن السماء قبلة الدعاء قول محدث لم يقله أحد من السلف إلى غير ذلك من الأوجه التي ذكرها أهل العلم.

معية الله عز وجل لخلقه:

الله معنا بعلمه وإحاطته وسلطانه وقهره وغير ذلك من خصائص ربوبيته وهو على عرشه استوى وعلمه بكل مكان، وسلطانه بكل مكان، وهكذا قال الله : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾[الملك:١٦] فالله أخبر أنه في العلو، وأما قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤].

فهو على ظاهره، لكن ظاهره معية العلم والإحاطة وغير ذلك من خصائص ربوبيته؛ لأن الله افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم قال الله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٨٢].

وجميع بين استواءه على عرشه وبين معيته، والقرآن لا يناقض بعضه بعضًا قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤] فهو معنا وهو على عرشه بائن من خلقه منفصل عنهم.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٥/ ١٠٢): وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[الحديد:٤].

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال: «وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»[(١)].

وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى. فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي لمجاعته لك، وإن كان فوق رأسك. فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾[الحديد:٤] دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم. وهذا معنى قول السلف: أنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته. وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾[المجادلة:٧].

ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[التوبة: ٤٠][(٢)]، كان هذا أيضًا حقًا على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع، والنصر والتأييد. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ

(١) رواه أبوداود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وهو ضعيف، عبدالله بن عميرة لم يسمع من لاحق. قاله البخاري.

(٢) حديث أنس أخرجه البخاري (٤٦٦٣) ومسلم (٢٣٨١).

هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[النحل:١٢٨] وكذلك قوله لموسى وهارون: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه:٤٦]. هنا المعية على ظاهرها، وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد.

وقد يدخل على صبي من يخيفه فيبكي، فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول: لا تخف أنا معك أو أنا هنا، أو أنا حاضر ونحو ذلك. ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها، وربما صار مقتضاها من معناها، فيختلف باختلاف المواضع.

فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضي في كل موضع أمورًا لا يقتضيها في الموضع الآخر، فأما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها وإن امتاز كل موضع بخاصية فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب مختلطة بالخلق، حتى يقال: قد صرفت عن ظاهرها. اهـ

أقسام المعية:

وتنقسم المعية إلى قسمين:

معية عامة: وهي المقتضية للعلم والإحاطة والقهر وغير ذلك، وهي المشار إليها في هذه الآية.

ومعية خاصة: وهي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[النحل:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾[التوبة:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:٢٤٩]، فهذه تقتضي النصر والتأييد.

قوله: **(وعلمه بكل مكان ولا يخلو من علمه مكان)** يدل على كمال علم الله وإحاطته بجميع الأشياء قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩]، وقد قال الله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٨٢] وكل من ألفاظ العموم، ويقول: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[فصلت:٥٤].

ومن كمال علمه سبحانه وتعالى أنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون فقد قال الله : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[الأنفال:٢٣]، وقال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨].

والعجب أن المعتزلة ومن إليهم من المعطلة يعطلون الله عن صفة العلم ويقولون عليم بلا علم تعال الله عن قولهم علوًا كبيرًا، وذهب بعضهم إلى أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات وهذا من غاية ضلالهم، وقد تقدمت الآيات المبينة لعموم علم الله بكل شيء جزئي وكلي والحمد لله، مع أنه لا يوجد الكلي إلا في الذهن، فعلى هذا فكل مخلوق موجود هو داخل في الجزئيات.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٧/ ٥٩١): فإن وجود الكليات في الخارج مشروط بالجزئيات. اهـ

[النهي عن السؤال عن كيفية الصفة]

٢٧- وَلَا يَقُولُ فِي صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى كَيْفَ وَلِمَ إِلَّا شَاكٌّ فِي اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الشرح:

الذي يجب عليك أيها المسلم أن تؤمن أن الله له الأسماء الحسنى والصفات العلى على ما يليق بجلاله، والذي يعتقد أن ما من موجود إلا وله كيف وصفات الله لها كيف، لكن نفوض معرفة الكيفية؛ لأنه لا يعرف كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى، والكيفية هي حقيقة الشيء وماهيته الذي هو عليها، ولا يمكن أن تعرف الكيفية إلا بثلاثة أمور:

الأول: النظر إلى ذلك المُكيف. ثانيًا: رؤية مثيله. الثالث: أن يخبرك من رآه عنه وكل هذه منتفية في حق الله . فما من صفة من صفات الرب تعالى إلا وهي معلومة المعنى، لكن الكيف مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وأيضًا السؤال بـ(لِمَ) اعتراض على أقدار الله والله يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣] فلا يجوز الاعتراض على أقدار الله ؛ لأن الملك ملكه، والأمر أمره، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد.

بيان قول الله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾:

قال ابن القيم كما في التبيان في أقسام القرآن صـ(٩٥) قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦] دليل على أمور:

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادمًا لهذا الكمال في وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:١٧]، وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثًا بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئًا فعله، فإن (ما) موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر، فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلًا لم يوجد الفعل، وإن أراده حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلًا، وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية وخبطوا في مسألة القدر؛ لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلًا، وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله، وقد يريد فعله ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل.

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلى قول النبي ﷺ حاكيًا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة: «**وَقَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ أَبِيكَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا**» ولم يقع هذا المراد؛ لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

الرابع: أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثَمَّ فعّال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه تعالى أنه يريد على الدوام، ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يُري نفسه لعباده، وأن يتجلى لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه، لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد، وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده ردًّا لكماله الذي أخبر به عن نفسه، وهذا عين الباطل، وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء وإثبات ما شاء أمكن فعله وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس. اهـ

بل يجب التسليم والقبول والانقياد قال الطحاوي في عقيدته: ولا تثبت قدم الإسلام؛ إلا على ظهر التسليم، فمن رام علم ما حضر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم؛ فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان. اهـ

[القرآن كلام الله غير مخلوق]

٢٨- وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، وَتَنْزِيلُهُ وَنُورُهُ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ اللهِ، وَمَا كَانَ مِنَ اللهِ فَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، وَهَكَذَا قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَالْفُقَهَاءُ قَبْلَهُمَا وَبَعْدَهُمَا.

الشرح:

القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وعلى هذا إجماع أهل السنة قاطبة والأدلة على ذلك كثيرة؛ فالدليل على أنه كلامه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:٦].

والدليل على أنه تنزيله قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت:٢].

والدليل على أنه نور قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة:١٥].

والدليل على أنه إليه يعود؛ حديث حذيفة : «وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ» أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩).

وصفة الكلام من الصفات الذاتية الفعلية إذ لم يزل الله ، ولا يزال متكلمًا إذ شاء متى شاء كيف شاء ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦].

وصفة الكلام صفة كمال ومعطي الكمال أولى به، والكلام معنى يقوم بغيره، فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف.

والنبي يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم .

فلو كان الكلام مخلوقًا لما جاز الاستعاذة بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، والعلماء يرون أن من حلف بكلام الله ، فإن حنث وجبت عليه الكفارة، بينما لو كان مخلوقًا لم تجب فيه كفارة وإنما تجب التوبة من الشرك.

ومن زعم أن القرآن مخلوق يلزمه أن يكون خلقه في نفسه، وهذا مُحال أن يكون الباري تعالى محلًا للحوادث، وهذا قول كفر وزندقة.

أو خلقه في غيره وهذا يلزم منه أن يكون كل كلام في الوجود هو كلامه، بل قد صرح بعض من يقول بهذا المذهب بقوله:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ   سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

أو خلقه ذات قائمة بنفسها وهذا أيضًا محال؛ لأن الكلام إنما يقوم بغيره، واستدل المبطلون على أن كلام الله مخلوق بقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[الزخرف:٣].

فقالوا: جعل بمعنى خلق وهذا باطل، فإن جعل تأتي بمعنى خلق إذا عُديت بمفعول واحد وتأتي بمعنى صير إذا عُديت بمفعولين قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾[الأنعام:١] فهذه بمعنى خلق، و﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ

تَعۡقِلُونَ ﴾ بمعنى صير، وعلى هذا القول الذي قالوه ماذا يقولون في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾[البقرة:٢٢٤] لا تخلقوا.

وماذا يقولون في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ ﴾[الزخرف:١٩] خلقوا هذا لم يقله عاقل.

واستدلوا بقول الله : ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾[الأنعام:١٠٢] قالوا والقرآن شيء نقول الله شيء كذلك فهل هو مخلوق قال الله : ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ﴾[الأنعام:١٩].

وأيضًا قالوا: كل تفيد العموم، قلنا: تفيد العموم بحسبه، فالله يقول عن ملكة اليمن: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾[النمل:٢٣].

وهي لم تؤت ملك سليمان؛ فمعنى الآية مما يؤتاه الملوك، وقال الله عن ريح عاد: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ ﴾[الأحقاف:٢٥] فالمساكن أشياء وما دمرتها، وإنما تدمر ما يقبل التدمير، فتنبه ولا تكن من الضالين، والله يقول: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[النساء:١٦٤].

فأكد الكلام بالمصدر فلا يدخله المجاز، وإن قالوا خلق الله الكلام في الشجرة، قلنا لهم: هل يجوز لمخلوق أن يقول: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾[طه:١٤] هذا محال وباطل ومن عقيدة أهل السنة أن الله يتكلم بحرف وصوت.

قال الله : ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾[مريم:٥٢] والنداء بصوت مرتفع والنداء بصوت خافت.

وذهبت الأشاعرة إلى أن كلام الله نفساني، والقرآن عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه فعلى قولهم المتكلم به إما جبريل عليه السلام أو محمد ، وهذا القول مؤداه أن الكلام مخلوق واستدلوا بقول الأخطل:

إِنَّ الْبَيَـانَ لَفِـي الْفُـؤَادِ وَإِنَّـمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُـؤَادِ دَلِـيلَا

قال ابن القيم في نونيته :

وَدَلِـيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَـوْلٌ قَالَـهُ فِـيمَا يُقَـالُ الْأَخْطَـلُ النَّـصْرَانِي

وعجبًا لهم كيف لا يستدلون بأحاديث الآحاد في العقائد، ثم يستدلون ببيت قاله الأخطل مع أنه لا خطام له ولا زمام، بل قد وجد في بعض النسخ:

إِنَّ الْبَيَـانَ لَفِـي الْفُـؤَادِ وَإِنَّـمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُـؤَادِ دَلِـيلَا

قوله: (**لأن القرآن من الله، وما كان من الله فليس بمخلوق**) يدل على أن القرآن من الله قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت:٢]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الزمر:١]، فهو المتكلم به سبحانه وتعالى حقيقةً بصوت، سمعه منه جبريل عليه السلام، وبلغه جبريل إلى محمد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في المجموع (١٢/ ١٢٩): فقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وقوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وقوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأمثال ذلك يدل على أنه منزل من الله لا من غيره، وكذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه يدل على إثبات أن ما أنزل إليه من ربه وأنه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك. اهـ

وراجع أقوال السلف المسندة في هذا الباب كتاب شرح أصول أهل السنة والجماعة للإمام هبة الله اللالكائي (٢/ ٢٢٧-٢٧٢)، وسيأتي مزيد بيان ورد على شبه القوم في موطنه إن شاء الله تعالى.

[المراء في القرآن كفر]

٢٩- وَالْمِرَاءُ فِيهِ كُفْرٌ.

الشرح:

المراء والجدال في القرآن برده وتحريفه وتكذيبه ضلال عظيم وكفر وزندقة، حذر رسول الله من متتبعي متشابهه ففي الصحيحين: البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) عن عائشة قالت: تَلَا رَسُولُ الله هَذِهِ الآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران:٧]. قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله: «**فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى الله فَاحْذَرُوهُمْ**».

والجدال في القرآن بالباطل من أسباب الاختلاف، ففي مسلم (٢٦٦٦) عن عبدالله بن عمرو قال: هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ الله يَوْمًا قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الغَضَبُ فَقَالَ: «**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الكِتَابِ**».

وقوله: (**المراء في القرآن كفر**) قد صح مرفوعًا عن النبي من حديث أبي هريرة، أخرجه أحمد (٧٨٤٨)، وأبو داود في سننه (٤٦٠٣) (باب النهي عن الجدال في القرآن)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢٨٨٢)، واللالكائي في

أصول أهل السنة (١٨٢)، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠١٦٠) بلفظ: «جِدَالٌ فِي القُرْآنِ كُفْرٌ».

وجاء عن عبدالله بن عمر عند ابن أبي شيبة (٣٠١٥٧)، وهو في المطالب العالية رقم (٣٥١٩) بلفظ: «لَا تُجَادِلُوا فِي القُرْآنِ؛ فَإِنَّ الجِدَالَ فِي القُرْآنِ كُفْرٌ».

وأخرج أحمد في مسنده برقم (١٧٥٤٢) عن أبي الجهم؛ أن النبي قال: «لَا تُمَارُوا فِي القُرْآنِ؛ فَإِنَّ مِرَاءً فِي القُرْآنِ كُفْرٌ».

وبيان ذلك ما قال ابن عباس : لا تضربوا القرآن بعضه ببعض؛ فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم.

والجدال في القرآن والمراء فيه سبيلٌ إلى الكفر والزندقة، قال الآجري في الشريعة : فصار المراء في القرآن كفرًا بهذا المعنى، يقول هذا: قراءتي أفضل من قراءتك، ويقول الآخر: بل قراءتي أفضل من قراءتك، ويُكذِّب بعضُهم بعضًا، فقيل لهم: ليقرأْ كلُّ إنسان كما عُلِّم، ولا يَعِبْ بعضُكم قراءة غيره، واتقوا الله، واعملوا بمحكمه، وآمِنوا بمتشابهه، واعتبِروا بأمثاله، وأَحلِّوا حلاله، وحرِّموا حرامه... وإنما مرادي هاهنا ترك الجدال والمراء في القرآن، فإنَّا قد نُهينا عنه، ولا يقول إنسان في القرآن برأيه، ولا يفسر القرآن، إلا ما جاء به النبي أو عن أحد من الصحابة، أو عن أحد من التابعين، أو عن إمام من أئمة المسلمين، ولا يماري ولا يجادل، فإن قال قائل: فإنا قد نرى الفقهاء يتناظرون في الفقه، فيقول أحدهم: قال الله تعالى كذا، وقال النبي كذا وكذا، فهل يكون هذا من مراء في القرآن؟ قيل: مَعاذَ الله، ليس هذا مراء؛ فإن الفقيه ربما ناظره الرجل في مسألة، فيقول له على جهة البيان والنصيحة: حجتنا فيه قال الله تعالى كذا، وقال النبي على جهة النصيحة والبيان، لا على

جهة المماراة، فمن كان هكذا، ولم يرد المغالبة، ولا أن يخطِّئ خصمه ويستظهر عليه سلم، وقبلُ - إن شاء الله تعالى كما ذكرنا في الباب الذي قبله - قال الحسن: المؤمن لا يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله عز وجل وعلا. وبعد هذا فأكره الجدال والمراء ورفع الصوت في المناظرة في الفقه إلا على الوقار والسكينة الحسنة. وقال عمر بن الخطاب : تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وليتواضع لكم من تعلمونه، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم. اهـ

والواجب على المسلم أن يكون حاله منقادًا للكتاب والسنة، فالله يقول: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[النساء:٧٨]، وإن القرآن والسنة الصحيحة ليس بينهما تناقض ولا اختلاف، وسيأتي مزيد بيان في مواطن أخرى من الشرح إن شاء الله تعالى.

[الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة]

٣٠- وَالْإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَرَوْنَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِأَبْصَارِ رُءُوسِهِمْ، وَهُوَ يُحَاسِبُهُمْ بِلَا حِجَابٍ، وَلَا تَرْجُمَانٍ.

الشرح:

رؤية المؤمنين لله يوم القيامة ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع قال الله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣].

وهذه الرؤية تكون في أرض المحشر، وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق:٣٥]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦].

والزيادة فسرها رسول الله كما عند مسلم (١٨١) من حديث صهيب قال: «تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ » وهذه الرؤية تكون في الجنة.

وقال النبي : «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ» أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) عن جرير .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ الله : يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله : «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ

كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا؛ فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا فَيَأْتِيهِمُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِالله مِنْكَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمُ الله تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ» أخرجه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ: أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ الله قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ الله : «نَعَمْ»، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الكِتَابِ، فَيُدْعَى اليَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ، وَلَا وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ، قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ، فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ

فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ العَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِالله مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِالله شَيْئًا مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ الله لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ الله ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ، وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا» أخرجه البخاري (٧٤٣٨)، ومسلم برقم (١٨٣).

وقال : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ» أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤) عن عمار .

وإجماع السلف على أن الله يُرى في موطنين:

الأول: أرض المحشر، والثاني: الجنة.

وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥] دلالة على رؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى.

قال الشافعي: فلما حُجب أولئك في السخط دل على أن المؤمنين يرونه في الرضى، والله يُرى في العلو والدليل: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ» والقمر والشمس ترى في العلو، ولما

كان الأشاعرة لا يثبتون العلو؛ فقد اضطربوا اضطرابًا كثيرًا؛ فهم يثبتون الرؤية، لكن يقولون لا في جهة.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١٩٥-١٩٦): (وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيها لله، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟ ومن قال: يرى لا في جهة، فليراجع عقله!! فإما أن يكون مكابرا لعقله أو في عقله شيء، وإلا فإذا قال يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة، ولهذا ألزم المعتزلة من نفي العلو بالذات بنفي الرؤية، وقالوا: كيف تعقل رؤية بغير جهة. اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٤-٨٥): قولهم: إن الله يرى من غير معاينة ومواجهة قول انفردوا به دون سائر طوائف الأمة وجمهور العقلاء على أن فساد هذا معلوم بالضرورة، والأخبار المتواترة عن النبي ترد عليهم كقوله في الأحاديث الصحيحة: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**».

وقوله لما سأله الناسُ: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هَلْ تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قالوا: نعم، «**وَهَلْ تَرَوْنَ القَمَرَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟**» قالوا: نعم، قال: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ**».

فشبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي؛ فإن الكاف - حرف التشبيه - دخل على الرؤية.

وفي لفظ للبخاري: «**يَرَوْنَهَ عَيَانًا**»، ومعلوم أنا نرى الشمس والقمر عيانا مواجهة فيجب أن نراه كذلك، وأما رؤية ما لا نعاين ولا نواجهه فهذه غير متصورة في العقل فضلا عن أن تكون كرؤية الشمس والقمر، ولهذا صار حذاقهم إلى إنكار الرؤية وقالوا: قولنا هو قول المعتزلة في الباطن؛ فإنهم فسروا الرؤية بزيادة انكشاف ونحو ذلك مما لا ننازع فيه المعتزلة.

وأما قوله: إن الخبر يدل على أنهم يرونه لا في جهة وقوله: «**لَا تُضَامُّونَ**» معناه لا تضمكم جهة واحدة في رؤيته فإنه لا في جهة فهذا تفسير للحديث بما لا يدل عليه ولا قاله أحد من أئمة العلم؛ بل هو تفسير منكر عقلا وشرعا ولغة. اهـ

وأحاديث الرؤية متواترة.

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ وَمَنْ بَنَى لله بَيْتًا وَاحْتَسَبْ

وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالْحَوْضُ وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

والله لا يُرى إلا بعد الموت؛ ففي مسلم قبل رقم (٢٩٣٠) من حديث رجل من أصحاب النبي أن رسول الله قال: «**وَاعْلَمُوَا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوا رَبَّكُمْ حَتَى تَمُوتُوا**».

والناس في الرؤية ثلاثة أصناف: منهم من يثبتها في الدنيا والآخرة، وهؤلاء الصوفية ومن وافقهم، ومنهم من ينفيها في الدنيا والآخرة وهؤلاء الجهمية ومن إليهم، ومنهم من يثبتها في الآخرة وهم أهل السنة والجماعة، ومن زعم أنه رأى ربه في الدنيا بعيني رأسه فقد كفر.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٨٥-٢٨٦): وإنما المهم الذي يجب على كل مسلم اعتقاده: أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في عرصة القيامة

وبعد ما يدخلون الجنة على ما تواترت به الأحاديث عن النبي عند العلماء بالحديث؛ فإنه أخبر أنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر، والشمس عند الظهيرة، لا يضام في رؤيته، ورؤيته سبحانه هي أعلى مراتب نعيم الجنة وغاية مطلوب الذين عبدوا الله مخلصين له الدين؛ وإن كانوا في الرؤية على درجات على حسب قربهم من الله ومعرفتهم به، والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر؛ فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك عرف ذلك كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر. اهـ

تنبيه: النبي لم يرَ ربه ليلة الإسراء، والدليل حديث أبي ذر : يا رسول الله، رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**رَأَيْتُ نُورًا**» أخرجه مسلم (١٧٨).

والنور حجابه كما في حديث أبي موسى : «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» أخرجه مسلم (١٧٩).

وفي حديث عائشة قال لها: «**إِنَّمَا هُو جِبْرِيلَ رَأَيْتُهُ وَلَهُ سِّتِمَائَّة جِنَاحْ**» أخرجه البخاري (٧٥٣١)، ومسلم (١٧٧)، وما جاء عن ابن عباس فإنه محمول على الرؤية القلبية؛ لأنه قد روي عنه مقيدًا رآه بفؤاده.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٦/٥٠٩-٥١٠): (وأما الرؤية فالذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين، وعائشة أنكرت الرؤية، فمن الناس من جمع بينهما فقال: عائشة أنكرت رؤية العين وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد.

والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة أو مقيدة بالفؤاد تارة يقول: رأى محمد ربه وتارة يقول رآه بفؤاده؛ ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه،

وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية؛ وتارة يقول: رآه بفؤاده؛ ولم يقل أحد إنه سمع أحمد يقول رآه بعينه؛ لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق ففهموا منه رؤية العين؛ كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين، وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك؛ بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل.

كما في صحيح مسلم (١٧٨) عن أبي ذر قال: سألت رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»(١).

وقد قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء:١]، ولو كان قد أراه نفسه بعينه لكان ذكر ذلك أولى، وكذلك قوله: ﴿أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[النجم:١٢]، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[النجم:١٨] ولو كان رآه بعينه لكان ذكر ذلك أولى.

وفي البخاري (٤٧١٦) عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٦٠] قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ليلة أسري به وهذه رؤيا الآيات؛ لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج فكان ذلك فتنة لهم حيث صدقه قوم وكذبه قوم ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه، وقد ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الأمة أنه لا يرى الله أحد في الدنيا بعينه إلا ما

---

(١) الحديث محفوظ باللفظ المتقدم «رأيت نورًا»، أما هذه الطريق فقد أعلها بعض أهل العلم.

نازع فيه بعضهم من رؤية نبينا محمد خاصة، واتفقوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة عيانًا كما يرون الشمس والقمر). اهـ

واستدل أهل البدع على نفي الرؤية بعدة شبه نذكر منها:

١) قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾[الأعراف:١٤٣] قالوا: ولن تفيد التأبيد، وهذا من جهلهم قال ابن مالك:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِـ(لَـنْ) مُؤَبَّـدَا فَقَوْلَـهُ ارْدُدْ وَسِـوَاهُ فَاعْـضُدَا

ومما يبين جهلهم قول الله عن ولد يعقوب: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[يوسف:٨٠] فقد قيد بروحه بإذن أبيه فدل على أنها لا تفيد التأبيد وأيضًا بقول الله عن مريم: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[مريم:٢٦].

٢) واستدلوا بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٠٣] لكن ما معنى لا تدركه، الإدراك هو الإحاطة، وهو رؤية وزيادة، والدليل على ذلك: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[الشعراء: ٦١] أي: فلما رأى قوم موسى قوم فرعون قال أصحاب موسى: إنا لمحاط بنا فقال موسى (كلا) نفي الإحاطة ولم ينف الرؤية فالله يُرى ولا يحاط به.

من يرى الله تعالى في الموقف يوم القيامة:

تتمة: اختلف أهل السنة فيمن يرى الله في الموقف إلى ثلاثة أقوال:

الأول: يراه جميع من في الموقف، واستدل هؤلاء بعموم أدلة اللقاء مثل حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٩٦٨): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَرَى

رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا.

قَالَ: فَيَلْقَى العَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ: مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ: لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِي فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ المُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ».

ويُستدل أصحاب هذا القول بعموم آيات اللقاء، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾[البقرة:٢٢٣].

القول الثاني: يراه المؤمنون والمنافقون وغيرهم من أهل الكتاب، واستدل هؤلاء بحديث أبي سعيد في الصحيحين وقد تقدم.

القول الثالث: لا يراه إلا المؤمنون، واستدلوا بعموم أحاديث الرؤية التي تنص على المؤمنين، وبقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥].

وهذه الآية استدل بها أيضًا من يقول برؤية الكفار، قالوا: والحجب يقع بعد ذلك، وهذه الأقوال الثلاثة الخلاف فيها سائغ بين أهل السنة والجماعة، ولا يبدع ويفسق إلا من أنكر الرؤية.

فائدة: النظر إما أن يُعدَّى بنفسه، كقول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[النمل:٣٥]، أو يُعدَّى بـ(في)، كقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الأعراف:١٨٥]، أو يُعدَّى بـ(إلى) كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣].

ففي الأولى: تفيد الانتظار، والثانية: التفكر، والثالثة: الرؤية بالعين.

قوله: **(وهو يحاسبهم بلا حجاب، ولا ترجمان)** يشير إلى حديث عديّ بن حَاتِمٍ قال: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ الله فَجَاءَهُ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا يَشْكُو الْعَيْلَةَ، وَالْآخَرُ يَشْكُو قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**أَمَّا قَطْعُ السَّبِيلِ: فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى تَخْرُجَ الْعِيرُ إِلَى مَكَّةَ بِغَيْرِ خَفِيرٍ، وَأَمَّا الْعَيْلَةُ: فَإِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى يَطُوفَ أَحَدُكُمْ بِصَدَقَتِهِ لَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا مِنْهُ. ثُمَّ لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُوتِكَ مَالًا؟ فَلَيَقُولَنَّ: بَلَى، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا؟ فَلَيَقُولَنَّ: بَلَى. فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ، ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ. فَلْيَتَّقِيَنَّ أَحَدُكُمْ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**». أخرجه بهذا اللفظ البخاري(١٤١٣)، وأخرجه مسلم بسياقة أخرى (١٠١٦).

ولي - بحمد الله - مؤلَّف مستقل في الباب أسميته: رؤية المؤمنين للجبار في المحشر ودار القرار .

[الإيمان بالميزان الذي توزن به أعمال العباد يوم القيامة]

٣١- وَالْإِيمَانُ بِالمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُوزَنُ فِيهِ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ، لَهُ كِفَّتَانِ، وَلَهُ لِسَانٌ.

الشرح:

الميزان الذي توزن به أعمال العباد يوم القيامة يجب الإيمان به، وهو من الغيب الذي أخبر الله عن المؤمنين أنهم يؤمنون به، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة:٣].

والميزان التي توزن به أعمال العباد يوم القيامة ثابت بالكتاب والسنة وإجماع السلف، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف: ٨-٩].

وفي حديث أبي هريرة : «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهَ العَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهَ وَبِحَمْدِهِ**» أخرجه البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

وله كفتان وهي التي توضع فيها الأعمال والدليل حديث عبدالله بن عمرو عند الترمذي (٢٦٣٩): قَالَ رَسُولُ اللهَ : «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ**

البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً؛ فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ؛ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهَ شَيْءٌ».

وللميزان لسان وهو ما يمسك به الميزان.

يوزن العامل، والدليل على ذلك حديث ابن مسعود إنه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله : «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَـهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ» أخرجه أحمد (٣٩٩١).

ويوزن العمل، والدليل حديث أبي هريرة السابق.

وتوزن الصحف، والدليل حديث عبدالله بن عمرو السابق.

وتكون وزن الأعمال بعد انقضاء الحساب، قال القرطبي في التذكرة (١/ ٣٧٧): إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن تكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ لكون الجزاء بحسبها. اهـ

مسألة: هل يوزن الكفار؟

الظاهر والله أعلم أنهم يوزنون قال النبي : «**إِنَّهُ لَيُأْتِى الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**» اقْرَءُوا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥)، يوزنون ولا وزن لهم، وقد ذهب أهل السنة إلى عم وزنهم، لكن الصحيح ما ذكرناه.

وذهب المعتزلة ومن وافقهم إلى أن الميزان لا يحتاجه إلا البقال، وهذا لجهلهم ولسيرهم على غير طريق السلف الصالحين وركونهم إلى العقول، وإلا فإن الله اتخذ الميزان لإظهار عدله.

تنبيه: الميزان واحد، وأما قوله الله : ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾[الأنبياء:٤٧]، فهو بالنظر إلى تعدد الموزونات.

قال السفاريني في البحور الزاخرة (٢/ ٨٥٤): اختلف العلماء رحمهم الله هل الميزان واحد أو أكثر؟ فقال الحسن بن أبي الحسن البصري: لكل واحد ميزان، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾[الأنبياء:٤٧]، وقال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد... ورد ابن عطية وقال: الناس على خلافه، وإنما لكل واحد وزن مختص به، والميزان واحد، وأجاب بعضهم عن جمع الموازين في الآية فقال: ذلك لكثرة من توزن أعمالهم، وهو جمع تفخيم. اهـ

[الإيمان بنعيم القبر وعذابه]

٣٢- وَالْإِيمَانُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ.

الشرح:

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه داخل في الإيمان بالغيب والإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان الستة التي نص عليها حديث جبريل رقم (٨) عند مسلم، وعذاب القبر ونعيمه ثابت بالقرآن والسنة والإجماع.

أما القرآن فقد استدل العلماء بعدة آيات، قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾[غافر:٤٥-٤٦].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾[غافر: ٤٥]: وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾[غافر: ٤٦]، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور. اهـ

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٩٩): قال القرطبي: الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر.

وقال غيره: وقع ذكر عذاب القبر في هذه الآية مفسرًا؛ لكنه حجة على من أنكر عذاب القبر. اهـ

وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الطور:٤٥-٤٧].

قال في شرح الطحاوية : وهذا يحتمل أن يراد به القتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثير منهم مات ولم يعذب في الدنيا، أو أن المراد أعم من ذلك. اهـ

وقد بوب البخاري في صحيحة: (باب ما جاء في عذاب القبر)، وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾[الأنعام:٩٣].

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[التوبة:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر:٤٥-٤٦].

قال الحافظ في شرح الآية الأولى (٣/ ٢٩٩): وهذا وإن كان قبل الدفن، فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة، وإنما أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه، ولكون الغالب على الموتى أن يقبروا، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة، يعذب بعد موته، ولو لم يدفن، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله. وفي تفسير الآية الأخرى قال: روي عن الحسن من طريق محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا، وعذاب القبر.

وقال الحافظ : وقال الطبراني بعد أن ذكر اختلافًا: والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع، أو السبي، أو الإذلال أو غير ذلك. اهـ

وقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[إبراهيم:٢٧].

قال الإمام البخاري رحمه (٤٦٩٩): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب قال: قال النبي : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[إبراهيم:٢٧] نزلت في عذاب القبر.

وقال ابن رجب كما في أهوال القبور (٥٨): وأما نعيم القبر فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[الواقعة:٨٨-٩١].

وأقول: عذاب القبر يدل عليه في هذه الآية أيضًا: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[الواقعة:٩٢-٩٤].

واستدل كذلك ابن القيم في كتابه الروح بهذه الآية على النعيم والعذاب في القبر.

قال ابن القيم في كتابة الروح ومنها: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[السجدة:٢١]، وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبدالله بن عباس على عذاب القبر. اهـ

وقال ومنها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر:٢٧-٢٩].

قال: وقد أختلف السلف متى يقال لها ذلك فقال طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التي تجردت عن البدن، وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي بقوله في حديث البراء وغيره: «**فَيُقَالُ لَهَا: اخْرُجِي**

رَاضِيَةً مَرْضَيًّا عَنْكِ» ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾[الفجر:٢٩] مطابق لقوله : «اللهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى». اهـ

وقد استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾، لكن من باب الفائدة الحديث الذي أخرجه الترمذي برقم (٣٣٥٢) من طريق حجاج بن أرطأة، عن المنهال، عن زر بن حبيش، عن عليٍّ قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾. ضعيف، حجاج ابن أرطأة الراجح: ضعفه. والمنهال بن عمرو: لم يسمع من زر كما في التهذيب .

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾[طه:١٢٤]، استدل بها على عذاب القبر، والدلالة ما سيأتي في حديث أبي هريرة عند الحاكم، وابن حبان، وابن جرير وغيرهم، وسيأتي بطوله في باب استطراد في ذكر عذاب القبر.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠] قال ابن كثير بعد ذكر الآية: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ. اهـ

ومن السنة في حديث عائشة عند البخاري (١٣٧٢): «عَذَابُ القَبْرِ حَقٌّ»، والقبر أول منازل الآخرة صح ذلك من حديث عثمان أخرجه الترمذي (٢٣٠٨).

وأمر رسول الله المصلي بالاستعاذة من عذاب القبر؛ ففي البخاري (٦٣٧٧)، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة ، وفي البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة ، وانفرد به مسلم (٥٩٠) عن ابن عباس قال: قال رسول الله : «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ:

اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ».

ومن الآيات التي جمعت بين ذكر النعيم والعذاب ما أخبر الله به في آخر سورة الواقعة قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٨٦-٩٦].

وأجمع أهل السنة والجماعة بل وأغلب طوائف المسلمين على إثبات عذاب القبر ولا ينكره إلا ضال مضل، كما قال الإمام أحمد.

وفي القبر مسألة والمعبر عنها بالفتنة وهي شاملة لكل أحد من الناس إلا الأنبياء والشهداء والمرابطين والصديقين، أما الأنبياء فيسأل عنهم، ولا يسألون هم لحديث عائشة عند أحمد (٦/ ١٣٩): «فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ»، وأما الشهداء؛ ففي النسائي (٢٠٥٥) من حديث رجل من أصحاب النبي : «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رُءُوسِهِمْ فِتْنَةً».

وأما المرابطون؛ ففي مسلم (١٩١٣) عن سلمان: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ من فَتَّانَ القبر».

وأما الصديقون فكونهم أفضل من الشهداء والله أعلم، وهي فتنه عظيمة ففي البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥) عن أسماء قالت: أَتَيْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ حِينَ خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ يُصَلُّونَ وَإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ تُصَلِّي فَقُلْتُ: مَا

لِلنَّاسِ فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَتْ: سُبْحَانَ الله، فَقُلْتُ: آيَةٌ فَأَشَارَتْ أَيْ نَعَمْ، فَقُمْتُ حَتَّى تَجَلَّانِي الغَشْيُ وَجَعَلْتُ أَصُبُّ فَوْقَ رَأْسِي مَاءً، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ الله حَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا حَتَّى الجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ مِثْلَ أَوْ قَرِيبَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**» لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ: «**يُؤْتَى أَحَدُكُمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَأَمَّا المُؤْمِنُ أَوِ المُوقِنُ**» لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ: أَسْمَاءُ «**فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَالهُدَى فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا وَاتَّبَعْنَا فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ صَالِحًا فَقَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُؤْمِنًا. وَأَمَّا المُنَافِقُ، أَوِ المُرْتَابُ**» لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ: أَسْمَاءُ، «**فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ**».

وفي القبر ضمة لا ينجو منها أحد إلا الأنبياء والله أعلم لحديث ابن عمر : «**هَذَا الَّذِي اهْتَزَّ لَهُ العَرْشُ وَحَمَلَتْهُ المَلَائِكَةُ، لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ**» أخرجه النسائي (٢٠٥٧)، وفي الحديث: «**إِنَّ فِي القَبْرِ لَضَمَّةً لَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ**» أخرجه ابن حبان كما في الإحسان (٣١١٢).

وهذه الضمة مؤقتة في حق المؤمن، ودائمة في حق الكافر وهي ضمة شديدة، لا كما يقول البعض: إنها كضمة الأم الحنون.

ففي قوله: «**ثم فرج عنه**» دليل على ذلك، والعذاب واقع على الروح والجسد خلافًا لأهل الضلال.

وذهب ابن حزم: أن العذاب واقع على الجسد فقط، وقوله غير صحيح، وقد استوفينا الكلام على عذاب القبر ونعيمه في مؤلف مستقل فلله الحمد والمنة.

[الإيمان بمنكر ونكير]

٣٣- وَمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ.

الشرح:

هما ملكان موكلان بسؤال أصحاب القبور؛ ففي حديث أبي هريرة عند الترمذي (١٠٧٠): «إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ: لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ، وَالآخَرُ النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ هُوَ عَبْدُاللهَ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِك قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ؛ فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ».

وجاء من حديث البراء عند أبي بكر بن أبي شيبة (٣/ ٣٨٠) قال: خرجنا مع رسول الله في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ» ثلاث مرات، أو مرتين.

ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، حَتَّى يَجْلِسُونَ مِنْهُ، مَدَّ

الْبَصَرِ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ فَيَقْعُدُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَإِذَا أَخَذُوهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَذَلِكَ الحَنُوطِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْخَةِ مِسْكٍ، وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَكٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيَسْتَقْبِلُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ، فَيَقُولَانِ: مَا عَمَلُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، وَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَقْتُ بِهِ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ فَيَأْتِيهِ مِنْ طِيبِهَا، وَرَوْحِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي.

وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ المُسُوحُ، حَتَّى يَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ

مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطِ اللهِ وَغَضَبِهِ قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، قَالَ: فَتَخْرُجُ فَيَنْقَطِعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ كَمَا تُنْزَعُ السَّفُّودَ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُوهَا، فَإِذَا أَخَذُوهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ، طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، وُجِدَتْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[الأعراف:٤٠] قَالَ: «فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١] قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ الْمَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَا هَا لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا دِينُكَ؟، فَيَقُولُ: هَاهَا لَا أَدْرِي قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَفْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ عَلَيْهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، وَقَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ».

[الإيمان بالحوض]

٣٤- وَالْإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ إِلَّا صَالِحُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ حَوْضَهُ ضَرْعُ نَاقَتِهِ.

الشرح:

الإيمان بالحوض يدخل في الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالغيب والحوض هو ما يجتمع فيه الماء وهو حوض عظيم على ما يأتي بيانه، ويمد من الكوثر وهو نهر في الجنة، وهذه الفقرة رد على لخوارج والمعتزلة ومن سار على سيرهم ممن ينكر كثيرًا من المغيبات التي أخبرنا الله ورسوله بها، وحوض رسول الله ثابت بالكتاب والسنة قال الله : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾.

وفي حديث أنس عند مسلم (٤٠٠) قال رسول الله : «أَتَدْرُونَ مَا الكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ؛ فَيُخْتَلَجُ العَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ».

وأحاديث الحوض متواترة، قد جمعت منها في مؤلف قريب الثمانين حديثًا ففي البخاري (٦٥٨٩)، ومسلم (٢٢٨٩) من حديث جندب : «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ».

وفيهما البخاري (٧٠٥١)، ومسلم (٢٢٩٠) من حديث سهل: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ، وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ».

ولهما البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ؛ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»، هذا بعض من كل وقليل من كثير.

وحوض النبي موجود الآن؛ ففي الصحيحين البخاري (١١٩٦)، ومسلم (١٣٩١) عن أبي هريرة : «وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي».

ويُطرد عن الحوض نوعان من أهل الملة المبتدعة، ويدل على ذلك حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٤٩): «أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا».

وجاء بنحوه من حديث حذيفة عند مسلم (٢٤٨).

ويطرد كذلك قومٌ من العصاة؛ ففي مسند أحمد (٣/ ٣٢١) من حديث جابر في قصة كعب بن عجرة، قال رسول الله : «أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ» قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ: «أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي، لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي؛ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي».

ومن خصائص هذا الحوض أن ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من اللبن بالعسل وآنيته عدد النجوم، وزواياه سواء، ومن شرب منه لا يظمأ بعدها أبدًا، ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب الفضائل من صحيح مسلم .

وقد أنكر الحوض عبيد الله بن زياد في زمن الصحابة ففي الشريعة للآجري (٨٣٨) عن أنس بن مالك قال: دخلت على ابن زياد، وهم يتذاكرون الحوض، فلما رأوني طلعت عليهم، قالوا: قد جاءكم أنس فقالوا: يا أنس ما تقول في الحوض؟ فقلت: والله ما شعرت أني أعيش حتى أرى أمثالكم تشكون في الحوض، لقد تركت عجائز بالمدينة، ما تصلي واحدة منهن صلاة إلا سألت ربها أن يوردها حوض محمد .

وأما قوله: **(لكل نبي حوض)** فإثبات ذلك متوقف على ثبوت الدليل، وقد جاء حديث عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله : «**لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي لَأَرْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً**».

والحديث أخرجه البخاري في التاريخ (١/ ١/ ٤٤)، والترمذي في جامعه في صفة القيامة (٢٤٤٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٣٩)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢١٢)، وهو في الصحيحة (١٥٨٩)، لكن الحديث والله أعلم لا يصح، وأحسن طرقه أن يصح مرسلًا عن الحسن، ومراسيل الحسن من أضعف المراسيل.

قال الترمذي: وقد روى الأشعث بن عبدالملك هذا الحديث عن الحسن مرسلًا، ولم يذكر فيه عن سمرة، وهو أصح.

وأما حديث: «**إِلَّا صَالِحٌ؛ فَإِنَّ حَوْضَهُ ضَرْعُ نَاقَتِهِ**» موضوع، ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٤٤) من طريق عبدالكريم بن كيسان عن سويد بن عمير، قال ابن الجوزي: حديث موضوع لا أصل له، وقال الذهبي في الميزان رقم (٤٩١٣): عبد الكريم بن كيسان من المجاهيل، وحديثه منكر، أبو عاصم العباداني، حدثنا عبد الكريم بن كيسان، عن سويد بن عمر، قال رسول الله : «**حَوْضِي أَشْرَبُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنِ اتَّبَعَنِي مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَيَبْعَثُ اللهُ نَاقَةَ ثَمُودٍ لِصَالِحٍ فَيَحْلُبُهَا فَيَشْرَبُهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ حَتَّى يُوَافِيَ بِهَا المَوْقِفَ وَلَهَا رُغَاءٌ، وَابْنَتِي فَاطِمَةُ عَلَى العَضْبَاءِ، وَأَنَا عَلَى البُرَاقِ**». قلت: هو موضوع. اهـ

فلا نثبت أحواضًا لهم ولا ننفي؛ لأن هذه من الأمور الغيبية التي مرد علمها لله ، وما أنزل من وحيه، والذي يظهر أن الحوض من خصوصيات النبي ، كما ترى في إطلاق جمع من العلماء أنه صاحب الحوض المورود، والحمد لله.

[الإيمان بالشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد عليه الصلاة والسلام]

٣٥- وَالْإِيمَانُ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِلْمُذْنِبِينَ الْخَاطِئِينَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَعَلَى الصِّرَاطِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ جَوْفِ جَهَنَّمَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَ لَهُ شَفَاعَةٌ، وَكَذَلِكَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَللهِ بَعْدَ ذَلِكَ تَفَضُّلٌ كَثِيرٌ فِيمَنْ يَشَاءُ، وَالْخُرُوجُ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا احْتَرَقُوا وَصَارُوا فَحْمًا.

الشرح:

قال ابن الأثير في النهاية : قد تكرر ذكر الشّفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي: السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعةً فهو شافع وشفيع، والمشفّع: الّذي يقبل الشّفاعة، والمشفَّع: الّذي تقبل شفاعته. اهـ

وفي القاموس و تاج العروس : والشّفيع: صاحب الشّفاعة، والجمع: شفعاء، وهو: الطالب لغيره يتشفّع به إلى المطلوب.

وفيهما أيضًا: وشفّعته فيه تشفيعًا حين شفع -كمنع- شفاعةً، أي قبلت شفاعته كما في العباب ، قال حاتم يخاطب النعمان:

فَكَكْتَ عَدِيًّا كُلَّهَا مِنْ إِسَارِهَا ... فَأَفْضِلْ وَشَفِّعْنِي بِقَيْسِ بْنِ جَحْدَرِ

وفي حديث الحدود: «**إِذَا بَلَغَ الحَدُّ السُّلْطَانَ فَلَعَنَ اللهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفَّعَ**».

وفي حديث ابن مسعود: «**الْقُرْآنَ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ**»: أي من اتبعه وعمل بما فيه فهو شافع مقبول الشّفاعة من العفو عن فرطاته، ومن ترك العمل به تمّ على إساءته، وصدّق عليه فيما يرفع من مساويه، فالمشفّع: الذي يقبل الشّفاعة، والمشفّع: الذي تقبل شفاعته، ومنه حديث: «**اشْفَعْ تُشَفَّعْ**»، واستشفعه إلى فلان: أي سأله أن يشفع له إليه، وأنشد الصغاني للأعشى:

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَّبْتُ مُرْتَحِلًا ... يَا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا
وَاسْتَشْفَعَتْ مِنْ سَرَاةِ الْحَيِّ ذَا شَرَفٍ ... فَقَدْ عَصَاهَا أَبُوهَا وَالَّذِي شَفَعَا

يريد: والذي أعان وطلب الشّفاعة فيها. وأنشد أبوليلى:

زَعَمَتْ مَعَاشِرُ أَنَّنِي مُسْتَشْفِعٌ ... لَمَّا خَرَجْتُ أَزُورُهُ أَقْلَامَهَا

قال: زعموا أني أستشفع أقلامهم في الممدوح أي بكتبهم . اهـ مختصرًا.

والمعاني الشرعية موافقة للمعاني اللغوية. فمن الشّفعاء من يشفع ابتداءً، ومنهم من يشفع بعد الطلب، كما سيأتي إن شاء الله بيانه في الأحاديث.

وبما أنّها قد وردت آيات تنفي الشّفاعة والشفيع، وآيات تثبتها رأيت أن أذكر الآيات التي تنفي الشّفاعة والشّفيع، والآيات التي تثبتها ثم أذكر الجمع بين هذه الآيات حسبما جمع بينها أهل العلم رحمهم الله.

الآيات الواردة في نفي الشّفاعة والشفيع:

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[البقرة:٤٨].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[البقرة:٢٥٤].

وقال تعالى حاكيًا عن بعض الصالحين: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾[يس:٢٣] في هذه الآيات نفي الشّفاعة.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:٥١].

وقال تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾[الأنعام:٧٠].

وقال تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[يونس:١٨].

وقال تعالى حاكيًا عن أهل النار: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الشعراء:١٠٠-١٠٢].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[السجدة:٤]، وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[الزمر: ٤٣-٤٤].

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]. في هذه الآيات نفي الشفيع.

الآيات في إثبات الشّفاعة والشفيع:

قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[يونس:٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٨] فهي هذه الآيات إثبات الشفيع بشروط وستأتي إن شاء الله.

وقال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[طه:١٠٥-١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف:٨٦].

قال الحافظ ابن كثير : ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أي: لا يقدرون على الشّفاعة لهم ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحقّ على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له. اهـ

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[النجم:٢٦].

هذه الآيات تدل على الشّفاعة المثبتة بشروط ستأتي إن شاء الله.

الجمع بين الآيات المثبتة والآيات النافية:

يتحصل من هذا أن النفي مقصود به الشّفاعة التي تطلب من غير الله، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤].

شروط الشفاعة المثبتة:

والشّفاعة المثبتة لا تقبل إلا بشروط:

١- قدرة الشافع على الشّفاعة كما قال تعالى في حق الشافع الذي يطلب منه وهو غير قادر على الشّفاعة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف:٨٦]، فعلم من هذا أن طلب الشّفاعة من الأموات طلب ممن لا يملكها.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾[سبأ:٢٢].

٢- إسلام المشفوع له، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]، والمراد بالظالمين هنا: الكافرون، بدليل الأحاديث المتواترة في الشّفاعة لأهل الكبائر، وستأتي إن شاء الله في موضعها.

قال الحافظ البيهقي في الشعب (١/ ٢٠٥): فالظالمون هاهنا هم الكافرون، ويشهد لذلك مفتتح الآية إذ هي في ذكر الكافرين. اهـ

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير. اهـ

ويستثنى من المشركين أبو طالب، فإن النبي يشفع له حتى يصير في ضحضاح من نار.

٣- الإذن للشافع، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٥].

٤- الرّضا عن المشفوع له كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾[النجم:٢٦] وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٨].

الناس في الشفاعة طرفان ووسط؛ فالمعتزلة والخوارج ينفونها مطلقًا، والصوفية والشيعة القبورية يثبتونها مطلقًا حتى أنهم أدخلوا فيها شفاعة أرباب القبور الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا كما فعل المشركون مع أوثانهم وأصنامهم وأنصابهم، بينما أهل السنة يثبتون الشفاعة بشروطها، وأن الرسول يشفع في المقام المحمود الشفاعة العظمى، قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[الإسراء:٧٩].

وهذه الشفاعة اتفق على إثباتها أهل الملة لكن خالفوا في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر.

لكن هذه الشفاعة بإذن الله يقوم ويسجد ويحمد ربه بمحامد حتى يأذن الله له في الشفاعة. انتهى من كتاب الشفاعة لشيخنا مقبل (١٧-٢٥).

ففي صحيح مسلم (١٩١) عَنْ يَزِيدَ الفَقِيرِ قَالَ: كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الخَوَارِجِ فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ، ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ قَالَ: فَمَرَرْنَا عَلَى المَدِينَةِ، فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله يُحَدِّثُ القَوْمَ جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ عَنْ رَسُولِ الله قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الجَهَنَّمِيِّينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ الله، مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ، وَالله يَقُولُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[آل عمران:١٩٢] و﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[الحج:٢٢].

فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ، قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ القُرْآنَ، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَام يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ الله فِيهِ، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ المَحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ الله بِهِ مَنْ يُخْرِجُ، قَالَ: ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ، وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ،

قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لَا أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ، قَالَ: غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا قَالَ: يَعْنِي فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ قَالَ: فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ الْقَرَاطِيسُ فَرَجَعْنَا قُلْنَا: وَيْحَكُمْ أَتُرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ، فَرَجَعْنَا فَلَا وَاللهِ مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ.

وقد دل على إثبات الشفاعة العظمى حديث أبي هريرة عند الشيخين البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، فَقَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ: بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ: إِبْرَاهِيمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ**

غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ: مُوسَى إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ: عِيسَى إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».

وحديث أنس عندهما البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣) قال: قال رسول الله : «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ لَهُ: اشْفَعْ لِذُرِّيَّتِكَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَإِنَّهُ خَلِيلُ اللهِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام،

فَإِنَّهُ كَلِيمُ الله فَيُؤْتَى مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام، فَإِنَّهُ رُوحُ الله وَكَلِمَتُهُ، فَيُؤْتَى عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ، فَأُوتَى فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَنْطَلِقُ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الآنَ يُلْهِمُنِيهِ الله، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ، أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ.

ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ».

وخالف في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر: المعتزلةُ، والخوارجُ، وهذا على مذهبهم الفاسد بتخليد أصحاب الكبائر في النار وأصحاب الكبائر فيما دون الشرك؛ لا يخلدون في النار وهم تحت المشيئة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨].

ففي حديث أنس : «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ» أخرجاه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).

وفي حديث أبي سعيد عند البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤) قال: قال رسول الله : «يُدْخِلُ الله أَهْلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ: انْظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا حُمَمًا قَدِ امْتَحَشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَاةِ أَوِ الحَيَا، فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ إِلَى جَانِبِ السَّيْلِ أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً».

وفي حديث أبي موسى قال: قال رسول الله : «خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ، لَا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الخَطَّائِينَ المُتَلَوِّثِينَ» أخرجه ابن ماجه (٤٣١١).

وفي حديث أنس قال: قال رسول الله : «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣) وغيره وهو مخرج في كتاب الشفاعة للشيخ مقبل رقم (٥٦).

فالشفاعة لأهل الكبائر ثابتة بالسنة والإجماع، وأما قول الله : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[آل عمران:١٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٧]، وقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨].

فهذه في حق الكافرين لا عصاة المؤمنين ففي حديث أبي سعيد عند مسلم (١٨٥) قال: قال رسول الله : «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ، أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى

أَنْهَارِ الجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ كَأَنَّ رَسُولَ الله قَدْ كَانَ بِالبَادِيَةِ.

وشفاعة النبي يوم القيامة أنواع:

١) الشفاعة العظمى، وقد تقدمت الأدلة عليها، وعلى إثبات هذه الشفاعة إجماع الأمة.

٢) الشفاعة في فتح باب الجنة؛ لحديث أنس عند مسلم (١٩٧) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله : «آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ؛ فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

٣) الشفاعة في رفع درجات بعض المؤمنين في الجنة، وهذا من المواطن التي وافق فيها المعتزلة أهل السنة.

٤) الشفاعة في قوم قد استوجبوا النار أن لا يدخلوها.

٥) الشفاعة في خروج قوم من النار بعد أن دخلوها، على ما تقدم في الأحاديث.

قال ابن كثير في الفصول : والشفاعة لأهل الكبائر الذين أدخلوا النار ليخرجوا من النار، وقد تواترت بذلك الأحاديث عن رسول الله في الصحاح والمسانيد وغيرها من كتب الإسلام.

وقد أجمع على قبولها أئمة الإسلام في قديم الدهر وحديثه، ولم يخالف في ذلك إلا الخوارج ومن تابعهم في بدعتهم من المعتزلة وغيرهم، وهم محجوجون بالحديث المتواتر الذي يلتزمون القول به، ولكن لم يحط علمهم بتواتره، فقد كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، فلا عذر لهم، ولكن من كذب بكرامة لم ينلها، بل والله، بله في ذلك المقام

الأعظم، ويشفع في خروج أصحاب الكبائر مرة بعد مرة، حتى تبلغ أربع مرات، كما جاء بذلك الأحاديث.

ويشفع النبيون من أممهم، والمؤمنون في أهاليهم وأصحابهم من العصاة، ويشفع الملائكة أيضًا، بعد ذلك كله يخرج الله من النار من لم يعمل خيرًا قط، وكان في قلبه من الإيمان ما يزن مثقال ذرة، ومن قال يومًا من الدهر: لا إله إلا الله مخلصًا. اهـ

٦) الشفاعة في تخفيف العذاب عن أبي طالب؛ لحديث العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ في الصحيحين البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩) أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ الله هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**».

٧) الشفاعة في قوم يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب، لحديث ابن عباس في الصحيحين البخاري (٣٤١٠)، ومسلم (٢٢٠) أن النبي قال: «**فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ ألفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**».

ولا تعارض بين شفاعة النبي لعمه أبي طالب وبين نفي الشفاعة للكافرين؛ فإن هذه الشفاعة لا تخرجه من النار، ومما يدل على شفاعة المرسلين والمؤمنين والصدقين وشفاعة الملائكة وشفاعة رب العالمين حديث أبي سعيد عند الشيخين البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٤٣) وقد تقدم والشاهد منه «**فَيَقُولُ الله: شَفَعَتِ المَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ**»، وليس في الحديث: (أنهم ليسوا بمسلمين) فالجنة محرمة على الكافرين، وإنما لم يعملوا خيرًا قط سوى التوحيد، والله أعلم.

[الإيمان بالصراط المنصوب على متن جهنم]

٣٦- وَالْإِيمَانُ بِالصِّرَاطِ عَلَى جَهَنَّمَ، يَأْخُذُ الصِّرَاطُ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَجُوزُ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَسْقُطُ فِي جَهَنَّمَ مَنْ شَاءَ اللهُ، وَلَهُمْ أَنْوَارٌ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِمْ.

الشرح:

يقال له: الزراط، والسراط، والصراط، والإيمان بالصراط من الإيمان بالغيب، والإيمان باليوم الآخر، والصراط هو الجسر المنصوب الممدود على متن جهنم يجوز عليه المسلمون إلى الجنة، قال الله : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[مريم:٧١].

وهذا الورود هو: المرور على الصراط للمسلمين كما هو مفسر في حديث أم مبشر عند مسلم (٢٤٩٦) قال: رسول الله أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**» قَالَتْ: بَلَى، يَا رَسُولَ الله، فَانْتَهَرَهَا فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ : «**قَدْ قَالَ الله** : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾».

ومن أوصاف الصراط: أنه دحضة مزلة، فيه كلاليب وخطاطيف وحسك مثل: شوك السعدان، وقد قال أبو سعيد : بلغني أن الجسر أدق من الشعرة، وأحد من السيف. ويكون مرور المؤمنين على الصراط: «**كَطَرْفِ العَيْنِ، وَكَالبَرْقِ وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ،**

وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» من حديث أبي سعيد أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

و«**حَتَّى يَأْتِيَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا**» حديث أبي هريرة في مسلم (١٩٥).

«**وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ**» أخرجه مسلم (١٩٥) و(١٨٢) عن أبي هريرة .

وأول الناس إجازة هو رسول الله ، لحديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٧٣).

ثم تجيز أمته لحديث أبي هريرة عند مسلم (١٨٢): «**وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ**».

وبعد الصراط القنطرة التي بين الجنة والنار؛ ففي حديث أبي سعيد عند البخاري (٦٥٣٥): «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ. فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**».

والذين يجوزون على الصراط المسلمون، أما الكفار فإنهم يُساقون سوقًا إلى النار قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[مريم:٨٦].

وفي حديث أبي سعيد في البخاري (١٨٣) ومسلم (٧٤٣٨): «**فَيَقُولُ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ**».

ويعطي المؤمنون نورًا يمشون عليه، وكل يُعطى على قدر إيمانه.

وأما المنافقون؛ فإن الله يعطيهم نورًا على قدر ما كانوا يظهرون من الخير؛ فما أن يصعدوا على الصراط حتى يسلب منهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الحديد: ١٣-١٥].

قال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢١٠): ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضيء من نوركم، قال ابن عباس وأبوأمامة: يغشى الناس يوم القيامة ظلمة - قال الماوردي: أظنها بعد فصل القضاء - ثم يعطون نورًا يمشون فيه. قال المفسرون: يعطي الله المؤمنين نورًا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضًا نورا خديعة لهم، دليله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وقيل: إنما يعطون النور، لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه، قال ابن عباس. وقال أبو أمامة: يعطى المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور. وقال الكلبي: بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور، فبينما هم يمشون، إذ بعث الله فيهم ريحا وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ يقول المؤمنون، خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون

في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾، ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾. وقيل: بل هو قول المؤمنين لهم: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ إلى الموضع الذي أخذنا منه النور؛ فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورًا، فإنكم لا تقتبسون من نورنا. فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ وقيل: أي هلا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا. ﴿بِسُورٖ﴾ أي سور، والباء صلة. قال الكسائي. والسور حاجز بين الجنة والنار. اهـ

الصراط نوعان:

والصراط نوعان حسي ومعنوي، فالحسي هو الجسر المنصوب على جهنم، والمعنوي هو الإسلام فلا مرور على الصراط الحسي إلا بملازمة الصراط المعنوي، ولهذا قال الله : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦].

وفي حديث النواس بن سمعان عند أحمد (٤/ ١٨٢) ما يدل على ذلك، قال رسول الله : «**ضَرَبَ الله مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ الله تَعَالَى، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ الله تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ الله ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**».

وأخرجه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (١٧): قَالَ أَبُوالعَالِيَةِ: تَعَلَّمُوا الإِسْلَامَ، فَإِذَا تَعَلَّمْتُوهُ فَلَا تَرْغَبُوا عَنْهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِنَّهُ

الإِسْلَامُ، وَلَا تُحَرِّفُوا الإِسْلَامَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ وَالَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ، وَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الأَهْوَاءَ الَّتِي تُلْقِي بَيْنَ النَّاسِ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ. فَحَدَّثْتُ الحَسَنَ فَقَالَ: صَدَقَ وَنَصَحَ. قَالَ: فَحَدَّثْتُ حَفْصَةَ بِنْتَ سِيرِينَ، فَقَالَتْ: يَا بَاهِلِيُّ، أَنْتَ حَدَّثْتَ مُحَمَّدًا بِهَذَا؟ قُلْتُ: لَا. قَالَتْ: فَحَدِّثْهُ إِذَنْ.

شروط الصراط خمسة:

قال ابن القيم في المدارج (١/ ١٠): ولا تكون الطريق صراطا حتى تتضمن خمسة أمور الإستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود، ولا يخفي تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة، فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته، وإضافته إلى المنعم عليهم ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعينه طريقًا.

والصراط تارة يضاف إلى الله إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾[الأنعام:١٥٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾[الشورى:٥٢-٥٣]، وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم وهم المارون عليه. اهـ

وقال في المدارج (١/ ١٤-١٥): وذكر الصراط المستقيم مفردًا معرفًا تعريفين تعريفًا باللام وتعريفًا بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال، فإنه سبحانه يجمعها ويفردها كقوله:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[الأنعام: ١٥٣].

فوحد لفظ الصراط وسبيله وجمع السبل المخالفة له، وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله خطًّا وقال: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ» ثم خط خطوطًا عن يمينه، وعن يساره وقال: «هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣]. أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥) وغيره.

وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله موصل إلى الله. اهـ

[الإيمان بالأنبياء والملائكة]

٣٧- وَالْإِيمَانُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالمَلَائِكَةِ.

الشرح:

هذان ركنان من أركان الإيمان ومن أصوله العظام، فمن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بملائكة الله وأنبيائه قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[البقرة:١٧٧].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٥٠-١٥٢]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٩٨].

وفي حديث عمر بن الخطاب عند مسلم (٨) لما سئل ما الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

وهذه المذكورات في الحديث هي مما اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا اتباع الرسل.

وعلينا الإيمان بمن سمى الله من الأنبياء والمرسلين في كتابه، والإيمان بأنه الله تعالى أرسل رسلًا سواهم وأنبياء لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله؛ فنؤمن بهم جملة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٤].

ومن الإيمان بهم الإيمان بأنهم قد بلغوا عن الله ما أمرهم الله تعالى بتبليغه وجميع ما أرسلوا به؛ لأن عدم التبليغ يخرم في رسالتهم قال الله : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[المائدة:٦٧].

وفي حديث مالك بن نضلة قال: قال رسول الله : «أَتَتْنِي رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّي فَضِقْتُ بِهَا ذَرْعًا فَقِيلَ: لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيُفْعَلَنَّ بِكَ» أخرجه أحمد، والبخاري في خلق أفعال العباد صـ(٩٩).

وفي الترمذي (٢٨٦٣) عن الحارث الأشعري أن النبي قال: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ».

ومع بلاغهم بينوا الحجة وأقاموها، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[العنكبوت:١٨].

وأفضلهم خمسة: وهم أولو العزم من الرسل وهم المجموعون في قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾[الشورى:١٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[الأحزاب:٧].

وأفضلهم محمد النبي المصطفي والرسول المجتبى وخاتم النبيين وسيد الخلق أجمعين القائل: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» كما في حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم، وقد تقدم بطوله.

وهو صاحب المقام المحمود والحوض المورود وغير ذلك من الفضائل والشمائل أرسل إلى الخلق كافة وختم به النبيون، قال الله : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ: ٢٨].

ففي حديث جابر عند البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) قال : «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ**

عامَّةً» وقال الله : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب:٤٠].

أول شفيع في الجنة وأول شافع وأول مشفع لحديث أنس عند مسلم (١٩٦) قال: قال رسول الله عليه وسلم: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا»، وفي حديث رقم (١٩٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله : «آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

سماه الله رءوفًا رحيمًا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨].

وفي مسلم (٢٣٥٤) عن جبير بن مطعم أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو الله بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا العَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ»، وَقَدْ سَمَّاهُ الله رَءُوفًا رَحِيمًا.

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند البخاري (٢١٢٥): «أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا».

ثم أفضلهم بعد نبينا : إبراهيم عليه السلام، ثم موسى، ثم عيسى، ونوح.

وأما الإيمان بمحمد فيكون بتصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، وقد تكلمت عن فضائل نبينا

وطرق إثبات رسالته وكونه خاتم النبيين، وبيان عموم دعوته في كتابي الذي سطرته في الرد على أصحاب حوار الأديان .

وقد اختلف الناس في الفرق بين مسمى النبي والرسول، والصحيح أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، وأن الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه مع إرساله إلى قوم كافرين، والنبي من أوحي إليه بشرع متقدم وأمر بتبليغه.

الإيمان بالملائكة:

قوله: (والملائكة) قال شيخ الإسلام في الرد على المنطقين (٥٠٠): المَلَكْ معناه الرسول، وأصله مَلْأَك على وزن مَفْعَل، ولكن ألقيت حركة الهمزة على الساكن قبلها، وحذفت وهذه المادة معناها الرسالة سواء تقدمت اللام على الهمزة.

ومن الإيمان بالملائكة؛ الإيمان بأنهم خلق من خلق الله ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦].

خلقهم الله من نور كما صح عن النبي من حديث عائشة أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

ويكون الإيمان بمن سمى الله ورسوله منهم: كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الجبال، وملك الموت، ومنكر ونكير، ومالك خازن النار، والإيمان بمن لم نخبر به جملة، فجنود الله لا يعلم عددهم إلا هو ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[المدثر:٣١].

وفي حديث المعراج: «فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ الف مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ» رواه البخاري (١٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

والملائكة هم الموكلون بالسماوات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[النازعات:٥]، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[الذاريات: ٤].

وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم، وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله.

ومنهم: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾[المرسلات:١-٥]، ومنهم: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾[النازعات:١-٤]، ومنهم: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾[الصافات:١-٣].

ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها: فرقة وطائفة وجماعة، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وكلوا

بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٧]، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النحل:٥٠].

فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:١٩-٢٠].

ومنهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت السماوات بهم، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله.(١)

---

(١) الحديث مخرج في الصحيحة (١٧٢٢) (٤/٢٩٩) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وغيرهم عن أبي ذر .

ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم، والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له، وبراءتهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص.

قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[البقرة:٢٨٥]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾[آل عمران:١٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾[الأحزاب:٤٣]. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[غافر:٧]، ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الزمر:٧٥].

﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾[الأنبياء:٢٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾[الأعراف:٢٠٦]، ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾[فصلت:٣٨]، ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾[الإنفطار:١١]، ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾[عبس:١٦]، ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين:٢١]، ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾[الصافات:٨].

وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم. انتهى من شرح الطحاوية (٢٩٩-٣٠١)، قال الحليمي في المنهاج (١/ ٣٠٢): والإيمان بالملائكة ينتظم معانٍ:

أحدهما: التصديق بوجودهم.

الثاني: إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن مأمورون مكلفون لا يقدرون إلا ما يقدِّر الله لهم، والموت جائز عليهم، ولكن جعل لهم أمدًا بعيدًا، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم إلى إشراكهم بالله، ولا يُدعون آلهة كما دعتهم الأوائل.

والثالث: الاعتراف بأن منهم رسلًا لله تعالى يرسلهم إلى من يشاء من البشر. اهـ

[الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان]

٣٨- وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّهُمَا مَخْلُوقَتَانِ، الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَسَقْفُهَا الْعَرْشُ، وَالنَّارُ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى، وَهُمَا مَخْلُوقَتَانِ، قَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى عَدَدَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا، وَعَدَدَ أَهْلِ النَّارِ وَمَنْ يَدْخُلُهَا، لَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا، بَقَاؤُهُمَا مَعَ بَقَاءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَبَدَ الْآبِدِينَ، فِي دَهْرِ الدَّاهِرِينَ.

الشرح:

من عقيدة أهل السنة: الإيمان بأن الجنة حق والنار حق، وأن الجنة دار أولياء الله ، والنار دار أعدائه؛ ففي حديث ابن عباس عند الشيخين البخاري (١١٥)، ومسلم (٧٦٩) ذكر من دعاء النبي إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «**اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ**».

وفي حديث عبادة بن الصامت عندهما أيضًا البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨): «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُاللهَ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ القَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ».

فهم يشهدون ويقرون ويصدقون أن ما أخبر الله به من شأن الجنة التي أعدها الله للمؤمنين حق لا يشكون في ذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف:٧٢].

وفي الحديث: «قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»؛ فقال النبي : «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» متفق عليه، البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٢).

وكذلك يقرون ويشهدون بوجود النار التي أخبر الله أنه أعدها لأهل معصيته من الكافرين والمشركين وغيرهم ممن أراد عذابه من العصاة والمجرمين، فيخرج من كان من أهل التوحيد ممن أراد الله عذابه، ويبقى فيها من كان من أهل الخلود، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[البينة:٦].

والجنة والنار مخلوقتان الآن؛ ففي حديث أبي هريرة عند أحمد (٨٣٧٩) عَنْ رَسُولِ اللهَ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام إِلَى الجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا؛ فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَرَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا؛ فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالمَكَارِهِ، فَقَالَ: اذْهَبْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا؛ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالمَكَارِهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا؛ فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ؛ فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَرَجَعَ وَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦): «تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا».

ففي الحديث دلالة على خلق الجنة والنار ووجودهما الآن، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣]، وقال في النار: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٢٤]، والأحاديث كثيرة متواترة التي فيها: «رَأَيْتُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ» في الصحيحين، فمنها: حديث عائشة في قصة الكسوف عند البخاري (١٠٤٦)، ومسلم (٩٠١). وجاء نحوه عند مسلم عن جابر (٩٠٤)، ولفظه: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ». وعن ابن عباس عند البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٥)، وفيه: «إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ وَرَأَيْتُ النَّارَ». ولا يبقى لمخالف هذا المعتقد إلا المكابرة.

والجنة في السماء السابعة وسقفها العرش كما في حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٤٣٢): «**فَإِذَا سَالتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»، وقال الله في شأن المعراج بالنبي : ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[النجم:١٣-١٥].

وفي حديث البراء عند ابن أبي شيبة (٣/ ٣٨٠)، وأحمد في قصة الاحتضار: يصعد بأرواح المؤمنين إلى السماء.

وأما النار فهي في الأرض السفلي قال الله : ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾[المطففين:٧] وسجين في الأرض السفلى كما فسره بذلك رسول الله في حديث البراء في قصة الاحتضار، وقد تقدم في الكلام على القبر ونعيمه وعذابه.

والجنة درجات؛ ففي حديث أبي سعيد ، قال: قال رسول الله : «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**» أخرجه مسلم (١٨٨٤).

والنار دركات، قال الله : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء:١٤٥] وقد تقدم حديث أبي سعيد، في شأن شفاعة النبي لأبي طالب وفيه: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**».

قال القرطبي في تفسيره (٥/ ٤٠٣): والنار دركات سبعة، أي: طبقات ومنازل؛ إلا أن استعمال العرب لكل ما تسافل أدراك، يقال للبئر: أدراك، ولما تعالى: دَرَج؛ فللجنة درج، وللنار أدْراك. اهـ

والجنة جنان؛ ففي حديث أبي موسى عند مسلم (١٨٠): «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ؛ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».

وقد علم الله عدد من يدخلها من الناس؛ ففي حديث عبدالله بن عمرو عند الترمذي (٢١٤١) قال: خرج علينا رسول الله وفي يده كتابان، فقال: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الكِتَابَانِ؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال للذي في يده اليمنى: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، ثم قال للذي في يساره: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». فقال أصحاب رسول الله : فلأي شيء إذا نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ العِبَادِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ». والحديث في الصحيح المسند لشيخنا الوادعي .

وقد خلق الله الجنة والنار للبقاء لا للفناء وهي مخصوصة من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن:٢٦] وقد نُقل الإجماع على أبدية الجنة والنار قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الأحزاب:٦٥].

ونظم بعضهم ما خلق للبقاء فقال:

ثَمَانِيَةٌ حُكْمُ الْبَقَاءِ يَعُمُّهَا ... مِنَ الْخَلْقِ وَالْبَاقِينَ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ

هُمُ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ نَارٌ وَجَنَّةٌ وَعَجْبٌ وَأَرْوَاحٌ كَذَا اللَّوْحُ وَالْقَلَمْ

وسيأتي مزيد كلام عند قوله: (وكل شيء مما أوجب الله عليه الفناء يفنى...).

ولنذكر هنا شيئًا مما صح في السنة من أوصاف الجنة، بلغنا الله إياها؛ ففي مسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة ، قال: قال رسول الله : «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

وفيه برقم (٢٨٣٥) عن جابر ، قال: قال رسول الله : «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ»، قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ، وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ».

وفيه برقم (٢٨٣٦) عن أبي هريرة ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ».

وفيه برقم (٢٨٣٧) عن أبي هريرة ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا؛ فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا؛ فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا؛ فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣]».

وفيه برقم (٢٨٣٨) عن أبي موسى ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنُ؛ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وفيه برقم (٢٨٣٣) عن أنس مرفوعًا: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ؛ فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا».

وفيه برقم (٢٨٢٩) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ؛ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؛ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؛ فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؛ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي؛ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

[آدم عليه السلام كان في جنة الخلد ثم اهبط منها بمعصيته]

٣٩- وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي الْجَنَّةِ الْبَاقِيَةِ المَخْلُوقَةِ، فَأُخْرِجَ مِنْهَا بَعْدَمَا عَصَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

الشرح:

هذا هو الظاهر من أدلة الكتاب والسنة، والمسألة فيها خلاف كبير ساقه ابن القيم في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، والذي يظهر لي - والله أعلم - أن الجنة التي كان فيها أبونا آدم هي جنة عدن؛ فإن الله قال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[طه:١١٨-١١٩] وغيرها من الجنات الأرضية لا بد من الجوع والعطش والعري.

وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة:٣٦]، فأخبر الله عن إهباط آدم من الجنة التي هي جنة عدن بقرينه ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وأصرح من ذلك ما في حديث الشفاعة في مسلم (١٩٥) عن أبي هريرة ، فإن الناس حين يستشفعون بآدم يقول: «**وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ**» والله أعلم.

وكانت معصية آدم عليه السلام بأكله من الشجر التي حرمها الله عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ

وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:٣٥-٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[طه:١٢١-١٢٢] وفي هذا تحذير عظيم من المعاصي؛ فإن آدم عليه السلام خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، فلما عصى الله هذه المعصية، حصل ما حصل والله المستعان.

[الإيمان بالمسيح الدجال]

٤٠- وَالْإِيمَانُ بِالْمَسِيحِ الدَّجَّالِ.

الشرح:

ومن عقيدة أهل السنة الإيمان بالمسيح الدجال مسيح الضلالة الذي يخرج في آخر الزمان.

سمي بالمسيح؛ لأنه ممسوح العين. وقيل: لأنه أعور العين، والأعور يسمى مسيحًا. وقيل: لمسحه الأرض حين خروجه. وقيل غير ذلك .

وهو مسيح الضلالة أصله من اليهود وهو موجود الآن وهو من بني آدم والأحاديث الدالة على فتنته كثيرة حذر منه نوح والنبيون من بعده، وقد وصفه رسول الله وصفًا بليغًا؛ فأخبر أنه أعور، وأنه مكتوب بين عينيه كافر وأنه يخرج خلة بين الشام والعراق، وأنه يمكث في الأرض أربعين يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة وبقية الأيام مثل أيامنا.

وقد جمعت بحمد الله فيه رسالة بعنوان تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال ، وقد دلت على وجوده الأحاديث المتواترة، وأما الحكمة في عدم التصريح بذكر الدجال في القرآن ما قاله الحافظ في فتح الباري : اشتهر السؤال عن الحكمة في عدم التصريح بذكر الدجال في القرآن مع ما ذكر عنه من الشر وعظم الفتنة به وتحذير الأنبياء منه والأمر بالاستعاذة منه حتى في الصلاة وأجيب بأجوبة.

أحدها: أنه ذكر في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾[الأنعام: ١٥٨] فقد أخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة رفعه: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ الْآيَةُ: الدَّجَّالُ، وَالدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ».

الثاني: قد وقعت الإشارة في القرآن إلى نزول عيسى بن مريم في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[النساء:١٥٩]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[الزخرف:٦١]، وصح انه الذي يقتل الدجال فاكتفي بذكر أحد الضدين عن الآخر ولكونه يلقب المسيح كعيسى لكن الدجال مسيح الضلالة وعيسى مسيح الهدى.

الثالث: انه ترك ذكره احتقارا وتعقب بذكر يأجوج ومأجوج وليست الفتنة بهم بدون الفتنة بالدجال والذي قبله وتعقب بأن السؤال باق وهو ما الحكمة في ترك التنصيص عليه وأجاب شيخنا الإمام البلقيني بأنه اعتبر كل من ذكر في القرآن من المفسدين فوجد كل من ذكر انما هم ممن مضى وانقضى أمره وأما من لم يجيء بعد فلم يذكر منهم أحدا انتهى وهذا ينتقض بيأجوج ومأجوج.

وقد وقع في تفسير البغوي أن الدجال مذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[غافر:٥٧] وان المراد بالناس هنا الدجال من إطلاق الكل على البعض وهذا إن ثبت أحسن الأجوبة فيكون من جملة ما تكفل النبي ﷺ ببيانه والعلم عند الله تعالى. اهـ

بعض الأحاديث الواردة في صفة الدجال وفتنته:

ومن الأحاديث التي وردت في صفاته وفتنته:

ما أخرجه مسلم (٢٩٣٧): عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «**غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا**». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: «**أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «**لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهَ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: «**كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ. ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ. ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ**

قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ؛ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ. وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ؛ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ. ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ؛ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ».

وأخرج مسلم (٢٩٤٢) عن فاطمة بنت قيس : فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَاتَهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقَالَ: «لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ» ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «إِنِّي وَاللهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ،

وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ؛ فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ.

ثُمَّ أَرْفَئُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لَا يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ فَقَالُوا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ؛ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ، قَالَ: لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ؛ فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ؛ فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا.

ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لَا يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ؛ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا وَفَزِعْنَا مِنْهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ؟ قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ، قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمِرُ؟

قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ؟ قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ؟ قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ،

قَالَ: هَلْ فِي العَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ العَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ هِيَ كَثِيرَةُ المَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ العَرَبُ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ العَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي إِنِّي أَنَا المَسِيحُ وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الخُرُوجِ؛ فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا».

قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي المِنْبَرِ «هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ - يَعْنِي: المَدِينَةَ - أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ؛ فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ وَعَنِ المَدِينَةِ وَمَكَّةَ: أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ اليَمَنِ لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ مَا هُوَ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى المَشْرِقِ» قَالَتْ: فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ .
أخرجه مسلم (٢٩٤٢).

وقد استنكر هذا الحديث بعض أهل العلم وشكك في وجود الدجال الآن، والصحيح أنه موجود، والحديث صحيح لا مطعن فيه بوجه، وقد دافع عن الحديث الحافظ ابن حجر وكل ذلك في كتابي تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال .

وعن أبي سعيد الخدري في الصحيحين : البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨) واللفظ لمسلم قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ يَوْمًا حَدِيثًا طَوِيلًا عَنِ الدَّجَّالِ؛

فكَانَ فِيمَا حدَّثنَا قالَ: «يأْتِي وهُو مُحَرَّمٌ عليْهِ أَنْ يدْخُلَ نِقابَ المَدِينةِ؛ فَينْتَهِي إِلَى بعْضِ السِّبَاخِ الَّتِي تَلِي المَدِينَةَ، فَيخْرُجُ إِلَيْهِ يوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ؛ فَيقُولُ لَهُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثنَا رَسُولُ الله حَدِيثَهُ، فَيقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا، ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ أَتَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيقُولُونَ: لَا، قَالَ: فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يُحْيِيهِ؛ فَيقُولُ حِينَ يُحْيِيهِ: وَالله مَا كُنْتُ فِيكَ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الآنَ، قَالَ: فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ».

وعند ابن ماجه برقم (٤٠٧٥) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهَ فَكَانَ أَكْثَرُ خُطْبَتِهِ حَدِيثًا حَدَّثنَاهُ عَنِ الدَّجَّالِ وَحَذَّرَنَاهُ فَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ أَنْ قَالَ: «إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا حَذَّرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ، وَأَنَا آخِرُ الأَنْبِيَاءِ وَأَنْتُمْ آخِرُ الأُمَمِ وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لَا مَحَالَةَ وَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُمْ؛ فَأَنَا حَجِيجٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنْ يَخْرُجْ مِنْ بَعْدِي فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالعِرَاقِ فَيَعِيثُ يَمِينًا وَيَعِيثُ شِمَالًا يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا فَإِنِّي سَأَصِفُهُ لَكُمْ صِفَةً لَمْ يَصِفْهَا إِيَّاهُ نَبِيٌّ قَبْلِي: إِنَّهُ يَبْدَأُ فَيَقُولُ أَنَا نَبِيٌّ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي.

ثُمَّ يُثَنِّي فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ وَلَا تَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ أَوْ غَيْرِ كَاتِبٍ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ جَنَّةً وَنَارًا؛ فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ، فَمَنِ ابْتُلِيَ بِنَارِهِ؛ فَلْيَسْتَغِثْ بِاللهِ وَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ الكَهْفِ فَتَكُونَ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا كَمَا كَانَتِ النَّارُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَقُولَانِ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ

أَنْ يُسَلَّطَ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَيَقْتُلَهَا وَيَنْشُرَهَا بِالْمِنْشَارِ حَتَّى يُلْقَى شِقَّتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولَ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا فَإِنِّي أَبْعَثُهُ الآنَ، ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رَبًّا غَيْرِي فَيَبْعَثُهُ اللهُ، وَيَقُولُ لَهُ الخَبِيثُ: مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ وَأَنْتَ عَدُوُّ اللهِ أَنْتَ الدَّجَّالُ وَاللهِ مَا كُنْتُ بَعْدُ أَشَدَّ بَصِيرَةً بِكَ مِنِّي اليَوْمَ».

قَالَ أَبُو الحَسَنِ الطَّنَافِسِيُّ، فَحَدَّثَنَا المُحَارِبِيُّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ الوَلِيدِ الوَصَّافِيُّ، عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «ذَلِكَ الرَّجُلُ أَرْفَعُ أُمَّتِي دَرَجَةً فِي الجَنَّةِ». قَالَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَاللهِ مَا كُنَّا نُرَى ذَلِكَ الرَّجُلَ إِلَّا عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ.

قَالَ المُحَارِبِيُّ: ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: «وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَأْمُرَ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرَ، وَيَأْمُرَ الأَرْضَ، أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتَ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالحَيِّ فَيُكَذِّبُونَهُ فَلَا تَبْقَى لَهُمْ سَائِمَةٌ إِلَّا هَلَكَتْ، وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَمُرَّ بِالحَيِّ فَيُصَدِّقُونَهُ فَيَأْمُرَ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرَ وَيَأْمُرَ الأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتَ حَتَّى تَرُوحَ مَوَاشِيهِمْ مِنْ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ أَسْمَنَ مَا كَانَتْ وَأَعْظَمَهُ وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ وَأَدَرَّهُ ضُرُوعًا.

وَإِنَّهُ لَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنَ الأَرْضِ إِلَّا وَطِئَهُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا مَكَّةَ وَالمَدِينَةَ لَا يَأْتِيهِمَا مِنْ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهِمَا إِلَّا لَقِيَتْهُ المَلَائِكَةُ بِالسُّيُوفِ صَلْتَةً حَتَّى يَنْزِلَ عِنْدَ الظُّرَيْبِ الأَحْمَرِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ السَّبَخَةِ فَتَرْجُفُ المَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَنْفِي الخَبَثَ مِنْهَا كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ، وَيُدْعَى ذَلِكَ اليَوْمُ يَوْمَ الخَلَاصِ، فَقَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ بِنْتُ أَبِي العَكَرِ: يَا رَسُولَ اللهِ فَأَيْنَ العَرَبُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: هُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ، وَجُلُّهُمْ بِبَيْتِ المَقْدِسِ، وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ.

فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحَ، فَرَجَعَ ذَلِكَ الإِمَامُ يَنْكُصُ يَمْشِي القَهْقَرَى لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى يُصَلِّي بِالنَّاسِ؛ فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَقَدَّمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَتْ فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُمْ؛ فَإِذَا انْصَرَفَ قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام: افْتَحُوا البَابَ فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ الفَ يَهُودِيٍّ كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ؛ فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا، وَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا؛ فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ فَيَقْتُلُهُ.

فَيَهْزِمُ اللهُ اليَهُودَ فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلَّا أَنْطَقَ اللهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ لَا حَجَرَ وَلَا شَجَرَ وَلَا حَائِطَ وَلَا دَابَّةَ إِلَّا الغَرْقَدَةَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لَا تَنْطِقُ إِلَّا قَالَ: يَا عَبْدَاللهَ المُسْلِمَ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ اقْتُلْهُ، قَالَ رَسُولُ الله : وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً السَّنَةُ كَنِصْفِ السَّنَةِ، وَالسَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالجُمُعَةِ، وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالشَّرَرَةِ يُصْبِحُ أَحَدُكُمْ عَلَى بَابِ المَدِينَةِ فَلَا يَبْلُغُ بَابَهَا الآخَرَ حَتَّى يُمْسِيَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهَ كَيْفَ نُصَلِّي فِي تِلْكَ الأَيَّامِ القِصَارِ؟

قَالَ: تَقْدُرُونَ فِيهَا الصَّلَاةَ كَمَا تَقْدُرُونَهَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الطِّوَالِ، ثُمَّ صَلُّوا، قَالَ رَسُولُ اللهَ : فَيَكُونُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا، يَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَذْبَحُ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، وَيَتْرُكُ الصَّدَقَةَ؛ فَلَا يُسْعَى عَلَى شَاةٍ وَلَا بَعِيرٍ، وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ، وَتُنْزَعُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ حَتَّى يُدْخِلَ الوَلِيدُ يَدَهُ فِي فِيِّ الحَيَّةِ فَلَا تَضُرَّهُ، وَتُفِرَّ الوَلِيدَةُ الأَسَدَ فَلَا يَضُرُّهَا، وَيَكُونَ الذِّئْبُ فِي الغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَتُمْلَأُ الأَرْضُ مِنَ السِّلْمِ كَمَا يُمْلَأُ الإِنَاءُ مِنَ المَاءِ، وَتَكُونُ الكَلِمَةُ وَاحِدَةً فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللهُ، وَتَضَعُ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا.

وَتُسْلَبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا، وَتَكُونُ الأَرْضُ كَفَاثُورِ الفِضَّةِ تُنْبِتُ نَبَاتَهَا بِعَهْدِ آدَمَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى القِطْفِ مِنَ العِنَبِ فَيُشْبِعَهُمْ، وَيَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الرُّمَّانَةِ فَتُشْبِعَهُمْ، وَيَكُونَ الثَّوْرُ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ المَالِ، وَتَكُونَ الفَرَسُ بِالدُّرَيْهِمَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَ وَمَا يُرْخِصُ الفَرَسَ؟

قَالَ: لَا تُرْكَبُ لِحَرْبٍ أَبَدًا، قِيلَ لَهُ: فَمَا يُغْلِي الثَّوْرَ، قَالَ: تُحْرَثُ الأَرْضُ كُلُّهَا، وَإِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ شِدَادٍ يُصِيبُ النَّاسَ فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الأُولَى أَنْ تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ فِي الثَّانِيَةِ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ نَبَاتِهَا.

ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ فَتَحْبِسُ مَطَرَهَا كُلَّهُ، فَلَا تُقْطِرُ قَطْرَةً وَيَأْمُرُ الأَرْضَ فَتَحْبِسُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ فَلَا تُنْبِتُ خَضْرَاءَ، فَلَا تَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَتْ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ قِيلَ فَمَا يُعِيشُ النَّاسَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، قَالَ: التَّهْلِيلُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَيُجْرَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مُجْرَى الطَّعَامِ» أخرجه ابن ماجه (٤٠٦٧) وهو ضعيف بهذا السند، وله شواهد منها ما تقدم من حديث النواس.

وقد بينا شواهده في كتاب تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال ، وللشيخ الألباني رسالة في شواهده.

ويجوب الأرض إلا أربعة مواطن دلت عليها الأدلة، وهي: مكة، والمدينة، والمسجد الأقصى، وجبل الطور.

فعن جنادة بن أبي أمية عند أحمد (٥/ ٣٦٤) أنه قال: أتيت رجلًا من أصحاب النبي فقلت له: حدثني حديثا سمعته من رسول الله في الدجال ولا تحدثني عن غيرك وإن كان عندك مصدقًا فقال: سمعت رسول الله يقول: «أَنْذَرْتُكُمْ

فِتْنَةَ الدَّجَّالِ، فَلَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ أَوْ أُمَّتَهُ، وَإِنَّهُ آدَمُ جَعْدٌ أَعْوَرُ عَيْنِهِ الْيُسْرَى، وَإِنَّهُ يُمْطِرُ وَلَا يُنْبِتُ الشَّجَرَةَ، وَإِنَّهُ يُسَلَّطُ عَلَى نَفْسٍ فَيَقْتُلُهَا ثُمَّ يُحْيِيهَا وَلَا يُسَلَّطُ عَلَى غَيْرِهَا، وَإِنَّهُ مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ وَنَهْرٌ وَمَاءٌ وَجَبَلُ خُبْزٍ، وَإِنَّ جَنَّتَهُ نَارٌ وَنَارَهُ جَنَّةٌ، وَإِنَّهُ يَلْبَثُ فِيكُمْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، يَرِدُ فِيهَا كُلَّ مَنْهَلٍ إِلَّا أَرْبَعَ مَسَاجِدَ: مَسْجِدَ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، وَالطُّورِ، وَمَسْجِدَ الْأَقْصَى، وَإِنْ شَكَلَ عَلَيْكُمْ أَوْ شُبِّهَ، فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ».

وعَنْ عَبْدِاللهَ بْنِ عُمَرَ عند البخاري (٣٤٤٠) أَنَّ رَسُولَ اللهَ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أَطُوفُ بِالكَعْبَةِ؛ فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ سَبْطُ الشَّعَرِ يَنْطُفُ أَوْ يُهَرَاقُ رَأْسُهُ مَاءً، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ التَفِتُ؛ فَإِذَا رَجُلٌ جَسِيمٌ أَحْمَرُ جَعْدُ الرَّأْسِ أَعْوَرُ العَيْنِ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ، قَالُوا: هَذَا الدَّجَّالُ أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا ابْنُ قَطَنٍ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ».

وعن عَبْدَاللهَ بْنَ عُمَرَ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهَ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: «إِنِّي لَأُنْذِرُكُمُوهُ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ وَلَكِنِّي سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ، إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ» أخرجه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (١٦٩).

وعَنْ رِبْعِيٍّ عَنْ حُذَيْفَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ فِي الدَّجَّالِ: «إِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا فَنَارُهُ مَاءٌ بَارِدٌ وَمَاؤُهُ نَارٌ» أخرجه البخاري (٣٤٥٠)، ومسلم (٢٩٣٤).

[الإيمان بنزول عيسى عليه السلام]

٤١- وَالْإِيمَانُ بِنُزُولِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَنْزِلُ فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَيَتَزَوَّجُ، وَيُصَلِّي خَلْفَ الْقَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَمُوتُ وَيَدْفِنُهُ الْمُسْلِمُونَ.

الشرح:

نزول عيسى ابن مريم عليه السلام ثابت ومجمع عليه عند أهل السنة والجماعة وقد تقدم حديث النواس بن سمعان وفيه: أنه ينزل عليه السلام فيقتل الدجال ويصلي مع المسلمين.

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥): قال: قال رسول الله : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا؛ فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللهَ هَذِهِ الأُمَّةَ**».

وقد قال الله : ﴿**وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾[الزخرف:٦١] فنزوله من علامات الساعة الكبرى.

قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٩١): قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة أيضًا: إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة، وقرأ

ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك ﴿وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ (بفتح العين واللام) أي أمارة.

وفي حديث حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الغِفَارِيِّ عند مسلم (٢٩٠١) قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ: فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَيَأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ».

ويقع في عهده خير عظيم، ففي مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبدالله بن عمرو ، قَالَ رَسُولُ اللهِ : «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشام فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ، قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ، قَالَ: فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ، إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ، أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ نُعْمَانُ الشَّاكُّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ

النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[الصافات:٢٤]، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ الفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَاكَ يَوْمَ ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[المزمل:١٧]، وَذَلِكَ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[القلم:٤٢]».

وعند أحمد (٢/ ٤٨٢) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله :
«يَنْزِلُ ابْنُ مَرْيَمَ إِمَامًا عَادِلًا، وَحَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيُرْجِعُ السَّلْمَ، وَيَتَّخِذُ السُّيُوفَ مَنَاجِلَ، وَتَذْهَبُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ، وَتُنْزِلُ السَّمَاءُ رِزْقَهَا، وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا، حَتَّى يَلْعَبَ الصَّبِيُّ بِالثُّعْبَانِ، فَلَا يَضُرُّهُ، وَيُرَاعِي الْغَنَمَ الذِّئْبُ، فَلَا يَضُرُّهَا، وَيُرَاعِي الْأَسَدُ الْبَقَرَ، فَلَا يَضُرُّهَا».

وقد وصفه رسوله وصفًا بليغًا فقال: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، ثُمَّ تَقَعُ الْأَمَنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْأُسُودُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنِّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ بِالْحَيَّاتِ، لَا تَضُرُّهُمْ، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُتَوَفَّى، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ» أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٦).

وأما كونه يموت ويصلي عليه المسلمون فلما تقدم.

وأما قوله يتزوج، فلا أعلم دليلًا صحيحًا في ذلك، والله أعلم.

[مسائل الإيمان]

٤٢- وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَقَوْلٌ وَنِيَّةٌ وَإِصَابَةٌ، يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، يَزِيدُ مَا شَاءَ اللهُ، وَيَنْقُصُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ.

الشرح:

تعريف الإيمان:

والإيمان في اللغة: الإقرار. وقد عرفه بعضهم بالتصديق والصحيح الأول.

قال شيخ الإسلام : ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد اهـ

الفروق بين الإقرار والتصديق:

١- من جهة التعدي الإيمان يتعدى بحرف إما الباء أو اللام كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[العنكبوت:٢٦]، وقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٥] فيقال آمن به وآمن له ولا يقال آمنه بخلاف لفظة صدق فإنه يصح تعديها بنفسها.

٢- ليس بين الإيمان والتصديق ترادف في المعنى، فإن الإيمان يطلق على ما يؤتمن فيها المخبر مثل الأمور الغيبية بينما التصديق على الأشياء المحسوسة.

٣- لفظة إيمان في اللغة لا تقابل بالتكذيب فإذا لم يصدق المخبر في خبره يقال: كذبت وإذا صدق يقال: صدقت، ويقال: صدقناه وكذبناه، ولا يقال لكل مخبر:

أمناه أو كذبناه، ولا يقال: أنت مؤمن له أو مكذب له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر.

يقال: هو مؤمن أو كافر والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

٤- أن الإيمان في اللغة مشتق من الأمن الذي هو ضد الخوف فآمن أي صار داخلًا في الأمن، فهو متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قال إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[يوسف:١٧] أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم أما التصديق فلا يتضمن شيئًا من ذلك. اهـ

وإن قالوا: إن التصديق مرادف للإيمان فالجواب من وجهين:

أحدهما: المنع بل الأفعال تسمى تصديقًا كما في ثبت في الصحيحين البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧) عن النبي : «**فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ**» وفيه: «**وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ**». وكذا قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف.

قال الجوهري: والصدّيق مثل الفسّيق الدائم التصديق ويكون الذي يصدق قوله بالعمل... وكان من ما مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، العمل من الإيمان والإيمان من العمل.

الثاني: إذا كان أصله تصديق فهو تصديق مخصوص كما أن الصلاة دعاء مخصوص والحج قصد مخصوص والصيام إمساك مخصوص.

لفظ الإقرار يكون على وجهين:

أحدهما: الإخبار وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق والشهادة ونحوها، وهذا معنى الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الإقرار.

الثاني: إنشاء الالتزام كما في قوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران:٨١].

وليس هو هنا بمعنى الخبر المجرد فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران:٨١]. فهذا الالتزام للإيمان والنصر للرسول الله . اهـ

وتعريفه من حيث الشرع: مذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وبعضهم قال: بأنه قول وعمل، وهو بمعناه أي: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح.

وعلى هذا بوب البخاري في صحيحه فقال: باب الإيمان قول وعمل، وبوب صاحب اللُّمعة أيضًا به، ونقل الحافظ اللالكائي عن مجموعة من السلف هذا التعريف، وإليك ذكر بعض أسمائهم.

قال اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (٥/ ٩٠٧): قال سهل بن المتوكل: أدركت ألف أستاذ أو أكثر كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال يعقوب بن سفيان: أدركت أهل السنة والجماعة على ذلك.

وقال عبدالرزاق: سمعت سفيان الثوري وابن جريج ومالك بن أنس ومعمر بن راشد وسفيان ابن عيينة يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال عبدالرزاق أيضًا: لقيت اثنين وستين شيخًا منهم معمر والأوزاعي والثوري والوليد بن محمد القرشي ويزيد بن السائب وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وسفيان بن عيينة وشعيب بن حرب ووكيع بن الجراح ومالك بن أنس وابن أبي ليلى وإسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم، ومن لم يسمعه كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

قال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (١٥١): ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الإيمان فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع السنة، وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح وكل هذا صحيح، فإذا قالوا: قول وعمل فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعا؛ وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق.

وقال شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية (ص١٦١) شرح الهراس: ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح. اهـ

فمسمى الإيمان عند أهل السنة مرتكز على خمسة أمور:

١- قول القلب وهو تصديقه وإيقانه.

٢- قول اللسان وهو النطق بالشهادتين.

٣- عمل القلب وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والتوكل وغيرها.

٤- عمل اللسان وهو الأذكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلام المعروف وقراءة القرآن... إلى غير ذلك.

٥- عمل الجوارح وهو العمل الذي لا يؤدى إلى بواسطتها من ركوع وسجود ومشي إلى المساجد وسفر الحج والجهاد وغير ذلك.

وهذا هو تعريف أهل الحق والهدى يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال:٢] فهذه فيه عمل القلب واللسان. ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[الأنفال:٣] وهذه جمعت بين عمل القلب واللسان والجوارح، وبهذا الأدلة يظهر أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان كما سيأتي بيانه خلافًا للمرجئة الضلال.

قال الآجري في الشريعة (١/ ٣١٠-٣١١): من قال: الإيمان قول دون العمل، يقال له: رددت القرآن والسنة، وما عليه جميع العلماء، وخرجت من قول المسلمين، وكفرت بالله العظيم فإن قال: بم ذا؟ قيل له: إن الله ، أمر المؤمنين بعد أن صدقوا في إيمانهم: أمرهم بالصلاة والزكاة، والصيام والحج والجهاد، وفرائض كثيرة، يطول ذكرها، مع شدة خوفهم، على التفريط فيها، النار والعقوبة الشديدة، فمن زعم أن الله تعالى فرض على المؤمنين ما ذكرنا، ولم يرد منهم العمل، ورضي منهم بالقول، فقد خالف الله ورسوله ، فإن الله لما تكامل أمر

الإسلام بالأعمال قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣].

وقال النبي : «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، وقال : «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ».

قال محمد بن الحسين : ومن قال: الإيمان: المعرفة، دون القول والعمل، فقد أتى بأعظم من مقالة من قال: الإيمان: قول ولزمه أن يكون إبليس على قوله مؤمنا؛ لأن إبليس قد عرف ربه، قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾[الحجر:٣٩]، وقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِي﴾[الحجر:٣٦]، ويلزم أن تكون اليهود لمعرفتهم بالله وبرسوله أن يكونوا مؤمنين قال الله : ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾[البقرة:١٤٦]، فقد أخبر أنهم يعرفون الله تعالى ورسوله.

ويقال لهم: إيش الفرق بين الإسلام وبين الكفر؟ وقد علمنا أن أهل الكفر قد عرفوا بعقولهم أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما ولا ينجيهم في ظلمات البر والبحر إلا الله ، وإذا أصابتهم الشدائد لا يدعون إلا الله، فعلى قولهم إن الإيمان المعرفة كل هؤلاء مثل من قال: الإيمان: المعرفة على قائل هذه المقالة الوحشية لعنة الله بل نقول والحمد لله قولا يوافق الكتاب والسنة، وعلماء المسلمين الذين لا يستوحش من ذكرهم.

وقد تقدم ذكرنا لهم: إن الإيمان معرفة بالقلب تصديقا يقينا، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، ولا يكون مؤمنا إلا بهذه الثلاثة، لا يجزئ بعضها عن بعض، والحمد لله على ذلك. اهـ

واعلم أن أول خلاف وقع في الأمة كان في هذا الباب قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢٧): وهذه المسائل-مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق- مسائل عظيمة جدًّا، فإن الله علق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار، والاختلاف في مسمياتها أول الاختلاف وقع في هذه الأمة وهو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية وأدخلوهم في دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم، ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين، ثم خلاف المرجئة وقولهم إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان. اهـ

وكان السبب في ضلال هذه الطوائف كونهم جعلوا الإيمان حقيقة واحدة لا تتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة... وقالت الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائره، فحكموا أن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان... وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة... قالوا: فإذا كان الإيمان مركبًا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها.

وهذا قول الخوارج والمعتزلة قالوا: ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمنًا بما فيه من الإيمان كافرًا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، ثم إن هذه الشبهة هي شبهة من منع أن يكون في الرجل الواحد طاعة ومعصية؛ لأن الطاعة جزء من الإيمان والمعصية جزء من الكفر.

يتلخص من هذا أن سبب ضلال الخوارج ومن قال بقولهم والمرجئة ومن قال بقولهم كون الخوارج جعلوا الإيمان مع أعماله جزءًا واحدًا لا يتبعض، فأدخلوا الأعمال في مسماه، لكنهم غالطوا حين جعلوا جميع الأعمال شرط صحة في الإيمان فكفروا بسبب هذه الشبهة المسلمين، وسبب ضلال المرجئة أنهم أخرجوا العمل من مسمى الإيمان فجعلوا الإيمان هو القول فقط على قول بعضهم، وجعله بعضهم هو التصديق فقط، وجعله بعضهم قول اللسان واعتقاد القلب، فأصبح الناس عندهم مؤمنين كاملي الإيمان، وإن زنوا وفجروا وتركوا الصلاة ونافقوا، وهذا غلط عظيم حصل بسببه تضييع الفرائض وشرائع الدين، حتى قال إبراهيم النخعي: لأنا على هذه الأمة من المرجئة أخوف عليهم من عدتهم من الأزارقة- أي الخوارج-.

قال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (١٧٢) فما بعده في رده على المرجئة قال: وهؤلاء غلطوا من وجوه:

أحدها: ظنهم أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد وأن الإيمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص وليس الأمر كذلك فإن أتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد وأوجب على أمة محمد من الإيمان ما لم يوجبه على غيرهم والإيمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ليس هو مثل الإيمان الذي يجب بعد نزول القرآن والإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به الرسول مفصلا ليس مثل الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به مجملًا فإنه لا بد في الإيمان من تصديق الرسول في كل ما أخبر لكن من صدق الرسول ومات عقب ذلك لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك.

وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وأمر أمر ما لا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شيء آخر، وأيضًا لو قدر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما أخبر به بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه فمن لا مال له لا يجب عليه أن يعرف أمره المفصل في الزكاة. ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة فصار يجب من الإيمان تصديقا وعملا على أشخاص ما لا يجب على آخرين، وبهذا يظهر الجواب عن قولهم: خوطبوا بالإيمان قبل الأعمال.

فنقول: إن قلتم: إنهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال فقبل وجوبها لم تكن من الإيمان، وكانوا مؤمنين الإيمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه؛ فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران:٩٧].

ولهذا لم يجئ ذكر الحج في أكثر الأحاديث التي فيها ذكر الإسلام والإيمان؛ كحديث وفد عبد القيس، وحديث الرجل النجدي الذي يقال له: ضمام بن ثعلبة وغيرهما، وإنما جاء ذكر الحج في حديث ابن عمر وجبريل، وذلك؛ لأن الحج آخر ما فرض من الخمس فكان قبل فرضه لا يدخل في الإيمان والإسلام فلما فرض أدخله النبي في الإيمان إذا أفرد وأدخله في الإسلام إذا قرن بالإيمان وإذا أفرد وسنذكر إن شاء الله متى فرض الحج.

وكذلك قولهم: من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمنا فصحيح لأنه أتى بالإيمان الواجب عليه والعمل لم يكن وجب عليه بعد فهذا مما يجب أن يعرف فإنه تزول به شبهة حصلت للطائفتين؛ فإذا قيل: الأعمال الواجبة من الإيمان، فالإيمان الواجب متنوع ليس شيئًا واحدا في حق جميع الناس، وأهل السنة والحديث يقولون: جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الإيمان أي من الإيمان الكامل بالمستحبات ليست من الإيمان الواجب، ويفرق بين الإيمان الواجب وبين الإيمان الكامل بالمستحبات كما يقول الفقهاء: الغسل ينقسم إلى مجزئ وكامل.

فالمجزئ: ما أتى فيه بالواجبات فقط، والكامل: ما أتى فيه بالمستحبات، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب، وقد يراد به الكمال المستحب، وأما قولهم: إن الله فرق بين الإيمان والعمل في مواضع فهذا صحيح، وقد بينا أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها.

وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة، وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك، لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب؛ فصار الإيمان متناولًا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب؛ وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفي بإيمان القلب بل لا بد معه من الأعمال الصالحة.

ثم للناس في مثل هذا قولان: منهم من يقول: المعطوف دخل في المعطوف عليه أولًا، ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصًا له لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول وقالوا: هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٩٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[الأحزاب:٧]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[محمد:٢]؛ فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين.

وقوله: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[البقرة: ٢٣٨]، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥] والصلاة والزكاة من العبادة؛ فقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ﴾؛ فإنه قصد أولًا: أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره.

ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنها عبادتان واجبتان فلا يكتفي بمطلق العبادة الخالصة دونها، وكذلك يذكر الإيمان أولًا؛ لأنه الأصل الذي لا بد منه، ثم يذكر العمل الصالح؛ فإنه أيضًا من تمام الدين لا بد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح، وكذلك قوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة:١-٥].

وقد قيل: إن هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل على من قبله كابن سلام ونحوه وإن هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب، وقد قيل: هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، وهؤلاء

هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد، وإنما عطفوا لتغاير الصفتين كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾[الأعلى:١-٥].

فهو سبحانه واحد، وعطف بعض صفاته على بعض، وكذلك قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[البقرة:٢٣٨] وهي: صلاة العصر.

وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب الموجز وهو: أن القرآن نفي الإيمان عن غير هؤلاء كقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:٢]، ولم يقل: إن هذه الأعمال من الإيمان، قالوا: فنحن نقول: من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمنًا؛ لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه.

والجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: أنكم سلمتم أن هذه الأعمال لازمة لإيمان القلب فإذا انتفت لم يبق في القلب إيمان، وهذا هو المطلوب؛ وبعد هذا فكونها لازمة أو جزءا نزاع لفظي.

الثاني: أن نصوصًا صرحت بأنها جزء كقوله: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً**».

الثالث: إنكم إن قلتم بأن من انتفي عنه هذه الأمور؛ فهو كافر خال من كل إيمان كان قولكم قول الخوارج وأنتم في طرف والخوارج في طرف فكيف توافقونهم، ومن هذه الأمور إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج والجهاد والإجابة إلى حكم الله ورسوله؛ وغير ذلك مما لا تكفرون تاركه وإن كفرتموه كان قولكم قول الخوارج.

الرابع: أن قول القائل: إن انتفاء بعض هذه الأعمال يستلزم أن لا يكون في قلب الإنسان شيء من التصديق بأن الرب حق قول يعلم فساده بالاضطرار.

الخامس: أن هذا إذا ثبت في هذه ثبت في سائر الواجبات فيرتفع النزاع المعنوي.

الوجه الثاني من غلط المرجئة : ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط دون أعمال القلوب؛ كما تقدم عن جهمية المرجئة. الثالث ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الأعمال ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمة له؛ والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر؛ ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب مثل أن يقولوا: رجل في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر وهو لا يسجد لله سجدة ولا يصوم رمضان ويزني بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان؛ يقولون: هذا مؤمن تام الإيمان فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الإنكار. اهـ

وكان أهل السنة هم الوسط في هذا الباب بين الخوارج والمرجئة.

وقد عقد البخاري أغلب كتاب الإيمان في صحيحه في الرد على من زعم أن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان، وإليك بعض هذه التبويبات قال : باب الإيمان قول وعمل، وقال: باب دعاؤكم إيمانكم، وقال: باب أمور الإيمان، وقال: باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وباب أي الإسلام أفضل،

وباب إطعام الطعام من الإسلام، وباب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وباب حب رسول الله من الإيمان وهكذا .

والعجب من قولهم إن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان، مع أن الله قد قرن العمل الصالح بالإيمان في أكثر من ستة وخمسين موضعًا في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة:٢٧٧] في سور كثيرة، فكل هذه الآيات تبين أنه لا بد من اقتران العمل بالإيمان، وقد تقدم كلام شيخ الإسلام وتوجيهه لعطف العمل الصالح على الإيمان.

قال ابن القيم في كتاب الصلاة (٥٣): ولما كان الإيمان أصلًا له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيمانًا، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق؛ فإنه شعبة من شعب الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى من الطريق، وبينها شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا منها ما يلحق بالشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب. اهـ

قال الشافعي : وكان إجماع الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركنا أن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر. اهـ

وقال البغوي في شرح السنة (١/ ٣٨): اتفق الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة أن الأعمال من الإيمان وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة. اهـ

القول في زيادة الإيمان ونقصانه:

وقد تقدم أن الخوارج والمرجئة جعلوا الإيمان كلية واحدة لا تتجزأ، فنتج عن قولهم البائر الوقوع في ضلالة عظيمة وهي رد القول بزيادة الإيمان ونقصانه، مع أن الأدلة قد تظاهرت على إثباتها قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة:١٢٤].

وقوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢]، وقوله تعالى ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾[المدثر: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣] وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[مريم:٧٦] في آيات كثيرة.

وقال كما في حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٦٦٤): «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

الشاهد من الحديث قوله: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ**» أي زائد الإيمان، والضعيف الذي نقص إيمانه، وقال : «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**» الحديث. متفق عليه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠) عن أبي سعيد ، وأخرجه مسلم (٧٩) عن ابن عمر .

وقال : «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له عن أبي هريرة .

قال ابن كثير بعد سوق الآية المتقدمة: وهذه الآية الكريمة من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع غير واحد من أهل العلم. اهـ

ولما كان الإيمان يدخل فيه المعرفة بالقلب والقول والعمل كله كانت زيادته بزيادة الأعمال ونقصانه بنقصانها، وقد صرح بذلك مجموعة من السلف فقالوا: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (١٩٦-١٩٧): والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢].

وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن؛ حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن؛ فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذه زيادة الإيمان وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣].

فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقينًا وتوكلًا على الله وثباتًا على الجهاد وتوحيدًا بأن لا يخافوا المخلوق؛ بل يخافون الخالق وحده

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[التوبة:١٢٤-١٢٥].

وهذه (الزيادة) ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيمانا بحسب مقتضاها؛ فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة وإن كانت نهيًا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، والاستبشار غير مجرد التصديق وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾[الرعد:٣٦].

والفرح بذلك من زيادة الإيمان قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾[الروم:٤-٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾[المدثر:٣١]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الفتح:٤].

وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية؛ فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان، والسكينة: طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[التوبة:٢٦]، وقال تعالى: ﴿ثَانِىَ

ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾[التوبة:٤٠].

ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار؛ وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه، واليقين قد يكون بالعمل، والطمأنينة كما يكون بالعلم والريب المنافي لليقين يكون ريبًا في العلم، وريبًا في طمأنينة القلب، ولهذا جاء في الدعاء المأثور: «**اللهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا**» أخرجه الترمذي (٣٥٠٢) عن ابن عمر وحسنه الألباني في صحيح الجامع .

وفي حديث الصديق الذي رواه أحمد (١/ ٣)، والترمذي (٣٥٥٨)، وغيرهما عن النبي أنه قال: «**اسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ**» فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[التغابن:١١].

قال علقمة: ويروى عن ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة؛ فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وقوله تعالى ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ هداه لقلبه هو زيادة في إيمانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[محمد:١٧] وقال: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[الكهف:١٣]. اهـ

القول في مرتكب الكبيرة:

وفي مرتكب الكبيرة كان أهل السنة هم الوسط الخيار، قال شيخ الإسلام: ومذهب أهل السنة والجماعة: أن فساق أهل الملة ليسوا مخلدين في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة؛ بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب.

فالقول الذي جعل الخوارج ومن إليهم يقولون هذا القول هو زعمهم أن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، وهذا قول باطل قطعًا قال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (١٩٤): وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله فهذا ممنوع وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان، فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة: هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الإيمان المطلق كما قاله أهل الحديث؛ قالوا: فإذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء فيخلد في النار وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم: لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئًا من الإيمان إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئًا واحدا يستوي فيه البر والفاجر، ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه؛ كقوله: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**».

ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص، ومنهم من يقول: يزيد ولا يقول: ينقص كما روي عن مالك في إحدى الروايتين ومنهم من يقول: يتفاضل كعبدالله بن المبارك وقد، ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة. اهـ

وقد تكلم ابن أبي العز في شرح الطحاوية بكلام نفيس في هذه المسألة فقال: إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدا يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

وهم متفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضًا؛ إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾[البقرة:١٧٨] فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾[الحجرات:٩-١٠].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**» أخرجه البخاري (٢٤٤٩) عن أبي هريرة .

فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه. وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ**

هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» رواه مسلم (٢٥٨١).

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:١١٤]، فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته. وهذا مبسوط في موضعه.

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد. اهـ

بينما الخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة، ويستحلون دمه وماله كما تقدم، والمعتزلة يجعلونه منزلة بين المنزلتين، وقد وافقت الخوارج المعتزلة في شيئين هما:نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة، وخلوده في النار مع الكفار. وخالفتها في شيئين هما:تسميته كافرًا، واستحلال دمه وماله.

بينما ذهب المرجئة في مرتكب الكبيرة أنه لا يضر مع الإيمان معصية، فمرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان ولا يستحق دخول النار، وهذا مذهب بين البطلان.

قال الإسفراييني: ومما اتفقت عليه المعتزلة من فضائحهم قولهم: إن حال الفاسق الملي يكون في منزلة بين المنزلتين لا هو مؤمن ولا كافر، وإن هو خرج من الدنيا قبل أن يتوب يكون مخلدًا في النار.

مسألة الاستثناء في الإيمان:

ومن المسائل التي تطرق في هذا الباب هي مسألة الاستثناء في الإيمان، والمراد بالاستثناء: قول أنا مؤمن إن شاء الله أو أرجوا إلى غير ذلك، والناس في هذه المسألة

انقسموا إلى ثلاثة أقسام، منهم من أوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجوزه باعتبارين، وهذا هو الأصح، فالذين يحرمونه المرجئة والجهمية ونحوهم.

وقال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (٣٦٨): والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان: أحدهما أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان؛ والإنسان إنما يكون، عند الله مؤمنا وكافرا باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه وما قبل ذلك لا عبرة به، قالوا: والإيمان الذي يتعقبه الكفر، فيموت صاحبه كافرا ليس بإيمان كالصلاة التي يفسدها صاحبها قبل الكمال؛ وكالصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب، وصاحب هذا هو عند الله كافر لعلمه بما يموت عليه، وكذلك قالوا: في الكفر وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن يريد أن ينصر ما اشتهر عن أهل السنة والحديث من قولهم: أنا مؤمن إن شاء الله.

وقال رادًا على هذا القول: هذا الذي قالوه أنه لا شك فيه هو قول ابن كلاب والأشعري وأصحابه ومن وافقهم من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم، وأما أكثر الناس فيقولون: بل هو إذا كان كافرا فهو عدو لله ثم إذا آمن واتقى صار وليًّا لله، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ

وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الممتحنة:١-٧].

وكذلك كان فإن هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح آمن أكثرهم، وصاروا من أولياء الله ورسوله وابن كلاب وأتباعه بنوا ذلك على أن الولاية صفة قديمة لذات الله وهي الإرادة والمحبة والرضا ونحو ذلك، فمعناها إرادة إثابته بعد الموت؛ وهذا المعنى تابع لعلم الله فمن علم أنه يموت مؤمنا لم يزل وليا لله؛ لأنه لم يزل الله مريدا لإدخاله الجنة وكذلك العداوة، وأما الجمهور فيقولون: الولاية والعداوة وإن تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه فهو سبحانه يرضى عن الإنسان ويحبه بعد أن يؤمن ويعمل صالحا؛ وإنما يسخط عليه ويغضب بعد أن يكفر كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾[محمد:٢٨] فأخبر أن الأعمال أسخطته.

وكذلك قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[الزخرف:٥٥] قال المفسرون: أغضبونا وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر:٧].

وفي الحديث الصحيح الذي في البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة عن النبي أنه قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي**

يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي؛ وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»، فأخبر أنه: لا يزال يتقرب إليه بالنوافل حتى يحبه ثم قال: فإذا أحببته: كنت كذا وكذا، وهذا يبين أن حبه لعبده إنما يكون بعد أن يأتي بمحابه، والقرآن قد دل على مثل ذلك. اهـ

وقال : والمأخذ الثاني في الاستثناء أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله؛ وترك المحرمات كلها؛ فإذا قال الرجل: أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به؛ وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله؛ وهذا من تزكية الإنسان لنفسه وشهادته لنفسه بما لا يعلم ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة؛ فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال؛ وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر. اهـ

وقوم حرموا الاستثناء في الإيمان وهم المرجئة الجهمية قال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (٣٦٨): فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم ممن يجعل الإيمان شيئًا واحدًا يعلمه الإنسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه؛ فيقول أحدهم: أنا أعلم أني مؤمن كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين وكما أعلم أني قرأت الفاتحة وكما أعلم أني أحب رسول الله؛ وأني أبغض اليهود والنصارى، فقولي: أنا مؤمن كقولي: أنا مسلم وكقولي: تكلمت بالشهادتين وقرأت الفاتحة وكقولي: أنا أبغض اليهود والنصارى.

ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التي أنا أعلمها وأقطع بها وكما أنه لا يجوز أن يقال: أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله كذلك لا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله لكن إذا كان يشك في ذلك فيقول: فعلته إن شاء الله قالوا: فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه وسموهم الشكاكة. اهـ

وقوم جوزوا الأمرين وهذا أصح الأقوال، وأما الذين يرون جواز الأ مرين فهم أهل السنة والجماعة والاستثناء أحب إلينا لقول عبدالرحمن بن مهدي : أصل الإرجاء ترك الاستثناء.

قال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان (٣٨٢-٣٨٧): قال الخلال في كتاب السنة : حدثنا سليمان بن الأشعث يعني أبا داود السجستاني قال: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل قال له رجل: قيل لي أمؤمن أنت؟ قلت نعم؛ هل علي في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد وقال: هذا كلام الإرجاء؛ قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:١٠٦] من هؤلاء ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولا وعملا قال له الرجل: بلى، قال فجئنا بالقول، قال: نعم قال: فجئنا بالعمل، قال: لا، قال: فكيف تعيب أن يقول: إن شاء الله ويستثني، قال أبو داود: أخبرني أحمد بن أبي شريح أن أحمد بن حنبل كتب إليه في هذه المسألة أن الإيمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجئ بالعمل فنحن نستثني في العمل.

وذكر الخلال هذا الجواب من رواية الفضل بن زياد، وقال: زاد الفضل: سمعت أبا عبدالله يقول: كان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل؛ يقول: نحن نعمل ولا ندري يتقبل منا أم لا؟

قلت: والقبول متعلق بفعله كما أمر، فكل من اتقى الله في عمله ففعله كما أمر فقد تقبل منه، لكن هو لا يجزم بالقبول لعدم جزمه بكمال الفعل كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون:٦٠] قالت عائشة: يا رسول الله، أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال: لا يا بنت الصديق بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه. اهـ

ويكون الاستثناء جائزًا إذا كان خائفًا من تزكية النفس وكذا باعتبار ما يختم له، وكذا إن كان عنده تقصير في فعل المأمورات، أما إن كان الاستثناء على الشك فهذا محرم لا يجوز قطعًا.

وقد نقل أبو يعلى إجماع السلف على جواز الاستثناء في الإيمان.

قال الآجري في الشريعة (٢/٦٥٦): من صفة أهل الحق ممن ذكرنا من أهل العلم الاستثناء في الإيمان لا على جهة الشك نعوذ بالله من الشك في الإيمان، ولكن خوف التزكية لأنفسهم من استكمال الإيمان لا يدري أهو ممن يستحق حقيقة الإيمان أم لا. اهـ

العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام:

ومما يطرق في هذا الباب هو العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام، وللسلف في هذا الباب قولان:

الأول: وهو التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام وهذا القول ذهب إليه جمهور أهل السنة.

الثاني: عدم التفريق بينهما، وأن الإسلام والإيمان إسمان لمعنى واحد، وممن قال بهذا القول البخاري، ومحمد بن نصر المرزوي، وابن مندة، وابن عبدالبر.

وقد استدل القائلون بالتفريق بمثل قول الله تعالى ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات:١٤]، ومن الأدلة المشهورة في التفريق بين المسميين هو حديث جبريل.

قال شيخ الإسلام كما في الإيمان : قد فرق رسول كما في حديث جبريل بين مسمى الإسلام، ومسمى الإيمان، ومسمى الإحسان. اهـ

ويكون في حالة الاجتماع الإسلام يطلق ويراد به الأعمال الظاهرة كما في حديث جبريل، والإيمان يطلق ويراد به أعمال القلوب، وإذا افترقا دل كل منهما على الأعمال الظاهرة والقلبية يدل على ذلك حديث ابن عباس عند البخاري (٧٥٥٦)، ومسلم (١٧)، وفيه: «آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَتُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ».

وجماع القول أنهما إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، وإلى هذا التفصيل ذهب الخطابي، وابن الصلاح، والبغوي، وشيخ الإسلام، وابن رجب، وغيرهم، وهو الذي تجتمع معه الأدلة.

مذاهب الناس في الإيمان:

تقدم تعريف السلف للإيمان، وأنه قول واعتقاد وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، بينما ذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، وذهب الجهمية ومن وافقهم إلى أنه المعرفة بالقلب، وكل هذه الأقوال باطلة ومخالفة لطريقة الرشد.

وأبعدها عن الحق قول الجهم فلازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[الإسراء:١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤].

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم بل إبليس يكون عند جهم مؤمنًا كامل الإيمان فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف بربه ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[ص:٧٩]، وقوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف: ١٦]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص:٨٢].

والكفر عند جهم هو الجهل بالرب ولا أحدًا أجهل منه بربه، فإنه يزعم أن ربه لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت ولا فوق ولا تحت، وخارج العالم ولا داخله إلى غير ذلك من السفسطة.

وعلى قول الكرامية: يكون المنافقون مؤمنين كاملي الإيمان.

وعلى قول مرجئة الفقهاء: بأن الإيمان هو إقرار باللسان واعتقاد، يكون الفسقة وقطاع الصلاة وغيرهم من أهل الإجرام كاملي الإيمان، لأنهم قد أقروا بألسنتهم بالإسلام والإيمان واعتقدوا بقلوبهم وأنا لهم هذا، ورحم الله ميمون بن مهران إذ يقول عند أن رأى جارية تغني فقال: الخيبة لمن يزعم أن إيمان هذه مثل إيمان مريم بنت عمران.

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان أما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله كما تقدم أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله.

وهذا هو قول مرجئة الفقهاء، وهو قول ضعيف يخالف المعتقد الصحيح، أو باللسان وحده كما تقدم ذكره عن الكرامية، أو بالقلب وحده وهو إما المعرفة كما قاله الجهم أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي، وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر، وقد بين عوار المرجئة غير واحد من أهل العلم.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الإيمان (٤٣-٤٧) في بيان فساد قول مرجئة الفقهاء ومرجئة الجهمية ومن إليهم، قال أبو عبيد: قالت هذه الفرقة: إذا أقر بما جاء من عند الله، وشهد شهادة الحق بلسانه فذلك الإيمان كله، لأن الله سماهم مؤمنين وليس ما ذهبوا إليه عندنا قولًا، ولا نراه شيئًا، وذلك من وجهين: أحدهما: ما أعلمتك في الثلث الأول، أن الإيمان المفروض في صدر الإسلام لم يكن يومئذ شيئًا إلا إقرار فقط.

وأما الحجة الأخرى؛ فإنا وجدنا الأمور كلها يستحق الناس بها أسماءها مع ابتدائها والدخول فيها، ثم يفضل فيها بعضهم بعضًا، وقد شملهم فيها اسم واحد، من ذلك أنك تجد القوم صفوفًا بين مستفتح للصلاة، وراكع وساجد، وقائم وجالس، فكلهم يلزمه اسم المصلي، فيقال لهم: مصلون، وهم مع هذا فيها متفاضلون.

وكذلك صناعات الناس لو أن قومًا ابتنوا حائطًا وكان بعضهم في تأسيسه، وآخر قد نصفه، وثالث قد قارب الفراغ منه، قيل لهم جميعًا: بناة، وهم متباينون في بنائهم وكذلك لو أن قومًا أمروا بدخول دار، فدخلها أحدهم، فلما تعتب الباب أقام مكانه، وجاوزه الآخر بخطوات، ومضى الثالث إلى وسطها، قيل لهم جميعًا: داخلون، وبعضهم فيها أكثر مدخلًا من بعض فهذا الكلام المعقول عند العرب

السائر فيهم، فكذلك المذهب في الإيمان، إنما هو دخول في الدين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[البقرة:٢٠٨].

فالسِّلْم: الإسلام، وقوله: ﴿كَآفَّةٗ﴾ معناها عند العرب: الإحاطة بالشيء، قال رسول الله : «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» متفق عليه عن أبن عمر البخاري (٨) ومسلم (١٦). فصارت الخمس كلها هي الملة التي سماها الله سلما مفروضًا فوجدنا أعمال البر، وصناعات الأيدي، ودخول المساكن كلها تشهد على اجتماع الاسم، وتفاضل الدرجات فيها.

هذا في التشبيه والنظر، مع ما احتججنا به من الكتاب والسنة فهكذا الإيمان هو درجات ومنازل، وإن كان سمى أهله اسمًا واحدًا، وإنما هو عمل من أعمال تعبدالله به عباده، وفرضه على جوارحهم، وجعل أصله في معرفة القلب، ثم جعل المنطق شاهدًا عليه، ثم الأعمال مصدقة له، وإنما أعطى الله كل جارحة عملا لم يعطه الأخرى، فعمل القلب: الاعتقاد، وعمل اللسان: القول، وعمل اليد: التناول، وعمل الرجل: المشي، وكلها يجمعها اسم العمل.

فالإيمان على هذا التناول إنما هو كله مبني على العمل، من أوله إلى آخره، إلا أنه يتفاضل في الدرجات على ما وصفنا وزعم من خالفنا أن القول دون العمل، فهذا عندنا متناقض، لأنه إذا جعله قولا فقد أقر أنه عمل، وهو لا يدري بما أعلمتك من العلة الموهومة عند العرب في تسمية أفعال الجوارح عملًا، وتصديقه في تأويل الكتاب في عمل القلب واللسان، قول الله في القلب: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ

﴿مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦]، وقال: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم: ٤]، وقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:٢].

وقال رسول الله : «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان . وإذا كان القلب مطمئنًا مرة، ويصغي أخرى ويوجل ثالثة، ثم يكون منه الصلاح والفساد، فأي عمل أكثر من هذا؟ ثم بين ما ذكرنا قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[المجادلة:٨].

فهذا ما في عمل القلب وأما عمل اللسان، فقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[النساء:١٠٨]، فذكر القول ثم سماه عملًا، ثم قال: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس:٤١].

هل كان عمل رسول الله معهم إلا دعاؤه إياهم إلى الله، وردهم عليه قوله بالتكذيب وقد أسماها هاهنا عملًا؟ وقال في موضع ثالث: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[الصافات:٥١-٦١].

فهل يكون التصديق إلا بالقول، وقد جعل صاحبها هاهنا عاملا؟ ثم قال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣]، فأكثر ما يعرف الناس من الشكر أنه الحمد والثناء باللسان، وإن كانت المكافأة قد تدعى شكرًا فكل هذا

الذي تأولنا إنما هو على ظاهر القرآن، وما وجدنا أهل العلم يتأولونه، والله أعلم بما أراد، إلا أن هذا هو المستفيض في كلام العرب غير المدفوع، فتسميتهم الكلام عملا، من ذلك أن يقال: لقد عمل فلان اليوم عملًا كثيرًا، إذا نطق بحق وأقام الشهادة، ونحو هذا.

وكذلك إن أسمع رجل صاحبه مكروهًا، قيل: قد عمل به الفاقرة، وفعل به الأفاعيل، ونحوه من القول، فسموه عملًا، وهو لم يزده على المنطق ومنه الحديث المأثور: «**مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ، قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَنْفَعُهُ**» فوجدنا تأويل القرآن، وآثار النبي ، وما مضت عليه العلماء، وصحة النظر، كلها تصدق أهل السنة في الإيمان فيبقى القول الآخر.

فأي شيء يتبع بعد هذه الحجج الأربع؟ وقد يلزم أهل هذا الرأي ممن يدعي أن المتكلم بالإيمان مستكمل له: من التبعة ما هو أشد مما ذكرنا، وذلك فيما قص علينا من نبأ إبليس في السجود لآدم، فإنه قال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[ص:٧٤]؛ فجعله الله بالاستكبار كافرًا، وهو مقر به غير جاحد له، ألا تسمع ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[ص:٧٦]، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[الحجر:٣٩]؟ فهذا الآن مقر بأن الله ربه.

وأثبت القدر أيضًا في قوله: ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾، وقد تأول بعضهم قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أنه كان كافرًا قبل ذلك، ولا وجه لهذا عندي، لأنه لو كان كافرًا قبل أن يؤمر بالسجود لما كان في عداد الملائكة، ولا كان عاصيًا إذا لم يكن ممن أمر بالسجود وينبغي في هذا القول أن يكون إبليس قد عاد إلى الإيمان بعد الكفر، لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ

بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[الحجر:٣٩]، وقوله: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[ص:٧٦]، فهل يجوز لمن يعرف الله وكتابه وما جاء من عنده أن يثبت الإيمان لإبليس اليوم؟.

باب من جعل الإيمان المعرفة بالقلب وإن لم يكن عمل:

قال أبو عبيد: قد ذكرنا ما كان من مفارقة القوم إيانا في أن العمل من الإيمان، على أنهم وإن كانوا لنا مفارقين فإنهم ذهبوا إلى مذهب قد يقع الغلط في مثله، ثم حدثت فرقة ثالثة شذت عن الطائفتين جميعًا، ليست من أهل العلم ولا الدين، فقالوا: الإيمان معرفة بالقلوب بالله وحده، وإن لم يكن هناك قول ولا عمل وهذا منسلخ عندنا من قول أهل الملل الحنفية، لمعارضته لكلام الله ورسوله بالرد والتكذيب، ألا تسمع قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٦]، فجعل القول فرضا حتمًا، كما جعل معرفته فرضا، ولم يرض بأن يقول: اعرفوني بقلوبكم ثم أوجب مع الإقرار الإيمان بالكتب والرسل كإيجاب الإيمان.

ولم يجعل لأحد إيمانًا؛ إلا بتصديق النبي في كل ما جاء به، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[النساء:١٣٦]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾[النساء:٦٥]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾[البقرة:١٤٦]، يعني النبي ؛ فلم يجعل الله معرفتهم به إذ تركوا الشهادة له بألسنتهم إيمانًا، ثم سئل رسول الله عن الإيمان؟ فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ» أخرجه مسلم (٨) عن عمر في أشياء

كثيرة من هذا لا تحصى وزعمت هذه الفرقة: أن الله رضي عنهم بالمعرفة ولو كان أمر الله ودينه على ما يقول هؤلاء ما عرف الإسلام من الجاهلية، ولا فرقت الملل بعضها من بعض، إذ كان يرضى منهم بالدعوى على قلوبهم غير إظهار الإقرار بما جاءت به النبوة والبراءة مما سواها، وخلع الأنداد والآلهة بالألسنة بعد القلوب، ولو كان هذا يكون مؤمنًا ثم شهد رجل بلسانه: أن الله ثاني اثنين، كما يقول المجوس والزنادقة، أو ثالث ثلاثة كقول النصارى، وصلى للصليب، وعبد النيران بعد أن يكون قلبه على المعرفة بالله، لكان يلزم قائل هذه المقالة أن يجعله مؤمنًا مستكملًا الإيمان كإيمان الملائكة والنبيين فهل يلفظ بهذا أحد يعرف الله أو مؤمن له بكتاب أو رسول؟ وهذا عندنا كفر لن يبلغه إبليس فمن دونه من الكفار قط. اهـ

ومن أحسن المؤلفات في بيان ضلال مذهبهم وفساد اعتقادهم هو كتاب الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام، وقد حققته بحمد الله وعلقت عليه بما تيسر.

وفي مثالب هذه الفرقة وضلالها، لاسيما مرجئة الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة، وحماد بن أبي سليمان، تجد شيئًا من ذلك في كتاب السنة لعبدالله بن أحمد، و الإبانة لابن بطة.

[فضائل الصحابة رضوان الله عليهم]

٤٣- وَخَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ وَفَاةِ نَبِيِّهَا: أَبُوبَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ. هَكَذَا رُوِيَ لَنَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا: إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبُوبَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَيَسْمَعُ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ فَلَا يُنْكِرُهُ.

ثُمَّ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ: عَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُالرَّحْمَنُ بْنُ عَوْفٍ. وَكُلُّهُمْ يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ.

ثُمَّ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ: أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْقَرْنُ الْأَوَّلُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ: الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ وَالْأَنْصَارُ، وَهُمْ مَنْ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ.

ثُمَّ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا، أَوْ شَهْرًا، أَوْ سَنَةً، أَوْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ.

نَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ، وَنَذْكُرُ فَضْلَهُ، وَنَكُفُّ عَنْ زَلَّتِهِ، وَلَا نَذْكُرُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا**».

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ نَطَقَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِكَلِمَةٍ فَهُوَ صَاحِبُ هَوًى.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتَ اهْتَدَيْتَ».

الشرح:

هذا الذي ذكره عليه قول أهل السنة قاطبة في فضيلة أبي بكر ، والحديث أخرجه البخاري (٣٦٥٥) ويعتبر إقرار النبي شرع قال الناظم:

وَمَا جَرَى فِي عَصْرِهِ ثُمَّ اطَّلَعْ عَلَيْهِ إِنْ أَقَرَّهُ فَلْيُتَّبَعْ

ويدل على ذلك أن جابر استدل على جواز العزل بعدم نهي القرآن ففي البخاري (٥٢٠٨)، ومسلم (١٤٤٠) قال: كُنَّا نَعْزِلُ وَالقُرْآنُ يَنْزِلُ، وَلَوْ كَانَ شَيْئًا يُنْهَى عَنْهُ لَنَهَانَا عَنْهُ القُرْآنُ. وفي البخاري (٣٦٧١) عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ؟ قَالَ: أَبُوبَكْرٍ. قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ. وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: عُثْمَانُ، قُلْتُ، ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ.

أما أبوبكر؛ فهو عبدالله بن أبي قحافة التيمي الصديق ، أول من آمن من الرجال الأحرار، فضائله مشهورة وخيره عظيم على ما يأتي بيانه كان رسول الله زوجًا لابنته عائشة .

وأما عمر؛ فهو: أبو حفص عمر بن الخطاب العدوي الملقب بالفاروق، كانت ابنته حفصة زوجة للنبي .

وأما ثالثهم؛ فهو عثمان بن عفان ذو النورين تزوج بنتي النبي : رقية وأم كلثوم .

ذكر شيء من فضائل الصحابة:

وإليك بعض ما يدل على فضل من ذكر من هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على التعيين؛ وإلا فضائلهم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

فمن فضائل الصديق الأكبر (أبوبكر رضي الله عنه):

ما جاء عند البخاري (٣٦٥٦) عن ابن عباس قال: قال رسول الله : **«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي»**.

وفي حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)؛ أن رسول الله جلس على المنبر؛ فقال: **«عَبْدٌ خَيَّرَهُ الله بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»**؛ فَبَكَى أَبُوبَكْرٍ وَبَكَى، فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ الله هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُوبَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ. وَقَالَ رَسُولُ الله : **«إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُوبَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ؛ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»**.

وأخرج مسلم في صحيحه (٢٣٨٣) عن عبدالله بن مسعود ؛ قال: قال رسول الله : **«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدِ اتَّخَذَ الله صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا»**.

وفي الصحيحين: البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ؛ فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: **«عَائِشَةُ»** فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: **«أَبُوهَا»** قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: **«ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ»**؛ فَعَدَّ رِجَالًا.

وأخرج مسلم (١٠٢٨) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ اليَوْمَ صَائِمًا؟**» قَالَ أَبُوبَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ اليَوْمَ جَنَازَةً؟**» قَالَ أَبُوبَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ اليَوْمَ مِسْكِينًا؟**» قَالَ أَبُوبَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ اليَوْمَ مَرِيضًا؟**» قَالَ أَبُوبَكْرٍ : أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله : «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**».

وأخرج البخاري (٣٦٦١) عن أبي الدرداء قال: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ إِذْ أَقْبَلَ أَبُوبَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ : «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ**» فَسَلَّمَ، وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَدِمْتُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَقَالَ: «**يَغْفِرُ الله لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ**» ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ أَثَمَّ أَبُوبَكْرٍ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ فَسَلَّمَ فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ يَتَمَعَّرُ حَتَّى أَشْفَقَ أَبُوبَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، وَالله أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ : «**إِنَّ الله بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: صَدَقَ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي**» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا.

وأخرج البخاري (٣٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨٨) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله : «**بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدَا الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهَا حَتَّى اسْتَنْقَذَهَا، فَالتَفَتَ إِلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ لَهُ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي**» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ الله! فَقَالَ النَّبِيُّ : «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهِ وَأَبُوبَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَمَا ثَمَّ أَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ**».

وأخرج البخاري (٣٦٦٤)، ومسلم (٢٣٩١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ عَلَيْهَا دَلْوٌ فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ الله، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَالله يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ**».

وفيهما البخاري (٣٦٦٦) ومسلم عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ الله دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يَا عَبْدَالله، هَذَا خَيْرٌ لَكَ وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ**» قَالَ أَبُوبَكْرٍ: هَلْ عَلَى مَنْ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**» يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ.

وفي البخاري (٣٦٦٧-٣٦٧٠) عن عائشة زوج النبي أن رسول الله مَاتَ وَأَبُوبَكْرٍ بِالسُّنْحِ قَالَ إِسْمَاعِيلُ: -يَعْنِي بِالعَالِيَةِ- فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَالله مَا مَاتَ رَسُولُ الله قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَالله مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ وَلَيَبْعَثَنَّهُ الله فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُوبَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ الله ، فَقَبَّلَهُ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ الله المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُوبَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ فَحَمِدَ الله أَبُوبَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ وَقَالَ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا**

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٤] قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ قَالَ: وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَأَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَتَهُ أَبُوبَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُوبَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُوبَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ فَقَالَ فِي كَلَامِهِ نَحْنُ الأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ فَقَالَ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللهِ لَا نَفْعَلُ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ فَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: لَا وَلَكِنَّا الأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ دَارًا وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا فَبَايِعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقَالَ عُمَرُ: قَتَلَهُ اللهُ. وَقَالَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَالِمٍ: عَنِ الزُّبَيْدِيِّ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ القَاسِمِ: أَخْبَرَنِي القَاسِمُ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: شَخَصَ بَصَرُ النَّبِيِّ ، ثُمَّ قَالَ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» ثَلَاثًا، وَقَصَّ الحَدِيثَ قَالَتْ: فَمَا كَانَتْ مِنْ خُطْبَتِهِمَا مِنْ خُطْبَةٍ إِلَّا نَفَعَ اللهُ بِهَا لَقَدْ خَوَّفَ عُمَرُ النَّاسَ، وَإِنَّ فِيهِمْ لَنِفَاقًا فَرَدَّهُمُ اللهُ بِذَلِكَ. اهـ

وفي الصحيحين البخاري (٣٦٧٤) ومسلم عن أبي موسى الأشعري: أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ خَرَجَ فَقُلْتُ: لَالْزَمَنَّ رَسُولَ اللهِ ، وَلَأَكُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا قَالَ: فَجَاءَ الْمَسْجِدَ فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ فَقَالُوا: خَرَجَ وَوَجَّهَ هَا هُنَا فَخَرَجْتُ عَلَى إِثْرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى دَخَلَ بِئْرَ أَرِيسٍ فَجَلَسْتُ عِنْدَ البَابِ وَبَابُهَا مِنْ جَرِيدٍ حَتَّى قَضَى رَسُولُ اللهِ حَاجَتَهُ، فَتَوَضَّأَ فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بِئْرِ أَرِيسٍ وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي البِئْرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ فَجَلَسْتُ عِنْدَ

البَابِ فَقُلْتُ: لَأَكُونَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ الله اليَوْمَ فَجَاءَ أَبُوبَكْرٍ فَدَفَعَ البَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا أَبُوبَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**» فَأَقْبَلْتُ: حَتَّى قُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ وَرَسُولُ الله يُبَشِّرُكَ بِالجَنَّةِ، فَدَخَلَ أَبُوبَكْرٍ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ الله مَعَهُ فِي القُفِّ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي البِئْرِ كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُنِي فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ الله بِفُلَانٍ خَيْرًا يُرِيدُ أَخَاهُ يَأْتِ بِهِ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ البَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ الله فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**» فَجِئْتُ فَقُلْتُ: ادْخُلْ وَبَشَّرَكَ رَسُولُ الله بِالجَنَّةِ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ الله فِي القُفِّ عَنْ يَسَارِهِ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي البِئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ الله بِفُلَانٍ خَيْرًا يَأْتِ بِهِ فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ البَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ الله فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ**» فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ وَبَشَّرَكَ رَسُولُ الله بِالجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُكَ فَدَخَلَ فَوَجَدَ القُفَّ قَدْ مُلِئَ فَجَلَسَ وِجَاهَهُ مِنَ الشَّقِّ الآخَرِ. قَالَ شَرِيكُ بْنُ عَبْدِالله: قَالَ سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ: فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُمْ.

ومن فضائل عمر :

نزيد على ما تقدم في البخاري (٣٦٧٩)، ومسلم عن جابر بن عبدالله قال: قال النبي : «**رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ وَسَمِعْتُ خَشَفَةً فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ: هَذَا بِلَالٌ، وَرَأَيْتُ قَصْرًا بِفِنَائِهِ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ:**

لِمَنْ هَذَا، فَقَالَ: لِعُمَرَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ، فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ فَقَالَ عُمَرُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، أَعَلَيْكَ أَغَارُ».

وأخرج البخاري (٣٦٨١) ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال النبي : «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أُتِيتُ بِقَدَحٍ مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرِّيَّ فِي ظُفْرِي، أَوْ قَالَ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ نَاوَلْتُ فَضْلَهُ عُمَرَ**» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا أَوَّلْتَهُ قَالَ: «**العِلمَ**». ورؤيا الأنبياء وحي.

واتفقا على حديث أبي سعيد البخاري رقم (٣٦٩١) ومسلم قال: سمعت رسول الله : «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ عُرِضُوا عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ اجْتَرَّهُ**» قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**الدِّينَ**».

وأخرج البخاري (٢٦٨٣) ومسلم (٢٣٩٦) عن سعد بن أبي وقاص قال: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ الله وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الحِجَابَ فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ الله وَرَسُولُ الله يَضْحَكُ فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَ الله سِنَّكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله : «**عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الحِجَابَ**» قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ.

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَيْ عَدُوَّاتِ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبْنَنِي، وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ الله ، قُلْنَ: نَعَمْ أَنْتَ أَغْلَظُ، وَأَفَظُّ مِنْ رَسُولِ الله ، قَالَ رَسُولُ الله : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ**».

وعن أنس بن مالك قال: صَعِدَ أُحُدًا وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ؛ فَرَجَفَ بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله : «**اثْبُتْ أُحُدُ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ**» رواه البخاري (٣٦٨٦).

ومن فضائل عثمان :

نزيد على ما تقدم قول النبي في شأنه: «**مَنْ يَحْفِرْ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الجَنَّةُ**» فَحفَرَهَا عُثْمَانُ، وَقَالَ: «**مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ**» فَجَهَّزَهُ عُثْمَانُ.

وأخرج البخاري (٣٦٩٦) عن عُبَيْدَ الله بْنَ عَدِيِّ بْنِ الخِيَارِ؛ أَنَّ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ قَالَا: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُكَلِّمَ عُثْمَانَ لِأَخِيهِ الوَلِيدِ؛ فَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِيهِ، فَقَصَدْتُ لِعُثْمَانَ حَتَّى خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، قُلْتُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً وَهِيَ نَصِيحَةٌ لَكَ، قَالَ: يَا أَيُّهَا المَرْءُ، قَالَ مَعْمَرٌ: أُرَاهُ قَالَ: أَعُوذُ بِالله مِنْكَ؛ فَانْصَرَفْتُ فَرَجَعْتُ إِلَيْهِمْ إِذْ جَاءَ رَسُولُ عُثْمَانَ فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: مَا نَصِيحَتُكَ؟ فَقُلْتُ: إِنَّ الله سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ، وَكُنْتَ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لله وَلِرَسُولِهِ ؛ فَهَاجَرْتَ الهِجْرَتَيْنِ، وَصَحِبْتَ رَسُولَ الله وَرَأَيْتَ هَدْيَهُ وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي شَأْنِ الوَلِيدِ، قَالَ: أَدْرَكْتَ رَسُولَ الله ؟، قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ خَلَصَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِهِ مَا يَخْلُصُ إِلَى العَذْرَاءِ فِي سِتْرِهَا، قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الله بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالحَقِّ، فَكُنْتُ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لله وَلِرَسُولِهِ وَآمَنْتُ بِمَا بُعِثَ بِهِ وَهَاجَرْتُ الهِجْرَتَيْنِ كَمَا قُلْتَ، وَصَحِبْتُ رَسُولَ الله وَبَايَعْتُهُ؛ فَوَالله مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَشْتُهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ الله ، ثُمَّ أَبُوبَكْرٍ مِثْلُهُ، ثُمَّ عُمَرُ مِثْلُهُ، ثُمَّ اسْتُخْلِفْتُ؛ أَفَلَيْسَ لِي مِنَ الحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَمَا هَذِهِ الأَحَادِيثُ الَّتِي تَبْلُغُنِي عَنْكُمْ، أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ شَأْنِ الوَلِيدِ؛ فَسَنَأْخُذُ فِيهِ بِالحَقِّ إِنْ شَاءَ الله، ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا؛ فَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِدَهُ فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ.

وأخرج رقم (٣٦٩٨): عن عُثْمَانُ ابْنُ مَوْهَبٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ حَجَّ البَيْتَ؛ فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ القَوْمُ؟ فَقَالُوا: هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَمَنِ الشَّيْخُ فِيهِمْ؟ قَالُوا: عَبْدُالله بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ شَيْءٍ؛ فَحَدِّثْنِي: هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ، وَلَمْ يَشْهَدْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: الله أَكْبَرُ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: تَعَالَ أُبَيِّنْ لَكَ؛ أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَشْهَدُ أَنَّ الله عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ الله وَكَانَتْ مَرِيضَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله : «**إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ**»، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله عُثْمَانَ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله بِيَدِهِ اليُمْنَى: «**هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ**»؛ فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: «**هَذِهِ لِعُثْمَانَ**» فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: اذْهَبْ بِهَا الآنَ مَعَكَ.

وأخرج مسلم (٢٢٠١) عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُوبَكْرٍ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُول الله وَسَوَّى ثِيَابَهُ، قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ؛ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ دَخَلَ أَبُوبَكْرٍ، فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ، فَقَالَ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ**».

ومن فضائل رابعهم وهو: علي بن أبي طالب

ما أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦) عن سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ**» قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ الله كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**» فَقَالُوا: هُوَ يَا رَسُولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ؛ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ الله فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ؛ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ الله أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فِيهِ؛ فَوَالله لَأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**».

وقال عنه رسول الله : «**أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ، مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي**» رواه البخاري برقم (٤٤١٦)، ومسلم برقم (٢٤٠٤).

وفي مسلم (٧٨) عنه أنه قَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ؛ إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ إِلَيَّ: أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ. وعن بريدة عند أحمد (٥/ ٣٤٧) وغيره مرفوعًا: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ؛ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**».

هذه إشارات إلى فضائل هؤلاء القوم الذين نصر الله بهم الدين، وأعز بهم المسلمين.

قوله: (**ثم أفضل الناس بعد هؤلاء علي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص... الخ**) هؤلاء هم المذكورون في حديث عبدالرحمن بن عوف عند الترمذي (٣٧٤٧) قال: قال رسول الله : «**أَبُوبَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي**

الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ».

وجاء الحديث عن سعيد بن زيد أيضًا عند الترمذي (٣٧٤٨)، والحديث حسن وقد مات رسول الله وهو عنهم راضٍ كما في البخاري (٣٧٠٠) عن عمر، وذكر عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وسعيدًا.

قوله: (**وكلهم يصلح للخلافة**) يدل عليه ما جاء عن عائشة حيث قيل لها: لو كان رسول الله مستخلفًا، قالت: لاستخلف أبا بكر، قالوا: ثم من؟ قالت: عمر، قالوا: ثم من؟ قالت: أبوعبيدة بن الجراح. أخرجه مسلم (٢٣٨٥).

وأيضًا جعل عمر الأمر في الستة الذين تقدم ذكرهم.

قوله: (**ثم أفضل الناس بعد هؤلاء أصحاب رسول الله ... الخ**) لحديث عبدالله بن مسعود عند البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) وفيه: قَالَ رَسُولُ الله : «**خَيْرُ أُمَّتِي القَرْنُ الَّذِينَ يَلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»، ولحديث عمران بن حصين عند البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥): «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**».

قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي أَذَكَرَ النَّبِيُّ بَعْدُ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَالَ النَّبِيُّ : «**إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**».

قوله: (**وهم من صلى القبلتين**) أي: صلى إلى بيت المقدس لما كانت القبلة نحوه، ثم صلى إلى الكعبة حين حول الله القبلة، وهذا الأمر حضره من كان إسلامه

قديمًا فكانت لهم من النصرة أكثر ممن بعدهم، وكان رسول الله ﷺ يصلي إلى بيت المقدس ستة عشر، أو سبعة عشر شهرًا، ثم أنزل الله ﷻ بعد ذلك الأمر بالتوجه إلى الكعبة، وكان رسول الله ﷺ يحب ذلك، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾[البقرة:١٤٢-١٤٤]، ويدل على ذلك حديث البراء في الصحيحين البخاري (٤٤٩٢)، ومسلم (٥٢٥).

قوله: (**ثم أفضل الناس بعد هؤلاء من صحب رسول الله... الخ**) والصحبة لا يعدلها شيء وتثبت للمرء بلقياه للنبي ﷺ مؤمنًا به، ومات على ذلك ولو تخللت ردة على الصحيح.

قوله: (**نترحم عليهم**) لقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠]، وفي حديث عائشة في مسلم (٣٠٢٢) قالت: يا ابن أختي، أمروا أن يستغفروا لهم؛ فسبوهم.

قال ابن بطة في الإبانة قسم القدر (١/ ٢٤٥- ١٤٦): وَكَذَلِكَ أَمْرُ الصَّحَابَةِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ، فَأَمْرُهُمْ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: فُرِضَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَالْآخَرُ: وَاجِبٌ عَلَيْنَا الْإِمْسَاكُ عَنْهُ وَتَرْكُ الْمَسْأَلَةِ وَالْبَحْثِ وَالتَّنْقِيرِ عَنْهُ. فَأَمَّا الْوَاجِبُ عَلَيْنَا عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ فَهُوَ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ وَصْفِهِمْ، وَمَا ذَكَرَهُ مِنْ عَظِيمِ أَقْدَارِهِمْ، وَعُلُوِّ شَرَفِهِمْ، وَمَحَلِّ رُتَبِهِمْ، وَمَا أَمَرَنَا بِهِ مِنَ الِاتِّبَاعِ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَعِلْمُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ، وَعِلْمُ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا حُبُّهُمْ لِأَجْلِهِ مِنْ فَضْلِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، وَنَشْرُ ذَلِكَ عَنْهُمْ، لِتَنْحَاشَ الْقُلُوبُ إِلَى طَاعَتِهِمْ، وَتَتَأَلَّفُ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ، فَهَذَا كُلُّهُ وَاجِبٌ عَلَيْنَا عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَمِنْ كَمَالِ دِينِنَا طَلَبُهُ. وَأَمَّا مَا يَجِبُ عَلَيْنَا تَرْكُهُ، وَفُرِضَ عَلَيْنَا الْإِمْسَاكُ عَنْهُ، وَحَرَامٌ عَلَيْنَا الْفَحْصُ وَالتَّنْقِيرُ عَنْهُ هُوَ النَّظَرُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَالْخُلْقُ الَّذِي كَانَ جَرَى مِنْهُمْ لِأَنَّهُ أَمْرٌ مُشْتَبَهٌ، وَنُرْجِئُ الشُّبْهَةَ إِلَى اللهِ، وَلَا نَمِيلُ مَعَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا نَظْلِمُ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَلَا نُخْرِجُ أَحَدًا مِنْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا نَجْعَلُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ حُجَّةً فِي سَبِّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَلَا نَسُبُّ أَحَدًا مِنْهُمْ لِسَبِّهِ صَاحِبَهُ، وَلَا نَقْتَدِي بِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ جَرَى مِنْهُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ عَلَى هُدًى وَتُقًى وَخَالِصِ إِيمَانٍ، لِأَنَّا عَلَى يَقِينٍ مِنْ نَصِّ التَّنْزِيلِ وَقَوْلِ الرَّسُولِ، أَنَّهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَخَيْرُهُ بَعْدَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ، وَلِأَنَّ أَحَدًا مِمَّنْ أَتَى بَعْدَهُمْ وَلَوْ جَاءَ بِأَعْمَالِ الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ، وَلَوْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَلَا خَطِيئَةَ عَلَيْهِ لَمَا بَلَغَ ذَلِكَ أَصْغَرَ صَغِيرَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ أَدْنَاهُمْ، وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ، وَلَا شَيْءَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ صَغِيرٌ، وَالْحَمْدُ للهِ. اهـ

قال الآجري في الشريعة (٤/ ١٦٣١-١٦٣٨): وأذكر بعد ذلك فضائل صحابته ، الذين اختارهم الله له، فجعلهم وزراءه وأصهاره وأنصاره والخلفاء من بعده في أمته، وهم المهاجرون والأنصار الذين نعتهم الله

في كتابه بأحسن النعت ووصفهم بأجمل الوصف، وأخبرنا الله في كتابه أنه نعتهم في التوراة والإنجيل بأحسن النعت ووصفهم بأجمل الوصف، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الجمعة:٤].

فأما المهاجرون ، فإنهم آمنوا بالله وبرسوله، وصدقوا الإيمان بالعمل، صبروا مع النبي في شدة، آثروا الذل في الله على العز في غير الله، وآثروا الجوع في الله على الشبع في غير الله، عادوا في الله القريب والبعيد، وهاجروا مع الرسول وفارقوا الآباء والأبناء والأهل والعشائر، وتركوا الأموال والديار وخرجوا فقراء، كل ذلك محبة منهم لله تبارك وتعالى ولرسوله ، كان الله ورسوله آثر عندهم من جميع من ذكرناه بإيمان صادق، وعقول مؤيدة، وأنفس كريمة، ورأي سديد، وصبر جميل بتوفيق من الله رضي الله عنهم ورضوا عنه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

وأما الأنصار ، فهم قوم اختارهم الله لنصرة دينه واتباع نبيه، فآمنوا به بمكة، وبايعوه، وصدقوا في بيعتهم إياه فأحبوه، ونصروه، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾[الأعراف:١٥٧].

وأرادوا أن يخرجوه معهم إلى المدينة محبة منهم له، فسألهم النبي ، تركه إلى وقت، ثم خرجوا إلى المدينة فأخبروا إخوانهم بإيمانهم فآمنوا وصدقوا، فلما هاجر إليهم الرسول ، استبشروا بذلك، وسروا بقدومه عليهم، فأكرموه، وعظموه، وعلموا أنها نعمة من الله عليهم، ثم قدم المهاجرون بعدهم، ففرحوا بقدومهم، وأكرموهم بأحسن الكرامة، ووسعوا لهم الديار، وآثروهم على الأهل، والأولاد، وأحبوهم حبا شديدا، وصاروا إخوة في الله ، وتآلفت القلوب بتوفيق من

المحبوب بعد أن كانوا أعداء، قال الله لنبيه : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٦٢-٦٣].

ثم قال للجميع: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾[آل عمران:١٠٣]، فأجمعوا جميعا على محبة الله ، ومحبة رسوله ، وعلى المعاونة على نصرته، والسمع والطاعة له في العسر واليسر، والمنشط والمكره، لا تأخذهم في الله لومة لائم، فنعت الله المهاجرين، والأنصار في كتابه في غير موضع منه بكل نعت حسن جميل، ووعدهم الجنة خالدين فيها أبدًا، وأخبرنا أنه قد رضي عنهم ورضوا عنه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

فإن قال قائل: فاذكر لنا من كتاب الله ما يدل على ما قلت؛ قيل له: لا يسعنا أن ننطق بشيء إلا بما وافق الكتاب والسنة، وأقاويل الصحابة ، وسأذكر لك من ذلك ما يقر الله الكريم به أعين المؤمنين ويسخن به أعين المنافقين، والله الموفق لما قصدنا له ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال الله : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِى تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠]، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾[الأنفال:٧٢].

وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾[الأنفال:٧٤-٧٥]، وقال : ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[الحشر:٨-٩]، وقال : ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ (١٩٤) فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾[آل عمران:١٩١-١٩٥].

وقال : ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة:٨٨-٨٩]، وقال : ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[النساء:١٠٠].

وقال : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣]، وقال : ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٢-٦٣].

وقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل:١١٠]، وقال : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل:٤١-٤٢].

وقال : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التحريم:٨]، وقال : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:١٨].

وقال : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

وقال : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ

ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾[الفتح:٢٩].

وقال : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾[النور:٥٥].

فقد والله أنجز الله الكريم للمهاجرين والأنصار ما وعدهم به، جعلهم الخلفاء من بعد الرسول، ومكنهم في البلاد، ففتحوا الفتوح، وغنموا الأموال، وسبوا ذراري الكفار، وأسلم على أيديهم من الكفار خلق كثير، وأعزوا دين الله عز جل، وأذلوا أعداء الله ، وظهر أمر الله ولو كره المشركون، وسنوا للمسلمين السنن الشريفة، وكانوا بركة على جميع الأمة، أبوبكر وعمر، وعثمان، وعلي ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

يقال: من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر، فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله ، ومن أحب علي بن أبي طالب، فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن قال الحسنى في أصحاب محمد فقد برئ من النفاق قال محمد بن الحسين، : ولكل واحد منهم من الفضائل ما لا يحصى كثرة، نفعنا الله بحبهم إنه سميع قريب. اهـ

[واجب المسلم تجاه صحابة رسول الله ﷺ]

قوله: (**ونذكر فضلهم ونكف عن زللهم**) هنا مسائل ثلاث:

الأولى: ذكر فضائلهم:

هذا هو الواجب على المسلمين، والذي عليه المسلمون؛ إلا من تلوثت عقيدته وفسدت فطرته بسبب أهل البدع والأهواء من الرافضة والباطنية، ومن سار بسيرهم من المبطلين.

وقال القرطبي في جامع أحكام القرآن (١٨/ ٣٢): في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠].

هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظًا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والإستغفار لهم، وأن من سبهم، أو واحدًا منهم، أو اعتقد فيه شرًا إنه لا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره.

قال مالك : من كان يبغض أحدًا من أصحاب محمد ، أو كان في قلبه عليهم غل، فليس له حق في فئ المسلمين، ثم قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠].

وقال الطحاوي في عقيدته : ونحب أصحاب رسول الله ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير

يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢/ ٦٨٩-٧٤٠): يشير الشيخ إلى الرد على الروافض والنواصب، وقد أثنى الله على الصحابة هو ورسوله، ورضي عنهم، ووعدهم الحسنى كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[الفتح:٢٩].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الأنفال:٧٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[الحديد:١٠]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا

وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:٨-١٠].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم، يستغفرون لهم، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلًا لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء؛ فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيبًا، بنص القرآن.

وفي الصحيحين البخاري (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري قال: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَبَيْنَ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**». انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبدالرحمن دون البخاري.

فإن النبي يقول لخالد ونحوه: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي**»، يعني: عبدالرحمن وأمثاله؛ لأن عبدالرحمن ونحوه هم السابقون الأولون، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وبعد مصالحة النبي أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء، منهم أبو سفيان وابناه يزيد.

هذا بعض من كل، وقطرة من مطرة من كلام أهل السنة على محبتهم وما لهم.

المسألة الثانية: سلامة القلوب عليهم:

من المعلوم أن محاسن الصحابة وفضائلهم مذكورة في القرآن، وعلى لسان النبي العدنان، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بهم على مر الأزمان، فنشر محاسنهم نشر للعلم والفضل ودعوة إلى الخير الجزيل، والفعل الجميل فهم الموحدون والمتابعون والعابدون الراكعون الساجدون المنفقون المخبتون المنيبون، فما من خير إلا وسبقونا إليه، وما من شر إلا وكانوا أبعد الناس منه تركوا الأوطان وعاداهم أهل الزمان وتحملوا الفقر والحاجة، وآثروا الآخرة على الدنيا، فكم لهم من فضل وكم لهم من أجر.

قال ابن تيمية في العقيدة الواسطية: ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠]، وطاعة النبي في قوله: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[1].

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، فيفضلون من أنفق من قبل الفتح -وهو صلح الحديبية- وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل ويقدمون المهاجرين على الأنصار ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر - وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر-: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي بل قد رضي الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٥٤٠).

ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس، وغيرهم من الصحابة.

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر، ثم عمر ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي - بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر - أيهما أفضل فقدم قوم عثمان وسكتوا، وربعوا بعلي، وقدم قوم عليًا، وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان، ثم علي وإن كانت هذه المسألة - مسألة عثمان وعلي - ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله أبوبكر وعمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله.

ويحبون أهل بيت رسول الله ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله حيث قال يوم غدير خم: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»، وقال: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**» أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

ويتولون أزواج رسول الله أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصا خديجة أم أكثر أولاده أول من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنزلة العالية والصديقة بنت الصديق التي قال النبي : «**وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**» أخرجه البخاري (٣٤١١) ومسلم (٢٤٣١).

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول، أو عمل، ويمسكون عما شجر من الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كاذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات مما ليس لمن بعدهم.

وقد ثبت بقول رسول الله إنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه.

فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور.

ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم، ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع والعمل الصالح.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان، ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى.

المسألة الثالثة: الكف عما شجر بينهم:

فهم دائرون فيما صنعوه بين الأجر والأجرين، فمصيبهم له أجران، ومخطؤهم له أجر؛ لحديث عمرو بن العاص قال: قال رسول الله : «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**» أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦).

ثم لهم من الفضائل ما يغمر فيها ما حصل منهم على ما تقدم من كلام شيخ الإسلام .

قال النووي في شرح مسلم : وأما الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب أنفسها بسببها، وكلهم عدول ومتأولون في حروبهم وغيرها ولم يخرج شئ من ذلك أحدًا منهم عن العدالة؛ لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء وغيرها، ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم.

واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام:

قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف وأن مخالفه باغ فوجب عليهم نصرته وقتال الباغي عليه فيما اعتقدوه، ففعلوا ذلك ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده.

وقسم عكس هؤلاء ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدته وقتال الباغي عليه.

وقسم ثالث اشتبهت عليهم القضية وتحيروا فيها ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين وأن الحق معه لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه.

فكلهم معذورون ، ولهذا اتفق أهل الحق ومن يعتد به في الإجماع على قبول شهاداتهم ورواياتهم وكمال عدالتهم رضي الله عنهم أجمعين. اهـ

[السمع والطاعة لأئمة المسلمين]

٤٤- وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِلْأَئِمَّةِ فِيمَا يُحِبُّ اللهُ وَيَرْضَى، وَمَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ بِإِجْمَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَرِضَاهُمْ بِهِ فَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَبِيتَ لَيْلَةً وَلَا يَرَى أَنْ لَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامٌ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا.

الشرح:

يقول الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء:٥٩]، ويقول النبي : «**فَإِنَّ مِنْ طَاعَةِ اللهِ أَنْ تُطِيعُونِي، وَإِنَّ مِنْ طَاعَتِي أَنْ تُطِيعُوا أَئِمَّتَكُمْ**» أخرجه أحمد (٢/ ٩٣) عن ابن عمر .

وفي الصحيحين البخاري (٧١٢٧)، ومسلم (١٨٣٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله قال: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي**».

وكانت من البيعة التي يأخذها رسول الله على أصحابه السمع والطاعة، والأمر الذي أمر به تجاه الأئمة السمع والطاعة، ففي حديث أبي هريرة في مسلم (١٨٣٦): «**عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ**».

ففي الحديث وجوب السمع والطاعة في جميع الحالات، إلا أن يأمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة، ففي حديث ابن عمر قال: قال رسول الله : «**عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا**

سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ» أخرجه البخاري (٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩)، وفي حديث علي :
«لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ» أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

ومن تمت له البيعة واستتب له الأمر من المسلمين فلا يجوز الخروج عليه، ولا منازعته، ومن خرج عليه، أو نازعه كان من المشاقين المخالفين لكتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين، ففي حديث أبي سعيد: **«إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الآخِرَ مِنْهُمَا»** أخرجه مسلم (١٨٥٣).

وعن عرفجة قال: قال رسول الله : **«مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»** أخرجه مسلم (١٨٥٢).

وإن جار وظلم، فالجور والظلم عليه، ولا يجوز الخروج عليه ففي حديث حذيفة: **«تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»** أخرجه مسلم (١٨٤٧)؛ لأن ضربه لك بالظلم إثمه عليه وضرره عليك، لكن الخروج إثمه عليك وضرره متعدي يقع به فساد البلاد والعباد، والإمام جنة يحفظ به الأمن، وتستتب به الأمور، وتقام به الحدود وتحفظ به الأموال والأعراض.

ففي مسلم (١٨٤١) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : **«إِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ، يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ، وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ وَعَدَلَ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ، وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ»**.

والخروج ضرره عظيم ففي حديث أبي هريرة عند مسلم (١٨٤٨): **«مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ، فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»**.

وفي حديث ابن عباس: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا، فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا، فَمَاتَ عَلَيْهِ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

والأئمة إن لم يقوموا بحق الله عليهم: «فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ»، «وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا» في مسلم (١٨٢٥) عن أبي ذر .

ويقول النبي : «تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ» أخرجه البخاري (٧٠٥٢) ومسلم (١٨٤٣) عن ابن مسعود .

ويقول : «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» متفق عليه عن ابن عمر البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩).

ويقول : «اللهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ» أخرجه مسلم (١٨٢٨) عن عائشة ، والعدل فضيلته عظيمة ففي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (١٨٢٧) وفيه: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».

ولا يجوز الخروج على الحاكم المسلم بحال قال رسول الله : «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» أخرجاه من حديث عبادة البخاري (٧١٩٩) ومسلم (١٧٠٩).

وفي حديث عوف بن مالك عند مسلم (١٨٥٥): أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ»، وفي حديث أم سلمة عند مسلم (١٨٥٤): ألا نقاتلهم؟ قال: «لَا، مَا صَلَّوْا» أخرجه البخاري (٧٢٠٠)، ومسلم (١٧٠٩).

طرق الخلافة والإمارة:

وتكون الخلافة والإمارة بثلاث طرق:

الأولى: العهد إليه من الأمير الذي قبله كما فعل أبوبكر الصديق حين عهد إلى عمر .

الثاني: اختيار أهل الحل والعقد له كما حصل في خلافة عثمان .

الثالث: أن يستتب له الأمر بعد أن أخذها قسرًا وقهرًا، فيجب طاعته، وعدم منابذته والخروج عليه.

وقال ابن قدامة في المغني (١٢/ ٢٤٣): وجملة الأمر أن من اتفق المسلمون على إمامته وبيعته، ثبتت إمامته، ووجبت معونته؛ لما ذكرنا من الحديث والإجماع، وفي معناه، من ثبتت إمامته بعهد النبي أو بعهد إمام قبله إليه، فإن أبا بكر ثبتت إمامته بإجماع الصحابة على بيعته، وعمر ثبتت إمامته بعهد أبي بكر إليه، وأجمع الصحابة على قبوله.

ولو خرج رجل على الإمام، فقهره، وغلب الناس بسيفه حتى أقروا له، وأذعنوا بطاعته، وبايعوه، صار إمامًا يحرم قتاله، والخروج عليه؛ فإن عبد الملك بن مروان، خرج على ابن الزبير، فقتله، واستولى على البلاد وأهلها، حتى بايعوه طوعًا وكرهًا، فصار إمامًا يحرم الخروج عليه؛ وذلك لما في الخروج عليه من شق عصا

المسلمين، وإراقة دمائهم، وذهاب أموالهم، ويدخل الخارج عليه في عموم قوله عليه السلام: «**مَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي، وَهُمْ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ بِالسَّيْفِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ**». فمن خرج على من ثبتت إمامته بأحد هذه الوجوه باغيًا، وجب قتاله، ولا يجوز قتالهم حتى يبعث إليهم من يسألهم، ويكشف لهم الصواب، إلا أن يخاف كلبهم؛ فلا يمكن ذلك في حقهم. فأما إن أمكن تعريفهم، عرفهم ذلك، وأزال ما يذكرونه من المظالم، وأزال حججهم، فإن لجوا، قاتلهم حينئذ. اهـ

قوله: (**لا يحل لأحد أن يبيت ليلة... الخ**) هذا هو الحق، فإن رسول الله يقول: «**وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» أخرجه مسلم عن ابن عمر (١٨٥١).

وعلى هذا من الوعيد العظيم ما الله به عليم، ففي حديث فضالة بن عبيد عند أحمد (٦/ ١٩): «**ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَعَصَى إِمَامَهُ، وَمَاتَ عَاصِيًا**»، فلا يجوز شرعًا أن يبيت المسلم وليس عليه إمام، وإن عدم الإمام يجب على المسلمين أن يبحثوا عمن يقوم بهذه المهمة العظيمة سواء كان الإمام برًا، أو فاجرًا للقيام بمصالح العباد والبلاد.

[الصلاة والحج خلف الأئمة وإن جاروا]

٤٥- وَالْحَجُّ وَالْغَزْوُ مَعَ الْإِمَامِ مَاضٍ، وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ خَلْفَهُمْ جَائِزَةٌ، وَيُصَلَّى بَعْدَهَا سِتُّ رَكَعَاتٍ يَفْصِلُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، هَكَذَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ.

الشرح:

خلافًا لمعتقد الروافض والخوارج، بل أهل السنة والجماعة يرون الجهاد، والجمعة والجماعة والعيدين والحج، وغير ذلك مع الإمام برًا كان أو فاجرًا لا يقطع هذه العبادات جور جائر، ولا ظلم ظالم.

قال الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (٢٩٤): ويرى أصحاب الحديث الجمعة والعيدين، وغيرهما من الصلوات خلف كل إمام مسلم برًّا كان أو فاجرًا، ويرون جهاد الكفرة معهم وإن كانوا جورة فجرة، ويرون الدعاء لهم بالإصلاح والتوفيق والصلاح، ولا يرون الخروج عليهم وإن رأوا منهم العدول عن العدل إلى الجور والحيف، ويرون قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى طاعة الإمام العدل. اهـ

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحجون ويصلون ويجاهدون مع الحجاج الذي بلغ من الظلم مبلغًا عظيمًا، قتل العلماء والصالحين والأئمة المتقين وبلغ أذاه إلى صحابة رسول الله وقتل ابن الزبير الصائم القائم القانت، وسمى عبدالله بن مسعود عبد هذيل، وآذى أنس بن مالك .

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٣٧٤): اعلم، رحمك الله وإيانا: أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا، باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه، ولا أن يمتحنه، فيقول: ماذا تعتقد؟! بل يصلي خلف المستور الحال، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين، والإمام في صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك -: فإن المأموم يصلي خلفه، عند عامة السلف والخلف، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر، فهو مبتدع عند أكثر العلماء. والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون، كما كان عبدالله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف.

وكذلك أنس ، وكذلك عبدالله بن مسعود وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعا، ثم قال: أزيدكم؟! فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة!!

وفي صحيح البخاري (٦٩٥): أن عثمان بن عفان لما حصر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان: إنك إمام عامة، وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة؟ فقال: يا ابن أخي، إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم، والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.

ومن ذلك: أن من أظهر بدعة وفجورا لا يرتب إماما للمسلمين، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه – فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية، ولم تفت المأموم الجمعة ولا الجماعة.

وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة، فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة ، وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية، فهنا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلف الأفضل أفضل، فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدم مظهرا للمنكر في الإمامة، وجب عليه ذلك، لكن إذا ولاه غيره، ولم يمكنه صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضررًا من ضرر ما أظهر من المنكر؛ فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، بحسب الإمكان. فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسادا من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر، لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر، فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر وحينئذ، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر، فهو موضع اجتهاد العلماء: منهم من قال: يعيد، ومنهم من قال: لا يعيد، وموضع بسط ذلك في كتب الفروع، وأما الإمام إذا نسي أو أخطأ، ولم يعلم المأموم بحاله، فلا إعادة على المأموم، للحديث

المتقدم، وقد صلى عمر وغيره وهو جنب ناسيا للجنابة فأعاد الصلاة، ولم يأمر المأمومين بالإعادة، ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة، أعاد عند أبي حنيفة، خلافا لمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه، وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم، وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع.

ولو علم أن إمامه يصلي على غير وضوء!! فليس له أن يصلي خلفه، لأنه لاعب، وليس بمصل، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية. ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض، والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض.

ويروى عن أبي يوسف: أنه لما حج مع هارون الرشيد، فاحتجم الخليفة، وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ، وصلى بالناس، فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله! أمير المؤمنين. يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع، وحديث أبي هريرة، الذي رواه البخاري (٦٩٤)، أن رسول الله قال: «**يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**» - نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه، لا على المأموم.

والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجبا، أو فعل محظورا اعتقد أنه ليس محظورا، ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية

والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به!! فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد. اهـ

فتلخص أن مسألة الحماس والخروج ليست بالأمر الهين، بل هذا الباب كغيره من الأبواب منضبط بالضوابط الشرعية.

الصلاة بعد الجمعة:

قوله: (**ويصلي بعد الجمعة ست ركعات**) السنة أن يصلي ركعتين في بيته، أو أربعًا في المسجد، لكن لعل الإمام أحمد قال بذلك جمعًا بين حديث عبدالله بن عمر المتفق عليه البخاري (٩٣٧)، ومسلم (٨٨٢) أن النبي صلى بعد الجمعة ركعتين. وبين حديث أبي هريرة عند مسلم (٨٨١) أن رسول الله قال: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمُ الْجُمُعَةَ فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعًا**» فتكون ست ركعات.

وقد ذهب إسحاق والترمذي وابن القيم وجمع من أهل العلم أنه إذا صلى في المسجد صلى أربعًا لحديث أبي هريرة، وإذا صلى في البيت صلى اثنتين، لحديث عبدالله بن عمر، والله أعلم، قال ابن قدامة في المغني (٢/ ١٠٩): قال أحمد: إن شاء صلى بعد الجمعة ركعتين، وإن شاء صلى أربعا.

وفي رواية: وإن شاء سِتًّا، وكان ابن مسعود، والنخعي، وأصحاب الرأي يرون أن يصلي بعدها أربعًا؛ لما روى أبو هريرة ، قال: قال رسول الله : «**مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُصَلِّيًا بَعْدَ الْجُمُعَةِ فَلْيُصَلِّ أَرْبَعًا**» رواه مسلم.

وعن علي، وأبي موسى، وعطاء، ومجاهد، وحميد بن عبدالرحمن، والثوري، أنه يصلي ستًّا، لما روي عن ابن عمر: أنه كان إذا كان بمكة، فصلى الجمعة، تقدم فصلى ركعتين، ثم تقدم فصلى أربعًا، وإذا كان في المدينة صلى الجمعة، ثم رجع إلى بيته

فصلى ركعتين، ولم يصل في المسجد، فقيل له، فقال: كان رسول الله يفعل ذلك. رواه أبو داود.

ولنا أن النبي كان يفعل ذلك كله، بدليل ما روي من الأخبار، وروي عن ابن عمر، أن رسول الله كان يصلي بعد الجمعة ركعتين. متفق عليه، وفي لفظ لمسلم: وكان لا يصلي في المسجد حتى ينصرف، فيصلي ركعتين في بيته.

وهذا يدل على أنه مهما فعل من ذلك كان حسنا: قال أحمد، في رواية عبيد الله: ولو صلى مع الإمام ثم لم يصل شيئًا حتى صلى العصر، كان جائزًا، قد فعله عمران بن حصين، وقال، في رواية أبي داود: يعجبني أن يصلي، يعني بعد الجمعة. اهـ

[الخلافة في المسلم من قريش]

٤٦- وَالْخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ إِلَى أَنْ يَنْزِلَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الشرح:

هذا هو الأصل أنه إذ لم يكن ثمَّة خليفة للمسلمين؛ فيجب عليهم أن ينصبوا خليفة قرشي مسلمًا إن وجدوا، يقوم بأمور المسلمين؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «**النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ، مُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ**» البخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨).

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند الترمذي (٢٢٢٧): «**قُرَيْشٌ وُلَاةُ النَّاسِ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**» ويدل على ذلك صنيع الصحابة رضوان الله عليهم حين نصبوا الخليفة من قريش، وفي هذا رد على الرافضة، حيث يجعلونا في البطنين فقط، وهذا بسبب الجهل، والهوى.

لكن إذا استتب الأمر لغير القرشي وجب له السمع والطاعة وحَرُمَ الخروج عليه، ولو كان الخارج قرشي؛ ففي حديث أبي ذر عند مسلم (١٨٣٧): أوصاني رسول الله أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدًا مجدَّع الأطراف.

وفي حديث العرباض بن سارية عند أبي داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٤٧٦): «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا**».

والسبب في كون الخلافة في قريش ما أخرجه أحمد (٤/ ٨١) من حديث جبير بن مطعم: «**إِنَّ لِلْقُرَشِيِّ مِثْلَيْ قُوَّةِ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِ قُرَيْشٍ**».

ويجب عليهم أن يؤدوا الحقوق؛ فعن أبي هريرة عند أحمد (٧٦٤٠) قال: قال رسول الله : «**الْأُمَرَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ لِي عَلَيْهِمْ حَقٌّ، وَلَهُمْ عَلَيْكُمْ حَقٌّ مَا فَعَلُوا ثَلَاثًا: مَا حَكَمُوا فَعَدَلُوا، وَاسْتُرْحِمُوا فَرَحِمُوا، وَعَاهَدُوا فَوَفَوْا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**».

قال النووي في شرح حديث رقم (١٨١٨) من صحيح مسلم : قوله : «**النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّأْنِ، مُسْلِمُهُمْ لِمُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرُهُمْ لِكَافِرِهِمْ**» وفي رواية: «**النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ**».

وفي رواية: «**لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنَ النَّاسِ اثْنَانِ**». وفي رواية البخاري: «**مَا بَقِيَ مِنْهُمُ اثْنَانِ**».

هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها لأحد من غيرهم وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة فكذلك بعدهم ومن خالف فيه من أهل البدع أو عرض بخلاف من غيرهم فهو محجوج بإجماع الصحابة والتابعين فمن بعدهم بالأحاديث الصحيحة.

قال القاضي اشتراط كونه قرشيا هو مذهب العلماء كافة قال وقد احتج به أبوبكر وعمر على الأنصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد قال القاضي وقد عدها العلماء في مسائل الإجماع ولم ينقل عن أحد من السلف فيها قول ولا فعل يخالف ما ذكرنا وكذلك من بعدهم في جميع الأعصار قال ولا اعتداد بقول النظام ومن وافقه من الخوارج وأهل البدع أنه يجوز كونه من غير قريش ولا بسخافة

ضرار بن عمرو في قوله أن غير القرشي من النبط وغيرهم يقدم على القرشي لهو أن خلعه إن عرض منه أمر وهذا الذي قاله من باطل القول وزخرفه مع ما هو عليه من مخالفة إجماع المسلمين والله أعلم.

وأما قوله الناس تبع لقريش في الخير والشر فمعناه في الإسلام والجاهلية كما هو مصرح به في الرواية الأولى لأنهم كانوا في الجاهلية رؤساء العرب وأصحاب حرم الله وأهل حج بيت الله وكانت العرب تنظر إسلامهم فلما أسلموا وفتحت مكة تبعهم الناس وجاءت وفود العرب من كل جهة ودخل الناس في دين الله أفواجا وكذلك في الإسلام هم أصحاب الخلافة والناس تبع لهم وبين أن هذا الحكم مستمر إلى آخر الدنيا ما بقي من الناس اثنان وقد ظهر ما قاله . اهـ

وبهذا يعلم ضلال الروافض في هذا الباب من أوجه:

الأمر الأول: حيث زعموا أن الخلافة محصورة في البطنين -أي: الحسن والحسين- وهذا خلاف إجماع السلف فقد أمَّر المسلمون أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين، ولم يكونوا من البطنين.

الأمر الثاني: أن الخلافة في قريش كلها لا في البطنين.

الأمر الثالث: عدم جواز الخروج على الحاكم المسلم أيًّا كان قرشي أو غير قرشي.

[تحريم الخروج على الحاكم المسلم]

٤٧- وَمَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ خَارِجِيٌّ، وَقَدْ شَقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ، وَخَالَفَ الْآثَارَ، وَمِيتَتُهُ مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ.

الشرح:

تقدمت الأحاديث على ذلك؛ فالخروج حرام ومنكر من القول والفعل ومفاسده عظيمة، وهو خلاف عقيدة السلف وهو دين المبتدعة، قال أيوب السختياني : إن الخوارج اختلفوا في الاسم واجتمعوا على السيف، ويقول أبو قلابة الجرمي: ما ابتدع أحد بدعةً إلا استحل السيف. الدارمي (٩٩).

وسمى رسول الله الخوارج: «**كِلَابُ النَّارِ**» كما عند أحمد من حديث أبي أمامة (٥/ ٢٥٦)، وسماهم: «**شَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ**» كما عند مسلم (١٠٦٧) من حديث أبي ذر .

وسماهم مارقة، فقال: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**» من حديث علي البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).

وأوجب قتالهم قال: «**فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**» أخرجه البخاري ومسلم من حديث علي ، وقال عنهم: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ**» متفق عليه عن أبي سعيد البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

فالخوارج على غير أدلة الكتاب والسنة وعلى غير هدي السلف رضوان الله عليهم يسيرون، ومن مات منهم فميتته جاهلية.

ففي حديث أبي هريرة عند مسلم (١٨٤٨): «**مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْه**» ومعنى ميتة جاهلية أي: من حيث أنهم فوضى لا إمام لهم، وأن هذا الصنيع هو صنيع أهل الجاهلية، لا أهل الإسلام.

ولا يخرج على الحاكم إلا إذا ظهر كفره، قال الشيخ ابن عثيمين في الشرح الممتع (١/٣٢٣-٣٢٤): والأئمة لا يجوز الخروج عليهم إلا بشروط مغلظة؛ لأن أضرار الخروج عليهم أضعافُ أضعافُ ما يريد هؤلاء من الإصلاح، وهذه الشروط هي:

الأول: أن نعلم علم اليقين أنهم أتوا كفرًا.

الثاني: أن نعلم أن هذا الكفر صريح ليس فيه تأويل، ولا يحتمل التأويل، صريح ظاهر واضح؛ لأن الصريح كما جاء في الحديث هو الشيء الظاهر البين العالي، كما قال الله تعالى عن فرعون أنه قال لهامان: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[غافر:٣٦-٣٧] فلا بد أن يكون صريحًا، أما ما يحتمل التأويل، فإنه لا يسوِّغ الخروج عن الإيمان.

الثالث: أن يكون عندنا فيه من الله برهان ودليل قاطع مثل الشمس أن هذا كفر، فلا بد إذن أن نعلم أنه كفر، وأن نعلم أن مرتكبه كافر لعدم التأويل، كما قال

النبي : «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ الله فِيهِ بُرْهَانٌ»(١)، وقالوا: أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ»(٢)، أي: ما داموا يصلون.

الرابع: القدرة على إزالته، أما إذا علمنا أننا لا نزيله إلا بقتال، تُراقُ فيه الدماء وتستباح فيه الحرمات، فلا يجوز أن نتكلم أبدًا، ولكن نسأل الله أن يهديه أو يزيله؛ لأننا لو فعلنا وليس عندنا قدرة، فهل يمكن أن يتزحزح هذا الوالي الكافر عما هو عليه؟ لا، بل لا يزداد إلا تمسكًا بما هو عليه، وما أكثر الذين يناصرونه، إذًا يكون سعينا بالخروج عليه مفسدة عظيمة، لا يزول بها الباطل بل يقوى بها الباطل، ويكون الإثم علينا، فنحن الذين وضعنا رقابنا تحت سيوفه، ولا أحد أحكم من الله، ولم يفرض القتال على النبي وأصحابه إلا حين كان لهم دولة مستقلة، وإلا فإنهم كانوا يهانون في مكة، الذي يحبس، والذي يقتل، والذي توضع عليه الحجارة المحماة على بطنه، ومحمد رسول الله يرجع من الطائف، يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه، ولم يؤمر بالقتال؛ لأن الله حكيم؛ ولذلك مع الأسف الشديد لا تجد أحدًا عصى الرسول وخرج على الإمام بما للإمام فيه شبهة، إلا ندم وكان ضررًا على شعبه، ولم يزل الإمام، ولا أريد بالإمام الإمام الأعظم؛ لأن الإمام الأعظم ذهب من زمان، لكن إمام كل قوم من له سلطة عليهم. اهـ

وذكر شيخنا الوادعي من الشروط أيضًا: أن لا يستعان بالكفار، وأن يبدل بخير منه، وأن لا تقع فتنة في المسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن/ باب قول النبي سترون بعدي أمورًا تنكرونها (٧٠٥٦)، ومسلم في المغازي/ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٧٠٩) (٤٢) عن عبادة بن الصامت .

(٢) أخرجه مسلم في المغازي/ باب خيار الأئمة وشرارهم (١٨٥٥) عن عوف بن مالك .

[النهي عن قتال السلطان المسلم والخروج عليه]

٤٨- وَلَا يَحِلُّ قِتَالُ السُّلْطَانِ، وَلَا الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ وَإِنْ جَارُوا؛ وَذَلِكَ قَوْلُ رَسُولِ الله ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ: «**اصْبِرْ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا**»، وَقَوْلُهُ لِلْأَنْصَارِ: «**اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ**».

وَلَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ قِتَالُ السُّلْطَانِ؛ فَإِنَّ فِيهِ فَسَادَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

الشرح:

على ما تقدم من تحريم الخروج على أولياء أمور المسلمين في حال عدلهم وجورهم؛ لأن قتال السلطان فيه فساد للدين والدنيا؛ ولهذا أمر رسول الله بالصبر عليهم **بقوله**: («**اصْبِرُوا وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا**») أخرجه مسلم (١٨٣٧) عن أبي ذر .

قوله: («**اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ**») متفق عليه من حديث عبدالله بن زيد البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، وجاء من حديث أنس أخرجه البخاري (٧٤٤١)، ومسلم (١٠٥٩)، وأخرجه البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥) من حديث أسيد بن حضير .

ففي الحديثين الحث على الصبر على الأمراء وإن جاروا وظلموا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة الشرعية (٢٣٢-٢٣٥): ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند

الاجتماع من رأس، حتى قال النبي : «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ» رواه أبوداود، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة.

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبدالله بن عمرو أن النبي قال: «وَلَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضِ فَلَاةٍ إِلَّا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ».

فأوجب تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع؛ ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة.

وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة؛ ولهذا روي: «إِنَّ السُّلْطَانَ ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْضِ»، ويقال: ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان، والتجربة تبين ذلك.

ولهذا كان السلف -كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما- يقولون: لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان، وقال النبي : «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ» رواه مسلم (١٧١٥).

وقال: «ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ» رواه أهل السنن[(١)].

وفي الصحيح [(١)] عنه أنه قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٨).

وهذا الرأس يجب أن يطاع في طاعة الله ، وإن وقع منه الجور والظلم فإنما عليه ما حمل وكم من الحرمات التي تنتهك والمصالح التي تضيع حين الخروج على الحاكم المسلم ولا والله يقوم بالخروج إلا سفهاء الأحلام، كما قال رسول الله : «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ؛ فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ» رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) عن علي .

ولعظم حق السلطان لم يرد في القرآن ولا في السنة الإذن بقتالهم، وإنما الواجب على المسلمين الأخذ بالأدلة من الكتاب والسنة وعلى أولياء الأمور واجبات ذكر بعضها شيخ الإسلام في كتابه السياسة الشرعية قال (٥): وهذه رسالة مبنية على آية الأمراء في كتاب الله وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء:٥٨-٥٩].

قال العلماء: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور؛ عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الثانية في الرعية من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك؛ إلا أن يأمروا بمعصية الله، فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله ،

= (١) أخرجه مسلم (٥٥).

وإن لم تفعل ولاة الأمر ذلك، أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله، لأن ذلك من طاعة الله ورسوله، وأديت حقوقهم إليهم كما أمر الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[المائدة:٢].

وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل: فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة. اهـ

وقال ص(٧-١١): فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل قال النبي : «**مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَوَلَّى رَجُلًا وَهُوَ يَجِدُ مَنْ هُوَ أَصْلَحُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

وفي رواية: «**مَنْ قَلَّدَ رَجُلًا عَمَلًا عَلَى عِصَابَةٍ وَهُوَ يَجِدُ فِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ أَرْضَى مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَخَانَ الْمُؤْمِنِينَ**» رواه الحاكم في صحيحه (٧١٠٦)، وفيه ابن مخيمرة لم يسمع من أحد من أصحاب النبي أفاده الوادعي في تعليقه على المستدرك . وروى بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر روى ذلك عنه وقال عمر بن الخطاب : من ولى من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما؛ فقد خان الله ورسوله والمسلمين، وهذا واجب عليه فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان والقضاة ومن أمراء الأجناد ومقدمي العساكر والصغار والكبار وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمير الحاج والبرد والعيون الذين هم القصاد وخزائن الأموال وحراس الحصون والحدادين

الذين هم البوابون على الحصون والمدائن، ونقباء العساكر الكبار والصغار وعرفاء القبائل والأسواق ورؤساء القرى الذين هم الدهاقون.

فيجب على كل من ولي شيئًا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو يسبق في الطلب بل ذلك سبب المنع فإن في الصحيحين عن النبي أن قومًا دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال: «**إِنَّا لَا نُوَلِّي أَمْرَنَا هَذَا مَنْ طَلَبَهُ**».

وقال لعبدالرحمن بن سمرة: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**» أخرجاه في الصحيحين[(١)]،....فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[الأنفال:٢٧-٢٨].

فإن الرجل لحبه لولده أو لعتيقه قد يؤثره في بعض الولايات أو يعطيه ما لا يستحقه فيكون قد خان أمانته كذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حفظه بأخذ ما لا يستحقه أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات؛ فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته. اهـ

---

(١) البخاري (٧١٤٦)، ومسلم (١٦٥٢).

أعظم عونٍ لولي الأمر على القيام بواجبه:

فالواجب على ولي الأمر أن يستعين بالله على إيصال الحقوق وإقامة الدين، قال شيخ الإسلام في السياسة الشرعية (١٦٨): وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور:

أحدها: الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات والبدن.

والثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب. اهـ

فالناس بحاجة إلى إمام تنتظم به شؤن الدولة المسلمة، وتتحقق به مصالح المسلمين يجتمعون عليه ويقيم الحدود، ويحمل راية الجهاد، ويقمع الشر والفساد، وبهذا تعلم أن من الفساد العريض: قتال السلطان، حيث لم يأذن الله به ولا رسوله، مع ما يحدث من السلاطين من ظلم وجور، وأمر بالصبر عليهم، وما هذا إلا لخطورة الخروج على ولي الأمر المسلم. اهـ

[قتال الخوارج البغاة وطرق التعامل معهم]

٤٩- وَيَحِلُّ قِتَالُ الْخَوَارِجِ إِذَا عَرَضُوا لِلْمُسْلِمِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ، وَلَيْسَ لَهُ إِذَا فَارَقُوهُ أَنْ يَطْلُبَهُمْ، وَلَا يُجْهِزَ عَلَى جَرِيحِهِمْ، وَلَا يَأْخُذَ فَيْئَهُمْ، وَلَا يَقْتُلَ أَسِيرَهُمْ، وَلَا يَتْبَعَ مُدْبِرَهُمْ.

الشرح:

بعد أن ذكر عدم جواز الخروج على السلطان المسلم ثنَّى بوجوب قتال من خرج عليهم، وقبل ذلك أنبه على وجوب قتال مانعي الشرائع الظاهرة المتواترة؛ كالصلاة والأذان.

قال شيخ الإسلام في السياسة الشرعية (١٦٠-١٦٤): وأيما طائفة ممتنعة انتسبت إلى الإسلام وامتنعت من بعض شرائعه الظاهرة المتواترة؛ فإنه يجب جهادها باتفاق المسلمين حتى يكون الدين كله لله كما قاتل أبوبكر الصديق وسائر الصحابة مانعي الزكاة -وكان قد توقف في قتالهم بعض الصحابة- ثم اتفقوا حتى قال عمر بن الخطاب لأبي بكر : كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله : «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»، فقال له أبوبكر: فإن الزكاة من حقها والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمت أنه الحق. متفق عليه البخاري (١٤٩٩) ومسلم (٢٠).

وقد ثبت عنه من وجوه كثيرة أنه أمر بقتال الخوارج؛ ففي الصحيحين البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) عن علي بن أبي طالب قال سمعت رسول الله يقول: «**سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

وفي رواية مسلم (١٠٦٦) عن علي قال: سمعت رسول الله يقول: «**يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَوْ يَعْلَمُ الجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ، مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ، لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ**».

وعن أبي سعيد عن رسول الله في هذا الحديث: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**» رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) وفي رواية لمسلم: «**تَمْرُقُ مَارِقَةٌ فِي فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ، فَيَلِي قَتْلَهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ**» فهؤلاء الذين قتلهم أمير المؤمنين علي لما حصلت الفرقة بين أهل العراق والشام وكانوا يسمون الحرورية بين النبي أن كلا الطائفتين المفترقتين من أمته وأن أصحاب علي أولى بالحق ولم يحرض إلا على قتال أولئك المارقين الذين خرجوا من الإسلام وفارقوا الجماعة واستحلوا دماء من سواهم من

المسلمين وأموالهم فثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أنه يقاتل من خرج عن شريعة الإسلام وإن تكلم بالشهادتين.

وقد اختلف الفقهاء في الطائفة الممتنعة لو تركت السنة الراتبة كركعتي الفجر هل يجوز قتالها؟ على قولين: فأما الواجبات والمحرمات الظاهرة والمستفيضة فيقاتل عليها بالاتفاق حتى يلتزموا أن يقيموا الصلوات المكتوبات ويؤدوا الزكاة ويصوموا شهر رمضان ويحجوا البيت ويلتزموا ترك المحرمات من نكاح الأخوات وأكل الخبائث والاعتداء على المسلمين في النفوس والأموال ونحو ذلك.

وقتال هؤلاء واجب ابتداء بعد بلوغ دعوة النبي إليهم بها يقاتلون عليه فأما إذا بدءوا المسلمين فيتأكد قتالهم ما ذكرناه في قتال الممتنعين من المعتدين قطاع الطرق وأبلغ الجهاد الواجب للكفار والممتنعين عن بعض الشرائع كما نعى الزكاة والخوارج ونحوهم يجب ابتداء ودفعا فإذا كان ابتداء فهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين وكان الفضل لمن قام به كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ الآية [النساء:٩٥].

فأما إذا أرادوا الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجبا على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين لإعانتهم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[الأنفال:٧٢] وكما أمر النبي بنصر المسلم وسواء أكان الرجل من المرتزقة للقتال أو لم يكن وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه وماله مع القلة والكثرة والمشي والركوب كما كان المسلمون لما قصدهم العدو عام الخندق ولم يأذن الله في تركه أحدا كما أذن في ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو الذي قسمهم فيه إلى قاعد وخارج بل ذم

الذين يستأذنون النبي يقولون: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[الأحزاب:١٣].

فهذا دفع عن الدين والحرمة والأنفس وهو قتال اضطرار وذلك قتال اختيار للزيادة في الدين وإعلائه ولإرهاب العدو كغزاة تبوك ونحوها فهذا النوع من العقوبة هو للطوائف الممتنعة. اهـ

وهذه بعض الواجبات التي يجب على المسلم أن يتعلمها في كيفية معاملة هؤلاء البغاة الظلمة، كتبتها تعليمًا للجاهل وتذكيرًا للعالم، وبيانًا للطريق اللاحب الذي يسير عليه أهل السنة والجماعة أصحاب العقيدة المرضية والطريقة السوية الملازمين للمعاملات الشرعية مع الراعي والرعية، ومع جميع البرية، وإليكها باختصار غير مخل إن شاء الله وبه التوفيق والتسديد.

أولًا: يجب على أولياء أمور المسلمين قتال بغاتهم والتنكيل بهم:

صدًّا لشرهم ووأدًا لأمرهم، والدليل على ذلك حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤)، وفيه بعد ذكر أوصافهم: «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ**».

وفي حديث علي بن أبي طالب عند البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) أنه قال: إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ فَلَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ. وذكر الحديث وفيه: «**فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» الحديث.

قال شيخ الإسلام (٣٥/ ٥٦): وقتال الخوارج قد ثبت عنه أنه أمر به وحض عليه. اهـ

بل ذهب أنه يجب قتال الخوارج ابتداءً بخلاف البغاة.

ثانيًا: إقامة حد الحرابة عليهم:

وهذا يقوم أولياء أمور المسلمين قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[المائدة:٣٣-٣٤].

فعن أنس قال: أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةً قَدِمُوا عَلَى رسول الله فَبَايَعُوهُ عَلَى الإِسْلَامِ فَاسْتَوْخَمُوا الأَرْضَ وَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رسول الله فَقَالَ أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ فَتُصِيبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَالبَانِهَا فَقَالُوا بَلَى فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَالبَانِهَا فَصَحُّوا فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَطَرَدُوا الإِبِلَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رسول الله فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَأُدْرِكُوا فَجِيءَ بِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَسُمِرَ أَعْيُنُهُمْ ثُمَّ نُبِذُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا. أخرجه البخاري (٦٨٠٢)، ومسلم (١٦٧١).

وهؤلاء البغاة قطعوا السبل وقتلوا الأنفس وخرجوا على أئمة المسلمين إلى غير ذلك من حرابهم وقد أخرج أبو داود (١٢/ ٦) عَنْ عَائِشَةَ ل قَالَتْ: قَالَ رسول الله : «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى**

ثَلَاثٍ: رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ؛ فَإِنَّهُ يُرْجَمُ، وَرَجُلٌ خَرَجَ مُحَارِبًا للهِ وَرَسُولِهِ؛ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ أَوْ يُصْلَبُ أَوْ يُنْفَى مِنَ الأَرْضِ، أَوْ يَقْتُلُ نَفْسًا فَيُقْتَلُ بِهَا».

وهذا الحد يقام عليهم إذا تمكن منهم وهم على حرابهم، أما من تاب قبل ذلك فلا؟ إلا أنه هل يؤخذ بما عمل من الجرائم أبان خروجه من سرقة وزنا وقتل أم لا على قولين لأهل العلم.

فالخارج على ولي أمر المسلمين وإن كان الخارج مسلمًا، هذا حكمه، فما بالك إذا جمع مع خروجه كفرًا وزندقة كالرافضة.

ثالثًا: عدم موالاتهم وحبهم ويجب بغضهم:

يجب على المسلمين جميعا حكاما ومحكومين أن يبغضوهم ولا يتولوهم لأن توليهم شر وجرم عظيم فلا تكون المحبة والولاء إلا في الله ومن أجل دينه قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾[التوبة:٦٧].

رابعًا: عدم معاونتهم أو إعانتهم:

لا يجوز شرعًا التعاون الخوارج والبغاة سواءً كانوا من أصحاب القاعدة أو ما يسمى بالجماعات الجهادية بالمال أو المطاعم أو المشارب أو بيعهم السلاح مما يعين على شرهم وباطلهم ومن أعانهم على ظلمهم فهو شريك لهم في الإثم والوزر وإنما

قال الله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[المائدة:٢]، وليس من التقوى الخروج على أولياء أمور المسلمين وسفك دماء المسلمين والمعاهدين، أو إتلاف أموالهم أو قطع طرقهم وغير ذلك من المفاسد التي تحدث بسبب الخروج.

وفي حديث جابر بن عبدالله عن أحمد (٣/ ٣٢١) أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: «**أَعَاذَكَ اللهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ**»، قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ: «**أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي، لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي. يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ، وَالصَّلَاةُ قُرْبَانٌ - أَوْ قَالَ: بُرْهَانٌ - يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ النَّارُ، أَوْلَى بِهِ. يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ: فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا**»، وجاء عند الترمذي عن كعب بن عجرة نحوه.

الشاهد من الحديث أن التعاون مع الظلمة ظلمٌ وشر، والخوارج من شر البرية كما قال رسول الله : «**هُمْ شَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ**» كما في صحيح مسلم .

خامسًا: عدم إيوائهم:

فعن علي بن أبي طالب قال: قال : «**لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا**» رواه مسلم (١٩٧٨). فيحرم على القبائل والأفراد والجماعات الإيواء والدفاع عن هذه الجماعات المشار إليها آنفًا، فمن فعل ذلك كان من الملعونين على لسان محمد .

سادسًا: عدم الفرح بنصرهم أو تسلطهم:

الفرح بتسلط المبطلين على المسلمين أمر خطير خصوصا إن كان هذا الفرح بنصر الكافرين كالرافضة والباطنية أو اليهود والنصارى. أو الفرح بتسلط الخوارج وغيرها.

قال العلامة الحجوري -حفظه الله- في كتابه التصريح بأن قتال بغاة الروافض جهاد صحيح ص(٤): هذا الفرح من نواقض الإسلام - أي الفرح بنصرة الكافرين - وأدلته معلومة، وعلى هذا فخطير على من يفرح بنصرة اليهود والنصارى أو الرافضة أو الاتحادية أو غير هؤلاء من الكفرة والمنافقين أو سائر المضرين بالإسلام والمسلمين، الذي يفرح بنصرتهم يخشى عليه من الردة، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾[الأنفال:٧٣]. اهـ

سابعًا: مناصرة أولياء الأمور في التصدي للخوارج:

وتكون هذه المناصرة إما بقتالهم إن استنفر ولي الأمر المسلم أو بكشف أماكنهم وثغورهم وثكناتهم ولا بأس بتتبع عوراتهم، وفي جميع الأحوال يجب على الجميع حكامًا ومحكومين التضافر والتناصر وعدم التخاذل، وأن يكونوا يدًا واحدة ضد المفسدين والمسيئين إلى الإسلام وأهله، وأمن مواطنيه ومعاهديه من السفارات وغيرها، ففي حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**» الحديث أخرجاه في الصحيحين البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

وفي حديث أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رسول الله : «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» الحديث أخرجاه في الصحيحين أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥)، وقد تتبع رسول الله ابن صياد لفضحه وبيان خبثه.

ثامنًا: عدم تكثير سوادهم:

ففي تكثير سوادهم إعانة للباطل وإشادة به وخذيلة لأهل الحق وهذا منكر عظيم وخطر جسيم قل من يتنبه له للجهل المستشري، فلا يتظاهر معهم ولا تُعلق شعاراتهم، ولا تُحضر اجتماعاتهم وأماكن تواجدهم؛ لأن في ذلك تغريرًا بكثير من الناس الذين يغترون بالكثرة والمظاهر والمناظر ولا يهتمون بالمخابر.

وفي حديث ابن عمر عند أحمد وغيره قال: قال رسول الله : «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»، وفي حديث عائشة في الصحيحين قال: قال رسول الله : «**يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ، يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ**» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ، وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «**يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**» متفق عليه، البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤).

والشاهد من الحديث أن الخسف شمل مكثر سواد المبطلين، وإن لم يكن منهم.

وكما قال عبدالله بن مسعود ا: من كثر سواد قوم فهو منهم.

تاسعًا: عدم التشكك في ضلال الخوارج:

كثير من الناس يتشككون في الباطل الذي عليه الخوارج بسبب الشعارات التي يحملونها أو بعض المخالفات التي يقع فيها حكام المسلمين وهذا بسبب الجهل وإلا فلا يغتر بالخوارج وباطلهم مهما تعددت طرقهم وارتفعت شعاراتهم.

وفي حديث علي بن أبي طالب الحكم الواضح الجلي: فَقَالَ عَلِيٌّ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي سَمِعْتُ رسول الله يَقُولُ: «**يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ**». فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلَاءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ! وَاللهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ ، النَّاسِ فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ. أخرجه مسلم (١٠٦٦).

عاشرًا: الدعاء عليهم:

الله بيده تصريف العباد وتيسير الأمور وكف الشرور والرسول كان يقول: وأعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته.

وهنا وصية للجيوش خاصة وللناس عامة بالعودة إلى الله في دفع الشرور وجلب المنافع والخير ﴿**قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾[آل عمران:٢٦].

عن سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ قَالَ:لَقِيتُ عَبْدَاللهَ بْنَ أَبِي أَوْفي وَهُوَ مَحْجُوبُ الْبَصَرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا سَعِيدُ بْنُ جُمْهَانَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ وَالِدُكَ؟ قَـالَ: قُلْتُ: قَتَلَتْهُ الأَزَارِقَةُ، قَالَ: لَعَنَ اللهُ الأَزَارِقَةَ، لَعَنَ اللهُ الأَزَارِقَةَ، حَدَّثَنَـا رسول الله أَنَّهُمْ كِلَابُ النَّارِ. أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٢).

والرسول لما التقى مع قريش في غزوة بدر جعل يقول: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي**»، وقال: «**اللهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ**»، وكان يقول: «**اللهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ**»، وقد قال الله مخبرًا عن دعاء المؤمنين: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٧].

الحادي عشر: التحذير من الخوارج وشرهم وبيان ما هم عليه من الضلال:

فلا يجوز أن يتوانى عن كلمة الحق يرضى من رضي ويغضب من غضب، ودين الله والحق الذي يحاول إفساده هؤلاء الفجرة البغاة، أحق أن ينصر، والتحذير من أهل البدع، ومنهم الخوارج يعتبر من دين الله والله جل وعلا يقول: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الحِجر:٩٤].

وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لما في ذلك من الضرر على الفرد والمجتمع. والخيانة والسكوت على المنكر، وفي قول مالك : لا تقل الباطل فتهلك، ولا تسكت عن الباطل فتزيغ عن الحق.

الثاني عشر: عدم الركون إليهم وإلى عهودهم:

قال الله : ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[هود:١١٣].

فسبب الهزيمة والبعد عن ولاية الله وسبب عذاب النار الركون إلى الظالمين ومنهم الخوارج الروافض فإن من طرقهم الزعم أنهم إنما يريدون فلان أو يريدون الدولة حتى إذا تمكنوا لم يرقبوا في مؤمن إلًّا ولا ذمة.

ويضاف إلى هذا أن فعل العهود والمواثيق معهم تقوية لشرهم واعتراف بوجودهم، وسبب اغترار الناس بهم، وهذا ضرر عظيم، وإنما يتفطن له العقلاء، ولا يشكل على هذا معاهدة رسول الله مع المشركين والكافرين، فهذا باب وذلك باب آخر.

ومعلوم أن أهل البدع من سيماهم الكذب والغدر فلا ركون إليهم.

الثالث عشر: عدم الاغترار بدعايتهم والتنبه لشعاراتهم:

يدل على ذلك حديث علي لما قالوا: حكم كتاب الله، قال: كلمة حق أريد بها باطل، وهكذا تجدهم هذه الأيام يقولون: (الموت لأمريكا الموت لإسرائيل)، وهم يفعلون في المسلمين ما لم تفعله أمريكا ولا إسرائيل، وليس بخاف على المسلمين مجازر الرافضة في العراق ولبنان وأفغانستان واليمن وعبثهم بالمقدسات الإسلامية كما فعلوا بالحرم المدني عام ١٤٣٠هـ من زعزعة الأمن واعتداء على رجاله، وكذلك تهديدات الرافضة بعمل مظاهرات في الحج، لولا أن الله صرفهم، وغير ذلك مما يصنعه هؤلاء المبطلون البطالون.

الرابع عشر: رفع شبههم ودفعها، وهذا يكون للعلماء والدعاة:

يدل على ذلك ما أخرجه النسائي في الخصائص ص(١٩٥) عن ابن عباس قال: لما خرجت الحرورية اجتمعوا في دار -على حدتهم- وهم ستة آلاف وأجمعوا أن

يخرجوا على علي بن أبي طالب وأصحاب النبي ص معه، قال: جعل يأتيه الرجل فيقول: يا أمير المؤمنين إن القوم خارجون عليك، قال: دعهم حتى يخرجوا فإني لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسوف يفعلون.

فلما كان ذات يوم قلت لعلي: يا أمير المؤمنين: أبرد عن الصلاة فلا تفتني حتى آتي القوم فأكلمهم، قال: إني أتخوفهم عليك.

قلت: كلا إن شاء الله تعالى وكنت حسن الخلق لا أوذي أحدًا، قال: فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية، قال أبو زميل: كان ابن عباس جميلًا جهيرًا، قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة.

قال: فدخلت على قوم لم أر قط أشد اجتهادًا منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل، وجوههم معلمة من آثار السجود، عليهم قمص مرحضة، وجوههم مسهمة من السهر. قال: فدخلت.

فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس! ما جاء بك؟ وما هذه الحلة، قال: قلت ما تعيبون علي؟ لقد رأيت على رسول الله أحسن ما يكون من هذه الحلل، ونزلت ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[الأعراف:٣٢].

قالوا: فما جاء بك؟ قال: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ومن عند صهر رسول الله عليهم نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله، وليس فيكم منهم أحد، فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشًا فإن الله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٨]، وقال رجلان أو ثلاثة لو كلمتهم.

قال: قلت أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله وختنه، وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثًا.

قال: وما هنّ؟ قالوا: أولهن أنه حكّم الرجال في دين الله، وقد قال الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]، فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله .

قال: قلت وماذا؟ قالوا: وقاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم، لئن كانوا كفارًا لقد حلت له أموالهم ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم.

قال: قلت وماذا؟ قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. قال: قلت أعندكم سوى هذا؟ قالوا: حسبنا هذا.

قال: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدثتكم من سنة نبيه ص ما لا تنكرون ينقض قولكم أترجعون؟ قالوا: نعم.

قال: قلت أما قولكم: حكّم الرجال في دين الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[المائدة:٩٥].

وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[النساء:٣٥]. أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم، وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم، وفي بضع امرأة.

وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصير ذلك إلى الرجال.

قالوا: اللهم في حقن دمائهم، وإصلاح ذات بينهم.

قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم عائشة، أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها، فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم، وخرجتم من الإسلام، إن الله يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦]، فأنتم مترددون بين ضلالتين، فاختاروا أيهما شئتم، أخرجت من هذه؛ فنظر بعضهم إلى بعض، قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون، فإن رسول الله دعا قريشًا يوم الحديبية أن يكتب بينه وبينهم كتابًا فكاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان. فقال: اكتب يا علي هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبدالله.

فقال: والله إني لرسول الله حقًا وإن كذبتموني، اكتب يا علي: محمد بن عبدالله، فرسول الله كان أفضل من علي وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه. أخرجت من هذه؛ قالوا: اللهم نعم. فرجع منهم ألفان، وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا على ضلالة.

قال ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٤٠): وإلا فالعقوبة قبل الحجة ليست مشروعةً، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥]؛ ولهذا قال الفقهاء في البغاة: إن الإمام يراسلهم؛ فإن ذكروا شبهةً بينها، وإن ذكروا مظلمةً أزالها، كما أرسل علي ابن عباس إلى الخوارج؛ فناظرهم حتى رجع منهم أربعة آلاف، وكما طلب عمر بن عبدالعزيز دعاة القدرية والخوارج؛ فناظرهم حتى ظهر لهم الحق وأقروا به. اهـ

الخامس عشر: البعد عن مجالسهم وأماكن شبههم:

لأن الشبه خطَّافة، ومن جالس جانس، والمجالس لهم أقل شر يصيبه أن يساء به الظن، والقرين إلى المقارن ينسب.

والدليل على ذلك حديث عمران بن حصين عند أبي داود (٤٣١٩): «**مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ فَوَاللهَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ أَوْ لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ**»، وهم عندهم دجل وخداع وكذب وتلبيس.

السادس عشر: خداعهم والمكر بهم:

من باب محاربتهم رسول الله يقول كما في حديث جابر وعلي : «**الحَرْبَ خَدْعَةٌ**». الحديث متفق عليه. حديث علي أخرجه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩)، وحديث جابر أخرجه البخاري (٣٠٢٦)، ومسلم (١٧٤٠).

السابع عشر: البدء بقتالهم قبل غيرهم:

لأن هؤلاء ضررهم على الأمة أعظم من ضرر العدو الخارجي، ولأن بقاء هؤلاء ينخر الأمة من الداخل، ومما ينبه عليه أنه يجب على السلمين التصدي لشر الخوارج وغيرهم قبل وقوعه، ووأده في مهده، وقد تقدم أثر عليا؛ ولأن الخوارج ربما ألتبس أمرهم على من لا علم عنده وروية بينما أمر اليهود والنصارى وغيرهم من الكافرين واضح جلي.

الثامن عشر: حماية المواطنين من شرهم وضررهم:

وهذا من واجبات ولي أمر المسلمين والحيلولة بين الخوارج والمسلمين يعتبر خيانة للرعية وعدم رعاية، والوعيد شديد على من ضيع رعيته، ففي حديث معقل بن يسار عند الشيخين البخاري (٧٥١٥)، ومسلم (١٤٢): «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**».

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «**أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**». أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩).

ولأن الحاكم يعتبر جُنة للأمة، جنة أحدكم من القتال، ولأن الحاكم لديه القوة والاستطاعة في صد الباطل.

التاسع عشر: السعي بالتفريق بينهم:

وذلك من باب مصلحة المسلمين، وفي قصة نعيم بن مسعود بن عامر الثقفي الغطفاني في تفريقه بين قريش واليهود في غزوة الأحزاب دلالة على ذلك، وعلى من يفعل ذلك التمويه والتورية، لا الكذب الصريح، لأن الكذب حرام بالكتاب والسنة والإجماع.

العشرون: التحذير من شرهم قبل وقوعه وبث العقيدة السلفية بين المسلمين:

وبيان ذلك أن الشر مصدره من العقائد الفاسدة، وفي القاعدة السلفية الأصيلة: (ما ابتدع أحد بدعة إلا رأى السيف)، والبدعة هي ما أحدث في الدين على غير مثال سابق.

فعلى المسلمين جميعًا حكامًا ومحكومين أن يتعلموا العقيدة السلفية عقيدة رسول الله ويعلموها الناس لما في ذلك من المنفعة الدنيوية والأخروية، ففي باب الحكام والمحكومين لا يوجد في قوانين الأمم والشعوب ما يضبط الأمر، كما تضبطه

الشريعة الإسلامية، «**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**» أخرجه مسلم (١٨٤٧) عن حذيفة . «**عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**» أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩) عن ابن عمر . «**اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ لِحَبَشِيٍّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**» أخرجه البخاري (٦٩٦) عن أنس .

كل هذه الأحاديث في الصحيح وغيرها كثير في الباب، ومن عقيدة أهل السنة السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره والصلاة خلف كل بر وفاجر من المسلمين والجاهد قائم مع كل بر وفاجر من الأمراء.

الحادي والعشرون: عدم السماح لهم بإنشاء مدارسهم ومعاهدهم، وهدم ما يتعلق بذلك:

والسبب في تحريم ذلك كونهم يتخذون من هذه المدارس والمعاهد والثكنات أماكن لتصدير الفساد، وبث العقائد التكفيرية والخارجية، وقد قال الله : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[التوبة:١٠٧-١٠٩].

ومجالس هؤلاء إرصادًا ومحاربةً وتفريقًا بين المؤمنين، وبثًا للعقائد الفاسدة.

قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥٧١): ومنها: تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها كما حرق رسول الله مسجد الضرار، وأمر

بهدمه وهو مسجد يصلى فيه ويذكر اسم الله فيه لما كان بناؤه ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادًا من دون الله أحق بالهدم وأوجب، وكذلك محال المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات.

الثاني والعشرون: هجرهم:

وبيان ذلك أن المهجور تنفر منه القلوب والأبدان والهجر بعدٌ عن الشر، وسبب لتأديب المبطلين، وقد أمر الله بهجر الزوجة الناشز، فما بالك بأصحاب هذا الفكر الخبيث، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾[النساء:٣٤].

بل قد هجر رسول الله ﷺ كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، خمسين ليلة كما في الصحيحين البخاري (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث أبيّ بن كعب وأمر الناس بهجرهم حتى أنزل الله ﷻ توبتهم في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة:١١٨]، وفي الحديث: «فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ» وهو أشد ضررًا وأعظم خطرًا، فالجذام يفسد الأبدان والخروج يفسد الأديان.

الثالث والعشرون: عدم إعانتهم بإظهار شعائرهم المخالفة لدين الإسلام الحق:

لأن في إظهار شعائرهم تزيين لباطلهم، ولما صالح عمر نصارى بيت المقدس وضع عليهم شروطًا عرفت بعد ذلك بالشروط العمرية ضيق عليهم فيها تحذيرًا من شرهم والتضييق من انتشاره:

ذكر الإمام ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٢/٦٥٧-٦٦١): قال عبدالله بن الإمام أحمد: كتب أهل الجزيرة إلى عبدالرحمن بن غنم: إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا، على أنا شرطنا لك على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا كنيسة، ولا فيما حولها دَيرًا ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا، ولا ما كان منها في خطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوسًا، وألا نكتم غِشًّا للمسلمين، وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضربًا خفيًّا في جوف كنائسنا، ولا نظهر عليها صليبا، ولا ترفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألا نخرج صليبًا ولا كتابًا في سوق المسلمين، وألا نخرج باعوثًا، قال: والباعوث: يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر، ولا شعانين، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألا نجاورهم بالخنازير ولا ببيع الخمور، ولا نظهر شركًا، ولا نُرَغِّب في ديننا ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نتخذ شيئًا من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، وألا نمنع أحدًا من أقربائنا أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نلزم زينا حيثما كنا، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم.

وأن نجز مقادم رءوسنا، ولا نفرق نواصينا، ونشد الزنانير على أوساطنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحدٌ منا مسلمًا في تجارة إلا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام، ونطعمه من أوسط ما نجد. ضَمِنَّا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا، وإن نحن غيرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا وقبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق.

كتب بذلك عبدالرحمن بن غنم إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر أن أمض لهم ما سألوا، وألحق فيهم حرفين أشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: ألا يشتروا من سبايانا شيئًا، ومن ضرب مسلمًا عمدًا فقد خلع عهده. فأنفذ عبدالرحمن بن غنم ذلك وأقر من أقام من الروم في مدائن الشام على هذا الشرط. اهـ

الرابع والعشرون: لا يعطون شيئًا من المال إن كانوا مصرين على باطلهم:

لأن في إعطائهم إعانة لهم، وتشجيعًا على ما هم فيه من الباطل، والدليل على عدم إعطائهم ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس أن مسيلمة الكذاب -لعنه الله- قدم على النبي فطلب منه أشياءً ذكرها، فأخذ رسول الله شيئًا من جريد النخل، فقال: «**لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ القِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ**» متفق عليه البخاري (٣٦٢٠)، ومسلم (٢٢٧٣).

الخامس والعشرون: مداراة من يرجى رجوعه بالمال وغيره:

وهذا من باب التأليف والله قد جعل من مصارف الزكاة إعطاء المؤلفة قلوبهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[التوبة:٦٠].

وفي حديث أنس : أن رسول الله : كان يعطي الرجل الغنم بين الجبل والجبلين يتألفه في الإسلام. أخرجه مسلم (٢٣١٢).

السادس والعشرون: تعليم المقاتلين ضد الخوارج ما يقدمون عليه:

فإننا نسمع أن كثيرًا من المقاتلين لا يعرفون ما يقدمون عليه، ويظنون أن الخوارج على شيء بسبب شعاراتهم، فإذا بُيّن لهم الباطل قاتلوا على بينة بجدٍ وعقيدة قوية، فعن أبي هريرة قال: لما مات رسول الله وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله : «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فقال أبوبكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، الزكاة حق المال، قال: فما هو إلا إن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر لقتالهم، فعلمت أنه الحق. أخرجه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٥).

وجيوش المسلمين في هذه الأيام إلا من رحم الله جهال بدين الله ، فهم بحاجة ماسة إلى تعليم دين الله الحق.

والواجبات كثيرة في مواجهة المبطلين والتقليل من شرهم، تُجمل في العمل بدين الله الحق، معتقدًا وسلوكًا وأخلاقًا ومعاملاتٍ وعباداتٍ، والأخذُ بطريقة

السلف الصالحين من الصحابة والتابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، الذين قال الله عنهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠].

والذين قال الله عنهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥].

فطريق السلف الصالحين هو الطريق المعصوم عن الخطل والزلل لأنه من عند الله وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢].

وتطبيق شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم (٥٠)، قال: قال : «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

وهذا المبحث ملخص من كتابي توجيه المسلمين إلى الطرق الشرعية في التعامل مع الخوارج من أصحاب تنظيم القاعدة والحوثيين .

قوله: **(وليس له إذا فارقوه أن يطلبهم)** هذا هو الصواب إذا علم أنهم بهذا الصنيع انتهوا عما هم فيه، أما إذا علم أنهم يستعدون، ويتجمعون؛ فله أن يصنع بهم ما يكبح شرهم.

قال ابن قدامة في المغني (١١/ ٢٥٢-٢٥٥): وجملته أن أهل البغي إذا تركوا القتال؛ إما بالرجوع إلى الطاعة، وإما بإلقاء السلاح، وإما بالهزيمة إلى فئة

أو إلى غير فئة، وإما بالعجز؛ لجراح أو مرض أو أسر، فإنه يحرم قتلهم، واتباع مدبرهم، وبهذا قال الشافعي.

وقال أبوحنيفة: إذا هزموا ولا فئة لهم كقولنا، وإن كانت لهم فئة يلجئون إليها، جاز قتل مدبرهم وأسيرهم، والإجهاز على جريحهم، وإن لم يكن لهم فئة، لم يقتلوا، لكن يضربون ضربًا وجيعًا، ويحبسون حتى يقلعوا عما هم عليه، ويحدثوا توبة، ذكروا هذا في الخوارج.

ويروى عن ابن عباس نحو هذا. واختاره بعض أصحاب الشافعي؛ لأنه متى لم يقتلهم، اجتمعوا ثم عادوا إلى المحاربة.

وأما أسيرهم، فإن دخل في الطاعة، خلي سبيله، وإن أبى ذلك، وكان رجلًا جلدًا من أهل القتال، حبس ما دامت الحرب قائمة، فإذا انقضت الحرب، خلي سبيله، وشرط عليه أن لا يعود إلى القتال، وإن لم يكن الأسير من أهل القتال، كالنساء والصبيان والشيوخ الفانين، خلي سبيلهم، ولم يحبسوا، في أحد الوجهين. وفي الآخر، يحبسون؛ لأن فيه كسرًا لقلوب البغاة.

وإن أسر كل واحد من الفريقين أسارى من الفريق الآخر، جاز فداء أسارى أهل العدل بأسارى أهل البغي، وإن قتل أهل البغي أسارى أهل العدل، لم يجز لأهل العدل قتل أساراهم؛ لأنهم لا يقتلون بجناية غيرهم، ولا يزرون وزر غيرهم.

وإن أبى البغاة مفاداة الأسرى الذين معهم، وحبسوهم، احتمل أن يجوز لأهل العدل حبس من معهم؛ ليتوصلوا إلى تخليص أساراهم بحبس من معهم، ويحتمل أن لا يجوز حبسهم ويطلقون؛ لأن الذنب في حبس أسارى أهل العدل لغيرهم. فأما غنيمة أموالهم، وسبي ذريتهم؛ فلا نعلم في تحريمه بين أهل العلم خلافًا. اهـ

[لا طاعة في معصية الله]

٥٠- وَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِبَشَرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الشرح:

بعد أن ذكر وجوب طاعة الإمام وقتال من خرج عليه، نبه مما يقع فيه كثير من الناس بفعل ما يأمر به السلطان، ولو خالف الدليل ظنًا منه أن هذا من الدين.

وفي البخاري (٤٣٤٠) ومسلم (١٨٤٠) عن علي ، أنه رسول الله بَعَثَ جَيْشًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا وَقَالَ ادْخُلُوهَا. فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا وَقَالَ الآخَرُونَ إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا مِنْهَا. فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا «**لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». وَقَالَ لِلآخَرِينَ قَوْلًا حَسَنًا وَقَالَ «**لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**».

قال النووي : هذا موافق للأحاديث الباقية أنه لا طاعة في معصية، وإنما هي في المعروف. اهـ

وإنما يُطاع السلطان طاعة لله وطاعة لرسوله، كما تقدمت الأدلة فلا يطاع في مخالفة الدليل، فلا يطاع في الانتخابات والديمقراطيات وغير ذلك من البلاء والله المستعان.

[عدم الشهادة في عواقب العباد]

٥١- وَ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تَشْهَدْ لَهُ بِعَمَلِ خَيْرٍ وَلَا شَرٍّ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي بِمَا يُخْتَمُ لَهُ عِنْدَ المَوْتِ، تَرْجُو لَهُ رَحْمَةَ اللهِ وَتَخَافُ عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ، لَا تَدْرِي مَا يَسْبِقُ لَهُ عِنْدَ المَوْتِ إِلَى اللهِ مِنَ النَّدَمِ، وَمَا أَحْدَثَ اللهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِذَا مَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ تَرْجُو لَهُ رَحْمَةَ اللهِ، وَتَخَافُ عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ.

الشرح:

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ ففي حديث جابر عند مسلم (٢٨٧٨): «يبعث كل عبد على ما مات عليه»، وفي حديث عبدالله بن مسعود عند البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣): «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ بِرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَاللهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ أَوِ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**».

وفي حديث سهل بن سعد عند البخاري (٤٢٠٢)، ومسلم (١١٢): «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، وفي حديث أبي هريرة عند

مسلم (٢٦٥١): «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ**».

قال الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (٢٨٦): ويعتقد ويشهد أصحاب الحديث أن عواقب العباد مبهمة، لا يدري أحد بما يختم له، ولا يحكون لواحد بعينه أنه من أهل الجنة، ولا يحكون على أحد بعينه أنه من أهل النار، لأن ذلك مغيب عنهم، لا يعرفون على ما يموت عليه الإنسان، ولذلك يقولون: إنا مؤمنون إن شاء الله، ويشهدون لمن مات على الإسلام أن عاقبته الجنة فإن الذين سبق القضاء عليهم من الله أنهم يعذبون بالنار مدة لذنوبهم التي اكتسبوها، ولم يتوبوا منها، فإنهم يردون أخيرا إلى الجنة ولا يبقى أحد في النار من المسلمين، فضلا من الله ومنه، ومن مات والعياذ بالله على الكفر فمرده إلى النار لا ينجو منها، ولا يكون لمقامه فيها منتهى. اهـ

ولا تجزم لمن مات على الإسلام بجنة، يدل على ذلك ما جاء عند البخاري رقم (١٢٤٣) عن أم العلاء قالت: اقْتُسِمَ المُهَاجِرُونَ قُرْعَةً؛ فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ؛ فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ الله فَقُلْتُ: رَحْمَةُ الله عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ؛ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ الله، فَقَالَ النَّبِيُّ : «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ الله قَدْ أَكْرَمَهُ**» فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله فَمَنْ يُكْرِمُهُ الله، فَقَالَ: «**أَمَّا هُوَ؛ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ، وَالله إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ، وَالله مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ الله مَا يُفْعَلُ بِي**» قَالَتْ: فَوَالله لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وحديث عبدالرحمن بن شماسة عن عمر بن العاص عند مسلم (١٢١) قال: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ العَاصِ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ المَوْتِ؛ فَبَكَى طَوِيلًا وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ الله ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ الله ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، إِنِّي كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ؛ لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ الله ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ الله الإِسْلَامَ فِي قَلْبِي، أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ؛ فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي قَالَ: «**مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟**» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «**تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟**» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا، وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟!**» وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا؛ فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي.

والشاهد منه قوله: «**وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**».

هذا على التعيين والشهادة للمؤمنين على العموم بالجنة ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، وإنما هذه المسألة محررة في الشهادة للشخص المعين.

قال ابن عثيمين كما في معجم التعريفات والضوابط والتقسيمات (٢٤١): تنقسم الشهادة إلى قسمين:

١ - شهادةٌ بوصف.

٢ - وشهادةٌ بشخص.

فأما الشهادة بالوصف: فأن نشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة على سبيل العموم.

وأما الشهادة بالشخص: فأن نشهد لشخص بعينه بأنه من أهل الجنة، وكلاهما أو وكلتاهما -أي: الشهادتان قد دل عليها الكتاب والسنة-.

فمثلًا: بيَّن الله تعالى في القرآن أن الجنة: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣] فنشهد لكل متقي أنه في الجنة، لكن هل نشهد لفلان أنه في الجنة إذا رأيناه تقيًا؟ لا، لاحتمال أنْ يرد عليه في آخر عمره أشياء تصرفه عن التقوى فلا نشهد بالجنة بالتعيين؛ إلا لمن عينه الرسول ، ولا نشهد بالوصف إلا لمن شهد له الله ورسوله والشهادة بالوصف لا تجوِّز الشهادة بالعين. اهـ

لكن قد رأيت الذهبي في السير في ترجمة عمر بن عبدالعزيز يقول: وهو ممن تطمئن النفس بالشهادة له في الجنة، وإلى هذا القول ذهب شيخ الإسلام؛ أن من أجمعت الأمة أو كادت أن تجمع على الثناء عليه؛ فإننا نشهد له أنه من أهل الجنة، وهذا قول لأهل العلم رحمهم الله ، لكن الأولى والأحوط عدم الشهادة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦٨/٣٥): ولهذا لا يشهد لمعين في الجنة؛ إلا بدليل خاص. اهـ

[التوبة إلى الله وشروطها وأنواعها]

٥٢- وَمَا مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا وَلِلْعَبْدِ مِنْهُ تَوْبَةٌ.

الشرح:

هذا هو الحق الذي يجب اعتقاده؛ أن ما من ذنب إلا وله توبة من الشرك فما دونه، قال في لسان العرب: التوبة الرجوع من الذنب.

وقال الفيروز أبادي في بصائر ذوي التمييز (٢/ ٣٠٤): تاب إلى الله توبًا وتوبة وتتوبة رجع عن المعصية وهو تائب وتواب وتاب الله عليه وفقه للتوبة.

قال القرطبي في المفهم (٧/ ٦٩): وقد اختلفت عبارات العلماء والمشايخ فيها فقائل يقول إنها الندم، وآخر يقول: إنها العزم على عدم العود، والآخر يقول: إنها الإقلاع عن الذنب، ورابع يجمع بين تلك الأمور الثلاثة فيقول: إنها الندم على ذنب وقع والإقلاع عنه في الحال والعزم على أن لا يعود.. وهذا هو الأكمل. اهـ

وقال الراغب في مفردات القرآن: التوبة ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وأجود الاعتذار؛ فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك. وهذا الأخير هو التوبة. والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزم على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال والإعادة فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت. اهـ

وقال ابن القيم في المدارج (١/ ٣٠٦): فإذا التوبة هي: الرجوع مما يكره الله ظاهرًا وباطنًا ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان وتتناول جميع المقومات. اهـ

حكم التوبة :

وقال ابن عادل في اللباب (١٩/ ٢١٠): أمر بالتوبة وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان. اهـ

وقال ابن القيم في المدارج (١/ ٢٧٢-٢٧٣): المبادرة بالتوبة فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا يُنجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم. اهـ

وقال ابن مفلح في الآداب (١/ ١٢٤): وقال الشيخ عبدالقادر في الغنية : التوبة فرض عين في كل شخص ولا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر؛ لأنه إن خلا من معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنب بالقلب، وإن خلا فلا يخلو من وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا فلا يخلو من غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وأفعاله. اهـ

التوبة من جميع الذنوب والمعاصي:

قال ابن القيم في المدارج (١/ ٣٣٥): وهي إثنا عشر جنسا مذكورة في كتاب الله هي أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا

علم، وإتباع غير سبيل المؤمنين، فهذه الإثنا عشر جنسا عليها مدار كل ما حرم الله وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها أو واحدة منها وق يعلم ذلك وقد لا يعلم، فالتوبة النصوح هي بالتخلص منها والتحصن والتحرز من مواقعها. اهـ

وتكون التوبة بترك المحظور وفعل المأمور، قال ابن القيم في المدارج (١/ ٣٠٧) في كلامه حول مبدأ التوبة: فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده موصلا إلى رضوانه وأمرهم بسلوكه بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾[الأنعام:١٥٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الشورى:٥٢].

وقال (١/ ٣٠٥): فحقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جنس مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علق الله الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[النور:٣١]، فكل تائب مفلح ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أُمر به وترك ما نُهي عنه وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات:١١]، وترك المأمور ظالم كما أن فاعل المحظور ظالم وزوال اسم الظلم عنه إنما تكون بالتوبة الجامعة لأمرين، فالناس قسمان تائب وظالم ليس إلا. اهـ

شروط التوبة:

والتوبة إلى لها شروط، يكون تقسيمها على النحو التالي:

أولًا: توبة العبد فيما بينه وبين الله.

ثانيًا: توبة العبد في حقوق الآدميين.

ثالثًا: توبة الكافر.

رابعًا: توبة المنافق.

خامسًا: توبة المبتدع.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[التحريم:٨].

قال ابن كثير في قوله توبة نصوحا: أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات. اهـ

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٠١): التوبة النصوح كما قال الحسن البصري: ندم القلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أنه لا يعود، قال: وقال البغوي في تفسيره: قال عمر وأُبيّ ومعاذ : التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كذا قال والكلام في صحته عنهم نظر.

أولًا: شروط التوبة فيما لا تعلق له بحق آدمي:

الأول: الإخلاص لله أن يتوب الله عليه ويتجاوز عما فعل من المعصية لا يقصد بذلك مراءاة الناس، والتقرب إليهم ولا يقصد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة، وأن يعفو الله عن ذنوبه.

يدل على ذلك حديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» متفق عليه من حديث عمر أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، ولقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة:٥].

والتوبة عبادة يجب فيها الإخلاص كغيرها من العبادات، وإن مل يخلص فيها لله ردت على صاحبها لقوله تعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» أخرجه مسلم (٢٩٨٥) عن أبي هريرة .

قال القرطبي في المفهم (٧/ ٧٠): في كلامه على من جعل التوبة هي الندم والإقلاع والعزم على عدم العود بيان الأول أنه قد يندم ويقلع ويعزم ولا يكون تائبا شرعا إذ قد يفعل ذلك شحا على ماله أو لا يعيّره الناس من ذلك، ولا تصح التوبة الشرعية إلا بالنية والإخلاص، فإنها من أعظم العبادات الواجبات ولذلك قال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم:٨]. اهـ

الثاني: الإقلاع عن المعصية التي هو فيها والإقلاع عن الذنب يكون بحسبه، فإن كان الذنب ترك واجب، فالإقلاع عنه بفعله، وإن كانت المعصية بفعل محرم، فالواجب أن يقلع عنه فورًا ولا يبقى فيه لحظة ويدل على ذلك مثل قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾[الفرقان:٦٨] إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان:٧٠].

وهذا الشرط يدخل عليه كما قال القرطبي في المفهم (٧/ ٧٠): فبيانه أنه يخرج منه من زنى ثم قطع ذكره فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى من الزنا. اهـ

وقال ابن القيم في المدارج: وأما الإقلاع فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب. اهـ

وقال ابن مفلح في الآداب (١/ ٧١): ولا تصح التوبة من ذنب أصر على مثله. اهـ.

الثالث: الندم على فعل المعصية لأن الشعور بالذنب هو الذي يدل على أنه صادق في التوبة وقديما قيل التوبة ندم، قال الله تعالى مخبرا عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[القصص:١٦]، وقال مخبرًا عن يونس: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧] قال صاحب المنازل: وشرائط التوبة الندم والإقلاع والاعتذار.

قال ابن القيم: فذلك دليل على عدم رضاه به وإصراره عليه، وفي المسند: الندم توبة، وفي قوله: (والاعتذار)، قال ابن القيم: والذي ظهر لي من كلام صاحب المنازل أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة. اهـ

الرابع: العزم على عدم العود إلى هذه المعصية ولا يشكل علي ذلك حديث أبي هريرة الآنف الذكر في المقدمة: «قَدْ غَفَرْتُ لَهُ فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ» فليس في الحديث أن الرجل حين كان يتوب وهو عازم على العود، ولكنة كان يتوب توبة صادقة مستوفية الشروط، ثم تغلبه نفسه وشهوته وشيطانه ويعود في الذنب وهكذا، والله أعلم.

الخامس: أن تكون في زمن يقبل فيه التوبة والزمن الذي لا تقبل فيه التوبة يكون باعتبارين الأول: باعتبار كل إنسان بحسبه، والثاني: باعتبار العموم.

أما الأول فأن تكون التوبة قبل حلول الأجل لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[النساء:١٧-١٨].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية بعد أن ساق مثل حديث أبي هريرة : «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ» أخرجه أحمد.

فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله ﷻ وهو يرجوا الحياة، فإن توبته مقبولة ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾[البقرة:١٦٠].

وأما متى وقع اليأس من الحياة، وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبة متقبلة حينئذ ولآت حين مناص ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[النساء:١٨]. اهـ

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية [١/ ١٢٩]: والثاني ما دل عليه قول الله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[الأنعام:١٥٨]. اهـ

وهذه الآية مفسرة بحديث أبي هريرة عند مسلم (١٥٧) قال: قال رسول الله : «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ»، وحديث أبي هريرة عند مسلم (٢٧٠٣) «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ».

وتكون التوبة إلى الله بترك المحضور وفعل المأمور، فمثلًا توبة تارك الصلاة بالإتيان بها، وتوبة الزاني بترك الزنا.

ثانيًا: شروط التوبة فيما تعلق به حق آدمي:

يشترط لها مما تقدم في النوع الأول وزد عليه رد الحق إلى أهله فقد أخرج مسلم في صحيحه (٢٥٨٠) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

وفي حديث أبي هريرة وغيره في الصحيح : «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»، وفي حديث أبي بكرة في الصحيحين .

وجاء في البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩): «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا».

وفي حديث ابن عمر: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. أخرجه الشيخان البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩).

وجاء في صحيح مسلم (٢٥٨٢) عن أبي هريرة مرفوعًا: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»، وفي حديث أسامة بن شريك عند البخاري في الأدب المفرد (١٠٩)، وأخرجه أبوداود (٢٠١٥) واللفظ له: «**لَا حَرَجَ لَا حَرَجَ، إِلَّا عَلَى رَجُلٍ اقْتَرَضَ عِرْضَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ وَهُوَ ظَالِمٌ، فَذَلِكَ الَّذِي حَرِجَ وَهَلَكَ**».

وجاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ**» أخرجه البخاري (٦٥٣٤).

وفي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**» أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين عظم انتهاك الحقوق، فهل يكفي في التوبة من حقوق الآدميين ما مر في البند الأول، أما هنالك شرط زائد؟

الجواب: هنالك شرط سادس على ما تقدم وهو التحلل من هذه المظالم التي وقع فيها العبد؛ لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة.

قال النووي في رياض الصالحين حين ذكر الثلاثة الشروط: وإن كانت المعصية تتعلق بحق الآدمي، فشروطها أربعة هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالًا، أو نحوه رده إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه، أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها. اهـ

فإن كان سرقة مال رده عليه، قال الإمام ابن مفلح في الآداب الشرعية [١/ ٧١]: قال عبدالله بن أحمد: سألت أبي عن رجل اختان - أي سرق أو غصب - من رجل مال ثم إنه أنفقه وأتلفه، ثم إنه ندم على ما فعل وتاب وليس عنده ما يؤدي، فهل يكون في ندمه وتوبته ما يرجى له إن مات على فقره خلاص مما عليه فقال أبي: لا بد لهذا الرجل من أن يؤدي الحق وإن مات فهو واجب عليه، وقال: في رواية محمد بن الحكم فيمن غصب أرضا لا يكون تائبا حتى يردها على صاحبها، وإن علم شيئًا باقيا من السرقة أيضًا ردها عليه أيضًا، وقال فيمن أخذ من أرض المسلمين: توبته أن يرد ما أخذ. اهـ

وإن كان الحق غيبة فللعلماء فيه قولان:

الأول: أن يذهب إليه ويتحلل منه.

الثاني: يكفي أن يدعو له، ويذكره بخير في المجالس التي اغتابه فيها.

وقد فصل الشيخ ابن عثيمين كما في شرح رياض الصالحين تفصيلا طيبا وهو: إن كانت الغيبة قد بلغته فهنا يستسمح منه، وإن كانت لم تبلغه، فإنه يستغفر له ويذكره بخير على ما تقدم وهذا تفصيل جيد، وقد ذكر هذا القول ابن مفلح في الآداب الشرعية وقال: ذكر تقي الدين أنه قول الأكثرين.

وذهب شيخنا مقبل : إن كان الرجل إن أخبر أخاه بأنه اغتابه يؤدي إلى شحناء، فهنا يكفي أن يستغفر له ويذكره بخير، والله اعلم.

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٧٣): وقال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح بعد أن ذكر الروايتين: فكل مظلمة في العرض من اغتياب صادق وبهت كاذب فهو في معنى القذف، إذ القذف قد يكون صادقا، فيكون في المغيب غيبة، وقد

يكون كذبا فيكون بهتا، واختار أصحابنا أنه لا يعلمه، بل يدعو له دعاء يكون إحسانا إليه في مقابل مظلمته.

وقال القرطبي في المفهم (٧/ ٧١): وأما حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم توصل إلى أربابها لم يتخلص من ضرر ذلك الذنب إلا بتركه وفعل ما أمره الله به، ومن اجتهد في الخروج عن الحقوق فلم يقدر على الخروج منها فعفو الله مأمول، وفضله مبذول، وكم ضمن من التبعات، وكم بدل من السيئات بالحسنات.. اهـ

ثالثًا: توبة الكافر:

يشترط لها قبل ما تقدم من الشروط الإسلام فإن الله سبحانه يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨].

وفي حديث النبي : «لَا يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَةَ عَبْدٍ أَشْرَكَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ» أخرجه أحمد.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلون في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف، أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم.

كما جاء في صحيح البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (٢١٢٠) من حديث ابن مسعود ، أن رسول الله قال: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلَامِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ وَالآخِرِ».

وفي الصحيح (١٢١) عن عمرو بن العاص: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الهِجْرَةَ تَجبّ مَا قَبْلَهَا مِنَ الذّنوبِ يَا عَمْرو أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلَامَ يَجبّ مَا كَانَ قَبْلَه مِنَ الذّنوبِ».[1]

قال القرطبي في شرح حديث ابن مسعود الآنف الذكر كما في المفهم (١/ ٣٢٧): يعني بالإحسان هنا تصحيح الدخول في دين الإسلام والإخلاص فيه والدوام على ذلك من غير تبديل ولا ارتداد، والإساءة المذكورة في هذا الحديث في مقابلة هذا الإحسان هي الكفر والنفاق، ولا يصح أن يراد بالإساءة هنا ارتكاب سيئة ومعصية؛ لأنه يلزم عليه أن لا يهدم الإسلام ما قبله من الآثام إلا لمن عصم من جميع السيئات إلى الموت، وهو باطل قطعًا، فتعين ما قلناه، والمؤاخذة هنا هي العقاب على ما فعله من السيئات في الجاهلية وفي حال الإسلام، وهو المعبر عنه في الرواية الأخرى بقوله: «أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ»، وإنما كان كذلك؛ لأن إسلامه لما يكن صحيحًا ولا خالصًا لله تعالى لم يهدم شيئًا مما سبق، ثم انضاف إلى ذلك إثم نفاقه وسيئاته التي عملها في حال الإسلام فاستحق العقوبة عليها. اهـ

رابعًا: توبة المنافق:

يشترط لها ما تقدم من الشروط في توبة العبد فيما بينه وبين الله سبحانه، وكذلك ما في شروط توبة الكافر مع زيادة ما ذكر الله سبحانه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١٤٥-١٤٦]

---

(١) قلت الحديث بهذا اللفظ عند أحمد.

دلت الآية على أن توبة المنافق لها شروط زائدة على ما تقدم منها:

- الإصلاح في القول والفعل والمعتقد.
- الاعتصام بالله سبحانه وجعله ملجأ وملاذا له.
- الإخلاص في أقواله وأعماله لله سبحانه.

قال ابن كثير : ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه وقبل ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله واعتصم بربه في جميع أمره فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾[النساء:١٤٦]، أي بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح... ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[النساء:١٤٦] أي: في زمرتهم يوم القيامة. اهـ

وقد اختلفوا في توبة الزنادقة - أي المنافقين - إلى قولين مشهورين ذكرها شيخ الإسلام كما في المجموع [٢٥/ ١١٠] الأول قبول توبته ولا يقتل، والثاني يقتل وإن أظهر التوبة.

وقال الآلوسي : ولما طلب من المنافق الإيمان دل ذلك على قبول توبة الزنديق: وفي تفسير الرازي قال: المسألة الثالثة: اختلف الفقهاء في أن توبة الزنديق هل تقبل أم لا؟ والصحيح أنها مقبولة لوجوه: الأول: هذه الآية، فإن قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨] يتناول جميع أنواع الكفر.

فإن قيل: الزنديق لا يعلم من حاله أنه هل انتهى من زندقته أم لا؟

قلنا: أحكام الشرع مبنية على الظواهر، كما قال عليه السلام: «**نَحْنُ نَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ**» فلما رجع وجب قبول قوله فيه. الثاني: لا شك أنه مكلف بالرجوع ولا طريق له إليه إلا بهذه التوبة فلو لم تقبل لزم تكليف ما لا يطاق. الثالث: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[الشورى:٢٥].

قال ابن عادل في تفسير اللباب (٨/ ١٥٩): المعنى: قل للَّذين كفروا إن ينتهوا عن الكفْر وعداوة الرَّسولِ ويسلموا ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من كفرهم وعداوتهم للرَّسولِ، وإن عَادوا إليه، وأصَرّوا عليه: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في نصرةِ الله أنبياءه، أولياءه، وإهلاك أعداءه؛ فليتوقَّعوا مثل ذلك.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: توحيد ساعة لم يعجز عن هدم ما قبله من كفْرٍ، وأرجو ألاَّ يعجز عن هدم ما بعده من ذنب. واستدلّوا بهذه الآية على صحَّة توبة الزِّنديقِ، وأنها تقبل. اهـ

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب : فاعلم أن مراد القائلين: لا تقبل توبته أن أفعاله دالة على خبث نيته وفساد عقيدته، وأنه ليس تائبا في الباطن توبة نصوح، فهم موافقون على أن التوبة النصوح مناط القبول كما ذكرنا، ولكن يقولون: أفعال هذا الخبيث دلّت على عدم تحقيق المناط فيه، ومن هنا اختلفت العلماء في توبة الزنديق المستتر بالكفر، فمن قائل: لا تقبل توبته، ومن قائل: تقبل، ومن مفرق بين إتيانه تائبا قبل الإطلاع عليه وبين الإطلاع على نفاقه قبل التوبة، كما هو معروف في فروع المذاهب الأربعة؛ لأن الذين يقولون: يقتل ولا تقبل توبته يرون أن نفاقه الباطن دليل على أن توبته تقية لا حقيقة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾[البقرة:١٦٠]، فقالوا: الإصلاح شرط والزنديق لا يطّلع

على إصلاحه؛ لأن الفساد أتى مما أسرَّه، فإذا اطلع عليه وأظهر الإقلاع لم يزل في الباطن على ما كان عليه.

والذي يظهر أن أدلة القائلين بقبول توبته مطلقا أظهر وأقوى كقوله لأسامة : «**هَلَّا شَقَقْتَ عَلَى قَلْبِهِ**» أخرجه البخاري (٤٢٦٩).

وقوله للذي ساره في قتل رجل قال: «**أَلَيْسَ يُصَلِّي؟**» قال: بلى، قال: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيتُ عَنْ قَتْلِهِمْ**» أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٢).

وقوله – لخالد لما استأذنه في قتل الذي أنكر القسمة –: «**إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أُنَقِّبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ**».

وهذه الأحاديث في الصحيح، ويدل لذلك أيضًا: إجماعهم على أن أحكام الدنيا على الظاهر والله يتولى السرائر، وقد نصّ تعالى على أن الأَيْمان الكاذبة جنّةٌ للمنافقين في الأحكام الدنيوية بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾[المجادلة:١٦]، وقوله: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞ﴾[التوبة:٩٥]، وقوله: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾[التوبة: ٥٦] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وما استدل به بعضهم من قتل ابن مسعود لابن النواحة صاحب مسيلمة، فيجاب عنه: بأنه قتله لقول النبي – حين جاءه رسولًا لمسيلمة –: «**لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكَ**»، فقتله ابن مسعود تحقيقًا لقوله ، فقد روي أنه قتله لذلك. أخرجه أبو داود (٢٧٦٢).

فإن قيل: إن هذه الآية الدالة على عدم قبول توبتهم أخص من غيرها؛ لأن فيها القيد بالردة وازدياد الكفر، فالذي تكررت منه الردة أخص من مطلق المرتد،

والدليل على الأعم ليس دليلا على الأخص؛ لأن وجود الأعم لا يلزم وجود الأخص، فالجواب: أن القرآن دل على توبة من تكرر منه الكفر إذا أخلص في الإنابة إلى الله، ووجه الدلالة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾[النساء:١٣٧].

ثم بيّن أن المنافقين داخلون فيهم بقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء:١٣٨] الآية، ودلالة الاقتران وإن ضعفها بعض الأصوليين فقد صححتها جماعة من المحققين، ولا سيما إذا اعتضدت بدلالة القرينة عليها كما هنا؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فيه الدلالة الواضحة على دخولهم في المراد بالآية، بل كونها في خصوصهم قال به جماعة من العلماء.

خامسا: توبة المبتدع:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٥٩-١٦٠]

قال ابن كثير : هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاء به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسله. اهـ

والبدعة هي: الدين الذي لم يأمر الله به ورسوله فمن دان دينا لم يأمر الله ورسوله به فهوا مبتدع بذلك وهذا معنى قول الله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ

لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[الشورى:٢١]. قاله شيخ الإسلام في الاستقامة .

وقال الشاطبي : طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية. اهـ

ولتوبة المبتدع شروط زائدة على ما تقدم.

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٢٥-١٢٦): ومن تاب من بدعة مفسقة أو مكفرة صح إن اعترف بها وإلا فلا. اهـ

وقال في الشرح : وأما البدعة فالتوبة منها بالاعتراف بها والرجوع عنها واعتقاد ضد ما كان يعتقد منها. اهـ

وقال (١/ ١٢٧) قال ابن عقيل في الإرشاد : الرجل إذا دعا إلى بدعة ثم ندم على ما كان وقد ضل به خلق كثير وتفرقوا في البلاد فإن التوبة صحيحة إن وجدت الشرائط ويجوز أن يغفر الله له ويقبل توبته ويسقط ذنب من ضل به بأن يرحمه ويرحمهم. اهـ

ونقل غير ذلك وهو: أن توبته صحيحة لكن تبقى حقوق الآدميين لا تسقط فيكون مأزورا بضلالهم وهم مأزورون بأفعالهم.

وقال ابن القيم في عِدَةِ الصابرين ص(٥): ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة وأن الهدى في ضده كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه

فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٥٩-١٦٠]

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان بذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة أن يصلحوا بدل إفسادهم أن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين وأن يخلصوا دينهم له بدل إظهارهم رياء وسمعة فهكذا نفهم شرائط التوبة وحقيقتها والله المستعان. اهـ

واعلم أن للعلماء قولين في قبول توبة المبتدع من عدمها:

الأول: قول جماهير العلماء بقبول توبة المبتدع لعموم أدلة قبول التوبة إذا توفرت فيها الشرائط منها قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣]، ومنها: قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[غافر:٣]، ومنها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨]، ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:١١].

والقول الثاني: ذهب مجموعة من السلف إلى عدم قبول توبة المبتدع واستدلوا بما أخرجه ابن عاصم في السنة (٢١) وصححه الألباني عن أنس قال: قال رسول الله : «إِنَّ اللهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتِهِ».

ومثل حديث أبي سعيد عند البخاري ومسلم وفيه عن الخوارج «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ**».

قالوا وقوله ثم لا يعودون فيه دليل على عدم توبتهم ومن في حكمهم من أهل البدع ومما روي عن السلف في ذلك قول الحسن البصري: أبي الله تبارك وتعالى أن يأذن لصاحب هوى بتوبة. أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (٥٥).

وقول عطاء الخرساني عند اللالكائي (١/ ١٤١): ما يكاد الله أن يأذن لصاحب بدعة بتوبة.

وعن أبي عمرو الشيباني نحوه عند ابن وضاح.

وقول سفيان الثوري عند اللالكائي (١/ ١٣٢) وغيره: الْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَالْمَعْصِيَةُ يُتَابُ مِنْهَا، وَالْبِدْعَةُ لَا يُتَابُ مِنْهَا.

وقال الشاطبي في الاعتصام (١/ ١٠٦): فاعلموا أن البدعة لا يقبل معها عبادة من صلاة ولا صيام ولا صدقة...وليس له من توبة. اهـ

والتحقيق في هذه النصوص وما جاء في معناها: أنها محتملة لمعنيين المعنى الأول: أن أهل البدع لا يوفقون للتوبة ولا ييسرون لها فلا تقع منهم أصلا إلا أن يشاء الله وهذا المعنى صحيح بلا ريب وقد دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة وواقع حال أهل البدعة.

أما أدلة الكتاب فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[الصف:٥]، وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾[البقرة:١٠]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ

يَعۡمَهُونَ﴾[الأنعام:١١٠]، وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، وقال: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾[مريم:٧٥]، فقد دلت هذه الآيات على عدم توفيق أهل البدع للتوبة من بدعهم.

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٠/٩): ولهذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لان البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها ومعنى قولهم أن البدعة لا يتاب منها أن المبتدع الذي يتخذ دينا لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسنا فهو لا يتوب ما دام يراه حسنا لان أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه أو بأنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله فما دام يرى فعله حسنا وهو سيء في نفس الأمر فانه لا يتوب ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من أهل البدع والضلال. اهـ

وقال (١١/ ٦٨٤) بعد أن ذكر أثر سفيان المتقدم: وهذا معنى ما روى عن طائفة أنهم كانوا يقولون إن الله احتجز التوبة على كل صاحب بدعة بمعنى أنه لا يتوب منها لأنه يحسب أنه على هدى ولو تاب لتاب عليه كما يتوب على الكافر ومن قال إنه لا يقبل توبة مبتدع مطلقا فقد غلط غلطا منكرا، ومن قال ما أذن الله لصاحب بدعة في توبة فمعناه ما دام مبتدعا يراها حسنة لا يتوب منها فأما إذا أراه الله أنها قبيحة فإنه يتوب منها كما يرى الكافر أنه على ضلالة وإلا فالمعلوم أن كثيرا ممن كان على بدعة تبين له ضلالها وتاب الله عليه منها وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله. اهـ

قال ابن القيم في بدائع الفوائد (٤/ ٤٨): قال أبو الفرج الهمداني: سمعت المروزي يقول:سئل أحمد عما ورد عن النبي : «إِنَّ اللهَ احْتَجَزَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بِدْعَتَهُ» أيش معناها، فقال أحمد: لا يوفق ولا ييسر صاحب البدعة لتوبة. اهـ

ومع ذلك فالله يتوب على من تاب وجمع شروط التوبة قال تعالى: .﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣]، ويقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[الشورى:٢٥]، وقال: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾[التوبة: ١٠٤]، وقال: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٣٩].

وقال رسول الله : «إِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ؛ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ» أخرجاه في الصحيحين البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

مسألة في التوبة المطلقة:

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢٨-٣٣٠): فمن تاب توبةً عامةً كانت هذه التوبة مقتضيةً لغفران الذنوب كلها وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه؛ لقوة إرادته إياه أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شاملته. وأما التوبة المطلقة: وهي أن يتوب توبةً مجملةً ولا تستلزم التوبة من كل ذنب فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها

ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق؛ لكن هذه تصلح أن تكون سببًا لغفران المعين. كما تصلح أن تكون سببًا لغفران الجميع؛ بخلاف العامة فإنها مقتضية للغفران العام كما تناولت الذنوب تناولًا عاما. وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضررًا عليه مما فعله من بعض الفواحش فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقا أعظم نفعًا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة كحب الله ورسوله؛ فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت في الصحيح أنه كان على عهد النبي رجل يدعى حمارًا وكان يشرب الخمر وكان كلما أتي به إلى النبي جلده الحد فلما كثر ذلك منه أتي به مرةً فأمر بجلده فلعنه رجل فقال النبي: «**لَا تَلْعَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**». فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله مع أنه لعن في الخمر عشرةً: لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وآكل ثمنها. اهـ

مسألة في تبديل السيئات حسنات بالتوبة:

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/١٣٨-١٣٩): تبديل السيئات حسنات بالتوبة هل ذلك في الدنيا فقط بالطاعات أم في الدنيا والآخرة؟ للمفسرين قولان، والثاني اختاره الشيخ تقي الدين لظاهر آية الفرقان ولحديث أبي ذر في الرجل الذي تعرض عليه صغار ذنوبه وتبدل رواه أحمد ومسلم والترمذي وهذا الرجل المراد بخروجه من النار الورود العام.

قال الشيخ تقي الدين: التائب عمله أعظم من عمل غيره ومن لم يكن له مثل تلك السيئات فإن كان قد عمل مكان سيئات ذلك حسنات فهذا درجته بحسب حسناته فقد يكون أرفع من التائب إن كانت حسناته أرفع، وإن كان قد عمل سيئات ولم يتب منها فهذا ناقص، وإن كان مشغولا بها لا ثواب فيه ولا عقاب فهذا التائب الذي اجتهد في التوبة، والتبديل له من العمل والمجاهدة ما ليس لذلك البطال.

وبهذا يتبين أن تقديم السيئات ولو كانت كفرا إذا تعقبها التوبة التي يبدل الله فيها السيئات حسنات لم تكن تلك السيئات نقصًا بل كمالًا، وقد سبقت هذه المسألة قريبًا. اهـ

وقال (١/١٠٧-١٠٨): وأما قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾[الفرقان:٧٠] قال ابن الجوزي: اختلفوا في هذا التبديل وفي زمان كونه فقال ابن عباس يبدل الله شركهم إيمانا، وقتلهم إمساكا، وزناهم إحصانا قال: وهذا يدل على أنه يكون في الدنيا، وممن ذهب إلى هذا المعنى سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد.

والثاني أن ذا يكون في الآخرة قاله سلمان وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين. اهـ

وهذا المبحث ملخص من كتابي شروط التوبة إلى الله .

[مشروعية رجم الزاني المحصن]

٥٣- وَالرّجْمُ حَقٌّ.

الشرح:

ردٌّ على الخوارج والنَّظَّام وبعض المعتزلة الذين لم يقولوا بالرجم.

قال ابن عبدالبر في التمهيد (١٤/ ٢٣): ولا خلاف بين العلماء أن حد البكر في الزنا غير حد الثيب، وأن حد البكر الجلد وحده، وحد الثيب الرجم وحده، وأما أهل البدع من الخوارج والمعتزلة فلا يرون الرجم على أحد من الزناة ثيبا كان أو غير ثيب وإنما حد الزناة عندهم الجلد الثيب وغير الثيب سواء عندهم وقولهم في ذلك خلاف سنة رسول الله وخلاف سبيل المؤمنين فقد رجم رسول الله والخلفاء بعده وعلماء المسلمين في أقطار الأرض متفقون على ذلك من أهل الرأي والحديث وهم أهل الحق وبالله التوفيق. اهـ

والرجم ثابت في السنة كما في حديث عبادة بن الصامت عند مسلم (١٦٩٠): «**خذوا عَنِّي خذوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْر بِالْبِكْرِ جَلْد مِائَةٍ وَنَفْي سَنَةٍ، وَالثَّيِّب بِالثَّيِّبِ جَلْد مِائَةٍ وَالرَّجْم**».

وقد اختلف العلماء بالأخذ بهذا الحديث هل يجمع للثيب بين الرجم والجلد فقالت طائفة: يجب الجمع بينهما، فيجلد ثم يرجم، وبه قال علي بن أبي طالب والحسن البصري، وإسحاق بن راهويه، وداود، وأهل الظاهر، وبعض أصحاب الشافعي.

وقال جماهير العلماء: الواجب الرجم وحده، وحكى القاضي عن طائفة من أهل الحديث أنه يجب الجمع بينهما، إذا كان الزاني شيخًا ثيبًا، فإن كان شابا ثيبا اقتصر على الرجم، وهذا مذهب باطل لا أصل له، وحجة الجمهور أن النبي اقتصر على رجم الثيب في أحاديث كثيرة منها قصة (ماعز) وقصة (المرأة الغامدية)، وفي قوله : «وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا» أفاده النووي في شرح مسلم .

وعند البخاري (٦٨٢٧)، ومسلم (١٦٩١) عن عمر قال: إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةَ الرَّجْمِ قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا فَرَجَمَ رسول الله وَرَجَمْنَا بَعْدَه، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقولَ قَائِلٌ مَا نَجِد الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللهَ فَيَضِلّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله، وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ البَيِّنَة، أَوْ كَانَ الحَبَل، أَوِ الِاعْتِرَاف.

قال النووي : قوله: (فكان مما أنزل الله عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها) أراد بآية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وهذا مما نسخ لفظه وبقي حكمه. وقد وقع نسخ حكم دون اللفظ. وقد وقع نسخهما جميعا. وفي إعلان عمر بالرجم وهو على المنبر وسكوت الصحابة وغيرهم من الحاضرين عن مخالفته بالإنكار دليل على ثبوت الرجم، وقد يستدل به على أنه لا يجلد مع الرجم، وقد تمتنع دلالته؛ لأنه لم يتعرض للجلد، وقد ثبت في القرآن والسنة.

قوله: (**فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة**) هذا الذي خشيه قد وقع من الخوارج ومن وافقهم كما سبق بيانه، وهذا من كرامات عمر ويحتمل أنه علم ذلك من جهة النبي . اهـ

[المسح على الخفين]

٥٤- وَالمَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنِ سُنَّةٌ.

الشرح:

الخف: هي النعال التي تغطي الكعبين؛ فما كان دون فليس بخف ولا يمسح عليه، ويمسح على ما كان في معناه من الجوارب والتساخين، وهذا رد على الروافض، ومن نحى منحاهم من أهل البدع مع أن أحاديثها متواترة عن النبي حتى قال بعضهم:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ ... وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ
وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

قال ابن قدامة في المغني (١/ ٣٠٩): المسح على الخفين جائز عند عامة أهل العلم، حكى ابن المنذر عن ابن المبارك قال: ليس في المسح على الخفين اختلاف أنه جائز. اهـ والأحاديث دالة على جوازه في الحضر والسفر.

والعجب أن الروافض ينكرون المسح على الخفين، ويمسحون على الأرجل.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٣٨٦-٣٨٧): تواترت السنة عن رسول الله بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين، والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة، فيقال لهم: الذين نقلوا عن النبي الوضوء قولا وفعلا، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضؤوا وهو يراهم ويقرهم، ونقلوه إلى من بعدهم -: أكثر عددا من الذين نقلوا لفظ هذه الآية، فإن جميع المسلمين كانوا يتوضؤن على عهده، ولم يتعلموا الوضوء إلا منه، فإن هذا العمل لم يكن معهودا عندهم في الجاهلية، وهم قد رأوه

يتوضأ ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى: ونقلوا عنه غسل الرجلين في ما شاء الله من الحديث، حتى نقلوا عنه من غير وجه في كتب الصحيح وغيرها أنه قال: «**وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ**».

مع أن الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم كان غسل الجميع كلفة لا تدعو إليها الطباع، كما تدعو الطباع إلى طلب الرياسة والمال، فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضوء، لكان في نقل لفظ آية الوضوء أقرب إلى الجواز، وإذا قالوا: لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ، فثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وأكمل، ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنة، فإن المسح كما يطلق ويراد به الإصابة - كذلك يطلق ويراد به الإسالة، كما تقول العرب: تمسحت للصلاة.

وفي الآية ما يدل على أنه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسيم الغسل، بل المسح الذي الغسل قسم منه، فإنه قال: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[المائدة:٦]، ولم يقل: إلى الكعاب، كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، فدل على أنه ليس في كل رجل كعب واحد، كما في كل يد مرفق واحد، بل في كل رجل كعبان، فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمين الناتئين، وهذا هو الغسل، فإن من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين، وجعل الكعبين في الآية غاية يرد قولهم، فدعواهم أن الفرض مسح الرجلين إلى الكعبين، اللذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك - مردود بالكتاب والسنة.

وفي الآية قراءتان مشهورتان: النصب والخفض، وتوجيه إعرابها مبسوط في موضعه، وقراءة النصب نص في وجوب الغسل؛ لأن العطف على المحل إنما يكون إذا كان المعنى واحدًا، كقوله: (فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدَا)...

وليس معنى: مسحت برأسي ورجلي - هو معنى: مسحت رأسي ورجلي، بل ذكر الباء يفيد معنى زائدا على مجرد المسح، وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس، فتعين العطف على قوله ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾، فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن، فإن الرسول بين للناس لفظ القرآن ومعناه، كما قال أبو عبدالرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: عثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود، وغيرهم: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا معناها، وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجلين، فإن السرف يعتاد فيهما كثيرا، والمسألة معروفة، والكلام عليها في كتب الفروع. اهـ

ففي الصحيحين البخاري (١٨٢)، ومسلم (٢٧٤) من حديث المغيرة قال: فَأَهْوَيْت لِأَنْزِعَ خفَّيْهِ فَقَالَ: «دَعْهمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتهمَا طَاهِرَتَيْنِ» فَمَسَحَ عَلَيْهِمَا.

قال ابن قدامة في المغني (١/ ٣٦١): لا نعلم في اشتراط تقديم الطهارة لجواز المسح خلافًا. اهـ

وفي مسلم (٢٧٣) وفي من حديث حذيفة: (أنه مسح على الخفين). وفي حديث سعد بن أبي وقاص عند البخاري (٢٠٢) المسح على الخفين. وفي البخاري (٢٠٥) عن عمرو بن أمية قال: رأيت رسول الله يمسح على عمامته وخفيه. وعن علي عند أبي داود (١٦٢) قال: لَوْ كَانَ الدِّين بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَل الخفِّ أَوْلَى بِالْمَسْحِ مِنْ أَعْلَاه، وَقَدْ رَأَيْت رَسولَ الله يَمْسَح عَلَى ظَاهِرِ خفَّيْهِ. وفي البخاري (٣٨٧)، ومسلم (٢٧٢) عَنْ هَمَّامٍ قَالَ: بَالَ جَرِيرٌ، ثمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خفَّيْهِ؛ فَقِيلَ: تَفْعَل هَذَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ رَأَيْت رَسولَ الله بَالَ، ثمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى

خفَّيْهِ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانَ يُعْجِبُهُمْ هَذَا الْحَدِيثُ لِأَنَّ إِسْلَامَ جَرِيرٍ، كَانَ بَعْدَ نُزُولِ الْمَائِدَةِ. وفي حديث علي في مسلم (٢٧٦) أن رسول الله وقت المسح على الخفين يوم وليلة للمقيم، وثلاثة أيام بلياليهن للمسافر، وجاء بنحوه عن عوف بن مالك عند أحمد (٦/ ٢٧)، وجاء عن صفوان بن عسال التوقيت عند الترمذي (٩٦). وفي حديث بريدة: أن النبي صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد، ومسح على خفيه. أخرجه مسلم (٢٧٧).

وأدخل العلماء هذه المسألة في كتب العقيدة رد على أهل البدع والزيغ والريب الذين يردون سنة النبي بمحض الرأي والهوى والعَجَب أن الرافضة الذين يدعون حب علي يخالفونه مع أنه كما ترى، قد روى المسح عن النبي .

وقد اختلف العلماء أيهما أفضل غسل الأرجل أو المسح على الخفين قال ابن قدامة في المغني (١/ ٣٦٠-٣٦١): وروي عن أحمد أنه قال: المسح أفضل، يعني من الغسل؛ لأن النبي وأصحابه إنما طلبوا الفضل، وهذا مذهب الشافعي، والحكم، وإسحاق؛ لأنه روي عن النبي أنه قال: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ**»، وما خير رسول الله بين أمرين، إلا اختار أيسرهما. ولأن فيه مخالفة أهل البدع، وقد روي عن سفيان الثوري أنه قال لشعيب بن حرب: لا ينفعك ما كتبت، حتى ترى المسح على الخفين أفضل من الغسل.

وروى حنبل، عن أحمد، أنه قال: كله جائز، المسح والغسل، ما في قلبي من المسح شيء، ولا من الغسل وهذا قول ابن المنذر، وروي عن ابن عمر، أنه أمرهم أن يمسحوا على خفافهم، وخلع خفيه، وتوضأ، وقال: حبب إلي الوضوء.

وقال ابن عمر: إني لمولع بغسل قدمي، فلا تقتدوا بي، وقيل: الغسل أفضل؛ لأنه المفروض في كتاب الله تعالى، والمسح رخصة، وقد ذكرنا من حديث رسول الله : «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُقْبَلَ رُخَصُهُ». اهـ

والصحيح أنهما سواء إلا إذا اقترن بالمسح إحياء سنة النبي ومخالفة أهل البدع.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٦/ ٩٤): وهكذا المسح على الخفين، فإنه لم ينقل أحد أن النبي كان إذا لبس الخفين على طهارة ثم أحدث أنه لينزعهماوليغسل رجليه، بل كان ليمسح عليهما، وهذا مورد النزاع، فأما إذا لم يكن عليه خفان ففرضه الغسل، ولا ليشرع له أن ليلبس الخفين لأجل المسح، بل صورة المسألة إذا لبسهما لحاجته، فهل الأفضل أن ليمسح عليهما، أو ليخلعهما، أو كلاهما على السواء؟ على ثلاثة أقوال: والصواب: أن المسح أفضل، اتباعًا للسنة. اهـ

[قصر الصلاة في السفر]

٥٥- وَتَقْصِيرُ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ سُنَّةٌ.

الشرح:

إن كان مراده بالسنة أنه من طريقة النبي فذلك وإن أراد الندب فلا على ما يأتي والقصر في السفر ثابت بالكتاب والسنة قال الله : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[النساء:١٠١].

وفي حديث عائشة في الصحيحين البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥): فرضت الصلاة في السفر والحضر ركعتين، ركعتين؛ فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر.

وفي حديث أنس في الصحيحين البخاري (١٠٨١)، ومسلم (١٩٣) أن رسول الله مكث بمكة عشرًا يصلي ركعتين.

وابن عمر يقول: صحبت رسول الله في منى وغيرها فكان يصلي ركعتين وأبوبكر كذلك، وعمر ، وسنتين من خلافة عثمان، أخرجه البخاري (١١٠١)، مسلم (٦٨٩)، وفي أحمد (١/ ٣٧)، والنسائي (١٤٢٠)، وابن ماجه (١٠٦٣) وهو عند غيرهم عن عمر قال: صَلَاة السَّفَرِ رَكْعَتَانِ وَصَلَاة الجمعَةِ رَكْعَتَانِ، وَالفِطْرِ وَالأَضْحَى رَكْعَتَانِ، تَمَامٌ غَيْر قَصْرٍ عَلَى لِسَانِ محَمَّدٍ .

وفي النسائي (٤٥٨) بسند صحيح كما قال الألباني في حاشيته على سبل السلام (٢/ ١٠٩) عن أمية بن عبدالله بن أسيد أنه قال لابن عمر: كَيْفَ تَقْصر

الصَّلاةَ، وَإِنَّمَا قَالَ الله : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾، فَقَالَ ابْن عمَرَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ رَسولَ الله أَتَانَا وَنَحْن ضلَّالٌ فَعَلَّمَنَا، فَكَانَ فِيمَا عَلَّمَنَا أَنَّ الله أَمَرَنَا أَنْ نصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ فِي السَّفَرِ.

وقد اختلف العلماء في حكم هذه المسألة إلى قولين فذهب جمهور العلماء إلى جواز القصر واستحبابه، وذهب جمع من أهل العلم إلى وجوب القصر.

قال الشوكاني في النيل (٦/ ١٥٣) ط/ ابن الجوزي: واعلم أنه قد اختلف أهل العلم هل القصر واجب أو رخصة والتمام أفضل فذهب إلى الأول الحنفية والهادوية، وروي عن علي وعمر ونسبه النووي إلى كثير من أهل العلم، قال الخطابي في المعالم : كان مذاهب أكثر علماء السلف وفقهاء الأمصار على أن القصر هو الواجب في السفر وهو قول علي وعمر وابن عمر وابن عباس وروي ذلك عن عمر بن عبدالعزيز وقتادة والحسن وقال حماد بن سليمان: يعيد من يصلي في السفر أربعًا وقال مالك: يعيد ما دام في الوقت.

وإلى الثاني الشافعي ومالك وأحمد، قال النووي: وأكثر العلماء وروي عن عائشة وعثمان وابن عباس، قال ابن المنذر: وقد أجمعوا على أنه لا يقصر في الصبح ولا في المغرب، قال النووي: ذهب الجمهور إلى أنه يجوز القصر في كل سفر مباح وذهب بعض السلف إلى أنه يشترط في القصر الخوف في السفر وبعضهم كونه سفر حج أو عمرة، وعن بعضهم كونه سفر طاعة.

احتج القائلون بوجوب القصر بحجج:

الأولى: ملازمته للقصر في جميع أسفاره كما في حديث ابن عمر المذكور في الباب ولم يثبت عنه أنه أتم الرباعية في السفر البتة، كما قال ابن القيم وأما

حديث عائشة الآتي المشتمل على أنه أتم الصلاة في السفر فسيأتي أنه لم يصح ويجاب عن هذه الحجة بأن مجرد الملازمة لا يدل على الوجوب كما ذهب إلى ذلك جمهور أئمة الأصول وغيرهم.

الحجة الثانية: حديث عائشة المتفق عليه بألفاظ منها فرضت الصلاة ركعتين فأقرت صلاة السفر وأتمت صلاة الحضر وهو دليل ناهض على الوجوب لأن صلاة السفر إذا كانت مفروضة ركعتين لم تجز الزيادة عليها كما أنها لا تجوز الزيادة على أربع في الحضر. وقد أجيب عن هذه الحجة بأجوبة:

منها: أن الحديث من قول عائشة غير مرفوع وأنها لم تشهد زمان فرض الصلاة وأنه لو كان ثابتًا لنقل تواترًا وقد قدمنا الجواب عن هذه الأجوبة في أول كتاب الصلاة في الموضع الذي ذكر فيه المصنف حديث عائشة.

ومنها: أن المراد بقولها فرضت أي قدرت وهو خلاف الظاهر.

ومنها: ما قال النووي أن المراد بقولها فرضت يعني لمن أراد الاقتصار عليهما فزيد في صلاة الحضر ركعتان على سبيل التحتم وأقرت صلاة السفر على جواز الاقتصار وهو تأويل متعسف لا يعول على مثله.

ومنها: المعارضة لحديث عائشة بأدلتهم التي تمسكوا بها في عدم وجوب القصر وسيأتي ويأتي الجواب عنها.

الحجة الثالثة: ما في صحيح مسلم (٦٨٧) عن ابن عباس أنه قال: إن الله فرض الصلاة على لسان نبيكم على المسافر ركعتين وعلى المقيم أربعًا والخوف ركعة. فهذا الصحابي الجليل قد حكى عن الله أنه فرض صلاة السفر ركعتين وهو أتقى لله وأخشى من أن يحكي أن الله فرض ذلك بلا برهان.

والحجة الرابعة: حديث عمر عند النسائي (١٤٢٠) وغيره: صلاة الأضحى ركعتان وصلاة الفجر ركعتان وصلاة الفطر ركعتان وصلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد . وهو يدل على أن صلاة السفر مفروضة كذلك من أول الأمر وأنها لم تكن أربعًا، ثم قصرت. وقوله: (على لسان محمد) تصريح بثبوت ذلك من قوله .

الحجة الخامسة: حديث ابن عمر (٤٥٧): أمرنا أن نصلي ركعتين في السفر.

واحتج القائلون بأن القصر رخصة والتمام أفضل بحجج:

الأولى منها: قول الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾[النساء: ١٠١] ونفي الجناح لا يدل على العزيمة بل على الرخصة وعلى أن الأصل التمام والقصر إنما يكون من شيء أطول منه، وأجيب بأن الآية وردت في قصر الصفة في صلاة الخوف لا في قصر العدد لما علم من تقدم شرعية قصر العدد، قال في الهدى وما أحسن ما قال: وقد يقال إن الآية اقتضت قصرًا يتناول قصر الأركان بالتخفيف وقصر العدد بنقصان ركعتين وقيد ذلك بأمرين: الضرب في الأرض والخوف، فإذا وجد الأمران أبيح القصران فيصلون صلاة خوف مقصورًا عددها وأركانها وإن انتفي الأمران وكانوا آمنين مقيمان انتفي القصران فيصلون صلاة تامة كاملة وإن وجد أحد السببين ترتب عليه قصره وحده فإن وجد الخوف والإقامة قصرت الأركان واستوفي العدد وهذا نوع قصر وليس بالقصر المطلق في الآية وإن وجد السفر والأمن قصر العدد واستوفيت الأركان وصليت صلاة أمن وهذا أيضًا نوع قصر وليس بالقصر المطلق وقد تسمى هذه الصلاة مقصورة باعتبار نقصان العدد وقد تسمى تامة باعتبار تمام أركانها وإن لم تدخل في الآية. اهـ

الحجة الثانية: قوله : «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ» أخرجه مسلم (٦٨٦) عن عمر فإن الظاهر من قوله صدقة أن القصر رخصة فقط، وأجيب بأن الأمر بقبولها يدل على أنه لا محيص عنها وهو المطلوب.

الحجة الثالثة: ما في صحيح مسلم وغيره أن الصحابة كانوا يسافرون مع رسول الله فمنهم القاصر ومنهم المتم ومنهم الصائم ومنهم المفطر لا يعيب بعضهم على بعض، كذا قال النووي في شرح مسلم .

ولم نجد في صحيح مسلم قوله: (فمنهم القاصر ومنهم المتم) وليس فيه إلا أحاديث الصوم والإفطار وإذا ثبت ذلك، فليس فيه أن النبي اطلع على ذلك وقررهم عليه وقد نادت أقواله وأفعاله بخلاف ذلك.

وقد تقرر أن إجماع الصحابة في عصره ليس بحجة والخلاف بينهم في ذلك مشهور بعد موته وقد أنكر جماعة منهم على عثمان لما أتم بمنى وتأولوا له تأويلات.

قال ابن القيم : أحسنها أنه كان قد تأهل بمنى والمسافر إذا أقام في موضع وتزوج فيه أو كان له به زوجة أتم وقد روى أحمد عن عثمان أنه قال: أيها الناس لما قدمت تأهلت بها وإني سمعت رسول الله يقول: إذا تأهل رجل ببلد فليصل به صلاة مقيم. ورواه أيضًا عبدالله بن الزبير الحميدي في مسنده أيضًا، وقد أعله البيهقي بانقطاعه وتضعيفه عكرمة بن إبراهيم.

الحجة الرابعة: حديث عائشة قالت: خرجت مع النبي في عمرة رمضان فأفطرت وصمت، وقصرت وأتممت. فقلت: بأبي وأمي، أفطرت وصمت، وقصرت وأتممت. فقال: «أَحْسَنْتِ يَا عَائِشَةُ». أخرجه الدارقطني (٣٩) قال شيخ الإسلام: هذا حديث كذب على عائشة. وهذا النزاع في وجوب القصر وعدمه وقد

لاح من مجموع ما ذكرنا رجحان القول بالوجوب، وأما دعوى أن التمام أفضل فمدفوعة بملازمته للقصر في جميع أسفاره وعدم صدور التمام عنه كما تقدم ويبعد أن يلازم طول عمره المفضول ويدع الأفضل. اهـ

تنبيه: حديث عائشة : أن رسول الله كان يقصر في السفر ويتم. أخرجه الدارقطني رقم (٤٤)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٤٢) وهو حديث ضعيف، وقد ضعفه جمع من أهل العلم وفيه نكارة.

والقول الحق في هذه المسألة - والله أعلم - وجوب القصر لملازمة رسول الله وهو القائل: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» أخرجه البخاري (٦٣١)، ويقول الله : ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١].

ولأنه فرض من الله كما في حديث عائشة ، وأما قول من قال بأنها لم تشهد زمان الفرض فهذا قول ضعيف؛ لأن قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه له حكم الرفع ولأن مرسل الصحابي حجة إلى غير ذلك من الأجوبة لو أردنا التطويل ومن صلى من الصحابة تمام غير قصر فهو كما قال عروة في شأن عائشة تأولت كما تأول عثمان.

ويقصر المسافر إذا كان غير متردد إلى تسعة عشر يومًا لما صح عن ابن عباس عند البخاري (١٠٨٠): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَقَامَ النَّبِيّ تِسْعَةَ عَشَرَ يَقْصر؛ فَنَحْنُ إِذَا سَافَرْنَا تِسْعَةَ عَشَرَ قَصَرْنَا وَإِنْ زِدْنَا أَتْمَمْنَا.

وأما المتردد فإنه يقصر مدة بقائه قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥٦١): أنه أقام بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة ولم يقل للأمة لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك ولكن اتفقت إقامته هذه المدة وهذه الإقامة في حال السفر لا

تخرج عن حكم السفر سواء طالت أو قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع.

وقد اختلف السلف والخلف في ذلك اختلافا كثيرا ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: أقام رسول الله في بعض أسفاره تسع عشرة يصلي ركعتين فنحن إذا أقمنا تسع عشرة نصلي ركعتين وإن زدنا على ذلك أتممنا. وظاهر كلام أحمد أن ابن عباس أراد مدة مقامه بمكة زمن الفتح فإنه قال: أقام رسول الله بمكة ثمان عشرة زمن الفتح؛ لأنه أراد حنينا ولم يكن، ثم أجمع المقام وهذه إقامته التي رواها ابن عباس.

وقال غيره: بل أراد ابن عباس مقامه بتبوك كما قال جابر بن عبدالله أقام النبي بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة رواه الإمام أحمد في مسنده ، وقال عبدالرحمن بن المسور بن مخرمة: أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام أربعين ليلة يقصرها سعد ونتمها، وقال نافع: أقام ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يصلي ركعتين وقد حال الثلج بينه وبين الدخول.

وقال حفص بن عبيد الله: أقام أنس بن مالك بالشام سنتين يصلي صلاة المسافر. وقال أنس: أقام أصحاب رسول الله برامهرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة، وقال الحسن: أقمت مع عبدالرحمن بن سمرة بكابل سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع، وقال إبراهيم: كانوا يقيمون بالري السنة وأكثر من ذلك وسجستان السنتين، فهذا هدي رسول الله وأصحابه كما ترى وهو الصواب.

وأما مذاهب الناس فقال الإمام أحمد إذا نوى إقامة أربعة أيام أتم وإن نوى دونها قصر وحمل هذه الآثار على أن رسول الله وأصحابه لم يجمعوا الإقامة البتة

بل كانوا يقولون اليوم نخرج غدا نخرج، وفي هذا نظر لا يخفي فإن رسول الله فتح مكة وهي ما هي وأقام فيها يؤسس قواعد الإسلام ويهدم قواعد الشرك ويمهد أمر ما حولها من العرب ومعلوم قطعا أن هذا يحتاج إلى إقامة أيام لا يتأتى في يوم واحد ولا يومين وكذلك إقامته بتبوك فإنه أقام ينتظر العدو ومن المعلوم قطعا أنه كان بينه وبينهم عدة مراحل يحتاج قطعها إلى أيام وهو يعلم أنهم لا يوافون في أربعة أيام.

وكذلك إقامة ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يقصر الصلاة من أجل الثلج ومن المعلوم أن مثل هذا الثلج لا يتحلل ويذوب في أربعة أيام بحيث تنفتح الطرق، وكذلك إقامة أنس بالشام سنتين يقصر وإقامة الصحابة برامهرمز سبعة أشهر يقصرون ومن المعلوم أن مثل هذا الحصار والجهاد يعلم أنه لا ينقضي في أربعة أيام.

وقد قال أصحاب أحمد: إنه لو أقام لجهاد قصر سواء غلب على ظنه انقضاء الحاجة في مدة يسيرة أو طويلة، وهذا هو الصواب لكن شرطوا فيه شرطا لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا عمل الصحابة، فقالوا: شرط ذلك احتمال انقضاء حاجته في المدة التي لا تقطع حكم السفر وهي ما دون الأربعة الأيام، فيقال: من أين لكم هذا الشرط، والنبي لما أقام زيادة على أربعة أيام يقصر الصلاة بمكة وتبوك لم يقل لهم شيئًا ولم يبين لهم أنه لم يعزم على إقامة أكثر من أربعة أيام وهو يعلم أنهم يقتدون به في صلاته ويتأسون به في قصرها في مدة إقامته فلم يقل لهم حرفا واحدا، لا تقصروا فوق إقامة أربع ليال وبيان هذا من أهم المهمات وكذلك اقتداء الصحابة به بعده ولم يقولوا لمن صلى معهم شيئًا من ذلك.

وقال مالك والشافعي: إن نوى إقامة أكثر من أربعة أيام أتم وإن نوى دونها قصر، وقال أبوحنيفة: إن نوى إقامة خمسة عشر يوما أتم وإن نوى دونها قصر، وهو مذهب الليث بن سعد وروي عن ثلاثة من الصحابة عمر وابنه وابن عباس، وقال سعيد بن المسيب: إذا أقمت أربعًا فصل أربعًا وعنه كقول أبي حنيفة، وقال علي بن أبي طالب: إن أقام عشرا أتم وهو رواية عن ابن عباس، وقال الحسن: يقصر ما لم يقدم مصرًّا، وقالت عائشة: يقصر ما لم يضع الزاد والمزاد، والأئمة الأربعة متفقون على أنه إذا أقام لحاجة ينتظر قضاءها يقول اليوم أخرج غدا أخرج فإنه يقصر أبدًا إلا الشافعي في أحد قوليه فإنه يقصر عنده إلى سبعة عشر أو ثمانية عشر يومًا ولا يقصر بعدها. وقد قال ابن المنذر في إشرافه : أجمع أهل العلم أن للمسافر أن يقصر ما لم يجمع إقامة وإن أتى عليه سنون. اهـ

والذي يظهر لي والله أعلم أن من نزل منزلًا ولم يعزم الإقامة له أن يقصر تسعة عشر يومًا على ما جاء عن ابن عباس في صحيح البخاري (١٠٨٠): أقام رسول الله تسعة عشر يومًا يقصر بتبوك فنحن إذا أقمنا تسعة عشر قصرنا، وإذا زدنا أتممنا. وهذا القول اختاره شيخنا يحيى حفظه الله في كتاب ضياء السالكين في أحكام وآداب المسافرين هذا في غير المتردد، أما المتردد فعلى ما قاله ابن المنذر .

وأما مسافة القصر فيهي من المسائل التي كما قال الشوكاني تبلدت عندها أذهان الفقهاء وذلك لما قاله الله : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢].

ولم يأتِ في الكتاب أو السنة أو حتى آثار الصحابة رضوان الله عليهم دليل صحيح على تحديد مسافة القصر وكل ما جاء أنه قصر على مسافة ثلاثة فراسخ أو

حين خرج من المدينة فإن هذا لا إشكال فيه، فالمسافر يشرع في القصر بعد مجاوزة بيوت البلد، وقد بوب البخاري في صحيحه باب يقصر إذا خرج من موضعه، واستدل بحديث أنس في الصحيحين البخاري (١٠٧٩)، ومسلم (٦٩٠) قال: صَلَّيْت الظّهْرَ مَعَ النَّبِيِّ بِالْمَدِينَةِ أَرْبَعًا وَبِذِي الحلَيْفَةِ رَكْعَتَيْنِ.

وبوب على المسافة باب في كم يقصر الصلاة؟، قال الحافظ في الفتح (٢/ ٧٢٠): يريد بيان المسافة التي إذا أراد المسافر الوصول إليها ساغ له القصر، ولا يصوغ له قبل منها. اهـ

وهي من المواضع التي انتشر فيها الخلاف جدًّا، فحكى ابن المنذر فيها أكثر من عشرين قولًا، والظاهر والله أعلم، أن هذه المسألة عائدة إلى العرف؛ فالمسافة التي تعتبر في العرف سفرًا يقصر فيها، وهذا الذي رجحه شيخنا مقبل ، وكذا شيخنا يحيى حفظه الله، وهو ترجيح الشوكاني، وقبل ذلك ابن القيم وشيخه.

قال كما في الاختيارات الفقهية : ويجوز قصر الصلاة في كل ما يسمى سفرًا سواءً قل أو كثر، ولا يتقرر بمدة وهو مذهب الظاهرية، ونصره صاحب المغني فيه. اهـ

والكلام على هذه المسألة يطول، وليس هذا موطن بسطها، ولكن هذه إشارات يستفيدها من أراد الله له ذلك، ومن أراد المطولات رجع إلى مضانها والله أعلم.

[الصوم في السفر]

٥٦- وَالصَّوْمُ فِي السَّفَرِ، مَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ.

الشرح:

في حديث أنس قال: كنَّا نسَافِر مَعَ النَّبِيِّ ؛ فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمِ عَلَى المفْطِرِ، وَلَا المفْطِرَ عَلَى الصَّائِمِ. متفق عليه البخاري (١٩٤٧)، ومسلم (١١١٨)، وعن عائشة مثله، أخرجه مسلم.

وفي حديث أبي سعيد عند مسلم (١١١٧): غَزَوْنَا مَعَ رَسولِ اللهَ لِسِتَّ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ؛ فَمِنَّا مَنْ صَامَ وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ؛ فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمِ عَلَى المفْطِرِ، وَلَا المفْطِرَ عَلَى الصَّائِمِ.

وقد قال الله : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[البقرة:١٨٤] ويجوز الصيام لمن وجد من نفسه القدرة.

ففي حديث عائشة أَنَّ حَمْزَةَ بْنَ عَمْرٍو الأَسْلَمِيَّ سَأَلَ رَسولَ اللهَ فَقَالَ: يَا رَسولَ اللهَ إِنِّي رَجلٌ أَسْرد الصَّوْمَ، أَفَأَصوم فِي السَّفَرِ؟ قَالَ: «**صمْ، إِنْ شِئْتَ، وَأَفْطِرْ إِنْ شِئْتَ**» أخرجه البخاري برقم (١٩٤٣)، ومسلم برقم (١١٢١).

وعند مسلم (١١٢١) عن حمزة بن عمرو الأسلمي أنه قال: يَا رَسولَ اللهَ أَجِد بِي قوَّةً عَلَى الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ؛ فَهَلْ عَلَيَّ جناحٌ؟ فَقَالَ رَسول اللهَ : «**هِيَ رخْصَةٌ مِنَ اللهَ؛ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصومَ فَلَا جناحَ عَلَيْهِ**».

وأما من خشي على نفسه الضرر فلا يجوز له الصيام ففي حديث جابر قال: قال رسول الله : «**لَيْسَ مِنَ البِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ**» أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

وفي حديث أبي سعيد في شأن من لم يفطر للقاء العدو قال: «**أُولَئِكَ العُصَاةُ، أُولَئِكَ العُصَاةُ**» أخرجه مسلم (١١١٤).

قال شيخ الإسلام (٢٥/ ٢٠٩): فأما السفر الذي تقصر فيه الصلاة؛ فإنه يجوز فيه الفطر مع القضاء باتفاق الأئمة، ويجوز الفطر للمسافر باتفاق الأمة سواءً كان قادرًا على الصيام أو عاجزًا، وسواء شق عليه الصوم أو لم يشق بحيث لو كان مسافرًا في الظل والماء ومعه من يخدمه جاز له الفطر والقصر، ومن قال: إن الفطر لا يجوز إلا لمن عجز عن الصيام فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل. اهـ

ولشيخنا يحيى حفظه الله كتاب ضياء السالكين في أحكام وآداب المسافرين استوعب هذه المسائل؛ فجزاه الله خيرًا ونفع به وبنا وختم لنا بالحسنى.

[الصلاة في السراويل]

٥٧- وَلَا بَأْسَ بِالصَّلَاةِ فِي السَّرَاوِيلِ.

الشرح:

السراويل: فارسي معرب يذكر ويؤنث، ومفردة سراويل ويجمع على سراويلات.

قال ابن القيم في الزاد (١/ ١٣٩): واشترى سراويل، والظاهر أنه إنما اشتراها ليلبسها. اهـ

وتلبس السراويلات تحت الأردية والقمص قال عمر كما في البخاري: صل في سراويل ورداء، في سراويل وقميص، في سراويل وقباء، في تبان وقباء، في تبان وقميص، في تبان ورداء.

وبوب البخاري (بَابُ الصَّلَاةِ فِي القَمِيصِ وَالسَّرَاوِيلِ وَالتُّبَّانِ وَالقَبَاءِ).

ومن صلى في السراويل فليضف إليه غيره إلا أن لم يجد، لقول الله : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]، ولقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦].

ففي حديث بريدة: نهى رسول الله أن يصلي الرجل في السراويل ليس عليه شيء غيره. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٤٨٦).

أما الصلاة فيها مجردة؛ فإنه محرم والصلاة صحيحة مع الإثم، وبهذا كان يفتي الشيخ مقبل ، وكذا شيخنا يحيى حفظه الله.

والمراد بالسراويل هنا الواسعة الساترة للعورة، كما كانت عادة العرب: إما أن يتخذ من هذا القول ذريعة لجواز لبس السراويل التي تسمى بالبناطيل فلا؛ لأن لبسها تشبه بالكفار، والكثير منها يشف العورة ويظهرها وكفي في نبذها والبعد عنها حديث ابن عمر عند مسلم (٢٠٧٧): أن أمه ألبسته ثوبًا معصفرًا؛ فجاء إلى النبي ، فقال له رسول الله : «أُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهَذَا؟» قال: يا رسول الله أنزعه، قال: «بَلْ أَحْرِقْهُ».

قال الشيخ النجمي في إرشاد الساري (١١٠): أمَّا السراويل التي تجوز فيها الصلاة فهي السراويل التي تكون ساترةً للعورة المرتخية الواسعة على الجسم بحيث يتمكن لابسها من أداء الصلاة على الوجه الأكمل، أمَّا إذا كانت ضيِّقة مظهرةٌ لحجم الإليتين؛ فإنَّ الصلاة فيها تكون مكروهة وقد تبطل الصلاة إذا كان لابس السراويل لايتمكن من أداء الأركان كأن يكون لايستطيع أن يجلس للتشهد وبين السجدتين، وبالله التوفيق. اهـ

[النفاق وخطره]

٥٨- وَالنِّفَاقُ أَنْ تُظْهِرَ الْإِسْلَامَ بِاللِّسَانِ وَتُخْفِي الْكُفْرَ بِالضَّمِيرِ.

الشرح:

قال ابن الأثير في النهاية : قَدْ تكَرَّرَ فِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ (النِّفَاقِ) وَمَا تصرَّف مِنْهُ اسْمًا وفعْلًا، وَهُوَ اسْمٌ إِسْلَامِيٌّ، لَمْ تَعْرفه الْعَرَبُ بالمعْنى المخْصُوص بِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتُرُ كُفْرَه ويُظْهر إِيمَانَهُ، وَإِنْ كَانَ أصلُه فِي اللُّغة مَعْروفا. يُقَالُ: نَافَقَ يُنَافِقُ مُنَافَقَةً ونِفَاقًا، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ النَّافِقَاءِ: أحَد جِحَرة الْيَرْبوع، إِذَا طُلِب مِنْ واحِدٍ هرَب إِلَى الآخَر، وخرَج مِنْهُ. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ النَّفَقِ: وَهُوَ السَّرَب الَّذِي يُسْتَتَرَ فيهِ، لِسَتْرِه كُفْرَه. اهـ

هذا هو النفاق الأكبر نفاق الإعتقاد، وهو كفر وزندقة والعياذ بالله.

والنفاق مرض خطير كانت بداية ظهوره بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر على الكافرين من قريش.

قال السعدي في تفسير سورة البقرة : واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي، كالذي ذكر النبي في قوله: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» وفي رواية: «**وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**».

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة -أي سورة البقرة- وغيرها، ولم يكن النفاق موجودا قبل

هجرة الرسول من مكة إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفا ومخادعة، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلَّى أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها؛ لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضًا عن كثير من فجورهم قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾[التوبة:٦٤] فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٨] فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئًا، ويبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهؤلاء المنافقون، سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن هذا من العجائب؛ لأن المخادع، إما أن ينتج خداعه ويحصل له ما يريد أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم شيئًا وعباده المؤمنون، لا يضرهم كيدهم شيئًا، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقنت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحماقتهم لا يشعرون بذلك.اهـ

ووجود المنافقين في الأمة جر لها كثيرًا من الويلات، وقد فضحهم الله وبين عوارهم في سورة المائدة، وسورة التوبة، وسورة الأحزاب، وسورة المنافقون، وفي بعض سورة النور؛ فهم مخذلون للأمة وخاذلون لها، وهم الذين زادوا فيها الخبال إلى غير ذلك مما تراه هنالك.

ومن أشهر وأظهر المنافقين في هذا الزمان، الباطنية البهرة المكارمة الإسماعيلية والرافضة، وكثير من العقلانيين، والحداثيين، والماسونين الذين نخروا الإسلام وتعاليمه السامية الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤٢].

وأما الكلام على توبة المنافق فقد تقدم والحمد لله.

[دار الدنيا هل هي دار الإسلام]

٥٩- وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ إِيمَانٍ وَإِسْلَامٍ.

الشرح:

هذا التقسيم فيه نظر، والدنيا تنقسم إلى دارين: دار إسلام ودار كفر على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

فدار الإسلام هي الدار التي يحكم فيها بشريعة الله وتظهر فيها أحكام الإسلام، ومعنى ظهور أحكام الإسلام أن تكون أحكام الله هي الغالبة وكلمة الإسلام هي النافذة. اهـ اختلاف الدارين (١/ ١٢٣).

وقال الرفاعي: ليس من شرط دار الإسلام أن يكون فيها مسلمون بل يكفي كونها في يد الإمام وإسلامه، فالدار تعتبر دار إسلام ولو كان جميع سكانها من أهل الذمة ما دام الحكم والسيادة وتطبيق الأحكام للمسلمين.

الدور التي تشملها دار الإسلام:

١) دار العدل، وهي التي تطبق فيها الشريعة الإسلامية.

٢) دار أهل الذمة، إذا انفردوا بدار لوحدهم.

ومما يعتبر هنا أن كل دور الإسلام دار واحدة ولو اختلفت حكامها أو شعوبها أو لهجاتها، ودور الإسلام تعتبر وطن المسلمين جميعًا، وكذلك الذميين.

والدور التي لا تشملها دار الإسلام:

١- دار الردة، وهذا إذا كانت الردة في جماعة وانحازت إلى دار ينفردون بها عن المسلمين حتى يصيروا فيها ممتنعين فتصبح دارهم دار ردة، ويجب قتالهم على ردتهم بعد الإنذار، وإيضاح دلائل الإسلام.

٢- دار البغي، وهي التي انفرد بها جماعة من البغاة الخارجين عن طاعة الإمام بحجة تأولوها، ويرون أن الإمام علي باطل يوجب قتاله في نظرهم، ثم إنهم تحصنوا في تلك الدار وأقاموا عليهم حكامًا منهم، وصار لهم بها جيش وقوة.

٣- وأما دار الكفر، فإن دار الكفر هي التي يحكمها الكفار وتجري فيها أحكام الكفر ويكون النفوذ فيها للكفار وهي على نوعين: بلاد كفار حربيين، وبلاد كفار مهادنين، بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة، فتصير إذ كانت الأحكام للكفار دار كفر ولو كان بها كثيرًا من المسلمين. قاله السعدي في الفتاوى السعدية (١/ ٩٢).

ومما يدل على هذا التقسيم ما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس (٥٢٨٦): كَانَ المُشْرِكونَ عَلَى مَنْزِلَتَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ وَالمؤْمِنِينَ، كَانوا مشْرِكِي أَهْلِ حَرْبٍ يقَاتِلهمْ وَيقَاتِلونَه، وَمشْرِكِي أَهْلِ عَهْدٍ لَا يقَاتِلهمْ وَلَا يقَاتِلونَه. اختلاف الدارين (١/ ٢٤٣-٢٤٤).

وقد تتغير البلاد من دار إسلام إلى دار كفر والعكس بتغير ما ذكر آنفًا.

وفي فتاوى اللجنة الدائمة (١٢/ ٥٢-٥٣): كل بلاد أو ديار يقيم حكامها وذوو السلطان فيها حدود الله، ويحكمون رعيتها بشريعة الإسلام، وتستطيع فيها الرعية أن تقوم بما أوجبته الشريعة الإسلامية عليها؛ فهي دار إسلام، فعلى المسلمين فيها أن يطيعوا حكامها في المعروف، وأن ينصحوا لهم، وأن يكونوا عونًا لهم على

إقامة شئون الدولة، ودعمها بما أوتوا من قوة علمية وعملية، ولهم أن يعيشوا فيها، وألا يتحولوا عنها إلا إلى ولاية إسلامية، تكون حالتهم فيها أحسن وأفضل، وذلك كالمدينة بعد هجرة النبي إليها، وإقامة الدولة الإسلامية فيها، وكمكة بعد الفتح؛ فإنها صارت بالفتح وتولي المسلمين أمرها دار إسلام بعد أن كانت دار حرب تجب الهجرة منها على من فيها من المسلمين القادرين عليها.

وكل بلاد أو ديار، لا يقيم حكامها وذوو السلطان فيها حدود الله، ولا يحكمون في الرعية بحكم الإسلام، ولا يقوى المسلم فيها على القيام بما وجب عليه من شعائر الإسلام؛ فهي دار كفر، وذلك مثل مكة المكرمة قبل الفتح، فإنها كانت دار كفر، وكذا البلاد التي ينتسب أهلها إلى الإسلام، ويحكم ذوو السلطان فيها بغير ما أنزل الله، ولا يقوى المسلمون فيها على إقامة شعائر دينهم. اهـ

وأما الإمام البربهاري فكأنه يرى أن الدار كلها دار واحدة، وهذا القول ليس بصحيح؛ فقد دلت الأدلة من القرآن والسنة على إثبات الدارين قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[النساء:٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[الأحزاب:٢٧] وغيرها من الآيات.

وفي السنة: حديث جرير عند أبي داود (٢٦٤٥) والترمذي (١٦٠٤) وغيره: «**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كلِّ مسْلِمٍ يقِيم بَيْنَ أَظْهرِ المشْرِكِينَ قَالوا: يَا رَسولَ الله، لِمَ قَالَ لَا تَرَاءَى نَارَاهمَا**».

وكل دليل يدل على استمرارية الهجرة مثل حديث: «**لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ**» تدل على هذا التقسيم.

قال البغوي في شرح السنة (١٠/ ٢٧٣): (لا تنقطع الهجرة) أراد بها من أسلم من دار الكفر عليه أن يفارق تلك الدار، ويخرج من بينهم إلى دار الإسلام. اهـ

وهنالك توجيه آخر لهذه الفقرة وهو أن هذا الدنيا دار عمل بالإسلام والإيمان دار تكليف والآخرة دار الجزاء، قال الله : ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[التوبة: ١٠٥]، وسيأتي في باب الإيمان الكلام على مسمى الإيمان والإسلام والفرق بينهما إن شاء الله تعالى.

[أحكام أهل الملة]

٦٠- وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيهَا مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ فِي أَحْكَامِهِمْ وَمَوَارِيثِهِمْ وَذَبَائِحِهِمْ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ.

وَ لَا تَشْهَدُ لِأَحَدٍ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى يَأْتِيَ بِجَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ قَصَّرَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ نَاقِصَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتُوبَ، وَاعْلَمْ أَنَّ إِيمَانَهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، تَامُّ الْإِيمَانِ، أَوْ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، إِلَّا مَا ظَهَرَ لَكَ مِنْ تَضْيِيعِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.

الشرح:

هذا هو الواجب والصحيح الذي لا محيد عنه لمن أظهر الإسلام والإيمان؛ فيعاملون بظواهرهم وتجري عليهم أحكام المسلمين وبواطنهم إلى الله ففي حديث أنس قال: قال رسول الله : «**أمِرْت أَنْ أقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقولوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَإِذَا قَالوهَا، وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلوا قِبْلَتَنَا، وَذَبَحوا ذَبِيحَتَنَا فَقَدْ حَرمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤهمْ وَأَمْوَالهمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابهمْ عَلَى اللهَ**» أخرجه البخاري (٣٩٢).

وفي رواية: «**فَهوَ الْمُسْلِمُ، لَهُ مَا لِلمُسْلِمِ وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ**» يغسل ويكفن ويصلى عليه، ويرث ويورث، ويؤكل من ذبيحته، ويحب ويوالي بقدر ما عنده من الخير، ويعصم دمه وماله وعرضه.

لكن مع ذلك من المعلوم أن من تعاطى شيئًا من المحرمات أو ترك بعض الواجبات التي لا تخرجه من الإسلام أن إيمانه ينقص بقدر ما عنده.

والدلالة في الحديث: أن أهل القبلة من أمة محمد يجرون على ظواهرهم في أحكام المواريث والنكاح والبيع والشراء والذبائح وعصمة النفس والصلاة على أمواتهم إلى غير ذلك مما في الباب، وعمر يقول: فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أَمِنَّاهُ، وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ. أخرجه البخاري (٢٦٤١).

وهذا رد على الخوارج الذين يكفرون المسلمين، ويرون حرمة ذبائحهم، ومناكحتهم، وغير ذلك من أمور البيع والشراء، وربما استباحوا أعراضهم وأموالهم؛ فإلى الله المشتكى من غربة الدين وتسلط المبطلين وانتشار الفساد في الأرض، وليس في هذا الحكم أنها لا تقام الحدود والتعزيرات بل هذه لاحقة لكل من استوجب شيئًا من ذلك والله المستعان.

قوله: (ولا نشهد لأحد بحقيقة الإيمان حتى يأتي بجميع شرائع الإسلام) في هذه الفقرة النهي عن التزكية، والله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم:٣٢]، ولكن نرجوا للمحسنين ونخاف على المسيئين، ولأن الشهادة لا تكون إلا على أمر واضح جلي، ولا علم لنا بها في قلوب العباد ولا سرائرهم فنشهد لهم بما نعلم منهم والله أعلم.

قوله: (فإن قصر في شيء من ذلك كان ناقص الإيمان حتى يتوب... الخ) لأن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، والسيئات والمعاصي أما إن تكون بفعل

المحظور أو ترك المأمور الواجب فمن وقع في المحضور أو ترك الواجب من المأمور نقص إيمانه بقدر بعده عن دين الله الحق.

والتوبة تهدم ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وقد تقدم الكلام بما لا داعي لتكراره.

قوله: (**واعلم أن إيمانه إلى الله تعالى تام... الخ**) من رأيت منه خيرًا احمله على الخير ولا تنقب عما في الصدور، فإن الله لم يأمر بهذا ففي حديث أسامة بن زيد في الصحيحين البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦) واللفظ له: «**أَشَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَكَانَ قَالَهَا حَقًّا**»، ومع ذلك السرائر إلى الله ، فلا نجزم لأحد بكمال الإيمان ولا بجنة ولا نار، ولكن نرجوا للمحسنين ونخاف على المسيئين.

ومن أتى بشرائع الإيمان الواجبة ظاهرًا فله مالنا وعليه ما علينا، وسريرته إلى الله ، ومن فرط في الواجبات أو في شيء منها نقص من إيمانه بقدر تفريطه وبعده، ومع ذلك يوكل العباد إلى الله والواجب علينا أن نعاملهم بما ظهر منهم، وعلى أولياء الأمور أن يقيموا الحدود ويظهروا الشرائع حتى يستقيم أمر الدين، قال الله : ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١١]، ففي الآية حمل الناس على ما ظهر منهم.

[الصلاة على من مات من أهل القبلة]

٦١- وَالصَّلَاةُ عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ سُنَّةٌ، وَ الْمَرْجُومُ، وَالزَّانِي، وَالزَّانِيَة، والَّذِي يَقْتُلُ نَفْسَهُ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَالسَّكْرَانُ، وَغَيْرُهُ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِم سُنَّةٌ.

الشرح:

هذا هو الحق والواجب أن من مات من أهل الإسلام سواء كان من الطائعين أم من عصاة المسلمين، فإنه يصلي عليه ويغسل ويكفن وتجري عليه أحكام أهل الإسلام.

وأما ما جاء من حديث جابر بن سمرة عند مسلم (٩٧٨): أن رجلًا قتل نفسه فأتي به إلى رسول الله ليصل عليه فلم يصل عليه.

وما جاء من حديث أبي قتادة في الرجل الذي عليه دين حيث قال: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**» أخرجه البخاري (٢٢٨٩) فهو محمول على الزجر ولو كانت الصلاة لا تجوز عليه لما قال: «**صَلُّوا عَلَيْهِ**».

وقد صلى رسول الله على الغامدية كما في مسلم (١٦٩٦) من حديث عمران بن حصين بعد أن رجمت فقال عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت، قال: «**لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لله تَعَالَى؟**».

قال النووي في شرح مسلم تحت حديث جابر بن سمرة (٧/ ٤٧):

وفي هذا الحديث دليل لمن يقول: لا يصلى على قاتل نفسه لعصيانه، وهذا مذهب عمر بن عبدالعزيز والأوزاعي، وقال الحسن والنخعي وقتادة ومالك وأبوحنيفة والشافعي وجماهير العلماء: يصلى عليه، وأجابوا عن هذا الحديث بأن النبي لم يصل عليه بنفسه زجرا للناس عن مثل فعله، وصلت عليه الصحابة، وهذا كما ترك النبي الصلاة في أول الأمر على من عليه دين زجرا لهم عن التساهل في الاستدانة وعن إهمال وفائه، وأمر أصحابه بالصلاة عليه فقال : «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ». قال القاضي : مذهب العلماء كافة الصلاة على كل مسلم ومحدود ومرجوم وقاتل نفسه وولد الزنا، وعن مالك وغيره: أن الإمام يجتنب الصلاة على مقتول في حد، وأن أهل الفضل لا يصلون على الفساق زجرا لهم، وعن الزهري: لا يصلى على مرجوم، ويصلى على المقتول في القصاص، وقال أبوحنيفة: لا يصلى على محارب، ولا على قتيل الفئة الباغية، وقال قتادة: لا يصلى على ولد الزنا، وعن الحسن: لا يصلى على النفساء تموت من زنا ولا على ولدها، ومنع بعض السلف الصلاة على الطفل الصغير.

واختلفوا في الصلاة على السقط، فقال بها فقهاء المحدثين وبعض السلف إذا مضى عليه أربعة أشهر، ومنعها جمهور الفقهاء حتى يستهل وتعرف حياته بغير ذلك.

وأما الشهيد المقتول في حرب الكفار فقال مالك والشافعي والجمهور: لا يغسل ولا يصلى عليه، وقال أبوحنيفة: يغسل ولا يصلى عليه، وعن الحسن: يغسل ويصلى عليه، والله أعلم.

وقال في شرح حديث بريدة في صلاة رسول الله : قوله: (ثم أمر بها فصلى عليها ثم دفنت) وفي الرواية الثانية: (أمر بها النبي فرجمت ثم صلى عليها، فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟!!).

أما الرواية الثانية فصريحة في أن النبي صلى عليها.

وأما الرواية الأولى فقال القاضي عياض هي بفتح الصاد واللام عند جماهير رواة صحيح مسلم، قال: وعند الطبري بضم الصاد، قال: وكذا هو في رواية ابن أبي شيبة وأبي داود، قال: وفي رواية لأبي داود ثم أمرهم أن يصلوا عليها، قال القاضي: ولم يذكر مسلم صلاته على ماعز.

وقد ذكرها البخاري، وقد اختلف العلماء في الصلاة على المرجوم فكرهها مالك وأحمد للإمام ولأهل الفضل دون باقي الناس، ويصلي عليه غير الإمام وأهل الفضل، قال الشافعي وآخرون: يصلي عليه الإمام وأهل الفضل وغيرهم، والخلاف بين الشافعي ومالك إنما هو في الإمام وأهل الفضل، وأما غيرهم فاتفقا على أنه يصلي، وبه قال جماهير العلماء، قالوا: فيصلى على الفساق والمقتولين في الحدود والمحاربة وغيرهم، وقال الزهري: لا يصلي أحد على المرجوم وقاتل نفسه، وقال قتادة: لا يصلى على ولد الزنا، واحتج الجمهور بهذا الحديث.

وفيه دلالة للشافعي أن الإمام وأهل الفضل يصلون على المرجوم كما يصلي عليه غيرهم، وأجاب أصحاب مالك عنه بجوابين:

أحدهما: أنهم ضعفوا رواية الصلاة لكون أكثر الرواة لم يذكروها.

والثاني: تأولوها على أنه أمر بالصلاة أو دعا فسمى صلاة على مقتضاها في اللغة، وهذان الجوابان فاسدان؛ أما الأول فإن هذه الزيادة ثابتة في الصحيح، وزيادة

الثقة مقبولة، وأما الثاني فهذا التأويل مردود لأن التأويل إنما يصار إليه إذا اضطربت الأدلة الشرعية إلى ارتكابه، وليس هنا شيء من ذلك، فوجب حمله على ظاهره. والله أعلم. اهـ

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٣٧٧): وقوله: (وعلى من مات منهم) أي: ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار، وإن كان يستثنى من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق، وكذا قاتل نفسه، خلافا لأبي يوسف، لا الشهيد، خلافا لمالك والشافعي رحمهما الله، على ما عرف في موضعه. لكن الشيخ إنما ساق هذا لبيان أنا لا نترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور، لا للعموم الكلي، ولكن المظهرون للإسلام قسمان: إما مؤمن، وإما منافق، فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له، ومن لم يعلم ذلك منه صلي عليه. فإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه، وصلى عليه من لم يعلم نفاقه، وكان عمر لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة؛ لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين، وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله عن الصلاة على المنافقين، وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره، وعلل ذلك بكفرهم بالله ورسوله، فمن كان مؤمنا بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه، ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية الفجورية ما له، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾[محمد:١٩].

فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فالتوحيد أصل الدين، والاستغفار له وللمؤمنين كماله، فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات، إما واجب وإما مستحب، وهو على نوعين: عام وخاص، أما العام فظاهر،

كما في هذه الآية، وأما الدعاء الخاص، فالصلاة على الميت، فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له، كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة ، قال: سمعت رسول الله يقول: «**إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ**»، ولو كان مسلمًا ظاهرًا لم ننقب عن قلبه، بل يعاملون معاملة المسلمين ويتولونه، وإذا مات يغسلونه ويكفنونه ويصلون عليه، ويدفنونه في مقابر المسلمين، وذبائحم حلال وإن كان فاسقًا. اهـ

[الخروج من الإسلام]

٦٢- وَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مِنَ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَرُدَّ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ يَرُدَّ شَيْئًا مِنْ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوْ يَذْبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ يُصَلِّيَ لِغَيْرِ اللهِ، وَإِذَا فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمُسْلِمٌ بِالِاسْمِ لَا بِالْحَقِيقَةِ.

الشرح:

هذا هو مذهب أهل السنة وطريقهم اللاحب أنهم لا يخرجون أحدًا من الإسلام ولا يكفرونه؛ إلا إذا حدث منه ما يوجب له ذلك؛ لأن مسألة التبديع والتكفير هي من أحكام الله ؛ فلا نكفر إلا من كفره الله سبحانه وتعالى ورسوله ، وذلك بتعاطيه لشيء من المكفرات القولية أو الفعلية أو الاعتقادية، كما هو معلوم من أسباب التكفير.

ثم اعلم أن من وقع في مكفر لا يحكم على عينه بالكفر؛ إلا بعد توفر الشروط وانتفاء الموانع، وأسباب التكفير، ونواقضه كثيرة، وإنما أشار هنا إلى بعضها؛ فمن رد آية من كتاب الله، فقال: أنا لا أؤمن بها، أو لا أصدق بما فيها، كفرَ، وأما من رد شيئًا من الأحاديث إن كان متأولًا فلا يكفر، وإنما يفسق وإن كان غير متأول كفر، كما قال ابن خزيمة: من رد حديثًا يعتقد صحته؛ فقد كفر.

قوله: (**أو يصلي لغير الله**) كأن يصلي لقبر أو شخص فيركع له أو يسجد، أو يدعوه فيما لا يقدر عليه إلا الله ، كما يفعل كثير من عباد القبور الآن[١]. كل هذا من الشرك الأكبر والعياذ بالله، قال الله : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[الكوثر:٢].

والذبح لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة يقول الله : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[الكوثر:١-٢].

وفي حديث علي قال: قال رسول الله : «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله**» أخرجه مسلم (١٩٧٨).

ولا فرق بين من يذبح لصنم أو مَلَكٍ، أو نبي، أو جني؛ فكله شرك بالله العظيم حيث لم يفرق الله بين من يعبد الكواكب والشمس والقمر، وبين من يعبد الملائكة وعيسى وسماهم مشركين، وأوجب قتالهم وحكم عليهم بالخلود في النار، ولو تقرب إلى غير الله بذباب لكان مشركًا إذ لا يكون النظر إلى حقارة الشيء، لكن ينظر إلى صرف العبادة.

وقد جاء موقوفًا عن سلمان قال: دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل آخر النار في ذباب، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: مر رجلان ممن كان قبلكم على ناس معهم صنم لا يمر بهم أحد إلا قرب لصنمهم؛ فقالوا لأحدهم: قرب شيئًا قال: ما معي شيء، قالوا: قرب ولو ذبابًا فقرب ذبابًا ومضى فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب شيئًا، قال: ما كنت لأقرب لأحد دون الله فقتلوه فدخل الجنة.

---

(١) أما دعاء الحي الحاضر القادر فجائز.

قوله: (**وإذا فعل شيئًا من ذلك وجب عليك أن تخرجه من الإسلام**) لأن الله قد بيّن أن هذه عبادات، ومن صرفها لغيره كان كافرًا، وكذا بيّن ذلك رسول الله .

وإنما ذكر بعض نواقض الإسلام وهو رد آية من كتاب الله أو حديثًا من أحاديث وآثار النبي مع اعتقاده لصحته، وقد جاء عن ابن خزيمة من ردَّ آية من كتاب الله أو حديثًا يعتقد صحته فقد كفر ونواقض الإسلام كثيرة منها النواقض القولية، والنواقض الفعلية، والنواقض القلبية.

وقد أنكر العلماء على الطحاوي لما قال: ولا يخرج أحد من الإسلام إلا بجحود ما أدخله فيه، إذ نواقض الإسلام أعم من الجحود.

وردُّ الأدلة من الكتاب والسنة مشاقة لله ، وللرسول ، ولمنهج السلف الصالح، وقد قال الله : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء: ١١٥].

قوله: (**بالاسم لا بالحقيقة**) قول غير صحيح، وقد رده الشيخ النجمي كما في إرشاد الساري (١١٤) حيث قال: يقصد بأنَّه غير كامل الإيمان والإسلام، لكن نفي الحقيقة يقع على نفي الماهية، فلا ينبغي أن يقال ذلك، بل يقال كما سبق أن بيَّنَّا بأنَّه مسلمٌ ناقص الإسلام أو فاسقٌ. اهـ

والقول بخروج المسلم من الإيمان بالمعاصي قول الخوارج، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، أي لا مؤمن ولا كفار في الدنيا قول المعتزلة، والقول بعدم تأثير المعاصي على الإيمان قول المرجئة، والقول الحق أن الإيمان ينقص بالمعاصي ويزيد بالطاعات، على ما تقدم بيانه.

[إثبات صفة الأصابع لله عز وجل]

٦٣- وَكُلُّ مَا سَمِعْتَ مِنَ الْآثَارِ شَيْئًا مِمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ عَقْلُكَ، نَحْوُ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ».

الشرح:

الواجب على المسلم التسليم والإنقياد والقبول على ما تقرر وتقدم بيانه، قال الله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥].

ففي هذا الباب باب الأسماء والصفات يجب التصديق والإيمان والإقرار بكل ما أخبر به النبي مع اعتقاد أن الله ليس كمثله شيء لا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في ذاته، ولا في أفعاله، ثم شرع في ذكر بعض أحاديث الصفات، ومنها ما أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبدالله بن عمرو أن رسول الله قال: «إِنَّ قلوبَ بَنِي آدَمَ كلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يصَرِّفه حَيْث يَشَاء» ثمَّ قَالَ رَسول الله : «اللهمَّ مصَرِّف الْقلوبِ صَرِّفْ قلوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». والحديث على ظاهره فيه إثبات صفة الأصابع لله على ما يليق بجلاله.

وقد جاء في حديث النواس بن سمعان عند أحمد (٤/ ١٨٢) نحوه قال: قال رسول الله : «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَه وَإِنْ

شَاءَ أَزَاغَه»، وَكَانَ رَسول الله يَقول: «يَا مثَبِّتَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبَنَا عَلَى دِينِكَ» قَالَ: «وَالمِيزَان بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَع أَقْوَامًا وَيَخْفِض آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

وفي حديث عبدالله بن مسعود عند البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦): قال: جَاءَ حَبْرٌ إِلَى رَسُولِ الله فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله يَضع السَّمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرْضَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ وَالأَنْهَارَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثمَّ يَقول بِيَدِهِ: أَنَا المَلِك، فَضَحِكَ رَسول الله وَقَالَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[الزمر:٦٧].

فالأصابع ثابتة لله أصابع حقيقية تليق بجلاله ليست كأصابع المخلوقين، بل هو سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

ثم اعلم أن الأصابع معاني تقوم بغيرها فإضافتها إلى الله إضافة صفة إلى موصوف والواجب على المسلم إجراء النصوص على ظواهرها وعدم التعرض لها بالتحريف والتعطيل والتأويل.

قال ابن القيم كما في المختصر (١/ ١٦٦): وأنه يضع السموات على أصبع والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع، فأي يد للخلق وأي أصبع تشبه هذه اليد وهذه الأصبع حتى يكون إثباتها تشبيهًا وتمثيلًا؟ فقاتل الله أصحاب التحريف والتبديل ماذا حرموه من الحقائق الإيمانية والمعارف والإلهية؟ وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان ونخالة الأفكار. اهـ

وقد أجلب المبتدعة على أهل السنة شبهة هنا وهي أن إثبات الأصابع بظاهر الحديث يستلزم الحلول قال الشيخ ابن عثيمين في القواعد المثلى: وقد أخذ السلف أهل السنة بظاهر الحديث، وقالوا: إن لله تعالى أصابع حقيقة، نثبتها له كما

أثبتها له رسوله . ولا يلزم من كون قلوب بني آدم بين إصبعين منها أن تكون مماسة لها، حتى يقال: إن الحديث موهم للحلول فيجب صرفه عن ظاهره. فهذا السحاب مسخر بين السماء والأرض وهو لا يمس السماء ولا الأرض. ويقال: بدر بين مكة والمدينة، مع تباعد ما بينها وبينهما. فقلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن حقيقة، ولا يلزم من ذلك مماسة ولا حلول. اهـ

[إثبات نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر]

٦٤- وَقَوْلِهِ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا». وَ«يَنْزِلُ يَوْمَ عَرَفَةَ». وَ«يَنْزِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

الشرح:

صح هذا عن جمع من الصحابة منها في الصحيحين حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) ولفظه: أن رسول الله قال: «يَنْزِل رَبّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كل لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثلث اللَّيْلِ الْآخِر، يَقول: مَنْ يَدْعونِي فَأَسْتَجِيبَ لَه، مَنْ يَسْأَلنِي فَأعْطِيَه، مَنْ يَسْتَغْفِرنِي فَأَغْفِرَ لَه». ومن حديث أبي سعيد أخرجه مسلم (٧٥٨، ١٧٢)، وصفة النزول إلى السماء الدنيا ثابتة لله وهي من الصفات الفعلية؛ لأن تعلقها بمشيئة الله .

قال أبوبكر بن أبو داود في حائيته:

وَقُلْ يَنْزِلُ الجَبَّارُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ... بِلَا كَيْفَ جَلَّ الوَاحِدُ المُتَمَدَّحُ
إِلَى طَبَقِ الدُّنْيَا يَمُنُّ بِفَضْلِهِ ... فَتُفْرَجُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُفْتَحُ
يَقُولُ أَلَا مُسْتَغْفِرٌ يَلْقَ غَافِرًا ... وَمُسْتَمْنِحٌ خَيْرًا وَرِزْقًا فَيُمْنَحُ
رَوَى ذَاكَ قَوْمٌ لَا يُرَدُّ حَدِيثُهُمْ ... أَلَا خَابَ قَوْمٌ كَذَّبُوهُمْ وَقُبِّحُوا

قوله: (ينزل يوم عرفة) يدل عليه حديث عائشة عند مسلم (١٣٤٨) بلفظ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يعتِقَ الله فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّه لَيَدْنو، ثمَّ يبَاهِي بِهِمُ المَلَائِكَةَ؛ فَيَقول: مَا أَرَادَ هَؤلَاءِ».

قوله: (**وينزل يوم القيامة**) يدل عليه قول الله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[الأنعام: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر:٢٢] فيجب علينا الإيمان بنزول الله نزولًا حقيقيًا يليق بجلاله وقد ذهب المبتدعة إلى نزول رحمته، وكل هذه التأويلات باطلة يردها المعقول والمنقول ففي الحديث ينزل ربنا وفيه أنه يقول من يدعوني من يسألني من يستغفرني ولا يجوز هذا لملك، ولا لغير ذلك إلا لله ، بل قائل هذا القول هو الله ، وأما أوامر الله فهي نازلة في كل وقت وحين، فتخصيصها بهذه الأوقات من الخرص.

وأما الرحمة إن أراد بها صفته فالصفة لا تنفك عن الذات ونزول رحمته مقترن بنزول ذاته، وإن أراد بها الرحمة المخلوقة فالمخلوق لا يقول من يستغفرني من يسألني من يدعوني قال الله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران:١٣٥] على ما تقدم.

وهنا مسألة وهي هل نقول: ينزل بذاته؟

فنقول جاء وينزل وننتهي عن القول ينزل بذاته كما لا نقول ينزل بعلمه بل نسكت ولا نتفاصح على الرسول بعبارة مبتدعة والله أعلم. اهـ السير (٢/ ٣٣١).

[إثبات صفة القدم لله عزوجل]

٦٥- وَ«أَنَّ جَهَنَّمَ لَا يَزَالُ يُطْرَحُ فِيهَا حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا قَدَمَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ».

الشرح:

الحديث أخرجه البخاري (٤٨٤٩ و٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦) عن أبي هريرة بلفظ: «**فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ، فَيَضَعُ قَدَمَهُ عَلَيْهَا**». وجاء من حديث أنس أخرجه البخاري (٦٦٦١)، ومسلم (٢٨٤٨). وجاء من حديث أبي سعيد عند البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

وفي الحديث إثبات صفة القدم لله وصفة الرجل على ما يليق بجلاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، وفسر ابن عباس وأبوموسى بأن الكرسي موضع قدمي الرحمن، وهي قدم حقيقية تليق بالله .

ويثبت لله صفة الساق، قال الله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[القلم:٤٢].

والساق الذي يكشف عنه هو ساقه سبحانه وتعالى يبين ذلك حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم فيكشف عن ساقه، وفي حديث أبي سعيد وقد تقدم في باب الشفاعة فيكشف الرب عن ساقه، فهو ساق حقيقي يليق بجلاله، فتوارد الأخبار في إثبات الرجل والقدم والساق يدل على أنها قدم حقيقته لا مجازية كما يقول المبتدعة.

وقال في شفاء العليل (١/ ١٣١): من لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له وأنه نزل إلى الشجرة فكلم موسى كلمه منها وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها، وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده وأنه يتجلى لهم يضحك وأنه يريهم نفسه المقدسة وأنه يضع رجله على النار فيضيق بها أهلها وينزوي بعضها إلى بعض إلى غير ذلك من شؤنه وأفعاله التي من لم يقر بها لم يقر بأنه على كل شيء قدير. اهـ

وإنما يضع الجبار جل وعز قدمه عليها لأنه وعد بملئها، قال الله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[السجدة:١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[ق:٣٠].

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد في الصحيحين البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٧٤٦)، قال: «تَحَاجَّتِ الجَنَّة وَالنَّار فَقَالَتِ النَّار أوثِرْت بِالمتَكَبِّرِينَ وَالمتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّة فَمَا لِي لَا يَدْخلنِي إِلاَّ ضعَفَاء النَّاسِ وَسَقَطهمْ وَغِرَّتهمْ قَالَ الله لِلْجَنَّةِ إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَم بِكِ مَنْ أَشَاء مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أعَذِّب بِكِ مَنْ أَشَاء مِنْ عِبَادِي. وَلِكلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكمَا مِلْؤهَا فَأَمَّا النَّار فَلَا تَمْتَلِئ حَتَّى يَضَعَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى رِجْلَه تَقول قَطْ قَطْ قَطْ. فَهنَالِكَ تَمْتَلِئ وَيزْوَى بَعْضهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلِم الله مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الجَنَّة فَإِنَّ الله ينْشِئ لَهَا خَلْقًا».

[إثبات صفة الهرولة لله عز وجل على ما يليق بجلاله]

٦٦- وَقَوْلِ الله تَعَالَى لِلْعَبْدِ: «إِنْ مَشَيْتَ إِلَيَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْكَ».

وَقَوْلِهِ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ يَوْمَ عَرَفَةَ».

الشرح:

جاء بمعنى حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٦٧٥) بلفظ: «يَقول الله : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَه حِينَ يَذْكرنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْته فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْته فِي مَلَإٍ هم خَيْرٌ مِنْهمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْت إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْت مِنْه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْته هَرْوَلَةً».

وتثبت صفة الهرولة لله على ما جاء في الحديث، فأهل السنة يثبتون لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، والهرولة معنى يقوم بغيره؛ فإضافته إلى الله إضافة صفة إلى موصوف وإذا أضيفت الصفة إلى الله أو قيدت به أو خصصت به أنتفت شبهة المعطلة على أن هذا يستلزم التمثيل، فالله موصوف بهرولة تليق بجلاله.

وهي من الصفات الفعلية، قال ابن عثيمين في القواعد المثلى في رده على شبهة المبتدعة حول هذا الحديث: وهذا الحديث كغيره من النصوص الدالة على قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى، وأنه سبحانه فعال لما يريد، كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر:

٢٢]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام:١٥٨]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥].

وقوله : «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ» أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة .
وقوله : «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ» أخرجه البخاري (١٤١٠) مسلم (١٠١٤) عن أبي هريرة ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على قيام الأفعال الاختيارية به تعالى.

فقوله في هذا الحديث: «**تقربت منه**» و«**أتيته هرولة**» من هذا الباب.

والسلف أهل السنة والجماعة يجرون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله من غير تكييف ولا تمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (شرح حديث النزول) من مجموع الفتاوى (٥/ ٤٦٦): وأما دنوه نفسه وتقربه من بعض عباده فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة ونزوله واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث والنقل عنهم بذلك متواتر. اهـ

فأي مانع يمنع من القول بأنه يقرب من عبده كيف يشاء مع علوه؟ وأي مانع يمنع من إتيانه كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل؟ وهل هذا إلا من كماله أن يكون فعالًا لما يريد على الوجه الذي به يليق؟

وذهب بعض الناس إلى أنه قوله تعالى في هذا الحديث القدسي: «**أتيته هرولة**» يراد به سرعة قبول الله تعالى وإقباله على عبده المتقرب إليه المتوجه بقلبه وجوارحه، وأنّ مجازاة الله للعامل له أكمل من عمل العامل.

وعلل ما ذهب إليه بأن الله تعالى قال: «**ومن أتاني يمشي**» ومن المعلوم أن المتقرب إلى الله الطالب للوصول إليه لا يتقرب ويطلب الوصول إلى الله تعالى بالمشي فقط، بل تارة يكون بالمشي كالسير إلى المساجد ومشاعر الحج والجهاد في سبيل الله ونحوها، وتارة بالركوع والسجود ونحوها، وقد ثبت عن النبي : «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ**» أخرجه الترمذي (٣٥٧٩) عن عمرو بن عبسة .

بل قد يكون التقرب إلى الله تعالى وطلب الوصول إليه والعبد مضطجع على جنبه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٩١]، وقال النبي لعمران بن حصين: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**» أخرجه البخاري (١١١٧).

قال: فإذا كان كذلك صار المراد بالحديث بيان مجازاة الله تعالى العبد على عمله، وأنّ من صدق في الإقبال على ربه وإن كان بطيئًا جازاه الله تعالى بأكمل من عمله وأفضل، وصار هذا هو ظاهر اللفظ بالقرينة الشرعية المفهومة من سياقه.

وإذا كان ظاهر اللفظ بالقرينة الشرعية لم يكن تفسيره به خروجًا به عن ظاهره ولا تأويلًا كتأويل أهل التعطيل، فلا يكون حجة لهم على أهل السنة ولله الحمد. انتهى كلام الشيخ العثيمين.

[إثبات الصورة لله عز وجل]

٦٧- وَقَوْلِهِ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ».

الشرح:

الصورة ثابتة لله صورة تليق بجلاله ففي حديث أبي هريرة المخرج في الصحيحين وغيرهما في البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) ولفظه: «خَلَقَ الله آدَمَ عَلَى صورَتِهِ طوله سِتّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَه قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ المَلَائِكَةِ جلوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يحَيّونَكَ؛ فَإِنهَا تحِيَّتكَ وَتحِيَّة ذرِّيَّتكَ، فَقَالَ: السَّلَام عَلَيْكمْ، فَقَالوا: السَّلَام عَلَيْكَ وَرَحْمَة الله، فَزَادوه وَرَحْمَة الله، فَكلّ مَنْ يَدْخل الجَنَّةَ عَلَى صورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلِ الخَلْق يَنْقص بَعْد حَتَّى الآنَ».

وأخرج مسلم في صحيحه (٢٦١٢) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «إِذَا قَاتَلَ أَحَدكمْ أَخَاه فَلْيَجْتَنِبِ الوَجْهَ؛ فَإِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صورَتِهِ».

وفي حديث ابن عمر عند ابن أبي عاصم (٥٢٩)، وعبدالله بن أحمد في السنة (٤٩٨)، وابن خزيمة في التوحيد (٤١)، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٠)، والآجري في الشريعة (٧٢٥)، والدارقطني في الصفات (٤٨)، والحاكم في المستدرك (٢/٣١٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٤٠): «لَا تُقَبِّحُوا الْوَجْهَ؛ فَإِنَّ ابْنَ آدَمَ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَزَّ» من طريق جرير بن عبدالحميد عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عمر به، وقد أعل الحديث بعنعنة الأعمش وحبيب بن أبي ثابت، ومخالفة الثوري

للأعمش حيث أخرج ابن خزيمة (٤١) من طريق سفيان عن حبيب عن عطاء مرسلًا.

وأخرج عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٥٣٦)، وابن أبي عاصم (١/ ٢٣٠)، والدارقطني في الصفات (٤٩)، من طريق عبدالله بن لهيعة عن أبي يونس سليم بن جبير عن أبي هريرة مرفوعًا بنحو حديث ابن عمر وهو منكر؛ لأن الحديث مخالف لما في الصحيح عن أبي هريرة .

والصورة ثابتة لله على ما تقدم في حديث أبي هريرة عند الشيخين البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، ومن حديث أبي سعيد عند البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣): «فَيَأْتِيهُمْ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ» الحديث.

قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (١٤٢٩) ط/ أضواء السلف: ومن هذا حديث الصورة، وقوله: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ» لم يرد به تشبيهه الرب وتمثيله بالمخلوق، وإنما أراد به تحقيق صفة الوجه وإثبات السمع والبصر والكلام صفة ومحلًا والله أعلم. اهـ

وراجع للفائدة عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن للشيخ حمود بن عبدالله بن حمود التويجري .

[قول النبي ﷺ رأيت ربي في أحسن صورة]

٦٨- وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنِّي رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ».

الشرح:

هي رؤية منامية، وقد خرج طرق الحديث الإمام الدارقطني في كتابه الرؤية من رقم (٢٢٧) وحتى رقم (٢٦٧) والحديث صحيح بمجموعه ونذكر منها هنا حديث معاذ قال: أَبْطَأَ عَنَّا رَسُولُ الله فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَطْلُعَ، ثُمَّ خَرَجَ، وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى بِنَا صَلَاةً تَجَوَّزَ فِيهَا، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: «عَلَى مَصَافِّكُمْ»، فَثَبَتَ الْقَوْمُ عَلَى مَصَافِّهِمْ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «أُنَبِّئُكُمْ بِالَّذِي بَطَّأَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ، إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَا قَضَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِي، وَإِنِّي رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي مَنَامِي، فَرَأَيْتُهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ فِيهِ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّي، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي، قَالَ: فِيمَا يَخْتَصِمُ فِيهِ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ، فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَوَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ، فَعَرَفْتُهُ، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ، وَمَشْيٌ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، قَالَ: فِيمَ؟ قَالَ لِي: سَلْ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: قُلْتُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ، أَسْأَلُكَ اللهُمَّ أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي وَتَتُوبَ عَلَيَّ، وَأَسْأَلُكَ اللهُمَّ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ».

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٣/ ٣٨٧): وكذلك الحديث الذي رواه أهل العلم أنه قال: «**رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ**» يروى من طريق ابن عباس ومن طريق أم الطفيل وغيرهما وفيه: «**أَنَّهُ وَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ عَلَى صَدْرِي**» هذا الحديث لم يكن ليلة المعراج، فإن هذا الحديث كان بالمدينة، وفي الحديث: أن النبي نام عن صلاة الصبح، ثم خرج إليهم وقال: «**رَأَيْتُ كَذَا وَكَذَا**».

وهو في رواية من لم يصل خلفه إلا بالمدينة كأم الطفيل وغيرها، والمعراج إنما كان من مكة باتفاق أهل العلم، وبنص القرآن والسنة المتواترة كما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء:١].

فعلم أن هذا الحديث كان رؤيا منام بالمدينة كما جاء مفسَّرًا في كثير من طرقه (إنه كان رؤيا منام) مع أن رؤيا الأنبياء وحي لم يكن رؤيا يقظة ليلة المعراج. اهـ

ولما سئل شيخ الإسلام عن حكم رؤية الله في المنام، قال كما في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩٠): وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صور متنوعة على قدر إيمانه ويقينه؛ فإذا كان إيمانه صحيحا لم يره إلا في صورة حسنة وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة ولها (تعبير وتأويل) لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق. اهـ

وقد ذكرت شيئًا نحو هذا في كتابي رؤية المؤمنين للجبار في المحشر ودار القرار .

[التسليم لما صح من الأحاديث وعدم الرد لها]

٦٩- وَأَشْبَاهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ. فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّفْوِيضِ وَالرِّضَا وَلَا تُفَسِّرْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ بِهَوَاكَ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهَذَا وَاجِبٌ؛ فَمَنْ فَسَّرَ شَيْئًا مِنْ هَذَا بِهَوَاهُ أَوْ رَدَّهُ فَهُوَ جَهْمِيٌّ.

الشرح:

وهذه الأحاديث التي ذكرها هن إشارة إلى ما عداها، فالقول في أدلة الصفات واحد حيث يجب أن تتلقى بالتسليم والتصديق والرضا بأمور الغيب وبالأخص منها ما يتعلق بصفات الله فمن المعلوم لدى الخاص والعام أنه لا يعرف كيف هو إلا هو، وإذا لم يقع الاستسلام والتصديق وقع العبد في الضلال البعيد والهوة السحيقة، نسأل الله السلامة.

القول في التفويض:

وأما قوله: (**والتفويض**) التفويض على قسمين:

ممدوح ومذموم، أما الممدوح فهو تفويض علم كيفية وكنه الصفة وهذا هو المراد من كلام أهل السنة والجماعة على ما تقدم كلام مالك، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وأما تفويض المعاني فهو من قول أهل البدع، بل من أخبث الأقوال، وبه توصل المعتزلة إلى هذا الباطل العظيم من تعطيل الصفات وصرف اللفظ عن ظاهره، ولهذا وصف شيخ الإسلام المفوضة بأنهم شر أهل البدع، وسماهم ابن القيم

بأهل التجهيل حيث وطريقتهم اتهام لله ولكتابه ولرسوله وللصحابة رضوان الله عليهم وبنوا هذا المذهب على أصلين.

قال ابن القيم في المختصر (١/ ١٦٠): أحدهما أن هذه النصوص من المتشابه، والثاني أن للمتشابه تأويلًا لا يعلمه إلا لله فنتج من هذين الأصلين استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان وإنهم كانوا يقرأون هذه الآيات المتعلقة بالصفات ولا يعرفون معنى ذلك ولا ما أريد به ولازم قولهم أن رسول الله كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا: تجري على ظواهرها وتأويلها بما يخالف الظواهر باطل ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله. اهـ

ومن تلبيسهم أنهم يظهرون للناس أنهم أهل السنة والجماعة، وأن التفويض هو طريقة السلف الصالحين من الصحابة والتابعين، ومعنى هذا أن الصحابة كانوا يقرأون الألفاظ ولا يعرفون معناها، ولا يعملون بمقتضاها، مع أن الله أمر بتدبر القرآن وتعقله وتفهمه.

مذاهب الناس في باب الأسماء والصفات:

أولاً: مذهب السلف الصالح في الأسماء والصفات:

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٥/ ١٩٥): ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. اهـ

ثانيًا: مذهب أهل البدع في الأسماء والصفات:

١- مذهب الجهمية أتباع جهم بن صفوان: لا يثبتون الأسماء ولا الصفات قال شيخ الإسلام في التدمرية : وأعلم أن الجهمية المحضة كالقرامطة ومن ضاهاهم: ينفون عنه تعالى اتصافه بالنقيضين حتى يقولون ليس بموجود ولا ليس بموجود، ولا حي ولا ليس بحي، ومعلوم أن الخلوَّ عن النقيضين ممتنع في بدائه العقول كالجمع بين النقيضين. وآخرون وصفوه بالنفي فقط، فقالوا: ليس بحي ولا سميع ولا بصير، وهؤلاء أعظم كفرًا من أولئك من وجه، وأولئك أعظم كفرًا من هؤلاء من وجه. اهـ

وقال (١٤): وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم من الكفار والمشركين والذين أوتوا الكتاب ومن دخل في هؤلاء من الصابئة المتفلسفة والجهمية والقرامطة والباطنية ونحوهم، فإنهم على ضد ذلك، يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل، ولا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة في الأعيان، فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل؛ فإنهم يمثلونه بالممتعات والمعدومات والجمادات، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات، فلأنهم يسبلون عنه النقيضين فيقولون: لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل؛ لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات، فسلبوا النقيضين، وهذا ممتنع في بداهة العقول، وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب وما جاء به الرسول فوقعوا في شر مما فروا منه؛ فإنهم يشبهونه بالممتنعات، إذ سلب النقيضين كجمع النقيضين كلاهما من الممتنعات.

وقد علم بالاضطرار أن الوجود لا بد من موجود واجب بذاته غني عما سواه قديم أزلي، لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم، فوصفوه بما يمتنع وجوده فضلًا عن الوجوب أو الوجود أو القدم.

وقاربهم طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات، وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن لا فيما خرج عنه من الموجودات، وجعلوا الصفة هي الموصوف، فجعلوا العلم عين العالم؛ مكابرةً للقضايا البديهيات، وجعلوا هذه الصفة هي الأخرى، فلم يميزوا بين العلم والقدرة والمشيئة؛ جحدًا للعلوم الضروريات.

وقاربهم طائفة ثالثة من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم فأثبتوا لله الأسماء دون ماتتضمنه من الصفات، فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات، ومنهم من قال: عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، سميع بصير بلا سمع ولا بصر، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات.

والكلام على فساد مقالة هؤلاء وبيان تناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول مذكور على غير هذه الكلمات. اهـ

٢- مذهب المعتزلة: يثبتون الأسماء مجردة عن الصفات أي أعلام لا معاني لها.

٣- مذهب الأشاعرة: يثبتون الأسماء وسبع صفات، وهي المذكورة في هذا البيت:

حَـيٌّ مُرِيـدٌ قَـادِرٌ عَـلَّامُ لَـهُ الـسَّمْعُ وَالْبَـصَرُ وَالْكَـلَامُ

٤- مذهب المفوضة: الذي هو مذهب التجهيل.

قال ابن القيم في الصواعق (١/ ٤٢٢): والصنف الثالث: أصحاب التجهيل، الذين قالوا: نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا ندري ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرأها ألفاظًا لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلًا لا يعلمه إلا الله، وهي عندنا بمنزلة: (كهيعص) و(حم عسق) و(المص)، فلو ورد علينا منها ما ورد لم نعتقد فيه تمثيلًا ولا تشبيهًا، ولم نعرف معناه، وننكر على من تأوله، ونكل علمه إلى الله. وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف، وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات، ولا يفهمون معنى قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الزمر:٦٧].

وبنوا هذا المذهب على أصلين:

أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه.

والثاني: أن للمتشابه تأويلًا لا يعلمه إلا الله، فنتج من هذين الأصلين استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم كانوا يقرءون: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، و﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، ويروون: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا» ولا يعرفون معنى ذلك، ولا ما أريد به، ولازم قولهم: إن الرسول كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا: تجرى على ظواهرها، وتأويلها مما يخالف الظواهر باطل، ومع ذلك فلها تأويل لا يعمله إلا الله.

فكيف يثبتون لها تأويلًا، ويقولون: تُجْرَى على ظواهرها؟! ويقولون: الظاهر منها غير مراد، والرب منفرد بعلم تأويلها، وهل في التناقض أقبح من هذا؟!!

وهؤلاء غلطوا في المتشابه، وفي جعل هذه النصوص من المتشابه، وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله، فأخطئوا في المقدمات الثلاث، واضطرهم إلى هذا التخلص من تأويلات المبطلين وتحريفات المعطلين، وسدوا على نفوسهم الباب، وقالوا لا نرضى بالخطإ، ولا وصول لنا إلى الصواب، فهؤلاء تركوا التدبر المأمور به، والتذكر والعقل لمعاني النصوص الذي هو أساس الإيمان وعمود اليقين، وأعرضوا عنه بقلوبهم، وتعبدوا بالألفاظ المجردة التي أنزلت في ذلك، وظنوا أنها أنزلت للتلاوة والتعبد بها دون تعقل معانيها وتدبرها والتفكر فيها.

فأولئك جعلوها عرضة للتأويل والتحريف، كما جعلها أصحاب التخييل أمثالًا لا حقيقة لها.

٥- أصحاب التشبيه والتمثيل: ففهموا منها مثل ما للمخلوقين، وظنوا أن لا حقيقة لها سوى ذلك، وقالوا: محال أن يخاطبنا الله سبحانه بما لا نعقله ثم يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٧٣]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[البقرة:٢١٩]، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص:٢٩]، ونظائر ذلك، وهؤلاء هم المشبهة.

فهذه الفرق لا تزال تبدع بعضهم بعضا وتضلله وتجهله وقد تصادمت كما ترى فهم كزمرة من العميان تلاقوا فتصادموا، كما قال أعمى البصر والبصيرة منهم:

وَنَظِيرِي فِي الْعِلْمِ مِثْلِي أَعْمَى فَتَرَانَا فِي حَنْدَسٍ نَتَصَادَمُ

وهدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى، فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق وأدناسها وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات، فكان مذهبهم مذهبًا بين مذهبين، وهدى بين ضلالتين، خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين والمجهلين والمشبهين، كما خرج اللبن من بين فرث ودم

لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، وقالوا: نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات، ونفي مشابهة المخلوقات، فلا نعطل ولا نؤوِّل ولا نمثل ولا نجهل، ولا نقول: ليس لله يدان ولا وجه ولا سمع ولا بصر ولا حياة ولا قدرة ولا استوى على عرشه، ولا نقول: له يدان كأيدي المخلوق ووجه كوجوههم وسمع وبصر وحياة وقدرة واستوى كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم، بل نقول: له ذات حقيقة ليست كالذوات، وله صفات حقيقة لا مجازًا ليست كصفات المخلوقين، وكذلك قولنا في وجهه تبارك وتعالى ويديه وسمعه وبصره وكلامه واستوائه. اهـ

[كفر من زعم أنه يرى الله في الدنيا بعينه]

٧٠- وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَرَى رَبَّهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الشرح:

يرد بهذه الفقرة على أهل البدع من الصوفية وغيرهم من أصحاب المكاشفات، الذين يزعمون أنهم يرون الله ويحادثونه.

أقسام الناس في الرؤية:

الناس في مسألة الرؤية ثلاث طوائف:

الأولى: غلاة الصوفية، وأصحاب وحدة الوجود الذين يزعمون أن الله يرى في الدنيا والآخرة.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٣/ ٣٩١-٣٩٤): وهؤلاء الذين يزعم أحدهم أنه يراه بعيني رأسه في الدنيا هم ضلال كما تقدم فإن ضموا إلى ذلك أنهم يرونه في بعض الأشخاص، إما بعض الصالحين أو بعض المردان أو بعض الملوك أو غيرهم عظم ضلالهم وكفرهم وكانوا حينئذ أضل من النصارى الذين يزعمون أنهم رأوه في صورة عيسى بن مريم، بل هم أضل من أتباع الدجال الذي يكون في آخر الزمان ويقول للناس: أنا ربكم، ويأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، ويقول للخربة: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها.[1] وهذا هو الذي حذر منه النبي أمته وقال: «مَا مِنْ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ فِتْنَةٌ أَعْظَمُ مِنَ الدَّجَالِ»[2]. وقال : «إِذَا

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) عن النواس بن سمعان .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٦) عن عمران بن حصين .

جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ، لِيَقُلْ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»[(١)].

فهذا ادعى الربوبية وأتى بشبهات فتن بها الخلق حتى قال فيه النبي : «إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ»[(٢)]. فذكر لهم علامتين ظاهرتين يعرفهما جميع الناس؛ لعلمه بأن من الناس من يضل فيجوز أن يرى ربه في الدنيا في صورة البشر كهؤلاء الضلال الذين يعتقدون ذلك وهؤلاء قد يسمون (الحلولية) و(الاتحادية)، وهم صنفان: قوم يخصونه بالحلول أو الاتحاد في بعض الأشياء، كما يقوله النصارى في المسيح عليه السلام والغالية في علي ونحوه؛ وقوم في أنواع من المشايخ وقوم في بعض الملوك وقوم في بعض الصور الجميلة؛ إلى غير ذلك من الأقوال التي هي شر من مقالة النصارى.

وصنف يعمون فيقولون بحلوله أو اتحاده في جميع الموجودات -حتى الكلاب والخنازير والنجاسات وغيرها- كما يقول ذلك قوم من الجهمية ومن تبعهم من الاتحادية؛ كأصحاب ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني والبلياني وغيرهم، ومذهب جميع المرسلين ومن تبعهم من المؤمنين وأهل الكتب أن الله سبحانه خالق العالمين ورب السموات والأرض وما بينهما؛ ورب العرش العظيم والخلق جميعهم عباده وهم فقراء إليه، وهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه؛ ومع هذا فهو معهم أينما كانوا؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨).
(٢) أخرجه مسلم قبل (٢٩٣٠).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[الحديد:٤].

فهؤلاء الضلال الكفار الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينيه وربما زعم أنه جالسه وحادثه أو ضاجعه وربما يعين أحدهم آدميا إما شخصا، أو صبيا، أو غير ذلك، ويزعم أنه كلمهم يستتابون؛ فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم وكانوا كفارًا، إذ هم أكفر من اليهود والنصارى ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾[المائدة:١٧] فإن المسيح رسول كريم وجيه عند الله في الدنيا والآخرة ومن المقربين.

فإذا كان الذين قالوا: إنه هو الله وإنه اتحد به أو حل فيه قد كفرهم وعظم كفرهم؛ بل الذين قالوا إنه اتخذ ولدا حتى قال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾[مريم:٨٨-٩٥].

فكيف بمن يزعم في شخص من الأشخاص أنه هو؟ هذا أكفر من الغالية الذين يزعمون أن عليًّا أو غيره من أهل البيت هو الله، وهؤلاء هم الزنادقة الذين حرقهم علي بالنار وأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة وقذفهم فيها بعد أن أجلهم ثلاثا ليتوبوا فلما لم يتوبوا أحرقهم بالنار واتفقت الصحابة على قتلهم لكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق وهو قول أكثر العلماء وقصتهم معروفة عند العلماء. اهـ

الثانية: قول الجهمية، ومن وافقهم: أن الله لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا قول فاسد وكفر وزندقة؛ لأن القائلين به يردون الأدلة المتواترة والمتضافرة من الكتاب والسنة على إثبات الرؤية.

الثالثة: قول أهل السنة والجماعة: أن الله يرى في الآخرة لا في الدنيا، وقد تقدمت المسألة، والله لا يرى في الدنيا، ففي مسلم قبل (٢٩٣٠) عن رجل من أصحاب النبي قال: قال رسول الله : «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ»، وهذا القول قد اتفق عليه أهل السنة سلفًا وخلفًا إلا ما كان من رؤية النبي لربه يقظة، وهذا القول الراجح خلافه على ما يأتي بيانه إن شاء الله .

ولما سئل موسى عليه السلام ربه النظر إليه في الدنيا قال الله: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣].

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١٩٦): واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا خاصة: منهم من نفي رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له .

وحكى القاضي عياض في كتابه الشفا اختلاف الصحابة ومن بعدهم في رؤيته ، وإنكار عائشة أن يكون رأى ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سألها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، ثم قالت: من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب، ثم قال: وقال جماعة بقول عائشة ، وهو المشهور عن ابن مسعود. أخرجه البخاري (٣٢٣٢) ومسلم (١٧٤)،

وأبي هريرة أخرجه مسلم (١٧٦)، واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

أقول: وقول عائشة مقدم كونها سألت رسول الله : هل رأيت ربك؟ فقال: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ» أخرجه البخاري (٤٨٥٥) ومسلم (١٧٧).

وعن ابن عباس أنه رأى ربه بعينه.(١)

وروى عطاء عنه: أنه رآه بقلبه، ثم ذكر أقوالًا وفوائد، ثم قال: وأما وجوبه لنبينا والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص، والمعول فيه على آية النجم، والتنازع فيها مأثور، والاحتمال لها ممكن، وهذا القول الذي قاله القاضي عياض هو الحق، فإن الرؤية في الدنيا ممكنة، إذ لو لم تكن ممكنة، لما سألها موسى عليه السلام، لكن لم يرد نص بأنه رأى ربه بعين رأسه، بل ورد ما يدل على نفي الرؤية، وهو ما رواه مسلم في صحيحه (١٧٨) عن أبي ذر قال: سألت رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»(٢). وفي رواية: «رَأَيْتُ نُورًا».

وقد روى مسلم (١٨٠) أيضًا عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قام فينا رسول الله بخمس كلمات فقال: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

---

(١) بل في مسلم (١٧٦) رآه بفؤاده مرتين، وفي رواية رآه بقلبه.

(٢) تقدم الكلام عليها وبيان أن المحفوظ «رأيت نورًا»، والنور حجابه كما دل على ذلك حديث أبي موسى في مسلم: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

فيكون -والله أعلم- معنى قوله لأبي ذر: «**رأيت نورًا**» أنه رأى الحجاب، ومعنى قوله: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته، فأنى أراه؟ أي: فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته؟ فهذا صريح في نفي الرؤية، والله أعلم.

والصواب الذي لا محيص عن إثباته، إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة. اهـ

وسئل شيخ الإسلام كما في المجموع (٦/ ٥١٢) عن أقوام يدعون أنهم يرون الله بأبصارهم في الدنيا؛ وأنهم يحصل لهم بغير سؤال ما حصل لموسى بالسؤال؟

فأجاب قدس الله روحه: أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم في الآخرة وأجمعوا على أنهم لا يرونه في الدنيا بأبصارهم ولم يتنازعوا إلا في النبي ، وثبت عنه في الصحيح [(١)] أنه قال: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ**»، ومن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة؛ لاسيما إذا ادعوا إنهم أفضل من موسى فإن هؤلاء يستتابون؛ فإن تابوا وإلا قتلوا. اهـ

---

(١) مسلم قبل (٢٩٣٠).

[النهي عن التفكر في ذات الله عز وجل]

٧١- وَالْفِكْرَةُ فِي اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِدْعَةٌ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي الخَلْقِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ»؛ فَإِنَّ الْفِكْرَةَ فِي الرَّبِّ تَقْدَحُ الشَّكَّ فِي الْقَلْبِ.

الشرح:

الفكر في الله وفي صفاته من البدع المحدثة في الدين؛ لما يجر إليه من التخيلات والتوهمات والظنون والشكوك، فهو سبحانه لا تتوهمه القلوب بالتصوير ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

والحديث مخرج في الصحيحة (١٧٨٨)، وقد ساق طرقه وشواهده أبوالشيخ في كتابه العظمة (١/ ٢١٠-٢٧٠)، وإنما يكون الفكر في مخلوقات الله

.

قال أبوالشيخ في العظمة (١/ ٢٧١): قال الله : ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١]؛ فإذا تفكر العبد في ذلك استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك، وظلمة الريب، وذلك إذا نظر إلى نفسه وجدها مكونة مكنونة مجموعة مؤلفة مجزأة منضدة مصورة متركبة بعضها في بعض، فيعلم أنه لا يوجد مدبر إلا بمدبر، ولا مكون إلا بمكون، وتجد تدبير المدبر فيه شاهدا دالا عليه كما تنظر إلى حيطان البناء، وتقديرها، وإلى السقف

المسقف فوقه بجذوعه، وعوارضه، وتطيين ظهره، ونصب بابه، وإحكام غلقه، ومفتاحه للحاجة إليه؛ فكل ذلك يدل على بانيه، ويشهد له. اهـ

والعلة في ذلك ما ذكره من أنه يورث الشك وذلك لأن العقل قاصر عن معرفة ما يجب لله وما يجوز وما يمتنع.

وفي صحيح مسلم من حديث ابن مسعود (١٣٣) وأبي هريرة (١٣٢) قال: جاء ناس من أصحاب النبي فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**».

وفي حديث ابن مسعود: «**تِلْكَ مَحْضُ الإِيمَانِ**».

قال النووي: فقوله: (ذلك صريح الإيمان ومحض الإيمان) معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلًا عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالًا محققا، وانتفت عنه الريبة والشكوك.

واعلم أن الرواية الثانية وإن لم يكن فيها ذكر الاستعظام فهو مراد وهي مختصرة من الرواية الأولى، ولهذا قدم مسلم الرواية الأولى، وقيل معناه أن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه فينكد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء، ولا يقتصر في حقه على الوسوسة بل يتلاعب به كيف أراد، فعلى هذا معنى الحديث سبب الوسوسة محض الإيمان، أو الوسوسة علامة محض الإيمان، وهذا القول اختيار القاضي عياض. اهـ

وفي حديث أبي هريرة في البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (١٣٤) قال: قال رسول الله: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ، حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ فَمَنْ**

خَلَقَ اللهَ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ»، وجاء بنحوه عن أنس أخرجه البخاري (٧٢٩٦) ومسلم (١٣٦).

قال النووي : وأما قوله : «**فمن وجد ذلك فليقل آمنت بالله**» وفي الرواية الأخرى: «**فليستعذ بالله ولينته**» فمعناه الإعراض عن هذا الخاطر الباطل والالتجاء إلى الله تعالى في إذهابه.

قال الإمام المازري : ظاهر الحديث أنه أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها، قال: والذي يقال في هذا المعنى أن الخواطر على قسمين: فأما التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وعلى هذا يحمل الحديث، وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة، فكأنه لما كان أمرا طارئا بغير أصل دفع بغير نظر في دليل، إذ لا أصل له ينظر فيه، وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها، والله أعلم. اهـ

وفي المسند (٣١٦١) من حديث ابن عباس قالوا: يا رسول الله إنا نحدث أنفسنا بالشيء؛ لأن يكون أحدنا حممة أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَقْدِرْ مِنْكُمْ إِلَّا عَلَى الوَسْوَسَةِ**»، وفي رواية: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ**» والحديث في الصحيح المسند للإمام الوادعي .

فالفكر في كيفية الذات وكيفية الصفات قد يؤدي إلى الشك والحيرة لكن علينا أن نؤمن بالله كما أخبر عن نفسه، وأخبر عنه رسوله بعيدًا عن التعطيل والتحريف والتمثيل والتكييف.

ومن طلب علم كيفية الصفات فقد طلب مالا يمكن؛ لأنه لا يعرف كيف هو إلا هو ولا تعرف كيفية الموصوف إلا بالنظر إليه أو إلى مثيله أو أخبار من رآه عنه وكل ذلك منتفي في حق الله ، ولهذا لما سئل مالك عن كيفية الإستواء على العرش، قال: الكيف مجهول، والإستواء معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. أخرجه الصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، وله طرق صحيحة، وقد جاء عن ربيعة وعن أم سلمة، ولا يصح عنها .

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٤/ ٣٩-٤٠): وقد جاء الأثر: «**تَفَكَّرُوا فِي المَخْلُوقِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الخَالِقِ**»؛ لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات.

وأما الخالق -جل جلاله سبحانه وتعالى- فليس له شبيه ولا نظير فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه وإنما هو معلوم بالفطرة فيذكره العبد، وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه: يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة؛ لا تنال بمجرد التفكير والتقدير -أعني من العلم به نفسه؛ فإنه الذي لا تفكير فيه. اهـ

ومن أراد أن يعرف عظمة الله وقدرته، فبالتفكر في آيته الكونية والشرعية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية:١٧-٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٨٥].

[الخلق كله مأمور من الله أمر كوني]

٧٢- وَاعْلَمْ أَنَّ الْهَوَامَّ وَالسِّبَاعَ وَالدَّوَابَّ كُلَّهَا - نَحْوُ الذَّرِّ، وَالذُّبَابِ، وَالنَّمْلِ - كُلُّهَا مَأْمُورَةٌ، وَلَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الشرح:

أقسام المخلوقات:

المخلوقات تنقسم إلى قسمين: مكلفة، وغير مكلفة.

فالمكلفة: الجن والإنس، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٩]؛ وذلك لأن الله كلفهم بطاعته ونهاهم عن معصية فوقعوا في المحظور، وتركوا المأمور.

والملائكة خلقها الله لطاعته وسخرها لذلك قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٧].

ومنها مخلوقات عجماء من الدواب والسباع والهوام من ثعابين وغير ذلك كلها مأمورة بمعنى مسخرة لذلك قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:٥٠].

وأفعالها غير خارجة عن مشيئة الله قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[التكوير:٢٩].

وأفعالها مخلوقة لله قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىۡءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ وَكِيلٌ﴾[الزمر:٦٢].

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢/ ٦٣٠): فالموجودات نوعان: أحدهما مسخر بطبعه، والثاني متحرك بإرادته، فهدى الأول لما سخره له طبيعة، وهدى الثاني هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره.

ثم قسم هذا النوع إلى ثلاثة أنواع:

١- نوع لا يريد إلا الخير ولا يتأتى منه إرادة سواه: كالملائكة.

٢- ونوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه: كالشيطان.

٣- ونوع يتأتى منه إرادة القسمين: كالإنسان.

ثم جعله ثلاثة أصناف:

١- صنف يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته؛ فيلتحق بالملائكة.

٢- وصنف عكسه؛ فيلتحق بالشياطين.

٣- وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله؛ فيلتحق بالبهائم.

والمقصود أنه سبحانه أعطى الوجودين: العيني والعلمي، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده، فلا هداية إلا بتعليمه، وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته، وثبوت وحدانيته، وتحقيق ربوبيته سبحانه وتعالى. اهـ

والمراد بالأمر هنا الأمر الكوني، فإن الأمر ينقسم إلى قسمين: أمر كوني لابد أن يقع، ويكون في المحاب وغيرها، وأمر شرعي يكون في المحبوبات، وقد يقع وقد لا يقع، وإنما يتعلق الأمر الشرعي بالمكلفين.

قوله: (**ولا يعلمون شيئًا إلا بإذن الله تعالى**) وفي نسخة: (**ولا يعملون شيئًا إلا بإذن الله**) وهو الذي يقتضيه السياق، والله أعلم. ومعنى أن هذه المخلوقات غير خارجة عن مشيئة الله وخلقه وعلمه وكتابته.

يعني الإذن الكوني الذي يكون فيما يحبه الله وما لا يحبه، ولا بد أن يقع، وأما الإذن الشرعي فلا يكون إلا في محاب الله، وقد يقع وقد لا يقع.

قال شيخ الإسلام ابن القيم في شفاء العليل (٢/ ٢٩١-٢٩٢): وأما الإذن الكوني فكقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٠٢] أي: بمشيئته وقدره، وأما الديني فكقوله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[الحشر:٥] أي بأمره ورضاه، وقوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٍ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾[يونس:٥٩]، وقوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورى:٢١]. اهـ

[بيان علم الله عز وجل الأزلي الأبدي المحيط بكل شيء]

٧٣- وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ عَلِمَ مَا كَانَ مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ وَمَا لَمْ يَكُنْ، مِمَّا هُوَ كَائِنٌ أَحْصَاهُ اللهُ وَعَدَّهُ عَدًّا، وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ، فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيمِ.

الشرح:

يرد بهذه الفقرة على غلاة المعتزلة ومن إليهم من أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها.

الأدلة من القرآن والسنة، أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر على إثبات علم الله الواسع الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وهو العليم الخبير.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٨٢] و(كل) من ألفاظ العموم، وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[لقمان:٣٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤].

فعلم الله واسع بكل كبير وصغير، وكل دقيق وجليل، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر:١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[الأعلى:٧].

ومن كمال علمه أنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾[مريم:٩٤].

فمن أنكر علم الله أو زعم أن شيئًا خرج من علمه كان كافرًا بالله العظيم، وفي الأثر عن عمر بن عبدالعزيز قال: ناظروهم بالعلم -أي: القدرية-، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا.

وقد كفَّر عبدالله بن عمر هؤلاء القوم كما عند مسلم (٨) حيث قال ليحيى بن معمر حين قال له: إن أناس عندنا بالبصرة يزعمون أن الأمر أنف، وأن لا قدر، قال: إذا لقيتموهم فأخبرهم أني منهم بريئ، وأنهم مني براء، والذي يقسم ابن عمر به لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا ما تقبل منه حتى يؤمن بالقدر.

قال النووي في شرح هذا الحديث: قوله -يعني ابن عمر-: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريئ منهم، وأنهم براء مني، والذي يقسم ابن عمر لو أنفق أحد مثل أحد ذهبًا ما تقبل منه حتى يؤمن بالقدر.

قال القاضي : هذا في القدرية الأوَلِ الذي نفوا تقدم علم الله تعالى بالكائنات، قال: والقائل بهذا كافر بلا خلاف. اهـ

والعجب من القدرية الذين يزعمون أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، وقد تقدم بيان أن الله بكل شيء عليم، وكل من ألفاظ العموم، وكل ما هو موجود مخلوق فهو من الجزئيات، وإنما تكون الكليات في الذهن.

[لا نكاح إلا بولي وبعض أحكام النكاح]

٧٤- وَلَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ وَصَدَاقٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ.

الشرح:

هذه الفقرة ردٌّ على أبي حنيفة ومن قال بقوله، والنكاح يطلق ويراد به العقد ويطلق ويراد به الجماع.

قال الحافظ في الفتح (٩/ ١٣٠): النكاح في اللغة: الضم والتداخل، وتجوز من قال إنه الضم، وقال الفراء: النكح بضم ثم سكون اسم الفرج، ويجوز كسر أوله وكثر استعماله في الوطء، وسمى به العقد لكونه سببه، قال أبو القاسم الزجاجي: هو حقيقة فيهما، وقال الفارسي: إذا قالوا نكح فلانة أو بنت فلان فالمراد العقد، وإذا قالوا نكح زوجته فالمراد الوطء، وقال آخرون: أصله لزوم شيء لشيء مستعليًا عليه، ويكون في المحسوسات وفي المعاني، قالوا: نكح المطر الأرض، ونكح النعاس عينه، ونكحت القمح في الأرض إذا حرثتها وبذرته فيها، ونكحت الحصاة أخفاف الإبل.

وفي الشرع: حقيقة في العقد مجاز في الوطء على الصحيح، والحجة في ذلك كثرة وروده في الكتاب والسنة للعقد حتى قيل إنه لم يرد في القرآن إلا للعقد ولا يرد مثل قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[البقرة:٢٣٠]؛ لأن شرط الوطء في التحليل إنما ثبت بالسنة، وإلا فالعقد لا بد منه لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ﴾ معناه: حتى تتزوج أي يعقد عليها، ومفهومه أن ذلك كاف بمجرده لكن بينت السنة أن لا عبرة بمفهوم

الغاية، بل لا بد بعد العقد من ذوق العسيلة، كما أنه لا بد بعد ذلك من التطليق ثم العدة، نعم أفاد أبو الحسين بن فارس أن النكاح لم يرد في القرآن إلا للتزويج، إلا في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾[النساء:٦]؛ فإن المراد به الحلم والله أعلم، وفي وجه للشافعية -كقول الحنفية- إنه حقيقة في الوطء مجاز في العقد، وقيل مقول بالاشتراك على كل منهما، وبه جزم الزجاجي، وهذا الذي يترجح في نظري وإن كان أكثر ما يستعمل في العقد، ورجح بعضهم الأول بأن أسماء الجماع كلها كنايات لاستقباح ذكره، فيبعد أن يستعير من لا يقصد فحشا اسم ما يستفظعه لما لا يستفظعه، فدل على أنه في الأصل للعقد، وهذا يتوقف على تسليم المدعي أنها كلها كنايات، وقد جمع اسم النكاح ابن القطاع فزادت على الألف. اهـ

ويجوز للمسلم أن يتزوج أربع نسوة لقول الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾[النساء:٣].

وعند أبي داود من حديث عائشة رقم (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩) قَالَتْ: قَالَ رَسول الله : «**أَيّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهَا فَنِكَاحهَا بَاطِلٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنْ دَخَلَ بِهَا فَالْمَهْر لَهَا بِمَا أَصَابَ مِنْهَا؛ فَإِنْ تَشَاجَروا فَالسّلْطَان وَلِيّ مَنْ لَا وَلِيّ لَه**»، وهذا يدل على شرط وجود الولي، فمن عضل من الأولياء أو لم يكن ثمت ولي، فالسلطان ولي من لا ولي له.

وفي أحمد (٤/٣٩٨)، والترمذي (١١٠١)، وأبي داود (٢٠٨٥) من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله : «**لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ**».

وفي البخاري (٤٥٢٩) أَنَّ أُخْتَ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ طَلَّقَهَا زَوْجها، فَتَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتهَا، فَخَطَبَهَا، فَأَبَى مَعْقِلٌ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾[البقرة: ٢٣٢].

وفي ابن ماجه (١٨٨٢) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله :
«لَا تزَوِّج المَرأَةُ المَرأَةَ، وَلَا تزَوِّج المَرأَة نَفسَهَا؛ فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تزَوِّج نَفسَهَا».

ثم من هو الولي، قال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٣٥): قال ابن بطال: اختلفوا في الولي فقال الجمهور ومنهم مالك والثوري والليث والشافعي وغيرهم: الأولياء في النكاح هم العصبة، وليس للخال ولا والد الأم ولا الإخوة من الأم ونحو هؤلاء ولاية، وعند الحنفية هم من الأولياء، واحتج الأبهري بأن الذي يرث الولاء هم العصبة دون ذوي الأرحام قال: فذلك عقدة النكاح.

واختلفوا فيما إذا مات الأب فأوصى رجلا على أولاده هل يكون أولى من الولي القريب في عقدة النكاح أو مثله أو لا ولاية له؟ فقال ربيعة وأبوحنيفة ومالك: الوصي أولى، واحتج لهم بأن الأب لو جعل ذلك لرجل بعينه في حياته لم يكن لأحد من الأولياء أن يعترض عليه، فكذلك بعد موته. وتعقب بأن الولاية انتقلت بالموت فلا يقاس بحال الحياة وقد اختلف العلماء اشتراط الولي في النكاح فذهب الجمهور إلى ذلك وقالوا: لا تزوج المرأة نفسها أصلًا، واحتجوا بالأحاديث المذكورة، ومن أقواها هذا السبب المذكور في نزول الآية المذكورة، وهي أصرح دليل على اعتبار الولي وإلا لما كان لعضله معنى، ولأنها لو كان لها أن تزوج نفسها لم تحتج إلى أخيها، ومن كان أمره إليه لا يقال إن غيره منعه منه، وذكر ابن المنذر أنه لا يعرف عن أحد من الصحابة خلاف ذلك، وعن مالك رواية أنها إن كانت غيره شريفة زوجت

نفسها، وذهب أبوحنيفة إلى أنه لا يشترط الولي أصلًا، ويجوز أن تزوج نفسها ولو بغير إذن وليها إذا تزوجت كفؤا، واحتج بالقياس على البيع فإنها تستقل به، وحمل الأحاديث الواردة في اشتراط الولي على الصغيرة وخص بهذا القيام عمومها، وهو عمل سائغ في الأصول، وهو جواز تخصيص العموم بالقياس، لكن حديث معقل المذكور رفع هذا القياس، ويدل على اشتراط الولي في النكاح دون غيره ليندفع عن موليته العار باختيار الكفء، وانفصل بعضهم عن هذا الإيراد بالتزامهم اشتراط الولي ولكن لا يمنع ذلك تزويجها نفسها، ويتوقف ذلك إجازة الولي كما قالوا لما في البيع، وهو مذهب الأوزاعي.

وقال أبوثور نحوه، لكن قال: يشترط إذن الولي لها في تزويج نفسها، وتعقب بأن إذن الولي لا يصح إلا لمن ينوب عنه والمرأة لا تنوب عنه في ذلك لأن الحق لها، ولو أذن لها في إنكاح نفسها صارت كمن أذن لها في البيع من نفسها ولا يصح.

وفي حديث معقل أن الولي إذا عضل لا يزوج السلطان إلا بعد أن يأمره بالرجوع عن العضل، فإن أجاب فذاك، وإن أصر زوج عليه الحاكم، والله أعلم. اهـ

وأما الصداق فقد قال الله : ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء:٤]، وقال رسول الله : «الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ» أخرجه البخاري (٥٠٨٧)، ومسلم (١٤٢٥).

وقال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء:٢٤]، فالصداق يجوز قليله وكثيره، وفي الحديث: «وَأَقَلُّهُنَّ مَهْرًا أَعْظَمُهُنَّ بَرَكَةً».

وقال الله : ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[النساء:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ٢٤].

وتشرع الوليمة للعرس؛ لحديث أن رسول الله قال لعبدالرحمن بن عوف: «**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**» متفق عليه عن أنس البخاري (٥١٥٥) ومسلم (١٤٢٦).

وكان رسول الله يولم على نسائه، واللحم والسويق وغيره من الأطعمة، وحضور الوليمة واجب قال رسول الله : «**شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا، وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ، فَقَدْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ**» أخرجه البخاري (٥١٧٧) ومسلم (١٤٣٢).

ولحديث ابن عمر عند مسلم (١٤٢٩): «**مَنْ دُعِيَ إِلَى عُرْسٍ أَوْ نَحْوِهِ فَلْيُجِبْ**»، ولحديث ابن مسعود عن أحمد (٣٨٣٨): «**أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَلَا تَرُدُّوا الْهَدِيَّةَ، وَلَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ**» والحديث في الصحيح المسند ، ويستحب إعلان النكاح، ويجوز ضرب الدف للنساء في العرس وغيره من المناسبات.

ومن لم يجعل لزوجته صداق فليمهرها بعد؛ فعن عقبة بن عامر عند أبي داود (٢١١٧) أن رسول الله قال لرجل: «**أَتَرضَى أَن أُزَوِّجَك فلَانَةَ؟**» قَالَ: نَعَم، وَقَالَ لِلمَرأَةِ: «**أَترضَينَ أَن أُزَوِّجَكِ فلَانًا؟**» قَالَت: نَعَم؛ فَزَوَّجَ أَحَدَهُمَا صَاحِبَه فَدَخَلَ بِهَا الرَّجل وَلَم يَفرِض لَهَا صَدَاقًا وَلَم يعطِهَا شَيئًا، وَكَانَ مِمَّن شَهِدَ الحدَيبِيَة، وَكَانَ مَن شَهِدَ الحدَيبِيَة لَه سَهمٌ بِخَيبَرَ؛ فَلَمَّا حَضَرَته الوَفَاة، قَالَ: إِنَّ رَسولَ الله

زَوَّجَنِي فلَانَة وَلَم أَفرِض لَهَا صَدَاقًا، وَلَم أعطِهَا شَيئًا، وَإِنِّي أشهدكم أَنِّي أَعطَيتهَا مِن صَدَاقِهَا سَهمِي بِخَيبَرَ؛ فَأَخَذَت سَهمًا فَبَاعَته بِمِائَةِ أَلفٍ.

ويكون صداقها عند الاختلاف كصداق نسائها، فعند أبي داود (٢١١٦) عن عبدالله بن مسعود، وفيه: فَإِنِّي أَقول فِيهَا: إِنَّ لَهَا صَدَاقًا كَصَدَاقِ نِسَائِهَا لَا وَكسَ وَلَا شَطَطَ، وَإِنَّ لَهَا المِيرَاثَ وَعَلَيهَا العِدَّة؛ فَإِن يَك صَوَابًا فَمِن الله، وَإِن يَكن خَطَأً فَمِنِّي وَمِن الشَّيطَانِ وَالله وَرَسوله بَرِيئَانِ، فَقَامَ نَاسٌ مِن أَشجَعَ فِيهِم الجَرَّاح وَأَبو سِنَانٍ، فَقَالوا: يَا ابنَ مَسعودٍ نَحن نَشهَد أَنَّ رَسولَ الله قَضَاهَا فِينَا فِي بِروَعَ بِنتِ وَاشِقٍ، وَإِنَّ زَوجَهَا هِلَال بن مرَّةَ الأَشجَعِيّ كَمَا قَضَيتَ، قَالَ: فَفَرِحَ عَبد الله بن مَسعودٍ فَرَحًا شَدِيدًا حِينَ وَافَقَ قَضَاؤه قَضَاءَ رَسولِ الله .

[بعض أحكام الطلاق]

٧٥- وَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْهِ وَلَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ.

الشرح:

قال الله : ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢٩-٢٣٠].

وفي حديث عائشة لما طلق رفاعة زوجته وبت طلاقها قالت: جَاءَت امرَأَة رِفَاعَةَ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَت: كنت عِندَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلَاقِي؛ فَتَزَوَّجت عَبدَ الرَّحمَنِ بنَ الزَّبِيرِ، وَإِنَّ مَا مَعَه مِثل هدبَةِ الثَّوبِ، فَتَبَسَّمَ رَسول الله فَقَالَ: «أَترِيدِينَ أَن تَرجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لَا، حَتَّى تَذوقِي عسَيلَتَه وَيَذوقَ عسَيلَتَكِ»، قَالَت: وَأَبوبَكرٍ عِندَه، وَخَالِدٌ بِالبَابِ يَنتَظِر أَن يؤذَنَ لَه؛ فَنَادَى يَا أَبَا بَكرٍ: أَلَا تَسمَع هَذِهِ مَا تَجهَر بِهِ عِندَ رَسولِ الله . الحديث أخرجه البخاري (٢٦٣٩)، ومسلم (١٤٣٣)، ويكون نكاحها لغيره على نية الزواج لا التحليل.

والمراد بالطلاقات الثلاث الطلاق الذي يتخلله رجوع لا التلفظ بها بلفظ واحد وفي مجلس واحد، فعَن ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ الطَّلَاق عَلَى عَهدِ رَسولِ الله وَأَبِي بَكرٍ وَسَنَتَينِ مِن خِلَافَةِ عمَرَ طَلَاق الثَّلَاثِ وَاحِدَةً، فَقَالَ عمَر بن الخَطَّابِ: إِنَّ

النَّاسَ قَد استَعجَلوا فِي أَمرٍ قَد كَانَت لَهم فِيهِ أَنَاةٌ، فَلَو أَمضَيناه عَلَيهِم فَأَمضَاه عَلَيهِم. أخرجه مسلم (١٤٧٢).

تحريم زواج التحليل:

ولا يجوز زواج التحليل، فقد لعن رسول الله المحلِّل والمحلَّل له، كما في حديث ابن مسعود عند أحمد (٤٤٠٣)، والمحلل هو الذي يتزوج المبتوتة لا لقصد النكاح، وإنما من أجل تحليلها لترجع إلى زوجها.

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٢٦٨): ومن مكايده التى بلغ فيها مرادة: مكيدة التحليل، الذى لعن رسول الله فاعله، وشبهه بالتيس المستعار، وعظم بسببه العار والشنار، وعير المسلمين به الكفار، وحصل بسببه من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد واستكريت له التيوس المستعارات، وضاقت به ذرعًا النفوس الأبيات، ونفرت منه أشد من نفارها من السفاح وقالت: لو كان هذا نكاحًا صحيحًا لم يلعن رسول الله من أتى بها شرعه من النكاح، فالنكاح سنته، وفاعل السنة مقرب غير ملعون، والمحلل مع وقوع اللعنة عليه بالتيس المستعار مقرون، فقد سماه رسول الله بالتيس المستعار، وسماه السلف بمسمار النار، فلو شاهدت الحرائر المصونات، على حوانيت المحللين متبذلات، تنظر المرأة إلى التيس نظرة الشاة إلى شفرة الجازر، وتقول: يا ليتنى قبل هذا كنت من أهل المقابر، حتى إذا تشارطا على ما يجلب اللعنة والمقت، نهض واستتبعها خلفه للوقت، بلا زفاف ولا إعلان، بل بالتخفى والكتمان، فلا جهاز ينقل، ولا فراش إلى بيت الزوج يحول، ولا صواحب يهدينها إليه، ولا مصلحات يجلينها عليه، ولا مهر مقبوض ولا مؤخر ولا نفقة ولا كسوة تقدر، ولا وليمة ولا نثار، ولا دف إعلان ولا شعار، والزوج يبذل

المهر وهذا التيس يطأ بالأجر، حتى إذا خلا بها وأرخى الحجاب، والمطلق والولى واقفان على الباب، دنا ليطهرها بمائه النجس الحرام، ويطيبها بلعنة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، حتى إذا قضيا عرس التحليل، ولم يحصل بينهما المودة والرحمة التى ذكرها الله تعالى فى التنزيل. فإنها لا تحصل باللعن الصريح، ولا يوجبها إلا النكاح الجائر الصحيح. فإن كان قد قبض أجرة ضرابه سلفًا وتعجيلًا، وإلا حبسها حتى تعطيه أجره طويلًا. فهل سمعتم بزوج لا يأخذ بالساق حتى يأخذ أجرته بعد الشرط والاتفاق؟ حتى إذا طهرها وطيبها، وخلصها بزعمه من الحرام وجنبها. قال لها: اعترفى بما جرى بيننا ليقع عليك الطلاق، فيحصل بعد ذلك بينكما الالتئام والاتفاق، فتأتى المصخمة إلى حضرة الشهود فيسألونها: هل كان ذاك؟ فلا يمكنها الجحود، فيأخذون منها أو من المطلق أجرًا، وقد أرهقوهما من أمرهما عسرًا.

هذا، وكثير من هؤلاء المستأجرين للضراب يحلل الأم وابنتها فى عقدين، ويجمع ماءه فى أكثر من أربع وفى رحم أختين، وإذا كان هذا من شأنه وصفته، فهو حقيق بما رواه عبدالله بن مسعود قال: (لَعَنَ رَسولُ الله المُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لَهُ). رواه الحاكم فى الصحيح والترمذى وقال: حديث حسن صحيح، قال: والعمل عليه عند أهل العلم. منهم: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبدالله بن عمر ، وهو قول الفقهاء من التابعين. اهـ

الزواج بنية الطلاق:

وفي هذا الزمان ظهر واشتهر ما يسمى بالزواج بنية الطلاق، وهو إلى المتعة أقرب من زواج المسلمين، فإن الله يقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم:٢١]، وكل هذا غير

موجود في الزواج بنية الطلاق، وفي هذا الزواج من الغرر والخداع والتلبيس الشيء الكثير، فالحذر من تتبع زلات العلماء.

وفي فتاوى اللجنة الدائمة (١٨/ ٤٤٩): الزواج بنية الطلاق زواج مؤقت، والزواج المؤقت زواج باطل؛ لأنه متعة، والمتعة محرمة بالإجماع، والزواج الصحيح: أن يتزوج بنية بقاء الزوجية والاستمرار فيها، فإن صلحت له الزوجة وناسبت له وإلا طلقها، قال تعالى: فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

[تحريم قتل النفس المعصومة]

٧٦- وَلَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: زَانٍ بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ مُرْتَدٌّ بَعْدَ إِيمَانٍ، أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنَةٍ بِغَيْرِ حَقٍّ فَيُقْتَلُ بِهِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَدَمُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ أَبَدًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ.

الشرح:

قتل النفس المعصومة من كبائر الذنوب والآثام، والأدلة على تحريم قتلها من الكتاب والسنة.

وقد ذكرت الصحيح منها في كتاب قتل النفس المعصومة وأحكامه، وقد جاء ما ذكر جواز قتله في حديث ابن مسعود في البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦)، وجاء عن عائشة عند أبي داود (٤٣٥٣) وغيره قالت: قال رسول الله : «**لَا يَحِلّ دَم امرِئٍ مسلِمٍ يَشهَد أَن لَا إِلَهَ إلاَّ الله وَأَنِّى رَسول الله إلاَّ بِإِحدَى ثَلَاثٍ الثَّيِّب الزَّانِ وَالنَّفس بِالنَّفسِ وَالتَّارِك لِدِينِهِ المفَارِق لِلجَمَاعَةِ**».

وجاء بنحوه عن عثمان أخرجه أبوداود (٤٥٠٢)، وهؤلاء الذين استثنى جواز قتلهم ليسوا على سبيل الحصر، فهنالك غيرهم.

من يجوز قتلهم:

منهم المرتد:

سواء كان المرتد رجلًا أو امرأة.

والمرتد هو الراجع عن دين الإسلام إلى دين الكفر، قال الله : ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٢١٧].

أخرج البخاري (٦٨٧٨): عَن عَبدِ الله قَالَ قَالَ رَسول الله «**لَا يَحِلّ دَم امرِئٍ مسلِمٍ يَشهَد أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسول الله إِلَّا بِإِحدَى ثَلَاثٍ النَّفس بِالنَّفسِ وَالثَّيِّب الزَّانِي وَالمَارِق مِن الدِّينِ التَّارِك لِلجَمَاعَةِ**» وأخرجه مسلم (١٦٧٦).

وفي الحديث أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله تعصم الدم.

فالردة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع وإنما أنكرها اليوم من أنكرها بسبب جهلهم بالأدلة الشرعية، والعلوم الضرورية، فيا سبحان الله كيف يفعل الجهل بأهله، وقد وضع المصنفون في كتبهم كتب في أحكام المرتدين.

وأخرج البخاري (٦٩٢٢): عَن عِكرِمَةَ أَنَّ عَلِيًّا حَرَّقَ قومًا فَبَلَغَ ابنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَو كنت أَنَا لَم أحَرِّقهم لِأَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «**لَا تعَذِّبوا بِعَذَابِ الله**» وَلَقَتَلتهم كَمَا قَالَ النَّبِيّ «**مَن بَدَّلَ دِينَه فَاقتلوه**».

قال ابن قدامة في المغني (١٢/ ٢٦٤): المرتد هو الراجع عن دين الإسلام إلى الكفر قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢١٧].

وقال النبي «مَن بَدَّلَ دِينَه فَاقتلوه» أخرجه البخاري (٣٠١٧) عن ابن عباس .

وأجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتد وروي ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ وأبي موسى وابن عباس وخالد وغيرهم ولم ينكر ذلك فكان إجماعا...

وأنه لا فرق بين الرجال والنساء في وجوب القتل روي ذلك عن أبي بكر وعلي ، وبه قال الحسن والزهري والنخعي ومكحول وحماد ومالك والليث والأزواعي والشافعي وإسحاق، وروي عن علي والحسن وقتادة أنها تسترق لا تقتل، ولأن أبا بكر استرق نساء بني حنيفة وذراريهم، وأعطى عليًّا منهم امرأة، فولدت له محمد بن الحنفية، وكان هذا بمحضر من الصحابة، فلم ينكر؛ فكان إجماعًا، وقال أبوحنيفة تجبر على الإسلام بالحبس والضرب ولا تقتل؛ لقول النبي : «لَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً»، ولأنها لا تقتل بالكفر الأصلي فلا تقتل بالطارئ كالصبي، ولنا قوله : «مَن بَدَّلَ دِينَه فَاقتلوه» رواه البخاري وأبو داود. وقال النبي : «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ» متفق عليه. اهـ

وقد اختلف العلماء في مسألة استتابة المرتد إلى ثلاثة أقوال:

الأول: وجوب الاستتابة للمرتد سواء كان مسلما أصليا أو كافرا أسلم ثم ارتد وهذا مذهب مالك وقول للشافعي ورواية عن أحمد وروي عن عمر وعلي وهو قول الجمهور.

الثاني: لا تجب الاستتابة وإنما تستحب وهذا قول للشافعي ورواية في مذهب أحمد ورواية عن أبي حنيفة وهو قول عبيد بن عمير وطاوس وحجتهم «**مَن بَدَّلَ دِينَه فَاقتلوه**» وقصة معاذ مع اليهودي الذي أسلم ثم ارتد عند أبي موسى..

الثالث: التفصيل فإن كان مسلما أصليا ثم ارتد لم يستتب وإن كان كافرا ثم أسلم ثم ارتد يستتاب وهذا قول عطاء، وقد ذكر هذا الكلام ابن قدامة في المغني ، والبغوي في شرح السنة (١٠/ ٢٣٩).

والراجح هو القول الأول؛ لعموم أدلة التعاون على البر والتقوى؛ لأنه قد تكون طرأت عليه شبهة أو غير ذلك، وهذا اختيار ابن قدامة.

وقد اختلفوا أيضًا في استتابة المرأة المرتدة وحكمها حكم الرجل سواء في القتل أو الاستتابة، هذا هو القول الراجح، والتفريق ليس عليه دليل من كتاب أو سنة.

ومنهم قاتل النفس المعصومة:

قال الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[البقرة:١٧٨]، وفي الحديث الذي تقدم ذكر «**وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ**».

فقاتل النفس المعصومة المسلمة متعمدًا يقتل بها إلا أن يعفو أولياء المقتول بقبول الدية، أو العفو المطلق، أما قتل المسلم بالذمي فلا يجوز لحديث: «**لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**» أخرجه البخاري (٦٩٠٣) عن علي ، ويقتل الرجال المسلمون بالنساء، والنساء بالرجال، والحر بالعبد، والعبد بالحر إلا في السيد لا يقتل بعبده، وقد استوفينا الكلام بحمد الله في الكتاب المشار إليه.

ومنهم الزاني المحصن:

فعَن جَابِرٍ أَنَّ رَجلًا مِن أَسلَمَ أَتى النَّبِيَّ وَهوَ فِي المَسجِدِ فَقَالَ: إِنَّه قَد زَنَى، فَأَعرَضَ عنه، فَتَنَحَّى لِشِقِّهِ الَّذِي أَعرَضَ فَشَهِدَ عَلَى نَفسِهِ أَربَعَ شَهَادَاتٍ، فَدَعاه فَقَالَ: «هَل بِكَ جنونٌ؟ هَل أَحصَنتَ؟» قَالَ: نَعَم، فَأَمَرَ بِهِ أَن يرجَمَ بِالمصَلَّى، فَلَمَّا أَذلَقَته الحِجَارَة جَمَزَ حَتَّى أدرِكَ بِالحَرَّةِ فَقتِلَ. أخرجه البخاري (٥٢٧٠)، ومسلم (١٦٩٢).

ومنهم الصائل إذا لم يدفع إلا بالقتل:

فقد أخرج مسلم (١٤٠): عَن أَبِي هرَيرَةَ قَالَ جَاءَ رَجلٌ إِلَى رَسولِ الله فَقَالَ يَا رَسولَ الله أَرَأَيتَ إِن جَاءَ رَجلٌ يرِيد أَخذَ مَالِي؟ قَالَ: «فَلَا تعطِهِ مَالَكَ» قَالَ: أَرَأَيتَ إِن قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «قَاتِله» قَالَ: أَرَأَيتَ إِن قَتَلَنِي؟ قَالَ: «فَأَنتَ شَهِيدٌ» قَالَ: أَرَأَيتَ إِن قَتَلته؟ قَالَ: «هوَ فِي النَّارِ».

قال الحافظ في فتح الباري (٥/ ١٢٤): قال النووي: فيه جواز قتل من قصد أخذ المال بغير حق سواء كان المال قليلا أو كثيرا وهو قول الجمهور وشذ من أوجبه وقال بعض المالكية لا يجوز إذا طلب الشيء الخفيف.

قال القرطبي: سبب الخلاف عندنا هل الإذن في ذلك من باب تغيير المنكر فلا يفترق الحال بين القليل والكثير أو من باب دفع الضرر فيختلف الحال وحكى بن المنذر عن الشافعي قال من أريد ماله أو نفسه أو حريمه فله الاختيار أن يكلمه أو يستغيث فإن منع أو أمتنع لم يكن له قتاله وإلا فله أن يدفعه عن ذلك ولو أتى على نفسه وليس عليه عقل ولا دية ولا كفارة لكن ليس له عمد قتله.

قال بن المنذر : والذي عليه أهل العلم أن للرجل أن يدفع عما ذكر إذا أريد ظلما بغير تفصيل إلا أن كل من يحفظ عنه من علماء الحديث كالمجمعين على استثناء السلطان للآثار الواردة بالأمر بالصبر على جوره وترك القيام عليه وفرق الأوزاعي بين الحال التي للناس فيها جماعة وإمام فحمل الحديث عليها.

وأما في حال الاختلاف والفرقة فليستسلم ولا يقاتل أحدًا، ويرد عليه ما وقع في حديث أبي هريرة عند مسلم بلفظ: أرأيت أن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «**فَلَا تُعْطِهِ**» قال: أرأيت أن قاتلني؟ قال: «**فَاقْتُلْهُ**» قال: أرأيت أن قتلني؟ قال: «**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**» قال: أرأيت أن قتلته؟ قال: «**فَهُوَ فِي النَّارِ**». قال ابن بطال: إنما أدخل البخاري هذه الترجمة في هذه الأبواب ليبين أن للإنسان أن يدفع عن نفسه وماله ولا شيء عليه، فإنه إذا كان شهيدًا إذا قتل في ذلك فلا قود عليه ولا دية إذا كان هو القاتل. اهـ

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٨/ ٥٣٩-٥٤٠): ومعلوم أن الإنسان إذا صال صائل على نفسه جاز له دفعه بالسنة والإجماع... وقال وإذا كانت السنة والإجماع متفقين على أن الصائل المسلم إذا لم يندفع صوله إلا بالقتل قتل وإن كان المال الذي يأخذه قيراطا من دينار. اهـ

قال البغوي في شرح السنة (١٠/ ٢٤٩): ذهب عامة أهل العلم إلى أن الرجل إذا أريد ماله، أو دمه، أو أهله، فله دفع القاصد ومقاتلته، وينبغي أن يدفع بالأحسن فالأحسن، فإن لم يمتنع إلا بالمقاتلة، فقاتله، فأتى القتل على نفسه، فدمه هدر، ولا شيء على الدافع، وهل له أن يستسلم؟ نظر إن أريد ماله، فله ذلك، وإن أريد دمه، ولا يمكنه دفعه إلا بالقتل.

فقد ذهب قوم إلى أن له الاستسلام، إلا أن يكون القاصد كافرًا، أو بهيمة، وذهب قوم إلى أنه إن استسلم يكون في دمه، وذهب قوم إلى أن الواجب عليه الاستسلام، وكرهوا له أن يقاتل عن نفسه متمسكين بأحاديث وردت في ترك القتال في الفتن، وليس هذا من ذلك في شيء، إنما هذا في قتال اللصوص، وقطاع الطرق، والساعين في الأرض بالفساد، ففي الانقياد لهم ظهور الفساد في الأرض، واجتراء أهل الطغيان على العدوان، وتلك الأحاديث في قتال القوم على طلب الملك. اهـ

ومنهم المحارب:

قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[المائدة:٣٣-٣٤].

وأخرج البخاري (٢٣٣) ومسلم (١٦٧١): عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: قَدِمَ أنَاسٌ مِن عكلٍ أو عرَينَةَ فاجتَوَوا المدِينَةَ، فَأَمَرهم النَّبيّ بِلِقَاحٍ، وَأَن يَشرَبوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَانطَلَقوا، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ وَاستَاقوا النَّعَمَ، فَجَاءَ الخَبَرَ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِم، فَلَمَّا ارتَفَعَ النَّهَارُ جِيءَ بِهِم فَأَمَرَ فَقَطَعَ أَيدِيَهِم وَأَرجلَهم وَسمِرَت أَعينهم وَأُلْقُوا فِي الحَرَّةِ يَستَسقونَ فَلَا يسقونَ. قَالَ أَبوقِلَابَةَ: فَهَؤُلَاءِ سَرَقوا وَقَتَلوا وَكَفَروا بَعدَ إِيمَانِهِم وَحَارَبوا الله وَرَسولَه

وشرط الحكم على شخص أو مجموعة بالحرابة بثلاثة أمور:

١- هم الذين يعرضون للقوم في الصحراء.

٢- يبرز السلاح مخيفا للعباد.

٣- يغصبهم المال جهرة.

قال البغوي في شرح السنة (١٠/ ٢٦٠-٢٦٣): واختلف أهل العلم في عقوبة قاطع الطريق، فذهب أكثرهم إلى انه إن قتل في قطع الطريق، ولم يأخذ المال يقتل، وقتله حتم، لا يقبل العفو، وإن أخذ المال، ولم يقتل، تقطع يده اليمنى، ورجله اليسرى إذا كان أخذ قدر نصاب السرقة، وإن قتل وأخذ المال يقتل ويصلب، وإن لم يقتل، ولم يأخذ المال، لكنه هيب، وكثر الجيش، نفي، وعزر، والأصل فيه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾[المائدة:٣٣]، وظاهر الآية يدل على التخيير، وهي على ترتيب الجرائم عند الأكثرين...

وإذا فعل ما يستحق الصلب، اختلفوا في كيفيته، فظاهر مذهب الشافعي انه يقتل، ثم يصلب، وقيل: يصلب حيًا، ثم يطعن حتى يموت مصلوبًا، وهو قول الليث بن سعد، وقيل: يصلب ثلاثة أيام حيًا، ثم ينزل، فيقتل، فإن قلنا: يقتل ثم يصلب فيترك ثلاثة أيام ثم ينزل، فيغسل، ويصلى عليه إلا أن يخشى فساده قبل الثلاث، ويتأذى به الأحياء، فينزل قبله، وقيل: يترك عليه حتى يتفتت، إن لم يتأذ به الناس، فعلى هذا يغسل ويصلى عليه أولا، ثم يصلب.

وذهب قوم إلى أن الإمام بالخيار في أمر المحاربين بين القتل، والصلب، والنفي، روي ذلك عن الحسن، ومجاهد، وعطاء، وإليه ذهب مالك. واختلف أهل التفسير فيمن نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ ﴾[المائدة: ٣٣] فذهب قوم إلى أنها نزلت في الكفار، وقال بعضهم: نزلت في الرهط العرنيين.

وقال أكثر أهل العلم: إنها نزلت في أهل الإسلام بدليل قوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾[المائدة:٣٤] والإسلام يحقن الدم، سواء أسلم قبل القدرة عليه أو بعدها.

وإذا تاب قاطع الطريق قبل القدرة عليه، فيسقط عنه من العقوبة ما يختص بقطع الطريق، فإذا كان قد قتل، يسقط تحتم القتل، ويبقى عليه القصاص، فالولي فيه بالخيار إن شاء استوفاه، وإن شاء عفا عنه، وإن كان قد أخذ المال، سقط عنه قطع اليد، والرجل، وقيل في سقوط قطع اليد، حكمه حكم السارق في البلد إذا تاب، وإن كان قد قتل وأخذ المال، سقط عنه تحتم القتل والصلب، وإذا تاب بعد القدرة، فلا يسقط عنه شيء من العقوبات على أصح القولين. اهـ

ومنهم من أبى قبول الفرائض:

فقد أخرج البخاري (٦٩٢٤) ومسلم (٢٠): عن أبي هرَيرَةَ قَالَ: لَمَّا توفِّيَ النَّبِيّ ، وَاستخلِفَ أَبوبَكرٍ، وَكَفرَ مَن كَفرَ مِن العَرَبِ، قَالَ عمَر: يَا أَبَا بَكرٍ، كَيفَ تقَاتِل النَّاسَ وَقَد قَالَ رَسول الله «**أمِرت أَن أقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقولوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَمَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله فَقَد عَصَمَ مِنِّي مَالَه وَنَفسَه إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابه عَلَى الله**»؟ قَالَ أَبوبَكرٍ: وَالله لَأقَاتِلَنَّ مَن فَرَّقَ بَينَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقّ المَالِ، وَالله لَو مَنَعونِي عَنَاقًا كَانوا يؤَدّونَهَا إِلَى رَسولِ الله لَقَاتَلتهم عَلَى مَنعِهَا. قَالَ عمَر: فَوَالله مَا هوَ إِلَّا أَن رَأَيت أَن قَد شَرَحَ الله صَدرَ أَبِي بَكرٍ لِلقِتَالِ فَعَرَفت أَنَّه الحَقّ.

فليت شعري متى يطبق حكام المسلمين هذه الشعيرة العظيمة حماية للدين وإظهارا لعظمته فنحن في زمن قد عطل كثير من أهله الشعائر الدينية، والسنن النبوية، وهذا الواجب الذي ضيعوه والحق الذي أهملوه سيسألون عنه مع ما يلاقون في الدنيا من زوال دولتهم وفساد رعاياهم، فإلى الله المشتكى.

ثم ليعلم أن هنالك فرق بين القتل والمقاتلة على ما سيأتي بيانه من كلام أهل العلم.

ومنهم ساب النبي :

ومنهم ساب النبي وإن تاب، فالله يقول: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الفتح:٩]، فالرسول له حق عظيم، ومنزلة رفيعة، يجب على المسلمين تعظيمه وتوقيره، ومن سبه أو تنقصه أو سخر به فهو كافر بالله العظيم، قال الله : ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[التوبة:٦٥-٦٦]، فساب الله ورسوله يقتل ردة، فإن تاب من سب الله سقط عنه القتل، وإن تاب من سب رسول الله وجب قتله حدا لا ردة لأن حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق الناس مبنية على المشاحة، فلا يجوز التنازل عن حق النبي ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب نفيس بعنوان السيف المسلول على شاتم الرسول .

وأخرج أبو داود (٤٣٦١): عَن ابن عَبَّاسٍ أَنَّ أَعمَى كَانَت لَه أمّ وَلَدٍ تَشتم النَّبِيَّ وَتَقع فِيهِ، فَيَنهَاهَا فَلَا تَنتَهِي، وَيَزجرهَا فَلَا تَنزَجِر، قَالَ: فَلَمَّا كَانَت ذَاتَ لَيلَةٍ جَعَلَت تَقع فِي النَّبِيِّ وَتَشتمه، فَأَخَذَ المِغوَلَ فَوَضَعه فِي بَطنِهَا وَاتَّكَأَ عَلَيهَا فَقَتَلَهَا، فَوَقَعَ بَينَ رِجلَيهَا طِفلٌ فَلَطَّخَت مَا هنَاكَ بِالدَّمِ، فَلَمَّا أَصبَحَ ذكِرَ

ذَلِكَ لِرَسولِ الله فَجمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: «**أَنْشُدُ اللهَ رَجلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ**» فَقَامَ الأَعمَى يَتَخطَّى النَّاسَ وَهوَ يَتَزَلزَل حَتَّى قَعَدَ بَينَ يَدَي النَّبيِّ ، فَقَالَ: يَا رَسولَ الله، أَنَا صَاحِبهَا، كَانَت تَشتمك وَتَقَع فِيكَ فَأَنهَاهَا فَلَا تَنتَهِي، وَأَزجرهَا فَلَا تَنزَجِر، وَلِي مِنهَا ابنَانِ مِثل اللّؤلؤَتَينِ، وَكَانَت بِي رَفِيقَةً، فَلَمَّا كَانَ البَارِحَةَ جَعلَت تَشتمك وَتَقع فِيك، فَأَخَذْتُ المِغوَلَ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطنِهَا وَاتَّكَأْتُ عَلَيهَا حَتَّى قَتلَتُهَا. فَقَالَ النَّبِيّ : «**أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ**».

قال ابن المنذر في كتاب الإجماع (١٥٣): وأجمعوا على أن من سب الرسول القتل.

ومنهم جاسوس الكافرين على المسلمين:

فقد أخرج البخاري (٣٠٨١) ومسلم (١٧٥٤): عَن إِيَاسِ بنِ سَلَمَةَ بنِ الأَكوَعِ عَن أَبِيهِ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ عَينٌ مِن المشرِكِينَ وَهوَ فِي سَفَرٍ، فَجَلَسَ عِندَ أَصحَابِهِ يَتَحَدَّثُ، ثُمَّ انفَتَلَ، فَقَالَ النَّبِيّ : «**اطْلُبُوهُ وَاقْتُلُوهُ**» فَقَتَلَهُ، فَنَفَّلَهُ سَلَبَهُ.

قال النووي : وفيه قتل الجاسوس الكافر الحربي وهو كذلك بإجماع المسلمين وفي رواية النسائي أن النبي كان أمرهم بطلبه وقتله.

وأما الجاسوس المعاهد والذمي فقال مالك والأوزاعي يصير ناقضا للعهد فإن رأى استرقاقه أرقه ويجوز قتله.

وقال جماهير العلماء لا ينتقض عهده بذلك قال أصحابنا إلا أن يكون قد شرط عليه انتقاض العهد بذلك.

وأما الجاسوس المسلم فقال الشافعي والأوزاعي وأبوحنيفة وبعض المالكية وجماهير العلماء رحمهم الله تعالى يعزره الإمام بما يرى من ضرب وحبس ونحوهما ولا يجوز قتله وقال مالك يجتهد فيه الإمام ولم يفسر الاجتهاد.

وقال القاضي عياض : قال كبار أصحابه يقتل قال واختلفوا في تركه بالتوبة بل وفي حديث علي السالف جواز قتل الجاسوس المسلم لمصلحة الكافرين، وإنما الذي رفع القتل عن حاطب هو نهي النبي عمر عن قتله، ثم بين سبب ذلك بقوله: «**لَعَلَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أَهلِ بَدرٍ فَقَالَ اعملوا مَا شِئتم**» أما غير حاطب فأمره إلى الإمام إن شاء قتله تعزيرا له ولأمثاله، وإن شاء ترك، وقتل جاسوس الكافرين أحب إلينا، ولي رسالة بحمد الله في حكم التجسس على المسلمين .

ومنهم من أراد تفريق جماعة المسلمين:

فقد أخرج مسلم (١٨٥٢) عن عَرفَجَةَ قَالَ سَمِعت رَسولَ الله يَقول «**إِنَّه سَتكون هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَن أَرَادَ أَن يفَرِّقَ أَمرَ هَذِهِ الأَمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضرِبوه بِالسَّيفِ كَائِنًا مَن كَانَ**».

وفي رواية: «**مَن أَتَاكم وَأَمركم جَمِيعٌ عَلَى رَجلٍ وَاحِدٍ يرِيد أَن يَشقَّ عَصَاكم أَو يفَرِّقَ جَمَاعَتَكم فَاقتلوه**».

قال النووي في المجموع (١٢/٢٤١): فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام وأراد تفريق جماعة المسلمين ونحو ذلك وينهى عن ذلك فإن لم ينته قوتل وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدرًا، فقوله: «**فاضربوه بالسيف**» وفي رواية: «**فاقتلوه**» معناه إذا لم يندفع إلا بذاك. اهـ

ومنهم من بويع له في وجود خليفة غيره:

لما أخرج مسلم (١٨٤٤): عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُالله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله فِي سَفَرٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ الله : الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ الله ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ**».

وأخرج (١٨٥٣) عَن أَبِي سَعِيدٍ الخدرِيِّ قَالَ قَالَ رَسول الله «**إِذَا بويعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فاقتلوا الآخَرَ منهما**».

قال النووي (١٢/ ٢٤١): هذا محمول على ما إذا لم يندفع إلا بقتله. اهـ

ومنهم الساحر:

والسحر تعلمه وتعليمه وتعاطيه كفر بالله ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ

يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٠٢].

أخرج عبدالرزاق في المصنف (١/ ١٨١-١٨٢) رقم (١٨٧٤٨) عن ابن جريج عن عمرو بن دينار قال: سمعت بجالة التميمي قال: وَجَدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مُصْحَفًا فِي حِجْرِ غُلَامٍ فِي الْمَسْجِدِ فِيهِ: (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبُوهُمْ)، فَقَالَ: احْكُكْهَا يَا غُلَامُ، فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَحُكُّهَا وَهِيَ فِي مُصْحَفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَانْطَلَقَ إِلَى أُبَيٍّ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي شَغَلَنِي الْقُرْآنُ، وَشَغَلَكَ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ إِذْ تَعْرِضُ رِدَاءَكَ عَلَى عُنُقِكَ بِبَابِ ابْنِ الْعَجْمَاءِ. قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ الْجِزْيَةَ مِنَ الْمَجُوسِ حَتَّى شَهِدَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَنَّ النَّبِيَّ أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ. قَالَ: وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى جَزْءِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَمِّ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ: أَنِ اقْتُلْ كُلَّ سَاحِرٍ، وَفَرِّقْ بَيْنَ كُلِّ امْرَأَةٍ وَحَرِيمِهَا فِي كِتَابِ اللهِ، وَلَا يُزَمْزِمَنَّ. وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِسَنَةٍ. قَالَ: فَأَرْسَلْنَا فَوَجَدْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ، فَضَرَبْنَا أَعْنَاقَهُنَّ، وَجَعَلْنَا نَسْأَلُ الرَّجُلَ: مَنْ عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: أُمُّهُ ، أُخْتُهُ ، ابْنَتُهُ ، فَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمْ ، وَصَنَعَ جَزْءٌ طَعَامًا كَثِيرًا، وَأَعْرَضَ السَّيْفَ فِي حِجْرِهِ، وَقَالَ: لَا يُزَمْزِمَنَّ أَحَدٌ إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، فَأَلْقَوْا أَخِلَّةً مِنْ فِضَّةٍ كَانُوا يَأْكُلُونَ بِهَا، حِمْلَ بَغْلٍ مَا سَدَّهَا. قَالَ: وَأَمَّا شَأْنُ أَبِي بُسْتَانٍ فَإِنَّ النَّبِيَّ قَالَ لِجُنْدَبٍ: «**جُنْدُبٌ وَمَا جُنْدُبٌ يَضْرِبُ ضَرْبَةً يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ**» فَإِذَا أَبُوبُسْتَانٍ يَلْعَبُ فِي أَسْفَلِ الْحِصْنِ عِنْدَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ وَهُوَ أَمِيرُ الْكُوفَةِ وَالنَّاسُ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ عَلَى سُورِ الْقَصْرِ - يَعْنِي وَسْطَ الْقَصْرِ - فَقَالَ جُنْدَبٌ: وَيْلَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا يَلْعَبُ بِكُمْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَفِي أَسْفَلِ الْقَصْرِ، إِنَّمَا هُوَ فِي أَسْفَلِ الْقَصْرِ، ثُمَّ انْطَلَقَ،

وَاشْتَمَلَ عَلَى السَّيْفِ ثُمَّ ضَرَبَهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: قَتَلَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَمْ يَقْتُلْهُ، وَذَهَبَ عَنْهُ السِّحْرُ، فَقَالَ أَبُوبُسْتَانٍ: قَدْ نَفَعَنِي اللهُ بِضَرْبَتِكَ وَسَجَنَهُ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَتَنَقَّصَ ابْنَ أَخِيهِ أَثِيَّةَ وَكَانَ فَارِسَ الْعَرَبِ حَتَّى حَمَلَ عَلَى صَاحِبِ السِّجْنِ فَقَتَلَهُ وَأَخْرَجَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ:

أَفِي مَضْرَبِ السُّحَّارِ يُسْجَنُ ... وَيُقْتَلُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ الْأَوَائِلُ
فَإِنْ يَكُ ظَنِّي بِابْنِ سَلْمَى ... هُوَ الْحَقُّ يُطْلَقُ جُنْدَبٌ أَوْ يُقَاتَلُ

فَنَالَ مِنْ عُثْمَانَ فِي قَصِيدَتِهِ هَذِهِ، فَانْطَلَقَ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا يُقَاتِلُ حَتَّى مَاتَ لِعَشْرِ سَنَوَاتٍ مَضَيْنَ مِنْ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ يَقُولُ: مَا أَحَدٌ بِأَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ أَثِيَّةَ ، نَفَاهُ عُثْمَانُ فَلَا أَسْتَطِيعُ أُؤَمِّنُهُ وَلَا أَرُدُّهُ.

هذا أثر صحيح، والصحابي إن لم يوجد له مخالف ففعله حجة على الصحيح، كما هو مقرر في الأصول، والساحر كافر، والكافر يقتل ردة وإن قَتَلَ بسحره ثم تاب قتِلَ حدًا ولا يجوز تعلم السحر ولا تعليمه ولا إتيان أهله فرسول الله يقول: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**» أخرجه البزار عن جابر بسند حسن، وهو عند أحمد من حديث أبي هريرة، وفيه انقطاع، وأما من أتاهم ولم يصدقهم «**لَا تُقْبَلُ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**» أخرجه مسلم عن بعض أزواج النبي .

والساحر كافر لأمور:

الأول: ادعاء علم الغيب.

الثاني: تعاطي المكفرات من امتهان المصحف وتضييع الفرائض وغير ذلك.

قال عبدالرزاق (١٠/ ١٨٠): عَنْ عَبْدِالله، أَوْ عُبَيْدِالله بْنِ عُمَرَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّ جَارِيَةً لِحَفْصَةَ سَحَرَتْهَا، وَاعْتَرَفَتْ بِذَلِكَ، فَأَمَرَتْ بِهَا عَبْدَالرَّحْمَنِ ابْنَ زَيْدٍ فَقَتَلَهَا، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا عُثْمَانُ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا تُنْكِرُ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ امْرَأَةٍ سَحَرَتْ وَاعْتَرَفَتْ؟ فَسَكَتَ عُثْمَانُ. صحيح إن كان الراوي هو عبيدالله العمري أما عبدالله فضعيف، ويشهد له ما بعده.

قال عبدالرزاق (١٠/ ١٨٤): عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ حَفْصَةَ سُحِرَتْ، فَأَمَرَتْ عُبَيْدَالله أَخَاهَا فَقَتَلَ سَاحِرَتَيْنِ. صحيح، وإن كان في رواية معمر عن البصريين كلام، لكنها لا تنزل عن الاحتجاج.

قال البيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٦): أخبرنا أبومحمد عبدالله بن يحيى بن عبدالجبار السكري ببغداد، أنبأ إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا سعدان بن نصر، ثنا أبومعاوية، عن عبيدالله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر ، أن حفصة بنت عمر سحرتها جارية لها، فأقرت بالسحر وأخرجته، فقتلتها. فبلغ ذلك عثمان فغضب، فأتاه ابن عمر فقال: جاريتها سحرتها أقرت بالسحر وأخرجته، قال فكف عثمان ، قال وكأنه إنما كان غضبه لقتلها إياها بغير أمره.

قال الشافعي وأمر عمر أن تقتل السحار - والله أعلم - إن كان السحر شركًا، وكذلك أمر حفصة .

وقال (٨/ ١٣٦): وقد أخبرنا أبوبكر بن الحارث الأصبهاني، أنبأ علي بن عمر الحافظ، ثنا القاضي المحاملي، ثنا زياد بن أيوب، ثنا هشيم، أنبأ خالد، عن أبي عثمان النهدي، عن جندب البجلي أنه قتل ساحرًا كان عند الوليد بن عقبة ثم قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[الأنبياء:٣]. صحيح.

فإلى الله المشتكى من غربة الإسلام، وظهور السحرة والمشعوذين، حتى أصبحت لديهم القنوات الفضائية والأماكن المشهورة. فاللهم سلم من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ومنهم اللوطي:

قال ابن أبي شيبة (٥/ ٤٩٦): غَسَّانُ بْنُ مُضَرَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا حَدُّ اللُّوطِيِّ؟ قَالَ: يُنْظَرُ أَعْلَى بِنَاءٍ فِي الْقَرْيَةِ فَيُرْمَى بِهِ مُنَكَّسًا، ثُمَّ يُتْبَعُ بِالْحِجَارَةِ. صحيح.

وقال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ خُثَيْمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، أَنَّهُمَا سَمِعَا ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ فِي الرَّجُلِ يُوجَدُ أَوْ يُؤْخَذُ عَلَى اللُّوطِيَّةِ: إِنَّهُ يُرْجَمُ. صحيح.

قال ابن قدامة في المغني (١٢/ ٣٤٨): ومَن تَلَوَّطَ، قتل، بكرًا كان أو ثيِّبًا، في إحدى الرِّوايتين.

ولأنه إجماع الصحابة ، فإنهم أجمعوا على قتله، وإنما اختلفوا في صفته. واحتج أحمد بقول علي عليه السلام، وأنه كان يرى رجمه، ولأن الله تعالى عذب قوم لوط بالرجم، فينبغي أن يعاقب من فعل فعلهم بمثل عقوبتهم. وقول من أسقط الحد عنه يخالف النّصّ والإجماع، وقياس الفرج على غيره لا يصحّ؛ لما بينهما من الفرق. إذا ثبت هذا، فلا فرق بين أن يكون في مملوك له أو أجنبيّ؛ لأنّ الذّكر ليس بمحلّ لوطء الذّكر، فلا يؤثّر ملكه له. اهـ

ومنهم أهل الغي:

والخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم وقول الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التوبة:١١٥]، وَكَانَ ابن عمَرَ يَرَاهم شِرَارَ خَلقِ الله. وَقَالَ: إِنَّهم انطَلَقوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَت فِي الكفَّارِ فَجَعَلوهَا عَلَى المؤمِنِينَ.

وقد تقدم الكلام في كيفية التعامل معهم.

فأمَّا حكم المحارب: فأولى الأقوال فيه ما شهد له ظاهر الآية. وهو: تخيير الإمام بين القتل مع الصَّلب، والقطع، والنفي. فأيّ ذلك رأى الإمام أنكى، أو أحق، فعل... اهـ من المفهم (٥/ ٢١-٢٢)

وفي البخاري (٦٩٣٠) عن عَلِيّ : إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ الله حَدِيثًا، فَوَالله لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَإِنَّ الحَرْبَ خِدْعَةٌ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: «**سَيَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**» وأخرجه مسلم (١٠٦٦).

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٨/ ٥٣٠) وقد أجمع المسلمون على وجوب قتال الخوارج والروافض ونحوهم إذا فارقوا جماعة المسلمين كما قاتلهم علي فكيف إذا ضموا إلى ذلك من أحكام المشركين.

قال النووي : قال القاضي: أجمع العلماء على أن الخوارج وأشباههم من أهل البدع والبغى متى خرجوا على الإمام وخالفوا رأى الجماعة وشقوا العصا

وجب قتالهم بعد إنذارهم والاعتذار إليهم، قال الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[الحجرات:٩]، لكن لا يجهز على جريحهم، ولا يتبع منهزمهم، ولا يقتل أسيرهم، ولا تباح أموالهم، وما لم يخرجوا عن الطاعة وينتصبوا للحرب لا يقاتلون، بل يوعظون ويستتابون من بدعتهم وباطلهم. وهذا كله ما لم يكفروا ببدعتهم، فإن كانت بدعة مما يكفرون به جرت عليهم أحكام المرتدين. وأما البغاة الذين لا يكفرون فيرثون ويورثون ودمهم في حال القتال هدر وكذا أموالهم التي تتلف في القتال، والأصح أنهم لا يضمنون أيضًا ما أتلفوه على أهل العدل في حال القتال من نفس ومال، وما أتلفوه في غير حال القتال من نفس ومال ضمنوه، ولا يحل الانتفاع بشيء من دوابهم وسلاحهم في حال الحرب عندنا وعند الجمهور. اهـ

قتل شارب الخمر المستحل لها:

فقد أخرج النسائي (٥٦٧٧) وأبوداود (٤٤٨٤): عن أبي هريرة عن رسول الله قال: «**إِذَا سَكِرَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ سَكِرَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ سَكِرَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ فَاقْتُلُوهُ**».

وقال الإمام أحمد (٤/ ٢٣١): حدثنا الضحاك بن مخلد، ثنا عبدالحميد يعني ابن جعفر، قال: ثنا يزيد بن أبي حبيب، ثنا مرثد بن عبدالله اليزني، قال: ثنا الديلمي أنه سأل رسول الله قال: إنا بأرض باردة، وإنا لنستعين بشراب يصنع لنا من القمح، فقال رسول الله : «**أَيُسْكِرُ؟**» قال: نعم، قال: «**فَلَا تَشْرَبُوهُ**»، فأعاد عليه الثانية، فقال له رسول الله : «**أَيُسْكِرُ؟**» قال: نعم، قال: «**فَلَا تَشْرَبُوهُ**»، قال فأعاد عليه الثالثة، فقال له رسول الله : «**أَيُسْكِرُ؟**» قال: نعم، قال: «**فَلَا تَشْرَبُوهُ**» قال: فإنهم لا يصبرون عنه! قال: «**فَإِنْ لَمْ يَصْبِرُوا عَنْهُ فَاقْتُلُوهُمْ**».

والأصل أن حد الخمر أربعين لفعل النبي ذلك، وذهب عمر وبعض أهل العلم إلى أنه ثمانين، ففي الصحيحين عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ أَنَّ نَبيَّ الله جَلَدَ في الخَمرِ بِالجَرِيدِ وَالنِّعَالِ، ثمَّ جَلَدَ أَبو بَكرٍ أَربَعِينَ، فَلَمَّا كَانَ عمَر وَدَنَا النَّاس مِنَ الرِّيفِ وَالقرَى قَالَ: مَا تَرَونَ في جَلدِ الخَمرِ؟ فَقَالَ عَبدُالرَّحمَنِ بنُ عَوفٍ: أَرَى أَن تَجعَلَهَا كَأَخَفِّ الحدودِ، قَالَ: فَجَلَدَ عمَر ثَمَانِينَ.

وزد على ذلك ما في البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب أَنَّ رَجلًا عَلَى عَهدِ النَّبِيِّ كَانَ اسمه عَبدَالله وَكَانَ يلَقَّب حِمَارًا، وَكَانَ يضحِك رَسولَ الله ، وَكَانَ النَّبِيّ قَد جَلَدَه فِي الشَّرَابِ، فَأتِيَ بِهِ يومًا، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجلٌ مِن القَومِ: اللهمَّ العَنه! مَا أَكثَرَ مَا يؤتَى بِهِ! فَقَالَ النَّبِيّ : «**لَا تَلعَنوه، فَوَالله مَا عَلِمْتُ إِنَّه يُحِبُّ اللهَ وَرَسولَهُ**».

والعمل على هذا عند أهل العلم، أما من استحله فإنه يقتل لكفره لا حدًّا، فتنبه.

ومنهم تارك الصلاة:

اختلف العلماء في كفر تارك الصلاة تكاسلًا مع اتفاقهم على كفر جاحدها، والصحيح كفر من ترك الصلاة جحودًا أو تكاسلًا؛ لقول رسول الله : «**الْعَهْد الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهمُ الصَّلَاة، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**» أخرجه الترمذي (٢٦٢١) عن بريدة، وعند مسلم (٨٢) من حديث جابر يَقول: سَمِعْت رَسولَ الله يَقول: «**بَيْنَ الرَّجلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكفْرِ تَرْك الصَّلَاةِ**».

قال ابن القيم في كتاب الصلاة : (٥-٦): لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم

من إثم قتل النفس وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة. ثم اختلفوا في قتله وفي كيفية قتله وفي كفره، فأفتى سفيان بن سعيد الثوري وأبوعمرو الأوزاعي وعبدالله بن المبارك وحماد بن زيد ووكيع بن الجراح ومالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأصحابهم بأنه يقتل. ثم اختلفوا في كيفية قتله، فقال جمهورهم: يقتل بالسيف ضربًا في عنقه، وقال بعض الشافعية: يضرب بالخشب إلى أن يصلي أو يموت، وقال ابن شريح: ينخس بالسيف حتى يموت؛ لأنه أبلغ في زجره وأرجى لرجوعه. اهـ

[ما لا يفنى من المخلوقات]

٧٧- وَكُلُّ شَيْءٍ مِمَّا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ يَفْنَى إِلَّا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَالْعَرْشَ وَالْكُرْسِيَّ وَاللَّوْحَ وَالْقَلَمَ وَالصُّورَ، لَيْسَ يَفْنَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَبَدًا.

الشرح:

وهذه الفقرة وما يتعلق بها رد على الجهمية القائلين بفناء الجنة والنار، والصواب، أن من المخلوقات ما خلق للفناء، ومنها ما هو مخلوق للبقاء؛ فالجنة والنار والعرش والكرسي واللوح والقلم والصور والأرواح وعجب الذنب خلقها الله للبقاء لا للفناء، وقد نقل الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم.

وقد نُظِمَتْ في قول أحدهم:

ثَمَانِيَــةٌ حُكْـــمُ الْبَقَـــاءِ يَعُمُّهَـــا ... مِنَ الْخَلْقِ وَالْبَاقِينَ فِي حَيِّزِ الْعَدَمْ
هُمُ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ نَارٌ وَجَنَّــةٌ ... وَعَجْبٌ وَأَرْوَاحٌ كَذَا اللَّوْحُ وَالْقَلَمْ

وأما قوله الله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن:٢٦] أي: مما خلقه الله ، وأوجب عليه الفناء.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢/ ٦١٤): أما قوله: (إن الجنة والنار مخلوقتان) فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة!! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به

شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا!! وقاسوه على خلقه في أفعالهم.

وقوله: (**لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان**) هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.

وقال ببقاء الجنة، وقال بفناء النار: جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها.

وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة، وكفروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض.

وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث!!! وهو عمدة أهل الكلام المذموم، التي استدلوا بها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم، فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي، يمنعه في المستقبل!!! فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي!! وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة!!

وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل ربا قادرا فعالا لما يريد، فإنه لم يزل حيًّا عليمًا قديرًا، ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعًا عليه لذاته.

ثم ينقلب فيصير ممكنا لذاته، من غير تجدد شيء، وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكنا له عند ذلك الحد، ويكون قبله ممتنعًا عليه، فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده.

فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود:١٠٨]، أي غير مقطوع، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

واختلف السلف في هذا الاستثناء:

فقيل: معناه إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها، لا لكلهم. وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف. وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل: هو استثناء استثناه الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه. وقيل: (إلا) بمعنى الواو، وهذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف، ومنهم من يجعل (إلا) بمعنى (لكن)، فيكون الاستثناء منقطعًا، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولا إلا ما شئت، أي: سوى ما شئت، أو لكن ما شئت من الزيادة عليه.

وقيل: الاستثناء لإعلامهم، بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله، لأنهم لا يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[الإسراء:٨٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[الشورى:٢٤]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾[يونس:١٦]، ونظائره كثيرة، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن (ما) بمعنى (من) أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء، وقيل غير ذلك.

وعلى كل تقدير، فهذا الاستثناء من المتشابه، وقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ محكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾[ص:٥٤]، وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾[الرعد:٣٥]، وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحجر:٤٨].

وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾[الدخان:٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[هود:١٠٨] تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذاك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة: كقوله ﷺ: «**مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ**»، وقوله: «**يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا**».

وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ».

وأما أبدية النار ودوامها، فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة نارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي!!

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي ، وأكذبهم، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٨٠-٨١].

الرابع: يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تفنى بنفسها، لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه!! وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار، كما تقدم.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جمادًا، لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل كما تقدم.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار، بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ .

وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان، وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتها: فمن أدلة القول الأول منهما: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[هود:١٠٦-١٠٧]، ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾[النبأ:٢٣].

وهذا القول -أعني القول بفناء النار دون الجنة- منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم. أقول: ولم يصح عن أحد منهم.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[المائدة:٣٧] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[الزخرف:٧٥]، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ:٣٠]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[النساء:١٦٩]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحجر:٤٨]، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٧]، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[الأعراف:٤٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[فاطر:٣٦]، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[الفرقان:٦٥] أي: مقيمًا لازمًا.

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: (لا إله إلا الله)، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم

مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان، وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما. اهـ مختصرًا

إثبات العرش:

قوله: (**والعرش**) من عقيدة أهل السنة الإيمان بالعرش العظيم الذي استوى عليه ربنا سبحانه وتعالى، استواءً يليق بجلاله، وهو أعلى المخلوقات وأعظمها على ما يأتي بيانه.

قال محمد ابن أبي زمنين في كتابه أصول السنة: ومن قول أهل السنة: أن الله خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوى عليه كيف شاء، كما أخبر عن نفسه في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾.

والعرش في اللغة: السرير، قال الطبري في تفسيره (٢٤/ ٣٧) عند قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾[الزمر:٧٥] قال: يعني بالعرش السرير. اهـ

وقال البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٧٢): وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحملهم وتعبدهم بتعظيمه والطواف كما خلق في الأرض بيتًا وأمر آدم بالطواف به. اهـ

الإيمان بالعرش:

وقال ابن كثير في البداية (١/ ١٢): هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كلقبه على العالم وهو سقف المخلوقات. اهـ

والدليل على أن الملائكة تحمله قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[غافر:٧] ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[الحاقة:١٧]، والدليل على ما ذكره ابن كثير حديث أبي سعيد عند البخاري ومسلم بلفظ: «**النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**».

وللعرش صفات عظيمة وصفه الله بها:

قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾[غافر:١٥]، وقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[المؤمنون:١١٦] وقال الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[النمل:٢٦] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾[البروج:١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الرعد:٢] في غير ما آية من القرآن، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[الحاقة:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[الزمر: ٧٥]، وفي الدعاء المروي في الصحيح في دعاء الكرب: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَلِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**» أخرجاه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠) من حديث ابن عباس .

والعرش أعظم المخلوقات:

قال تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾[البروج:١٥] على خفض المجيد يكون وصفًا للعرش، وعلى الرفع يكون اسمًا لله ، وقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٩].

وهو مركب من أعضاء وأجزاء:

قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٤٠٥): قوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٩] إشارة إلى أن العرش مربوب وكل مربوب مخلوق... وفي إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء والجسم المؤلف محدث مخلوق. اهـ

فائدة: (ذو العرش) ما يقال فيه (ذو) شأنه شأن المضافات إلى الله، وهي على نوعين:

١- إضافة الصفة إلى الموصوف كما في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[الرحمن:٧٨]، فالجلال والإكرام وصفان لله تعالى.

٢- إضافة المخلوق إلى الخالق ومنه قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي﴾[غافر:١٥] فالعرش مخلوق من مخلوقات الله وهذه الإضافة تقتضي التشريف والتكريم.

وحملة العرش من أعظم المخلوقات:

أخرج أبو داود (٤٧٢٧) من حديث جابر قال: قال رسول الله : **«أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّث عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الله مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»**.

وهو أعلى المخلوقات:

لحديث: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ» أخرجه البخاري (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة ، والله مستوى على عرشه وهو مستغنٍي عنه فمن زعم أن الله مفتقر إلى شيء من خلقه فقد كفر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[إبراهيم:٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥]، مستوى عليه بأن من خلقه.

أين كان العرش قبل خلق السموات والأرض؟

على الماء كما أخبر الله بذلك حيث قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود:٧].

ويدل على ذلك حديث عمران بن حصين عند البخاري (٧٤١٨) ولفظه: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ».

وحديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (٢٦٥٣): «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»، وحديث أبي هريرة عند الشيخين البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣) أن النبي قال تعالى: «إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ - أَوِ القَبْضُ - يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ».

قال ابن كثير : وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود:٧] فكما وصف تعالى نفسه إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام والعزة والسلطان والقدرة والملك والحلم والعلم والرحمة والنعمة والفعال لما يريد.

وعن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال سئل ابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ على أي شيء كان الماء قال: على متن الريح.

ومذهب أهل البدع في العرش:

في الإبانة لابن بطة (٣/ ١٦٨): باب ذكر العرش والإيمان بأن لله تعالى عرشا فوق السموات السبع: اعلموا رحمكم الله أن الجهمية تجحد أن لله عرشا وقالوا لا نقول إن الله على العرش لأنه أعظم من العرش ومتى اعترفنا أنه على العرش فقد حددناه وقد خلت منه أماكن كثيرة غير العرش فردوا نص التنزيل وكذبوا أخبار الرسول قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٩]، وقال: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود:٧] وجاءت الأخبار وصحيح الآثار من جهة النقل عن أهل العدالة وأئمة المسلمين عن المصطفي من ذكر العرش ما لا ينكره إلا الملحدة الضالة. اهـ

وفي نقض الدارمي (٤١٠) باب ما جاء في العرش:

ثم انتدبت أيها المريسي مكذبا بعرش الله وكرسيه مطنبا في التكذيب بجهلك متأولا في تكذيبه بخلافة ما تعقله العلماء فرويت عن ابن عباس أنه قال وسع كرسيه السماوات والأرض علمه.

وقد اختلف العلماء في أول مخلوق؛ فذهب بعض أهل العلم إلى أن العرش هو أول المخلوقات، واستدل أصحاب هذا القول بحديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (٢٦٥٣): «**كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبلَ أَن يَخلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمسِينَ الف سَنَةٍ قَالَ: وَعَرشه عَلَى المَاءِ**».

وذهب أصحاب القول الثاني: أن القلم مخلوق قبل العرش واستدلوا بحديث عبادة بن الصامت عند أحمد (٥/ ٣١٧) وغيره ولفظه: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ**» والصحيح أن العرش أول المخلوقات، وأما حديث عبادة فإنما فيه أن الله لما خلق القلم أمره أن يكتب ما كان وما يكون إلى الساعة وليس معناه: أن أول المخلوقات هو القلم والحمد لله رب العالمين.

وقد تكلم على المسألة ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢٥٦-٢٥٧).

إثبات الكرسي:

وقوله: (**الكرسي**) الكرسي ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، قال الله: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[البقرة:٢٥٥].

قَالَ مُحَمَّدٌ ابن أبي زمنين في أصول السنة: وَمِن قَولِ أَهلِ السُّنَّةِ: أَنَّ الكرسِيَّ بَينَ يَدَي العَرشِ وَأَنَّه مَوضِع القَدَمَينِ.

وقد أنكر الكرسي أهل البدع وزعموا أن الكرسي علم الله، وقد رد الدارمي على المريسي ومن قال بقوله: هذا القول الباطل المخالف للكتاب والسنة والإجماع، ثم انتدبت أيها المريسي مكذبًا بعرش الله وكرسيه مطنبا في التكذيب بجهلك متأولًا في تكذيبه بخلافة ما تعقله العلماء فرويت عن ابن عباس أنه قال وسع كرسيه السماوات والأرض وعلمه قلت فمعنى الكرسي العلم فمن ذهب إلى غير العلم

أكذبه كتاب الله تعالى، فيقال لهذا المريسي: أما ما رويت عن ابن عباس، فإنه من رواية جعفر الأحمر وليس جعفر ممن يعتمد على روايته إذ قد خالفته الرواة الثقات المتقنون وقد روى مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الكرسي خلاف ما ادعيت على ابن عباس.

حدثناه يحيى وأبوبكر بن أبي شيبة عن وكيع عن سفيان عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله فأقر المريسي بهذا الحديث وصححه وزعم أن وكيعا رواه إلا أن تفسير القدمين هاهنا في دعواه الثقلين قال يضع الله علمه وقضاءه للثقلين يوم القيامة فيحكم به فيهم، فهل سمع سامع من العالمين بمثل ما ادعى هذا المريسي ويلك عمن أخذته ومن أي شيطان تلقيته، فإنه ما سبقك إليها آدمي نعلمه أيحتاج الرب أن يضع محاسبة العباد على كتاب علمه وأقضيته يحكم بها فيه بينهم ولا أراك مع كثرة جهلك إلا وستعلم أنك احتججت بباطل جعلته أغلوطة تغالط بها أغمار الناس وجهالهم.

وأما قولك من ذهب في الكرسي إلى غير العلم أكذبه كتاب الله ويلك وأي آية من كتاب الله تكذبه أأنزل على غياث اليهودي في تكذيبه آية لم تنزل على محمد ويلك، وهل بقى أحد من نساء المسلمين وصبيانهم إلا وقد عقل أمر العرش والكرسي وآمن بهما إلا أنت ورهطك وليس العرش والكرسي مما ينبغي أن يسند في تثبيتهما الآثار ويؤلف فيهما الأخبار لولا أغلوطاتك هذه لما أن علمهما، والإيمان بهما خلص إلى النساء والصبيان إلا إليك وإلى أصحابك طهر الله منكم بلاده وأراح منكم

عباده، والعجب من استطالتك بجهالتك هذه وأغلوطاتك إذ تقول لمن هو أعلم بالله وبكتابه منك إن لم تعلموا تفسير ما قلنا وإلا فسلوا العلماء ولا تعجلوا بالقضاء.

ويلك أيها المريسي! قد سألنا العلماء وجالسنا الفقهاء فوجدناهم كلهم على خلاف مذهبك، فَسَمِّ عالِـمًا ممن مضى وممن غبر يحتج بمثل هذه العمايات ويتكلم بها حتى نعرفه فنسأله، فإنا ما رأينا متكلما ينتحل الإسلام أظهر كفرًا وأسمج كلامًا وأقل إصابة في التأويل منك. اهـ

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٦/ ٥٨٤): الحمد لله، بل العرش موجود بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، وكذلك الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع جمهور السلف، وقد نقل عن بعضهم: أن كرسيه علمه، وهو قول ضعيف؛ فإن علم الله وسع كل شيء كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾[غافر:٧]، والله يعلم نفسه ويعلم ما كان وما لم يكن فلو قيل: وسع علمه السموات والأرض لم يكن هذا المعنى مناسبًا؛ لا سيما وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ أي: لا يثقله ولا يكرثه، وهذا يناسب القدرة لا العلم والآثار المأثورة تقتضي ذلك؛ لكن الآيات والأحاديث في العرش أكثر من ذلك؛ صريحة متواترة، وقد قال بعضهم: إن الكرسي هو العرش؛ لكن الأكثرون على أنهما شيئان. اهـ

والمسافة بين العرش والكرسي ما صح عن ابن مسعود ؛ فعند ابن أبي زمنين في أصول السنة وغيره: عَن زِرٍّ أَنَّ عَبدَالله بنَ مَسعودٍ قَالَ: مَا بَينَ سَمَاءِ الدّنيَا وَالَّتِي يَلِيهَا مَسِيرَة خَمسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَينَ كلِّ سَمَاءَينِ مَسِيرَة خَمسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَبَينَ الكرسِيِّ خَمسِمِائَةِ عَامٍ، وَبينَ الكرسِيِّ وَالمَاءِ مَسِيرَة خَمسِمِائَةِ عَامٍ، وَالعَرش فَوقَ المَاءِ، وَالله فَوقَ العَرشِ، وَهوَ يَعلَم مَا أَنتم عَلَيهِ.

إثبات اللوح والقلم:

قوله: **(اللَّوحِ وَالقَلَم)** قَالَ مُحَمَّد بن أبي زمنين في أصول السنة : وَمِن قَولِ أَهلِ السّنَّةِ أَنَّ اللَّوحَ المَحفوظَ وَالقَلَمَ حَقٌّ يؤمِنونَ بِهِمَا، وَقَالَ عَزَّ مِن قَائِلٍ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾[البروج:٢١-٢٢]، وَقَالَ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[الرعد: ٣٩]، وَقَالَ: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾[ق:٤]، وقال الله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[القلم:١].

قال ابن أبي العز : فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[القلم:١].

والقلم الثاني: قلم الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي ﷺ ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها، أمر العالم العلوي والسفلي. اهـ

وعن عبَادَة بن الوَلِيدِ بنِ عبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: دَخلت عَلَى عبَادَةَ... فَقَالَ: يَا بنَيَّ إِنِّي سَمِعت رَسولَ الله يَقول: «**إِنَّ أَوَّلَ شَيءٍ خَلَقَه الله القَلَمَ ثمَّ قَالَ: اكتب فَجَرَى فِي تِلكَ السَّاعَةِ بِمَا هوَ كَائِنٌ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ**» وَذَكَرَ الحَدِيثَ. أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، أبوداود (٤٧٠٠) وغيرهم.

إثبات الصور:

قوله: (**والصور**) الصور هو قرن ينفخ فيه وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع قال الله : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[يس:٥١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[المؤمنون:١٠١]، وفي حديث أبي سعيد عند أبي داود: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ**»، وأخرجه الترمذي (٣٢٤٣) من طريق عطية العوفي لكن الحديث حسن من غير هذه الطريق وعند الترمذي (٣٢٤٤) عن عبدالله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: «**قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ**».

والنفخ في الصور يكون مرتين فبقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[المؤمنون:١٠١] قال القرطبي: هذا في النفخة الثانية، وقال الشوكاني: قيل هذه هي النفخة الأولى، وقيل: الثانية، وهذا أولى، وهي النفخة التي تقع بين البعث والنشور.

وأما حديث أبي هريرة عند الطبراني (٢٧١١٧) ففيه مجهول وقد ضعفه القرطبي في التفسير و التذكرة ، ومما يدل على أنهما نفختان فقط ما أخرجه مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبدالله بن عمرو قال : «**ثمَّ ينفخ فِي الصّورِ فَلَا يَسمَعه أَحَدٌ إِلَّا أصغى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا قَالَ: وَأَوَّل مَن يَسمَعه رَجلٌ يَلوط حَوضَ إِبلِهِ قَالَ: فَيَصعَق وَيَصعَق النَّاس، ثمَّ يرسِل الله، أَو قَالَ: ينزِل الله مَطرًا كَأَنَّه الطَّلّ أَو الظِّلّ نعمَان الشَّاكّ، فَتَنبت مِنه أَجسَاد النَّاسِ، ثمَّ ينفَخ فِيهِ أخرَى، فَإِذا هم قِيَامٌ يَنظرونَ**».

وبين النفختين أربعون سنة ففي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٩٥٥) قال: قال رسول الله : «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَربَعونَ، قَالوا: يَا أَبَا هرَيرَة، أَربَعونَ يَومًا قَالَ: أَبَيت، قَالوا: أَربَعونَ شَهرًا، قَالَ: أَبَيت، قَالوا: أَربَعونَ سَنَةً، قَالَ: أَبَيت، ثمَّ ينزِل الله مِن السَّمَاءِ مَاءً فَيَنبتونَ كَمَا يَنبت البَقل قَالَ: وَلَيسَ مِن الإِنسَانِ شَيءٌ إِلَّا يَبلَى إِلَّا عَظمًا وَاحِدًا وَهوَ عَجب الذَّنَبِ، وَمِنه يرَكَّب الخَلق يَومَ القِيَامَةِ**».

تنبيه: كل الأحاديث التي فيها ماهية ما خلق منه العرش أو الكرسي أو اللوح أو القلم لم يثبت منها شيء، والله أخبرنا عنها، ولم يخبرنا عن ماهيتها، فالتوقف على الدليل أسلم وأحكم وأعلم.

[الإيمان بالبعث والنشور]

٧٨- ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ الْخَلْقَ عَلَى مَا مَاتُوا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُحَاسِبُهُمْ بِمَا شَاءَ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ.

الشرح:

الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة، والعقل والفطرة السليمة؛ فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، ورد على المنكرين، في غالب سور القرآن. وذلك: أن الأنبياء كلهم متفقون على الإيمان بالله، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم، وهو فطري، كلهم يقر بالرب، إلا من عاند، كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فإن منكريه كثيرون، ومحمد لما كان خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفي بين تفصيل الآخرة بيانا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء. ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ، وجعلوا هذا حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري!

والقرآن بين معاد النفس عند الموت، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى، في غير موضع، وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى، وينكرون معاد الأبدان، ويقول من يقول منهم: أنه لم يخبر به إلا محمد على طريق التخييل!! وهذا كذب، فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء، من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام.

وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم، فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٢٤ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[الأعراف:٢٤-٢٥]، ولما قال إبليس اللعين: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[الحجر:٣٦-٣٨]، وأما نوح عليه السلام فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[نوح:١٧-١٨].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الشعراء:٨٢-٨٣] إلى آخر القصة، وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[إبراهيم:٤١]، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٠].

وأما موسى عليه السلام فقال الله تعالى لما ناجاه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾[طه:١٥-١٦].

بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، وإنما آمن بموسى، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[غافر:٣٢-٣٣]، إلى قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[غافر:٣٩]، إلى قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦]، وقال

موسى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾[الأعراف: ١٥٦].

وقد أخبر الله في قصة البقرة: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[البقرة:٧٣].

وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، في آيات من القرآن، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[الزمر: ٧١].

وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا؛ فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة، فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد، يذكر ذلك فيها: في الدنيا والآخرة.

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[سبأ:٣] الآيات، وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾[يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[التغابن:٧].

وأخبر عن اقترابها، فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[القمر:١]، ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾[الأنبياء:١]، ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١

لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[المعارج:١-٧].

وذم المكذبين بالمعاد، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[الأنعام:٣١]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[الشورى:١٨]، ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[النمل:٦٦]، ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾[النحل:٣٨-٣٩]، ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[غافر:٥٩]، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء:٩٧-٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٤٩-٥٢].

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل: فإنهم قالوا أولًا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾؟!!! فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم، فهلا كنتم خلقا لا يفنيه الموت، كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟! فإن قلتم: كنا خلقًا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا؟!

وللحجة تقدير آخر، وهو: لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما، فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام، مع شدتها وصلابتها، بالإفناء والإحالة؛ فما الذي يعجزه فيما دونها؟ ثم أخبر أنهم يسألون سؤالا آخر بقولهم: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ إذا استحالت جسومنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾؛ فلما أخذتهم الحجة، ولزمهم حكمها، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع، وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾.

ومن هذا قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[يس:٧٨-٨٣].

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان، أن يأتي بأحسن من هذه الحجة، أو بمثلها، بألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضح الأدلة وصحة

البرهان لما قدر؛ فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد، اقتضى جوابًا، فكان في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ ما وفي بالجواب، وأقام الحجة وأزال الشبهة، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علمًا ضروريًا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾؛ فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده وصورته، فكذلك الثاني؛ فإذا كان تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟.

ثم أكد الأمر بحجة قاهرة، وبرهان ظاهر، يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾؛ فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة، من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم، على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار كان على حمل أوقية أشد اقتدارًا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض، على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيي عظامًا قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال في موضع آخر: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر:٥٧].

ثم أكد سبحانه ذلك وبينه ببيان آخر، وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره، الذي يفعل بالآلات والكلفة، والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آلة ومعين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته، وقوله للمكون: (كن) فإذا هو كائن كما شاءه وأراده.

ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[القيامة:٣٦-٤٠].

فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مهملًا عن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[المؤمنون:١١٥-١١٨].

فإن من نقله من النطفة إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم شق سمعه وبصره، وركب فيه الحواس والقوى، والعظام والمنافع، والأعصاب والرباطات التي هي

أشده، وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة، التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية؟ أم كيف تقتضي حكمته وعنايته أن يتركه سدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته، ولا تعجز عنه قدرته.

فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب، بالقول الوجيز، الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل، الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب، الذي لا تقع الظنون على أقرب منه.

وكم في القرآن من مثل هذا الاحتجاج، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[الحج:٥] إلى أن قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[الحج:٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٢-١٦].

وذكر قصة أصحاب الكهف، وكيف أبقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية، وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية، وقال فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ

ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾[الكهف:٢١]. اهـ من شرح ابن أبي العز للطحاوية (٢/ ٥٨٨).

وقوله: (**ويحاسبهم بما شاء**) قال الله : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[الانشقاق:٧-١٢].

وحساب المؤمنين يكون بعرض أعمالهم عليهم لتقريرهم بها يدل على ذلك ما أخرجه البخاري (٤٩٣٩) ومسلم (٢٨٧٦) قال: قال رسول الله : «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ**»، وفي لفظ: قال رسول الله : «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**» فقالت عائشة : جعلني الله فداك يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، قال: «**ذَلِكِ العَرْضُ، وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»، وفي رواية: «**هَلَكَ**».

ويدل على عرض المؤمنين على ربهم وتقريرهم بذنوبهم ما جاء عند البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨) عن ابن عمر قال: قال رسول الله : «**إِنَّ الله يدني المؤمن فَيَضع عَلَيهِ كَنَفَه وَيستره فَيَقول أَتعرف ذَنبَ كَذَا أَتعرف ذَنب كَذَا فَيَقول نَعَم أَي رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَه بِذنوبِهِ وَرَأَى فِي نَفسِهِ أَنَّه هَلَكَ قَالَ سَتَرتهَا عَلَيكَ فِي الدّنيَا وَأَنَا أَغفِرهَا لَكَ اليَومَ فَيعطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الكَافِر وَالمَنَافِقونَ فَيَقول الأَشهَاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾».

وقوله: (**فريق في الجنة وفريق في السعير**) إشارة إلى أن الناس صنفان: فريق يدخلون الجنة ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[النبأ:٣٦]، وفريق يدخلون النار لكفرهم

وعنادهم ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[النبأ:٢٦-٣٠].

قال الله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾[الشورى:٧]، وفي حديث عبدالله بن عمرو عند الترمذي (٢١٤١) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ : «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ، فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».

وأما ما ذكره الله من أمر أصحاب الأعراف فالصحيح أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم لكن مصيرهم إلى الجنة بعد ذلك.

[بيان قول الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾]

٧٩- وَيَقُولُ لِسَائِرِ الخَلْقِ مِمَّنْ لَمْ يُخْلَقْ لِلْبَقَاءِ: كُونُوا تُرَابًا.

الشرح:

بعد أن ذكر صنف المكلفين وما هم فيه من الجزاء، عقب بهذه الفقرة التي فيها أن المخلوقات غير المكلفة يفنيها الله بعد قصاصها من بعضها، وبيان هذا في قول الله : ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[النبأ:٤٠].

قال ابن كثير في تفسيره : أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابا، ولم يكن خلِق، ولا خرج إلى الوجود. وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطّرت عليه بأيدي الملائكة السّفرة الكرام البررة، وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين، والحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجمّاء من القرناء. فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني ترابا، فتصير ترابًا. اهـ

وقد تقدم الكلام على ما خلق للبقاء.

[الإيمان بالقصاص يوم القيامة]

٨٠- وَالْإِيمَانُ بِالقِصَاصِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ: بَنِي آدَمَ، وَالسِّبَاعِ، وَالْهَوَامِّ حَتَّى لِلذَرَّةِ مِنَ الذَرَّةِ، حَتَّى يَأْخُذَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلِأَهْلِ النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلِأَهْلِ الْجَنَّةِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَلِأَهْلِ النَّارِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ.

الشرح:

القصاص من المقاصة وهي الإمكان من الخصم بأن يفعل به نحو ما فعل هو

ويدل على هذه المقاصة حديث أبي هريرة قال قال رسول الله : «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» أخرجه مسلم (٢٥٨٢).

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٥٧١) قال رسول الله : «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

وفي حديث ابن عمر قال: قال رسول الله : «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ

كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ». أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

قال القرطبي في التذكرة (٢٣٨-٢٤٠): واختلف الناس في حشر البهائم، وفي قصاص بعضها من بعض فروي عن ابن عباس أن حشر الدواب والطير موتها وقال الضحاك: وروي عن ابن عباس في رواية أخرى: أن البهائم تحشر وتبعث قال أبو ذر وأبو هريرة وعمرو بن العاص والحسن البصري وغيرهم وهو الصحيح لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[التكوير:٥].

قال أبو هريرة: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والطير والدواب وكل شيء فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول: كوني ترابا فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾[النبأ:٤٠].

ونحوه عن ابن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص وفي الخبر: إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار فذلك قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾[عبس:٤٠] أي غبار، وذكر بنحوه في كتابه التفسير، وهنالك قول آخر مذكور وهو أن حشرها موتها لكن هذا هو الأظهر لما تقدم من الأدلة، ولكون الآية مذكورة في سياق يوم القيامة فتنبه.

ومما يدل على اقتصاص المسلم من المسلم والكافر من المسلم حديث أبي سعيد في وصف القنطرة التي هي في طرف الصراط بين الجنة والنار وفيها يقع القصاص بين العباد، أخرجه البخاري (٢٤٤٠)، ولفظه: «**إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا**

نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

وفي مسند أحمد (٢/ ٢٦٣) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «**يَقْتَصُّ لِلْخَلْقِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، حَتَّى لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، وَحَتَّى لِلذَّرَّةِ مِنَ الذَّرَّةِ**» ورجاله رجال الصحيح، وهو في الصحيحة (١٩٦٧)، وعند أحمد (٣/ ٤٩٥) عن جابر بن عبدالله قال: بلغني حديثٌ عن رجلٍ سمعه مِن رسولِ الله فاشتريت بعيرًا، ثمّ شددت عليهِ رحلِي فسِرت إليهِ شهرًا حتّى قدِمت عليهِ الشّام، فإِذا عبدالله بن أنيسٍ فقلت لِلبوّابِ قل له جابِرٌ على البابِ فقال ابن عبدِ الله: قلت: نعم فخرج يطأ ثوبه فاعتنقنِي واعتنقته فقلت: حدِيثًا بلغنِي عنك أنّك سمِعته مِن رسولِ الله فِي القِصاصِ فخشِيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه قال: سمِعت رسول الله يقول: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ** - أو قال العِبادُ - **عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا**» قال: قلنا: وما بهمًا؟ قال: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ أَنَا المَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةُ**» قال: قلنا: كيف؟ وإِنّا إِنّما نأتِي الله عراةً غرلًا بهمًا، قال: «**بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**» والحديث حسن.

وفي المستدرك للحاكم (٤/ ٦١٩) عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله : «**إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مُدَّتِ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ، وَحَشَرَ اللهُ الخَلَائِقَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالدَّوَابَّ وَالْوُحُوشَ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ جَعَلَ اللهُ الْقِصَاصَ بَيْنَ الدَّوَابِّ حَتَّى تَقُصَّ الشَّاةُ الجَمَّاءُ مِنَ الْقَرْنَاءِ بِنَطْحَتِهَا، فَإِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقِصَاصِ بَيْنَ**

الدَّوَابِّ قَالَ لَهَا: كُونِي تُرَابًا، فَتَكُونُ تُرَابًا، فَيَرَاهَا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا»

وفي سنده أبو المغيرة مجهول، وله شاهد ضعيف عند ابن المبارك في الزهد (٣٥٣) من رواية شهر عن ابن عباس.

[وجوب إخلاص العمل لله عز وجل]

٨١- وَإِخْلَاصُ الْعَمَلِ لله.

الشرح:

ومن عقيدة أهل السنة إخلاص العمل لله تعالى قال : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[البينة: ٥] وأن الله لا يقبل العمل من عامله إلا بالإخلاص له والمتابعة للنبي .

هذه المزية العظيمة والعبادة الجليلة القويمة التي من حققتها كان من الأتقياء السعداء الأصفياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[الأعراف:٢٩]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾[الزمر: ١٤].

وقال كما في حديث أبي هريرة عند البخاري (٩٩)، حين سئل: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**».

ومن أعظم ثمرات الإخلاص في الدنيا قبل الآخرة أن صاحبه ينجو من مكر إبليس اللعين، ومن جنوده أجمعين، قال الله تعالى مخبرًا عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر:٣٦-٤٠].

والمخلص ناج من العذاب الأليم وموعود بجنة النعيم، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[الصافات:٣٨-٤٣].

والإخلاص من أعظم الأسباب للحيلولة بين العبد والمعصية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤].

ومن حديث زيد بن ثابت عند أحمد (٥/١٨٣): أن النبي قال: «ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ». الحديث في الصحيح المسند للإمام الوادعي .

وللإخلاص آثار عظيمة، فكم من عالم رفعه الله بالإخلاص، وكم من دعوة انتصرت بسبب إخلاص دعاتها.

ولما ذكر عند الإمام ابن باز انتشار دعوة الشيخ الإمام أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي رحم الله الجميع، فقال ابن باز : هذه ثمرة الإخلاص.

قال مكحول كما في مدارج السالكين (٢/٩٦): ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة في قلبه ولسانه.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠].

وهذان أن ركنا العمل المتقبل لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله .

قال الربيع بن خثيم كما في ترجمته في السير (٤/ ٢٥٤٢): كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل.

وقال ابن القيم في الفوائد (١٢٦٧): العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملًا ينقله ولا ينفعه.

وما أجمل قول مالك بن دينار لو عمل به كما في السير (٥/ ٣٦٢): منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمهم؛ لأن حامدهم مفرط وذامهم مفرط، إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإن تعلمه لغير العمل زاده فخرًا.

وذكر الذهبي في السير (٨/ ٤٢٧) في ترجمة الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. ومن طلب العلم لله وفقه الله ورفع قدره ويسر له الدعوة إليه، ومن لا لم يمكّن وربما سلب عنه العلم كما نلاحظ كثرة الساقطين، نسأل الله السلامة.

قال حماد بن سلمة كما في السير (٧/ ٤٤٨): من طلب الحديث لغير الله مكر به.

وقال ابن المبارك كما في السير (٨/ ٩٧): ما رأيت أحدًا ارتفع مثل مالك؛ ليس له كثير صلاة ولا صيام؛ إلا أن تكون له سريرة.

قال الذهبي معقبًا على هذا الكلام: ما كان عليه من العلم ونشره أفضل من نوافل الصوم والصلاة لمن أراد به الله.

وقال أبوحازم كما في المرجع السابق (٦/ ١٠٠): لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله إلا أحسن الله ما بينه وبين العباد. اهـ

قلت: وما أحسن أحدٌ ما بينه وبين العباد إلا انتشرت دعوته وازدهرت.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول في المدارج (٢/ ٩): إذا غرست شجرة المحبة في القلب وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهى. اهـ

وقال في الفوائد (٢٤٢١): دالًا على طريقة تحصيل الإخلاص، لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولًا فأذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فأزهد فيهما، زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص، فإن قلت: وما الذي يسهل علي ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئًا سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي: إن مدحي زين وذمي شين، فقال: «ذَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشنيك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[الروم:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

فعلى الداعي إلى الله أن يصدق مع ربه بالإخلاص والمراقبة، فإذا فعل ذلك أقبل الله بقلوب العباد عليه وعلى دعوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[مريم:٩٦].

واعلم أن جميع الأعمال عائدة إلى نية العبد في قبولها وجعل البركة فيها، دل على ذلك حديث عمر عند الشيخين البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧): «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».

قال ابن القيم في الفوائد (٢٣): فصل الإخلاص لله، وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾[النجم:٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به، وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه. اهـ

وانظر بعين المعتبر ما حصل للثلاثة النفر الذين ذكرا قصتهم عند البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) قال رسول الله : «**انطَلَقَ ثَلَاثَة رَهطٍ مِّمَّن كَانَ قَبلَكم حَتَّى آوَاهم المَبِيت إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانحَطَّت عَلَى فَمِ غَارِهِم صَخرَةٌ مِن الجَبَلِ، فَانطَبَقَت عَلَيهِم فَقَالَ بَعضهم لِبَعضٍ: انظروا أَعمَالًا عَمِلتموهَا صَالِحَةً لله فَادعوا اللهَ تَعَالَى بِهَا لَعَلَّ اللهَ يَفرجهَا عَنكم، فَقَالَ أَحَدهم: اللهمَّ إِنَّه كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيخَانِ**

كَبِيرَانِ وَامرَأَتِي وَلِي صِبيَةٌ صِغَارٌ أَرعَى عَلَيهِم، فَإِذَا أَرَحت عَلَيهِم حَلَبت فَبَدَأت بِوَالِدَيَّ فَسَقَيتهمَا قَبلَ بَنِيَّ وَأَنَّه نَأَى بِي ذَاتَ يَومٍ الشَّجَر، فَلَم آتِ حَتَّى أَمسَيت فَوَجَدتهمَا قَد نَامَا فَحَلَبت كَمَا كنت أَحلب فَجِئت بِالحِلَابِ فَقمت عِندَ رءوسِهِمَا أَكرَه أَن أوقِظَهمَا مِن نَومِهِمَا وَأَكرَه أَن أَسقِيَ الصِّبيَةَ قَبلَهمَا، وَالصِّبيَة يَتَضَاغَونَ عِندَ قَدَمَيَّ فَلَم يَزَل ذَلِكَ دَأبِي وَدَأبهم حَتَّى طَلَعَ الفَجر، فَإِن كنتَ تَعلَم أَنِّي فَعَلت ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجهِكَ فَافرج لَنَا مِنهَا فرجَةً نَرَى مِنهَا السَّمَاءَ فَفَرَجَ الله مِنهَا فرجَةً فَرَأَوا مِنهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الآخَر: اللهمَّ إِنَّه كَانَت لِيَ ابنَة عَمٍّ أَحبَبتهَا كَأَشَدِّ مَا يحِبّ الرِّجَال النِّسَاءَ وَطَلَبت إِلَيهَا نَفسَهَا فَأَبَت حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبت حَتَّى جَمَعت مِائَةَ دِينَارٍ فَجِئتها بِهَا فَلَمَّا وَقَعت بَينَ رِجلَيهَا قَالَت: يَا عَبدَ الله، اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفتَح الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقمت عَنهَا فَإِن كنتَ تَعلَم أَنِّي فَعَلت ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجهِكَ فَافرج لَنَا مِنهَا فرجَةً، فَفَرَجَ لَهم، وَقَالَ الآخَر: اللهمَّ إِنِّي كنت استَأجَرت أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَه قَالَ: أَعطِنِي حَقِّي فَعَرَضت عَلَيهِ فَرَقَه فَرَغِبَ عَنه فَلَم أَزَل أَزرَعه حَتَّى جَمَعت مِنه بَقَرًا وَرِعَاءَهَا فَجَاءَنِي فَقَالَ اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظلِمنِي حَقِّي قلت: اذهَب إِلَى تِلكَ البَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخذهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَستَهزِئ بِي، فَقلت: إِنِّي لَا أَستَهزِئ بِكَ خذ ذَلِكَ البَقَرَ وَرِعَاءَهَا فَأَخَذَه فَذَهَبَ بِهِ، فَإِن كنتَ تَعلَم أَنِّي فَعَلت ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجهِكَ فَافرج لَنَا مَا بَقِيَ فَفَرَجَ الله مَا بَقِيَ».

وما أنجاهم في ذلك الوقت العصيب إلا توسلهم إلى الله بالإخلاص، والمخلص أيضًا همه الله والدار الآخرة، فلا يصده مكر الماكرين ولا كيد الكافرين، ولا سخرية أو استهزاء المستهزئين، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[الإسراء:١٩].

وقد صح عند مسلم (٢٩٨٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله :
«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢٩-٣٠): واعلم أنَّ العمل لغيرِ الله أقسامٌ: فتارةً يكونُ رياءً محضًا، بحيثُ لا يُرادُ به سوى مراآت المخلوقين لغرضٍ دُنيويٍّ، كحالِ المنافِقين في صلاتهم، كما قال الله : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ الآية [الماعون: ٤ - ٦].

وكذلك وصف الله تعالى الكفار بالرِّياء في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[الأنفال: ٤٧].

وهذا الرِّياءُ المحضُ لا يكاد يصدُرُ من مُؤمنٍ في فرض الصَّلاةِ والصِّيام، وقد يصدُرُ في الصَّدقةِ الواجبةِ أو الحجِّ، وغيرهما من الأعمال الظاهرةِ، أو التي يتعدَّى نفعُها، فإنَّ الإخلاص فيها عزيزٌ، وهذا العملُ لا يشكُّ مسلمٌ أنَّه حابِطٌ، وأنَّ صاحبه يستحقُّ المقتَ مِنَ الله والعُقوبة.

وتارةً يكونُ العملُ لله، ويُشارِكُه الرِّياءُ، فإنْ شارَكَهُ مِنْ أصله، فالنُّصوص الصَّحيحة تدلُّ على بُطلانِهِ وحبوطه أيضًا.

وفي صحيح مسلم [(١)] عن أبي هريرة ، عن النَّبِيِّ قال: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ».

---

(١) (٢٩٨٥) (٤٦).

[الرضا بالقضاء]

٨٢- وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ.

الشرح:

ومن أخلاق المؤمنين وعقائدهم التي يسيرون عليها الرضا بقضاء الله ، وهنالك فرق بين قضاء الله والمقضي أي ما حصل من العبد، ولهذا قيل:

وَلَيْسَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَبْدِ الرِّضَا   بِكُلِّ مَقْضِيٍّ وَلَكِنْ بِالْقَضَا

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢٥٢): هنا أمران: قضاء الله؛ وهو فعل قائم بذات الله تعالى، ومقضي: وهو المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحكمة، نرضى به كله، والمقضي قسمان: منه ما يرضى به، ومنه ما لا يرضى به. ويقال ثالثًا: القضاء له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى، فمن هذا الوجه ونسبته إليه يرضى به.

والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى ما لا يرضى به. مثال ذلك: قتل النفس، له اعتباران: فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلا للمقتول ونهاية لعمره يرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله نسخطه ولا نرضى به. اهـ

[الصبر على حكم الله]

٨٣- وَالصَّبْرُ عَلَى حُكْمِ اللهِ.

الشرح:

الصبر لحكم الله الكوني أمر مطلوب ومشروع، قال الله لنبيه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾[الطور:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[المزمل:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النحل: ١٢٧].

وفي حديث صهيب عند مسلم (٢٩٩٩): «**عَجَبًا لِأَمرِ المؤمِنِ إنَّ أَمرَه كلَّه خَيرٌ وَلَيسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلمؤمِنِ، إن أَصَابَته سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيرًا لَه، وَإِن أَصَابَته ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيرًا لَه**». فالصبر مقامه عظيم حتى قيل منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد وفي حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم: «**وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**».

والصبر على الحكم الشرعي أيضًا مطلوب ومرغب فيه، بل لا يستطيع المسلم فعل المأمور وترك المحضور إلا بالصبر.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٠/ ٦٧٣-٦٧٤): والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام:

أحدها: أهل التقوى والصبر وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

والثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ويتركون المحرمات: لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه، أو في ماله أو في عرضه، أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه.

والثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام؛ والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها.

وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق، وغيرهم يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام، وهؤلاء هم الذين يريدون علوًّا في الأرض أو فسادًا من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظرًا، أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور، وفعلوه من المحظور وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب: كالمرض والفقر وغير ذلك ولا يكون فيه تقوى إذا قدر.

وأما القسم الرابع فهو شر الأقسام: لا يتقون إذا قدروا ولا يصبرون إذا ابتلوا؛ بل هم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾[المعارج:١٩-٢١] فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس، وأجبرهم إذا قدروا ومن أذل الناس، وأجزعهم إذا قهروا. اهـ

[الإيمان بما قال الله]

٨٤- وَالْإِيمَانُ بِمَا قَالَ اللهُ.

الشرح:

قال الله : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٨٥]، ومن الإيمان بالله الإيمان بما قال، فهو أصدق حديثًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[النساء:٨٧]، وأحسن قيلًا، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[النساء:١٢٢]، وقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[البقرة: ٢٨٢] والمخبر إذا توفرت فيه هذه الثلاث الصفات وجب قبول خبره، ولا يرد هذا الخبر إلا من في قلبه مرض، وسواء ما قال الله في باب الأسماء والصفات أم في باب الإخبار، أم في باب الأحكام، قال الله : ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾[الأنعام:١١٥]، صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

وقال الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦]، والمتأمل لحال أهل الزيغ من المعتزلة وغيرهم من أهل الكلام تجد أن سبب ضلالهم هو عدم إيمانهم بما قال الله كما أراد سبحانه وتعالى، بل إنهم يحرفون الكلم عن مواضعه؛ تشبهًا باليهود، فضلوا بصنيعهم هذا عن سواء السبيل. وهكذا يحصل لكل من حاد وعاند هذا الطريق.

[وجوب الإيمان بالقدر]

٨٥- وَالْإِيمَانُ بِأَقْدَارِ الله كُلِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، وَحُلْوِهَا وَمُرِّهَا.

الشرح:

الإيمان بالقدر أحد الأركان الستة والأصول التي دعت إليها الرسل، وأنزلت بها الكتب؛ ففي حديث جبريل عند مسلم رقم (٨): «وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» فالخير مقدر من الله ، والشر مقدر منه سبحانه وتعالى؛ ولهذا كان مما يقوله المسلمون: (الإيمان بالقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله).

وقد ذكر الشيخ مقبل ثمرات الإيمان بالقدر في كتابه الجامع الصحيح في القدر (١٢-١٣) فقال: ومنها أداء عبادة الله ، وقوة الإيمان، والشجاعة، والإقدام، والثبات، والطمأنينة، وتخفيف الهموم والأحزان، والكرم، والإخلاص، والتوكل، واليقين، والاعتماد على الله، والاستسلام له، وعدم الاعتماد على الكهان والمنجمين والمشعوذين، والقناعة، وعدم التكالب على الدنيا، والتواضع، وإغاظة المبتدعة الذين يتحكمون في حكمة الله وشرعه. انتهى مختصرًا.

وبوب (١٤): (وجوب الإيمان بالقدر) وذكر أحاديث في الباب يأتي ذكرها إن شاء الله في موطن آخر.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٨/ ٦٣-٦٤): مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى خالق كل شيء، وربه ومليكه لا رب غيره ولا خالق سواه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، والعبد مأمور بطاعة الله، وطاعة رسوله، منهي عن معصية الله، ومعصية رسوله، فإن أطاع

كان ذلك نعمة، وإن عصى كان مستحقًا للذم والعقاب، وكان لله عليه الحجة البالغة، ولا حجة لأحد على الله تعالى وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته، لكن يحب الطاعة ويأمر بها، ويثيب أهلها على فعلها ويكرمهم، ويبغض المعصية وينهي عنها، ويعاقب أهلها ويهينهم.

وما يصيب العبد من النعم، فالله أنعم بها عليه، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه، كما قال تعالي: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[النساء: ٧٩] أي: ما أصابك من خِصب ونَصر وهدى فالله أنعم به عليك، وما أصابك من حزن وذل وشر فبذنوبك وخطاياك، وكل الأشياء كائنة بمشيئة الله وقدرته وخلقه، فلابد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره، وأن يوقن العبد بشرع الله وأمره.

فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد، كان مشابهًا للمشركين، ومن نظر إلى الأمر والنهي، وكذب بالقضاء والقدر كان مشابهًا للمجوسيين، ومن آمن بهذا وبهذا، فإذا أحسن حمد الله تعالى وإذا أساء استغفر الله تعالى وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره، فهو من المؤمنين، فإن آدم عليه السلام لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه، وإبليس أصر واحتج، فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدميًا، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيًا، فالسعداء يتبعون أباهم، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس. اهـ

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٣٤٦-٣٤٨): وقوله (وَالْقَدَرِ خَيرِه وَشَرِّه، وَحُلوِهِ وَمُرِّهِ، مِنَ اللهِ تَعَالَى) تقدم قوله في حديث جبرائيل: «**وَتؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ**» أخرجه مسلم (٨) عن عمر .

وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[التوبة:٥١]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ الآية [النساء:٧٨-٧٩].

فإن قِيل: كيف وجه الجمع بين قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وبين قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾؟، قِيل: قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: الخِصب والجدب، والنّصر والهزيمة، كلّها مِن عِندِ الله، وقوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: ما أصابك مِن سيئة مِن الله فبِذنبِ نفسِك عقوبة لك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى:٣٠] يدل على ذلِك ما روِي عنِ ابن عباس ؛ أنه قرأ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ وأنا كتبتها عليك.

والمراد بالحسنة هنا النعمة، وبالسيئة البلية، في أصح الأقوال، وقد قيل: الحسنة الطاعة، والسيئة المعصية، وقيل: الحسنة ما أصابه يوم بدر، والسيئة ما أصابه يوم أحد، والقول الأول شامل لمعنى القول الثالث، والمعنى الثاني ليس مرادًا دون الأول قطعًا، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه، مع أن الجميع مقدر، فإن المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى، فتكون من سيئات الجزاء، مع أنها من سيئات العمل، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى، كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، فإنهم يقولون: إن فعل العبد -حسنة كان أو سيئة- فهو منه لا من الله! والقرآن قد فرق بينهما، وهم لا

يفرقون، ولأنه قال تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فجعل الحسنات من عند الله، كما جعل السيئات من عند الله، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال، بل في الجزاء، وقوله بعد هذا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ و﴿مِن سَيِّئَةٍ﴾، مثل قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ و﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾.

وفرق سبحانه وتعالى بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب، فجعل هذه من الله، وهذه من نفس الإنسان؛ لأن الحسنة مضافة إلى الله، إذ هو أحسن بها من كل وجه، فما من وجه من أوجهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه، وأما السيئة، فهو إنما يخلقها لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن وخير.

ولهذا كان النبي يقول في الاستفتاح: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**» أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي ، أي: فإنك لا تخلق شرًّا محضًا، بل كل ما تخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس، فهذا شر جزئي إضافي، فأما شر كلي، أو شر مطلق؛ فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه. ولهذا لا يضاف الشر إليه مفردًا قط، بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٧٨]، وإما أن يضاف إلى السبب، كقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[الفلق:٢]، وإما أن يحذف فاعله، كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[الجن:١٠].

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة، بل لله من الرحمة والحكمة ما لا يقدر قدره إلا الله تعالى، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو

شر جزئي بالإضافة، يكون شرا كليا عاما، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيرًا أو مصلحة للعباد، كالمطر العام، وكإرساله رسولا عاما. اهـ

ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بمراتبه الأربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق.

[مراتب الإيمان بالقدر]

٨٦- قَدْ عَلِمَ اللهُ مَا العِبَادُ عَامِلُونَ، وَإِلَى مَا هُمْ صَائِرُونَ، لَا يَخْرُجُونَ مِنْ عِلْمِ اللهِ، وَلَا يَكُونُ فِي الْأَرَضِينَ وَلَا فِي السَّمَوَاتِ إِلَّا مَا عَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَا خَالِقَ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الشرح:

قد تقدم الكلام على شيء من بيان عموم علم الله سبحانه وتعالى، والذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٨٣]، وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾[سبأ:٢].

ومرتبة العلم هي المرتبة الأولى من مراتب الإيمان بالقدر على ما يأتي بيانه إن شاء الله .

وأما قوله: (**وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**) في حديث ابن عباس عند الترمذي (٢٥١٦) قال رسول الله : «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**».

وفي حديث عمار بن ياسر عند النسائي (١٣٠٤) قال: قال رسول الله :
«اللهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ».

مَــا قَــضَى اللهُ كَــائِنٌ لَا مَحَالَــهْ   وَالشَّقِيُّ الجْهُولُ مَـنْ لَامَ حَالَـهْ

وفي حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله : **«لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ»** أخرجه أحمد.

وهنا مسألة وهي حكم الرضا بالمقدور؟

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢٥٨): فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهه؟!
فالجواب: أن يقال:

أولًا: نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضي ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويمقت، كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم.

ويقال ثانيًا: هنا أمران: قضاء الله؛ وهو فعل قائم بذات الله تعالى، ومقضي: وهو المفعول المنفصل عنه، فالقضاء كله خير وعدل وحكمة، نرضى به كله، والمقضي قسمان: منه ما يرضى به، ومنه ما لا يرضى به.

ويقال ثالثًا: القضاء له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى، فمن هذا الوجه ونسبته إليه يرضى به.

والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى ما لا يرضى به، مثال ذلك: قتل النفس، له اعتباران: فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلًا للمقتول ونهاية لعمره - يرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله - نسخطه ولا نرضى به. اهـ

قوله: (**ولا خالق مع الله**) هذا رد على القدرية النفاة من المعتزلة الذين يزعمون أن الله لم يخلق الشر وإنما العباد تخلق أفعالها وهذا من المشاقة والمحادة لقول الله : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢] إلى غير ذلك مما سيأتي بيان إن شاء الله .

واعلم أن الإيمان بالقضاء والقدر من أعظم أركان الإيمان، والمراد بالقدر هو تعلق علم الله بالكائنات وإرادته لها أزلًا قبل وجودها.

قال الله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر:٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[المرسلات:٢٠-٢٣].

وفي حديث عمر عن مسلم (٨) في أركان الإيمان وفيه: «**وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، وفي حديث ابن عمر عند مسلم (٢٦٥٥): «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ**»، و(القدر سر الله) كما قال علي بن أبي طالب .

ومراتبه أربعة: ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها:

الأولى: العلم:

ودليلها قول الله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ**﴾[الحشر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿**عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾[سبأ:٣].

وقال تعالى: ﴿**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾[الأنعام:٥٩].

وفي البخاري (٦٥٩٧)، ومسلم (٢٦٦٠) عن ابن عباس قال: سئل رسول الله عن أبناء المشركين فقال: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»، وجاء عن أبي هريرة أخرجه البخاري (٦٥٩٨)، وأخرجه مسلم (٢٦٥٩).

ويتم الإيمان بهذه المرتبة بأن تعتقد وتقر بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلًا أزلًا، وأبدًا سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده فعلمه محيط بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وقد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلم أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم، وأعمالهم وجميع

حركاتهم وسكناتهم، وأهل الجنة، وأهل النار، -ومرتبة العلم السابق- اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوس هذه الأمة -القدرية الغلاة- ومن أنكر علم الله كفر كما تقدم بيانه.

المرتبة الثانية: الكتابة:

يدل على هذه المرتبة قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠].

وقال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يس:١٢]، وقال تعالى في ذكر محاجة موسى لفرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[طه:٥١-٥٢]، وفي حديث عبدالله بن عمرو عند مسلم (٢٦٥٣): «كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبلَ أَن يَخلقَ السَّماوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمسِينَ الفَ سَنَةٍ قَالَ: وَعَرشه عَلَى المَاءِ».

وفي حديث علي : «مَا مِن نَفسٍ مَنفوسَةٍ إِلَّا وَقَد كَتَبَ الله مَكَانَهَا مِن الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَد كُتِبَت شَقِيَّةً، أَو سَعِيدَةً» متفق عليه البخاري (٦٦٠٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

وفي حديث عبادة بن الصامت المتقدم في باب الإيمان بالقلم: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: الْقَدَرُ قَالَ: فَكَتَبَ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ».

فيجب على المسلم أن يؤمن بأنه كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، وقد أجمع الصحابة، والتابعون وجميع أهل السنة،

والحديث على أن كل كائن إلى يوم القيامة، فهو م مكتوب في أم الكتاب التي هي اللوح المحفوظ، والذكر والإمام المبين والكتاب المبين.

المرتبة الثالثة: المشيئة:

يدل على هذه المرتبة قول الله : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨]، وقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[التكوير:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الكهف:٢٣-٢٤]، وقوله : ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام: ٣٩].

وفي حديث عبدالله بن عمر عند مسلم (٢٦٥٥): «**إِنَّ قلوبَ بَنِي آدَمَ كلَّهَا بَيْنَ إِصبَعَينِ مِن أَصَابِعِ الرَّحمَنِ كَقَلبٍ وَاحِدٍ يصَرِّفه حَيث يَشَاء**».

وفي صحيح مسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة: «**فَإِنَّ اللهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ لَا مكرِهَ لَه**».

وهذه المرتبة هي المعبر عنها بقول الناس ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وتكون بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية ولا إضلال إلا بمشيئته وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله الناس عليها خلقه وأدلة العقل والبيان.

ومما ينسب إلى الإمام الشافعي:

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ   وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

ومشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة وما لم يشأ كونه، فإنه لا يكون لعدم مشيئته لا لعدم قدرته عليه قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣]، فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرته ولكن لعدم مشيئته ذلك.

المرتبة الرابعة: الخلق:

قال الله : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام:١]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦].

وعن حذيفة قال: قال رسول الله : «إِنَّ اللهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ» أخرجه البخاري في كتاب أفعال العباد (١٢٤)، وفي لفظ رقم (١٢٥): «إِنَّ اللهَ خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ».

وهذه المرتبة تقتضي أن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها وصفاتها وحركاتها وبأن كل ما سوى الله مخلوق موجدٌ من العدم كائن بعد أن لم يكن، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام، واتفقت عليها الفطر القويمة، والعقول السليمة.

وقد جمعت هذه المراتب الأربع في قول الناظم:

عَلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ ... وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

فلا يتم إيمان عبد بالقضاء والقدر حتى يؤمن بهذه المراتب الأربع.

وأنواع التقدير:

الأول: التقدير العام الشامل: وهو شامل لجميع الكائنات وهو المكتوب في اللوح المحفوظ وقد تقدم دليله.

الثاني: التقدير المفصَّل للتقدير العام.

النوع الأول: التقدير العمري؛ كما في حديث ابن مسعود في شأن ما يكتب على الجنين، وهو في بطن أمه من كتابة أجله، ورزقه، وعمله، وشقاوته، أو سعادته.

النوع الثاني: التقدير الحولي، وهو ما يقدر في ليلة القدر من وقائع العام؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤].

النوع الثالث: التقدير اليومي، وهو ما يقدر من حوادث اليوم، من حياة وموت، وعِزٍّ وذُلٍّ... إلى غير ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩].

ولا بد للمسلم من الإيمان بالقدر العام وتفاصيله؛ فمن جحد شيئًا منها؛ لم يكن مؤمنا بالقدر، ومن لم يؤمن بالقدر؛ فقد جحد ركنا من أركان الإيمان.

وبعضهم يضيف نوعًا رابعًا وهو التقدير البشري وهو المنصوص عليه في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف:١٧٢].

إرادة الله عز وجل:

وللفائدة ومزيد البيان: تنقسم إرادة الله إلى إرادة كونية، وإرادة شرعية:

فالإرادة الكونية: هي المعبر عنها بمشيئة الله تعالى، وهذه الإرادة لا يخرج عنها شيء، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء، فالطاعات، والمعاصي كلها بمشيئة الرب وإرادته، ومن أمثلتها قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[الرعد:١١].

والإرادة الشرعية: تتضمن محبة الله ورضاه، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[البقرة:١٨٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾[النساء:٢٧]، قال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾[المائدة:٦].

الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية:

١- الإرادة الكونية تكون فيما يحبه الله تعالى وما لا يحبه.

- الإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله .

٢- الإرادة الكونية لابد أن تقع.

- الإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع.

٣- الإرادة الكونية مرادفة للمشيئة.

- الإرادة الشرعية مرادفة للمحبة والرضا.

٤- الإرادة الكونية مقصودة لغيرها كخلق إبليس، فإنه رأس الشر لكن خلقه الله لحكمة، فتحقق بسبب وجوده الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

- الإرادة الشرعية مقصودة لذاتها.

٥- الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقه.

- الإرادة الشرعية متعلقة بألوهية الله وشرعه.

٦- الإرادتان تجتمعان في حق المطيع وتفترقان في حق العاصي، مثاله إيمان أبي بكر أراده الله كونًا وشرعًا، إما كونه إراده كونًا فوقوعه دليل عليه، وإما أنه أراده شرعًا، فالإيمان محبوب إلى الله بينما إيمان أبي جهل أراده الله شرعًا ولم يرده كونًا، ولو أراده كونًا لوقع.

مذاهب الناس في الإيمان بالقدر:

والناس في هذا الباب ينقسمون إلى طرفين ووسط:

أما الوسط فهم أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية أهل الحديث السلفيون.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٨/ ٤٤٩-٤٥٠): مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته لا يمتنع عليه شيء شاءه؛ بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئًا إلا وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء.

وقال (٨/ ٤٥٢): وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضًا على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرم فعله بل لله الحجة البالغة. اهـ

الجبرية:

أصل قولهم من جهم بن صفوان، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه، وغلو في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة، بل هو في زعمهم لا حرية له، ولا فعل كالريشة في مهب الريح، وإنما تسند إليه الأفعال مجازًا فيقال: صلى وصام، وقتل وسرق كما يقال طلعت الشمس وجرت الريح، ونزل المطر، ومؤدى قولهم اتهام الله بالظالم، وتكليف العباد ما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من أفعالهم واتهموه بالعبث في تكليف العباد وأبطلوا الحكمة والأمر والنهي ألا ساء ما يحكمون.

وهؤلاء في الحقيقة يزعمون أن الله هو الفاعل الحقيقي لأفعالهم بخلاف ما عليه أهل السنة الذين يقولون إن الله هو الخالق والعبد هو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب والعقاب.

ومن أسماء الجبرية القدرية المشركية؛ لأنهم شابهوا المشركين في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[الأنعام:١٤٨].

وبلغ الجبر لدى غلاة الصوفية حتى قال بعضهم:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا بِمَا يَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّه طَاعَاتُ

وهؤلاء يرون كل ما يصدر من العبد من ظلم وكفر، وفسوق هو طاعة محضة؛ لأنها إنما تجري وفق ما قضاه الله وقدره، فهو محبوب لديه مرضي عنده.

فإذا كان قد خالف أمر الشرع بارتكاب هذه المحظورات، فقد أطاع بإرادة الله ونفَّذ مشيئته فمن أطاع الله في قضاءه وقدره هو كمن أطاعه في أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله.

وعلى هذا القول فالكل مطيع قوم نوح الذين أهلكهم الله وقوم فرعون وقوم لوط وقوم هود وقوم صالح ولازمه أن يكون الله ظالمًا لهم تعالى الله عما افتراه الظالمون علوًّا كبيرًا.

القدرية:

وهم نفاة القدر وينقسمون إلى قسمين:

الأول: نفاة العلم: وهم الذين يقولون بأن الله لا يعلم الشيء إلا عند وقوعه، وكان أول ظهورهم في أواخر عهد الصحابة قال: يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلى فقلت: أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبدالله ابن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

الحديث في صحيح مسلم رقم (٨)، وهذه الطائفة قد كفرها العلماء، وقد حكى النووي ، وكذا شيخ الإسلام انقراضهم.

قال النووي : هذه الفرقة قدرية لإنكارهم القدر قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخير من الله والشر من غيره تعالى الله عن قولهم.

وهذه القدرية تسمى (مجوس هذه الأمة).

قال النووي : وقد قال رسول الله : «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ**» شبههم بهم لتقسيمهم الخير والشر في حكم الإرادة كما قسمت المجوس فصرفت الخير إلى يزدان، والشر إلى أهرمن.

قال الخطابي: إنما جعلهم مجوسًا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله تعالى والشر إلى غيره، والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعًا لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقًا، وإيجادًا، وإلى الفاعلين لهما من عبادة فعلًا واكتسابًا. اهـ

أقول: مما يدل على أن الله خالق الخير والشر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[الزمر:٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]، وقول النبي : «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ**».

والعجب أن هؤلاء يخرجون أفعال العباد المخلوقة المربوبة من عموم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، ويدخلون في عموم هذه الآية القرآن الذي هو وصف الله .

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٨/١١٨-١٢٠): ومما ينبغي أن يعلم: أن مذهب سلف الأمة مع قولهم: الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير وأنه هو الذي خلق العبد هلوعًا، إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا، ونحو ذلك، إن العبد فاعل حقيقة، وله مشيئة وقدرة، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[التكوير:٢٨-٢٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان:٢٩-٣٠] وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾[المدثر:٥٤-٥٦].

وهذا الموضع اضطرب فيه الخائضون في القدر. فقالت المعتزلة ونحوهم من النفاة: الكفر والفسوق والعصيان أفعال قبيحة. والله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين فلا تكون فعلا له.

وقال من رد عليهم من المائلين إلى الجبر: بل هي فعله وليست أفعالا للعباد، بل هي كسب للعبد. وقالوا: إن قدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها ولا في صفة من صفاتها. وأن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنًا لها. فيكون الفعل خلقًا من الله إبداعًا وإحداثًا، وكسبًا من العبد لوقوعه مقارنًا لقدرته، وقالوا: إن

العبد ليس محدثًا لأفعاله ولا موجدًا لها. ومع هذا فقد يقولون: إنا لا نقول بالجبر المحض، بل نثبت للعبد قدرة حادثة والجبري المحض الذي لا يثبت للعبد قدرة.

وأخذوا يفرقون بين الكسب الذي أثبتوه وبين الخلق، فقالوا: الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة. وقالوا أيضًا: الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه.

فقال لهم الناس: هذا لا يوجب فرقًا بين كون العبد كسب وبين كونه فعل وأوجد وأحدث وصنع وعمل ونحو ذلك؛ فإن فعله وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضًا مقدور بالقدرة الحادثة، وهو قائم في محل القدرة الحادثة.

وأيضًا، فهذا فرق لا حقيقة له، فإن كون المقدور في محل القدرة أو خارجًا عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه، وهو مبني على أصلين: أن الله لا يقدر على فعل يقوم بنفسه، وأن خلقه للعالم هو نفس العالم، وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك.

والثاني: أن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل وجودها ولا يكون شيء من مقدورها خارجًا عن محلها. وفي ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه.

وأيضًا، فإذا فسر التأثير بمجرد الاقتران فلا فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجًا عن المحل.

وأيضًا، قال لهم المنازعون: من المستقر في فطر الناس أن من فعل العدل فهو عادل، ومن فعل الظلم فهو ظالم، ومن فعل الكذب فهو كاذب، فإذا لم يكن العبد فاعلا لكذبه وظلمه وعدله، بل الله فاعل ذلك؛ لزم أن يكون هو المتصف بالكذب

والظلم، قالوا: وهذا كما قلتم أنتم وسائر الصفاتية، من المستقر في فطر الناس أن من قام به العلم فهو عالم، ومن قامت به القدرة فهو قادر، ومن قامت به الحركة فهو متحرك، ومن قام به التكلم فهو متكلم، ومن قامت به الإرادة فهو مريد، وقلتم: إذا كان الكلام مخلوقًا، كان كلامًا للمحل الذي خلقه فيه كسائر الصفات، فهذه القاعدة المطردة فيمن قامت به الصفات نظيرها أيضًا من فعل الأفعال.

وقالوا أيضًا: القرآن مملوء بذكر إضافة هذه الأفعال إلى العباد كقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[السجدة:١٧]، وقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[فصلت:٤٠]، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾[التوبة:١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة:٢٧٧] وأمثال ذلك.

وقالوا أيضًا: إن الشرع والعقل متفقان على أن العبد يحمد ويذم على فعله، ويكون حسنة له أو سيئة، فلو لم يكن إلا فعل غيره، لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم عليها. اهـ

وملخص القول أن سبب ضلال من ضل من هذه الفرق لعدم جمعه بين الأدلة من القرآن والسنة، فعلى هذا كل دليل يستدل به الجبري فيه رد على القدرية النفاة، وكل دليل يستدل به القدري فيه رد على الجبرية، ولشيخنا الوادعي كتاب قيم بعنوان الجامع الصحيح في القدر ألفه للرد على الشيعة القدرية النفاة.

وقال ابن بطة في الإبانة قسم القدر (١/ ٢٤٧): وأمّا القدر فعلى وجهين: أحدهما: فرض علينا علمه ومعرفته، والإيمان به والتّصديق بجميعه. والآخر: فحرامٌ علينا التّفكّر فيه والمسألة عنه، والمناظرة عليه، والكلام لأهله، والخصومة به. فأمّا الواجب علينا علمه والتّصديق به والإقرار بجميعه أن نعلم أنّ الخير والشّرّ من الله، وأنّ الطّاعة والمعصية بقضاء الله وقدره، وأنّ ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وما

أخطأنا لم يكن ليصيبنا، وأنّ الله خلق الجنّة وخلق لها أهلًا، علمهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، ووفّقهم لأعمال صالحة رضيها أمرهم بها، فوفّقهم لها، وأعانهم عليها، وشكرهم بها، وأثابهم الجنّة عليها تفضّلًا منه ورحمةً، وخلق النّار وخلق لها أهلًا، أحصاهم عددًا، وعلم ما يكون منهم، وقدّر عليهم ما كرهه لهم، خذلهم بها وعذّبهم لأجلها غير ظالم لهم ولا هم معذورون فيما حكم عليهم به، فكلّ هذا وأشباهه من علم القدر الّذي لزم الخلق علمه والإيمان به والتّسليم لأمر الله وحكمه وقضائه وقدره، فلا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون. وسيأتي من علم القدر وما يجب على المسلمين علمه والمعرفة به وما لا يسعهم جهله مشروحًا مفصّلًا في أبوابه على ما جاء به نصّ التّنزيل ومضت به سنّة الرّسول وبالله نستعين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله. وأمّا الوجه الآخر من علم القدر الّذي لا يحلّ النّظر فيه ولا الفكر به، وحرامٌ على الخلق القول فيه كيف ولم وما السّبب ممّا هو سرّ الله المخزون وعلمه المكتوم الّذي لم يطّلع عليه ملكًا مقرّبًا ولا نبيًّا مرسلًا، وحجب العقول عن تخيّل كنه علمه، والنّاظر فيه كالنّاظر في عين الشّمس، كلّما ازداد فيه نظرًا ازداد فيه تحيّرًا، ومن العلم بكيفيّتها بعدًا، فهو التّفكّر في الرّبّ عزّ وجلّ كيف فعل كذا وكذا، ثمّ يقيس فعل الله عزّ وجلّ بفعل عباده، فما رآه من فعل العباد جورًا يظنّ أنّ ما كان من فعل مثله جورٌ، فينفي ذلك الفعل عن الله، فيصير بين أمرين إمّا أن يعترف لله عزّ وجلّ بقضائه وقدره ويرى أنّه جورٌ من فعله، وإمّا أن يرى أنّه ممّن ينزّه الله عن الجور، فينفي عنه قضاءه وقدره، فيجعل مع الله آلهةً كثيرةً يحولون بين الله وبين مشيئته، فبالفكر في هذا وشبهه والتّفكّر فيه والبحث والتّنقير عنه هلكت القدريّة حتّى صاروا زنادقةً وملحدةً ومجوسًا، حيث قاسوا فعل الرّبّ بأفعال العباد وشبّهوا الله بخلقه ولم يعوا عنه ما خاطبهم به، حيث يقول ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣]. اهـ

[التكبير على الجنازة]

٨٧- وَالتَّكْبِيرُ عَلَى الْجَنَائِزِ أَرْبَعٌ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَالْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَالْفُقَهَاءِ، وَهَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

الشرح:

قبل الشروع في هذا الباب نذكر بعض الآداب المتعلقة به، يستحب لمن حضر الميت أن يلقنه لا إله إلا الله لما صح عن النبي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد عند مسلم (٩١٧) ولما في ذلك من النفع للميت، فعن معاذ بن جبل عن أحمد (٥/ ٢٣٣) وغيره: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» والحديث في سنده صالح بن أبي عريب، لكنه في الباب فإن فارقت روح الميت جسده يستحب تغميض العينين لحديث أم سلمة : «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرَجَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ» أخرجه مسلم (٩٢٠).

ولما دخل رسول الله على أبي سلمة أغمض عينه، ويستحب تسجية الميت وتغطيته ففي البخاري (٥٨٤)، ومسلم (٩٤٢) أن رسول الله حين توفي سجي في برد حبرة.

ثم يغسل الميت لحديث أم عطية: «اغْسِلْنَهَا بِمَاءٍ وَسِدْرٍ»، وتغسل وترًا ففي الحديث: «اغْسِلْنَهَا ثَلَاثًا أَوْ خَمْسًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ، وَاجْعَلْنَ فِي الْآخِرَةِ كَافُورًا أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ» أخرجه البخاري (١٢٥٣)، ومسلم (٩٩).

قال الحافظ في الفتح (٣/ ١٤١): والجنائز بفتح الجيم لا غير جمع جنازة بالفتح والكسر لغتان، قال ابن قتيبة وجماعة: الكسر أفصح، وقيل بالكسر للنعش وبالفتح للميت، وقالوا: لا يقال: نعش إلا إذا كان عليه الميت. اهـ

والصلاة على الجنازة المسلمة واجب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين قال النبي : «حَقّ المسلِم عَلَى المسلِم سِتٌّ»، قِيلَ: مَا هنَّ يَا رَسولَ الله، قَالَ: «**إِذَا لَقِيتَه فَسَلِّم عَلَيهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبه، وَإِذَا استَنصَحَكَ فَانصَح لَه، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَسَمِّته، وَإِذَا مَرِضَ فَعده، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعه**». الحديث أخرجه مسلم (٢١٦٣) بهذا اللفظ وهو عند البخاري (١٢٤٠) ومسلم بلفظ: «**خمس**».

والتكبير أربع هو المشهور، وقد صحت به عدة أحاديث منها حديث ابن عباس عند البخاري (١٢٤٧)، ومسلم (٩٥٤) قال: مَاتَ إِنسَانٌ كَانَ رَسول الله يَعوده، فَمَاتَ بِاللَّيلِ فَدَفَنوه لَيلًا، فَلَمَّا أَصبَحَ أَخبَرَوه فَقَالَ: «**مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تُعْلِمُونِي**» قَالوا: كَانَ اللَّيل فَكَرِهنَا وَكَانَت ظلمَةٌ أَن نَشقَّ عَلَيك، فَأَتَى قَبرَه فَصَلَّى عَلَيهِ. وزاد مسلم: «**فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا**».

وعن جابر في مسلم (٩٥٢): أن رسول الله صلى أصحمة النجاشي فكبر عليه أربعًا، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٩٥١): فخرج بهم إلى المصلى وكبر أربع تكبيرات.

وللعلماء أقوال أخرى في هذا الباب، فذهب بعضهم إلى أن التكبيرات خمس. صح هذا عن زيد بن أرقم وعبدالله بن مسعود أما أثر زيد بن أرقم. فأخرجه مسلم رقم (٩٥٧) من طريق عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: كان زيد يكبر على الجنائز أربعًا، وإنه كبر على جنازة خمسًا فسألته فقال: كان رسول الله يكبرها. وأثر ابن مسعود أخرجه ابن المنذر (٣١٢٦) أنه صلى على جنازة رجل من بني أسد فكبر عليه خمسًا.

وقد صح عن علي عند ابن المنذر في الأوسط (٣١٢٣) من طريق عَبْدِ خَيْرٍ، قَالَ: كَانَ عَلِيٌّ يُكَبِّرُ عَلَى الْبَدْرِيِّينَ سِتًّا، وَعَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ خَمْسًا، وَعَلَى سَائِرِ النَّاسِ أَرْبَعًا. وعن علي أيضًا عند ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر في الأوسط (٣١٣٢) أنه صلى على أبي قتادة فكبر عليه سبعًا. وجاء عن ابن عباس وأنس وجابر بن زيد على أن التكبير على الجنازة ثلاثًا.

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٥٨): قوله: (باب التكبير على الجنازة أربعا) قال الزين بن المنير: أشار بهذه الترجمة إلى أن التكبير لا يزيد على أربع، ولذلك لم يذكر ترجمة أخرى ولا خبرا في الباب، وقد اختلف السلف في ذلك: فروى مسلم عن زيد بن أرقم أنه يكبر خمسا ورفع ذلك إلى النبي ، وروى ابن المنذر عن ابن مسعود أنه صلى على جنازة رجل من بني أسد فكبر خمسا، وروى ابن المنذر وغيره عن علي أنه كان يكبر على أهل بدر ستا وعلى الصحابة خمسا وعلى سائر الناس أربعا، وروي أيضًا بإسناد صحيح عن أبي معبد قال: صليت خلف ابن عباس على جنازة فكبر ثلاثًا، وسنذكر الاختلاف على أنس في ذلك. قال ابن المنذر: ذهب أكثر أهل العلم إلى أن التكبير أربع، وفيه أقوال أخر، فذكر ما تقدم، قال: وذهب بكر بن عبدالله المزني إلى أنه لا ينقص من ثلاث ولا يزاد على سبع، وقال أحمد مثله لكن قال: لا ينقص من أربع، وقال ابن مسعود: كبر ما كبر الإمام، قال: والذي نختاره ما ثبت عن عمر، ثم ساق بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب قال: كان التكبير أربعًا وخمسًا، فجمع عمر الناس على أربع، وروى البيهقي بإسناد حسن إلى أبي وائل قال: كانوا يكبرون على عهد رسول الله سبعا وستا وخمسًا وأربعًا، فجمع عمر الناس على أربع كأطول الصلاة. اهـ

ويقرأ المصلي في الركعة الأولى فاتحة الكتاب ففي البخاري (١٣٣٥) عن طلحة بن عبدالله قال: صَلَّيت خَلفَ ابنِ عَبَّاسٍ عَلَى جَنَازَةٍ فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ قَالَ: لِيَعلَموا أَنَّهَا سنَّةٌ، وفي البيهقي (٤/ ٣٩-٤١) عن رجال من أصحاب النبي في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يصلي على النبي ، ويخلص الصلاة في التكبيرات الثلاث، ثم يسلم تسليمًا خفيفًا حين ينصرف، والسنة أن يفعل من وراءه مثل ما فعل أمامه. اهـ

وأما شهيد المعركة مع الكفار فالصحيح أنه لا يصلى عليه؛ لأن النبي لم يصل على شهداء أحد، وكذا لا يغسل ويكفن في ملابسه التي هي عليه.

[ملائكة القطر]

٨٨- وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ مَعَ كُلِّ قَطْرَةٍ مَلَكًا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى يَضَعَهَا حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

الشرح:

قد تقدم الكلام على الإيمان بالملائكة، وقد فسر العلماء قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[النازعات:٥] أنها الملائكة التي تتنزل مع القطر وهؤلاء الملائكة هم أتباع لميكائيل ملك القطر، والله أعلم، لكن تحديدهم بهذا العدد ليس فيه عن النبي شيء.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[المؤمنون:١٨] فالله قدر نزول الأمطار ومقاديرها، وأماكن نزولها يصرفه سبحانه وتعالى كيف شاء، وفي أحمد (١/ ٢٧٤) عن ابن عباس قال: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ الله ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ، عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إِسْرَائِيلُ عَلَى بَنِيهِ، إِذْ قَالُوا: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قَالَ: «**هَاتُوا**» قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ عَلامَةِ النَّبِيِّ؟ قَالَ: «**تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ**» قَالُوا: أَخْبِرْنَا كَيْفَ تُؤَنِّثُ الْمَرْأَةُ، وَكَيْفَ تُذْكِرُ؟ قَالَ: «**يَلْتَقِي الْمَاءَانِ، فَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ آنَثَتْ**» قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: «**كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلائِمُهُ إِلا أَلْبَانَ كَذَا وَكَذَا** - قَالَ أَبِي: قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الْإِبِلَ - **فَحَرَّمَ لُحُومَهَا**» قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟ قَالَ: «**مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ - أَوْ فِي يَدِهِ -**

مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ» قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: «صَوْتُهُ» قَالُوا: صَدَقْتَ، إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: «جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ»، قَالُوا: جِبْرِيلُ! ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُوُّنَا، لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، لَكَانَ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾[البقرة:٩٧] إلى آخر الآية.

فكما ترى الثابت أن ميكائيل ملك القطر وله أتباع لكن ما لم يرد عن رسول الله من أمور الغيب التي لا مجال للرأي فيها يتوقف فيه إلا ما جاء عن صحابي لا يأخذ من الإسرائيليات فيكون له حكم الرفع.

وعند ابن أبي الدنيا في المطر والرعد رقم (١٠): ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر:٢١] قال: بلغني أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من ولد آدم وولد إبليس يحصون كل قطرة، وأين تقع، ومن يرزق ذلك النبات، وهذا كما ترى بلاغ وليس ثمت مستند إلى مثل هذا القول.

وعند ابن أبي الدنيا في المطر والرعد (٢٥) في قوله: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾[الذاريات:٢] قال: السحاب، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ قال: الملائكة.

[الإيمان بسماع أهل قليب بدر لكلام رسول الله]

٨٩- وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ كَلَّمَ أَهْلَ الْقَلِيبِ يَوْمَ بَدْرٍ - أَيِ الْمُشْرِكِينَ - كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُ.

الشرح:

صح هذا عن الرسول ففي حديث أنس بن مالك الذي أخرجه الإمام مسلم رقم (٢٨٧٤)، وحديث عمر قبله أخرجه رقم (٢٧٨٣) وفيهما: أن رسول الله نادى أهل القليب، ثم قال عمر: يا رسول الله، كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها، قال: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا**». هذا لفظ حديث عمر ، وفي لفظ حديث أنس : «**وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا**».

مسألة: هل يسمع الأموات مطلقًا أم لا؟

جاء حديث عائشة عند البخاري رقم (٣٩٧٩)، ومسلم رقم (٩٣٢) وفيه: أن رسول الله قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين فقال لهم ما قال: «**إِنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ مَا أَقُولُ**»، وَقَدْ وَهِلَ، إِنَّمَا قَالَ: «**إِنَّهُمْ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ**»، ثم قَرَأَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[النمل:٨٠]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[فاطر:٢٢]. وقد احتج بالحديث الأول طائفة وادعت: أن الأموات يسمعون مطلقًا.

وذهبت طائفة أخرى: إلى أنهم لا يسمعون واحتجوا بحديث عائشة، وجعلوا قصة أهل القليب إنما هي معجزة للنبي من باب التوبيخ، كما جاء عن قتادة في البخاري رقم (٣٩٧٦) قال: أَحْيَاهُمُ اللهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ، قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا.

وقال القاضي عياض في إكمال المعلم (٣/ ٣٧٢): إعتد بعض الناس بحديث القليب فقال: إن الميت يسمع، وهذا غير صحيح عند أهل الأصول؛ لأن الحياة شرط في السمع فلا يسمع غير حي، وحمل بعض الناس ذلك أنهم أعيدت إليهم الحياة حتى سمعوا تقريعه عليه السلام لهم. اهـ

وهذا القول أظهر من القول الأول، ويؤيده قول قتادة المنقول سابقًا. وإلى القول بالخصوصية في أهل القليب، ذهب المازري كما نقله عنه الإمام النووي في شرح مسلم (٧/ ٢٠٦).

وقال الحافظ في الفتح تحت باب دعاء النبي على كفار قريش وهلاكهم يوم بدرٍ.

وقال السهيلي ما محصله: إن في نفس الحديث ما يدل على خرق العادة بذلك للنبي ؛ لقول الصحابة له: تخاطب أقومًا قد جيفوا؛ فأجابهم بالقول المتقدم: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**». اهـ

وقال أيضًا : في باب ما جاء في عذاب القبر في كلام طويل: وقال ابن التين: لا معارضة بين حديث ابن عمر والآية؛ لأن الموتى لا يسمعون بلا شك، لكن إذا أراد الله إسماع ما ليس من شأنه السمع لا يمتنع. اهـ

قال الألوسي في الآيات البينات في عدم سماع الأموات (٦٨) نقلًا عن السفاريني في كتابه البحور الزاخرة في أحوال الآخرة: وأنكرت عائشة سماع الموتى، وقالت: ما قال رسول الله: «إِنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ الآنَ مَا أَقُولُ» إنما قال: «لَيَعْلَمُونَ الآنَ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَـهُمْ، إِنَّهُ حَقٌّ» ثم قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[النمل:٨٠]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[فاطر:٢٢]. اهـ

قال ابن رجب في أهوال القبور: وقد وافق عائشة على نفي سماع الموتى كلام الأحياء طائفة من العلماء، ورجحه القاضي أبو يعلي من كبار أصحابنا في كتابه الجامع الكبير واحتجوا بما احتجت به وأجابوا على حديث قليب بدر، بما أجابت به عائشة، وبأنه يجوز أن يكون ذلك معجزة مختصة بالنبي توبيخًا وتصغيرًا، ونقمة وحسرة وندامة، وذهبت طوائف من أهل العلم إلى سماع الموتى كلام الأحياء في الجملة. اهـ

والراجح في المسألة أن الموتى لا يسمعون مطلقًا، وإنما يسمعون متى أراد الله إسماعهم كما في أحاديث المسألة وغيرها. وهذا هو القول الذي تدعمه الأدلة، وأما إسماع أهل القليب فكما تقدم أنه خصيصة للنبي أراد بها إهانتهم وتبكيتهم، وزيادة الحسرة عليهم، وراجع إن شئت الآيات البينات في عدم سماع الأموات.

وقال ابن التين لا معارضة بين حديث ابن عمر والآية؛ لأن الموتى لا يسمعون بلا شك، لكن إذا أراد الله تعالى إسماع ما ليس من شانه السماع لم يمتنع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت:١١]. قول قتادة إن الله تعالى أحياهم، حتى

سمعوا كلام نبيه عليه الصلاة والسلام توبيخًا ونقمة. اهـ من الآيات البينات في عدم سماع الأموات (٣١).

وقال أيضًا في الآيات البينات في عدم سماع الأموات (٣٥): ومما يؤيد مذهب الحنفية والموافقين لهم بعدم السماع، أن الميت لو كان يسمع مطلقا لما ورد أن الروح ترجع إليه وقت المسألة في القبر، ثم تذهب. اهـ

[الأجر على المرض]

٩٠- وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَرِضَ يَأْجُرُهُ اللهُ عَلَى مَرَضِهِ. وَالشَّهِيدُ يَأْجُرُهُ اللهُ عَلَى الْقَتْلِ.

الشرح:

قوله: (**الرجل**) خرج مخرج الغالب، وإلا فالأجر حاصل للرجال والنساء من المسلمين، وقد صحت بذلك الآثار عن النبي ففي حديث ابن مسعود في الصحيحين : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ وَهُوَ يُوعَكُ فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا قَالَ: «**أَجَلْ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**» قَالَ: لَكَ أَجْرَانِ قَالَ: «**نَعَمْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللهُ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**» أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

وفي حديث صهيب عند مسلم (٢٩٩٩) قال: قال رسول الله : «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**».

وفي حديث أبي سعيد وأبي هريرة عندهما: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**» أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

وفي حديث جابر عند مسلم (٢٥٧٥) أن رسول الله : دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ، أَوْ أُمِّ الْمُسَيِّبِ فَقَالَ: «**مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ، أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟**»

قَالَتْ: الحُمَّى لَا بَارَكَ اللهُ فِيهَا، فَقَالَ: «**لَا تَسُبِّي الحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ**».

وفي حديث ابن عباس عند البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦) في قصة المرأة التي تصرع: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**»، فقالت: بل أصبر. والأحاديث في الباب كثيرة، وقد اختلف العلماء فيها إذا لم يصبر على المرض، والصحيح أنه يؤجر بينما لو صبر كان أجره أعظم.

الشهيد:

قوله: **(والشهيد يأجره الله على القتل -وفي بعض النسخ- الشهادة)** الشهيد هو الذي قتل في أرض المعركة، ويقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ففي حديث أبي موسى قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**» الحديث أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

قال الله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[النساء:٦٩].

وفضائل الشهيد عظيمة منها: أنه يغفر له بأول قطرة تسيل من دمه، ولا يجد من مس القتل إلا ما يجد أحدنا من مس القرصة، ومنها أنه يؤمن من فتان القبر، ومنها أن روحه في جوف طير خضر تسرح من الجنة حيث شاءت، ومنه أن من مات ودخل الجنة لا يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما عليها إلا الشهيد؛ فإنه يحب أن يرجع، ثم يقتل، ثم يرجع، ثم يقتل، لما يرى من فضل الشهادة.

وإليك بعض الأحاديث الدالة على أجر الشهيد ففي البخاري (٣٦)، ومسلم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة قال: «تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ الله إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ الله أَبَدًا وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ الله؛ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ».

وفي مسلم (١٨٧٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ الله خَيْرٌ يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا إِلَّا الشَّهِيدُ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ».

وفي مسلم (١٨٨٤) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»؛ فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ الله فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا العَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله».

وفي حديث أبي قتادة عند مسلم (١٨٨٥) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّهُ سَمِعَهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ الله أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ؛ فَذَكَرَ لَهُمْ: «أَنَّ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله وَالإِيمَانَ بِالله أَفْضَلُ الأَعْمَالِ»، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إِنْ

قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله تُكَفِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله : «نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ الله وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله : «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله أَتُكَفِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله : «نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ لِي ذَلِكَ».

وفي مسلم (١٨٨٧) عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلنا عَبْدَالله عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران:١٦٩] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا، قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا».

شهداء أمة محمد :

وهُنالك شهداء غير هذا، ففي البخاري (٦٥٣) ومسلم (١٩١٤) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: المَطْعُونُ، وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ الله».

قال النووي في شرح مسلم : قوله «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: المَطْعُونُ، وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ الله»، وفي رواية مالك في الموطإ من حديث جابر بن عتيك: «الشُّهَدَاءُ سَبْعَةٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ الله»

فذكر: «**المَطْعُونَ، وَالمَبْطُونَ، وَالْغرِقَ، وَصَاحِبَ الهَدْمِ، وَصَاحِبَ ذَاتِ الجَنْبِ، وَالحَرِقَ، وَالمَرْأَةَ تَمُوتُ بِجُمْعٍ**».

وفي رواية لمسلم «**مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ**» وهذا الحديث الذى رواه مالك صحيح بلا خلاف، وإن كان البخارى ومسلم لم يخرجاه.

فأما المطعون فهو الذى يموت في الطاعون كما في الرواية الأخرى «**الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**».

وأما المبطون فهو صاحب داء البطن، وهو الإسهال، قال القاضي: وقيل: هو الذى به الاستسقاء وانتفاخ البطن، وقيل: هو الذى تشتكى بطنه، وقيل: هو الذى يموت بداء بطنه مطلقًا.

وأما الغرق فهو الذى يموت غريقًا في الماء.

وصاحب الهدم من يموت تحته.

وصاحب ذات الجنب معروف وهى قرحة تكون في الجنب باطنًا.

والحريق الذي يموت بحريق النار.

وأما المرأة تموت بجمع فهو بضم الجيم وفتحها وكسرها، والضم أشهر، قيل: التي تموت حاملًا جامعة ولدها في بطنها، وقيل: هي البكر، والصحيح الأول. اهـ

وجاء عن أبي هريرة عند مسلم (١٩١٥) قال: قال رسول الله : «**مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟**». قَالُوا يَا رَسُولَ الله مَنْ قُتِلَ في سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ قَالَ: «**إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِى إِذَنْ لَقَلِيلٌ**». قَالُوا فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله**

فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي البَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ». قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِيكَ فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالغَرِيقُ شَهِيدٌ**».

[الإيمان بتألم الأطفال]

٩١- وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ الْأَطْفَالَ إِذَا أَصَابَهُمْ شَيْءٌ فِي دَارِ الدُّنْيَا يَأْلَمُونَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ بَكْرَ بْنَ أُخْتِ عَبْدِالوَاحِدِ قَالَ: لَا يَأْلَمُونَ، وَكَذَبَ.

الشرح:

مثل هذا القول البارد البائر لو لم ينقله الإمام البربهاري لما صدقنا أن أحدًا يقوله، وتألم الأطفال وتعذبهم بالجوع والعطش والأمراض أمر محسوس ملموس؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

ومع ذلك فقد دخل رسول الله على ابنته وولدها في سياقة الموت؛ فَقَامَ النَّبِيُّ وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمْ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ، كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ؛ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**» أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٤٣).

وفي حديث ابن عمر في الصحيحين البخاري (٢٢١٥) ومسلم (٢٧٤٣) في الثلاثة الذين دخلوا الغار ثم توسلوا إلى ربهم بأخلص دعائهم، فقال أحدهم: «... **وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ مِنَ الْجُوعِ**» الحديث.

وحديث أبي هريرة في قصة الأنصار الذي ضاف ضيف رسول الله قال: قَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي؟ قَالَ: فإِذَا بَكَوُا فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ... الحديث. أخرجه البخاري (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤) إلى غير ذلك.

قال ابن حزم في الفصل (٣/ ١٥٧): ولجأت طائفتان منهم إلى أمرين أحدهما قول بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد فإنه قال: إن الأطفال لا يألمون البتة، قال أبومحمد: ولا ندري لعله يقول مثل ذلك في الحيوان، قال أبومحمد: وهذا انقطاع سمج ولجاج في الباطل قبيح ودفع للعيان والحس وكل واحد منا قد كان صغيرًا ويوقن أننا كنا نألم الألم الشديد الذي لا طاقة لنا بالصبر عليه. اهـ

وقال بعد أن ذكر بكر هذا من جملة الخوارج كان يقول: في كل ذنب صغير أو كبير، ولو كان أخذ حبة خردل بغير حق، أو كذبة خفيفة على سبيل المزاح، فهي شرك بالله، وفاعلها كافر مشرك مخلد في النار، إلا أن يكون من أهل الجنة، وهذا حكم طلحة والزبير عندهم، ومن حماقاتهم قول عبدالله بن عيسى تلميذ بكر بن أخت عبدالواحد بن زيد المذكور فإنه كان يقول: إن المجانين والبهايم والأطفال ما لم يبلغوا الحلم فإنهم لا يألمون البتة لشيء مما ينزل بهم من العلل، وحجته في ذلك: أن الله تعالى لا يظلم أحدًا.

قال أبومحمد: لعمري لقد طرد أصل المعتزلة وأن من خالفه في هذه المتلوث في الحماقة متكسع في التناقض. اهـ

قال الذهبي في الميزان عن بكر هذا: دجال كذاب، كان يضع الحديث.

أقول: إن أهل البدع والأهواء بسبب بعدهم عن الكتاب والسنة وتعلقهم بعلم الكلام والبدعة وصلوا إلى التكلم بما يخالف المعقول والمنقول وبما يناقض الأصول، ولا تعجب ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[النور:٤٠]، وهذا ليس بأعظم من قولهم بأن الله لا فوق ولا تحت، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا حي ولا ميت، ولا موجود ولا معدوم.

فإنا لله وإنا إليه راجعون، كم اتعبوا بترّاهاتهم وبلائهم؛ وإلا فإن علم عقيدة السلف من أسهل العلوم؛ لأن السلف مجموعون عليه، ولأنه مبنيٌّ على الآية والحديث، لكن الله له الحكمة البالغة، وقد تحققت مصالح كثيرة بسبب شغبهم في هذا الباب وغيره، ومن هذه المصالح: جهاد أهل البدع، ونشر العلم والدين والنصيحة، ورد شبه القوم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد:٣١].

[دخول الجنة برحمة الله عز وجل]

٩٢- وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ.

الشرح:

الجنة عظيمة وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا تدرك بالعمل، ولكن الله يتفضل على عباده المؤمنين قال الله في شأن أهلها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣].

وجعل الأعمال أسبابًا لدخولها قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف:٧٢].

فالباء ليست باء العوض والثمن، وإنما هي باء السبب، فقد جاء في حديث ابن مسعود ، أن رسول الله قال: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنكُمْ بِعَمَلِهِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَ وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**» أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وجاء عن عائشة عند البخاري (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) قال: قال رسول الله : «**سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهَ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ العَمَلِ إِلَى اللهَ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**».

فلا يعجب أحد بعمله؛ فإنه مهما عمل لن يؤدي حق نعم الله عليه، ومع ذلك لا يترك العمل الصالح الذي يكون سببًا في دخوله الجنة.

قال النووي في شرح مسلم : اعلم أن مذهب أهل السنة؛ أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما من أنواع التكليف، ولا تثبت هذه كلها ولا غيرها إلا بالشرع، ومذهب أهل السنة أيضًا: أن الله تعالى لا يجب عليه شيء تعالى الله، بل العالم ملكه، والدنيا والآخرة في سلطانه، يفعل فيهما ما يشاء، فلو عذب المطيعين، والصالحين أجمعين، وأدخلهم النار كان عدلًا منه وإذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل، ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك، ولكنه أخبر وخبره صدق، أنه لا يفعل هذا، بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته، ويعذب المنافقين ويخلدهم في النار عدلًا منه.

وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل، ويوجبون ثواب الأعمال، ويوجبون الأصلح، ويمنعون خلاف هذا في خبط طويل لهم، تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع، وفي ظاهر هذه الأحاديث: دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[النحل:٣٢]، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[الزخرف:٧٢] ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة، فلا يعارض هذه الأحاديث، بل معنى الآيات: أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها، وقبولها برحمة الله تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الأحاديث، ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها، وهي من الرحمة، والله أعلم. اهـ

قال الصابوني في اعتقاد أهل الحديث (٢٩٤-٢٩٥): ويعتقدون ويشهدون أن أحدًا لا تجب له الجنة -وإن كان عمله حسنًا، وطريقه مرتضى- إلا أن

يتفضل الله عليه، فيوجبها له بمنه وفضله، إذ عمل الخير الذي عمله، لم يتيسر له إلا بتيسر الله عز اسمه، فلو لم ييسره له، ولو لم يهده لم يهتد له أبدًا، قال الله : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[النور:٢١]. اهـ

وفي هذا رد على المعتزلة الذين يوجبون على الله أن يدخل الطائع الجنة، وأن الدخول بالمقابل وهذا ضلال منهم وانحراف وجرأة على الله .

[وما ربك بظلام للعبيد]

٩٣- وَلَا يُعَذِّبُ اللهُ أَحَدًا إِلَّا بِذُنُوبِهِ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ وَلَوْ عَذَّبَ اللهُ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرَضِينَ بَرَّهُمْ وَفَاجِرَهُمْ عَذَّبَهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنَّهُ يَظْلِمُ، وَإِنَّمَا يَظْلِمُ مَنْ يَأْخُذُ مَا لَيْسَ لَهُ، وَاللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَ الْخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالدَّارُ دَارُهُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ وَلَا يُقَالُ: لِمَ وَكَيْفَ؟ وَ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ.

الشرح:

الله حكم عدل، حرم على نفسه الظلم؛ لكمال عدله، قال الله : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩] وقد تقدم معنا أن الصفات المنفية في حق الله تتضمن كمال الضد؛ لأن النفي المحض ليس بكمال، فنفي الظلم يتضمن كمال العدل.

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**» أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر .

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه:١١٢].

قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣٢٢): ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ نفي الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره، وإذا انتفت المبالغة انتفي غيرها، دليله قوله الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾[يونس:٤٤]. اهـ

وهذا لكمال عدله سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[الشورى:٣٠] وإنما يظلم من يأخذ ما ليس له، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. وقد جاء في البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (٣٠): «**فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الجن:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، وهو سبحانه مع ذلك ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣].

والذي نؤمن به ونعتقده، أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحد إلا بذنب، كما أننا نؤمن أن الله لا يظلم أحدًا شيئًا. أفاده النجمي .

وفي حديث زيد بن ثابت عند أحمد (٥/ ١٨٢): عن ابن الديلمي قال: لَقِيتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّهُ يَذْهَبُ مِنْ قَلْبِي. قَالَ: لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ، كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ الله، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، لَدَخَلْتَ النَّارَ.

قَالَ: فَأَتَيْتُ حُذَيْفَةَ فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ مِثْلَ ذَلِكَ.

قال الشيخ الفوزان في إتحاف القاري بشرح السنة للبربهاري (١/ ٣٣٧): لأن الفاجر عذبه بفجوره، والبر عذبه؛ لأن عمله لا يؤهله لدخول الجنة، لأنه لا يقابل نعم الله عليه. اهـ

وقال الشيخ النجمي في إرشاد الساري (١٣٥): ومن جهةٍ أخرى يجب أن نعلم أنَّ الخلق خلق الله والأرض أرضه وأنَّه هو الذي خلق الخلق، ورزقهم، وأنَّه لو عذَّب أهل السموات وأهل الأرض لعذَّبهم غير ظالمٍ لهم.

وهذه العبارة وردت عن بعض الصحابة، ولكنَّ الله قد قطع الحجَّة بإرسال الرسل وإنزال الكتب كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾. اهـ

وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٤٨-٤٥٢): وقوله: (يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبدًا) الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد، يقتضي قولا وسطا بين قولي القدرية والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلما وقبيحا يكون منه ظلما وقبيحا، كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم! فإن ذلك تمثيل لله بخلقه! وقياس له عليهم! هو الرب الغني القادر، وهم العباد الفقراء المقهورون، وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم، يقولون: إنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم! بل كل ما كان ممكنا فهو منه - لو فعله - عدل، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهي، والله ليس كذلك.

فإن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه:١١٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[ق:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الزخرف:٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[غافر:١٧] – يدل على نقيض هذا القول.

ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**» أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، فهذا دل على شيئين:

أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم، والممتنع لا يوصف بذلك.

الثاني: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهي، والله ليس كذلك، فيقال لهم: هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه، وأيضًا: فإن قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ – قد فسره السلف، بأن الظلم: أن توضع عليه سيئات غيره، والهضم: أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤].

وأيضًا فإن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك، وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ – علم أنه ممكن مقدور عليه. وكذا قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[ق:٢٨-٢٩] – لم يعن بها نفي ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه، وإنما نفي ما هو

مقدور عليه ممكن، وهو أن يجزوا بغير أعمالهم. فعلى قول هؤلاء ليس الله منزها عن شيء من الأفعال أصلًا، ولا مقدسًا عن أن يفعله، بل كل ممكن فإنه لا ينزه عن فعله، بل فعله حسن، ولا حقيقة للفعل السوء، بل ذلك ممتنع، والممتنع لا حقيقة له!!

والقرآن يدل على نقيض هذا القول، في مواضع، نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له، فعلم أنه منزه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم، كما أنه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥].

فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثًا، وأنكر على من حسب ذلك، وهذا فعل، وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾[القلم:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨] إنكار منه على من جوز أن يسوي الله بين هذا وهذا.

وكذا قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية:٢١] إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيء قبيح، وهو مما ينزه الرب عنه.

وروى أبو داود (٤٦٩٩)، والحاكم في المستدرك، من حديث ابن عباس، وعبادة بن الصامت، وزيد بن ثابت، عن النبي : «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ».

وهذا الحديث مما يحتج به الجبرية، وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة! ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل!!

وأسعد الناس به أهل السنة، الذين قابلوه بالتصديق، وعلموا من عظمة الله تعالى وجلاله، قدر نعم الله على خلقه، وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجزًا، وإما جهلًا، وإما تفريطًا وإضاعة، وإما تقصيرًا في المقدور من الشكر، ولو من بعض الوجوه، فإن حقه على أهل السماوات والأرض أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وتكون قوة الحب والإنابة، والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء -: جميعها متوجهة إليه، ومتعلقة به، بحيث يكون القلب عاكفًا على محبته وتألهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوسا على ذكره، والجوارح وقفا على طاعته.

ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة، ولكن النفوس تشح به، وهي في الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى، وأكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه، وإن أتى به من وجه آخر. فأين الذي لا تقع منه إرادة تزاحم مراد الله وما يحبه منه؟ ومن ذا الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له، ولو في وقت من الأوقات؟ فلو وضع سبحانه عدله على أهل سماواته وأرضه، لعذبهم بعدله، ولم يكن ظالمًا لهم.

وغاية ما يقدر، توبة العبد من ذلك واعترافه، وقبول التوبة محض فضله وإحسانه، وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالمًا ولو قدر أنه تاب منها، لكن أوجب على نفسه - بمقتضى فضله ورحمته - أنه لا يعذب من تاب، وقد كتب على نفسه الرحمة، فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار، أو يدخل الجنة، كما قال أطوع الناس لربه، وأفضلهم عملا، وأشدهم تعظيمًا لربه وإجلالًا: «**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**» رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وسأله الصديق دعاء يدعو به في صلاته، فقال: «**قُلْ: اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**» رواه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

فإذا كان هذا حال الصديق، الذي هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين – فما الظن بسواه؟ بل إنما صار صديقا بتوفيته هذا المقام حقه، الذي يتضمن معرفة ربه، وحقه وعظمته، وما ينبغي له، وما يستحقه على عبده، ومعرفة تقصيره، فسحقًا وبعدًا لمن زعم أن المخلوق يستغني عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة إليها! وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية!! فإن لم يتسع فهمك لهذا، فانزل إلى وطأة النعم، وما عليها من الحقوق، ووازن من شكرها وكفرها، فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سماواته وأرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم. اهـ

قوله: **(والله له الخلق والأمر)** قال الله : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف: ٥٤] والخلق هو: إيجاد الأشياء من عدم، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد:١٦]، والأمر هو كلامه وشرعه يأمر بما شاء وينهى عما يشاء.

قوله: **(والدار داره)** والدور ثلاثة: دار الدنيا الفانية، ودار البرزخ، ودار القرار الباقية قال الله ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[غافر:٣٩] وقال ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠]، ولكل دار أحكام تخصها، وقد تقدم الكلام على حياة البرزخ عند الكلام على عذاب القبر.

النهي عن الاعتراض على القدر

قوله: (ولا يقال: لِمَ؟ وكيف؟) هذه من أسئلة المعترضين على الله ، أما أتباع الرسول فقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥] استسلام لله ، وانقياد بعيدًا عن عقلانيات المبتدعين؛ فالله أحكم وأعدل من أن يقع منه ما يحتاج إلى اعتراض، بل قد بين أنه سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣]؛ لأنه الرب الخالق المالك سبحانه وتعالى.

قال ابن بطة في الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/٣١٦) من الكتاب الثاني في القدر: فجميع ما قد رويناه في هذا الباب يلزم العقلاء الإيمان بالقدر والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره، وترك البحث والتنقير، وإسقاط لم وكيف وليت ولولا، فإن هذه كلها اعتراضات من العبد على ربه، ومن الجاهل على العالم، معارضة من المخلوق الضعيف الذليل على الخالق القوي العزيز، والرضا والتسليم طريق الهدى وسبيل أهل التقوى ومذهب من شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه، فهو يؤمن بالقدر كله خيره وشره، وأنه واقع بمقدور الله جرى، ومن يعلم أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣]. اهـ

قال إياس بن معاوية: ما كلمت أحدًا من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية فإني قلت لهم: ما الظلم فيكم؟ فقالوا: أن يأخذ الأنسان ما ليس له، فقلت لهم: فإن لله كل شيء. أخرجه اللالكائي (١٢٨٠).

[الطعن في الآثار زندقة]

٩٤- وَإِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَطْعَنُ عَلَى الْآثَارِ وَلَا يَقْبَلُهَا، أَوْ يُنْكِرُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ الله ﷺ فَاتَّهِمْهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ رَدِيءُ الْقَوْلِ وَالْمَذْهَبِ.

الشرح:

قوله: **(وإذا سمعت الرجل يطعن في الآثار ولا يقبلها... الخ)** الرد على القرآنيين وبيان كفرهم:

الطاعنون في آثار رسول الله بردها وعدم قبولها صنفان:

أولهما: القرآنيون الذين يزعمون أن لا حاجة إلى السنة ويردونها بالكلية.

والثاني: أهل الكلام الذين يردون بعضًا ويؤمنون ببعض.

ولو تأملت حالهم تجد أن أحدهم لا يستطيع أن يتوضأ إلا ببيان رسول الله ، ولا يصلي ولا يحج ولا يصوم، وهذه الفرقة كافرة؛ لأنها تنكر شرع الله الذي بلغه محمد .

مع أن الله يقول في كتابه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧] إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

قال الآجري في الشريعة (١/ ١٧٦): ينبغي لأهل العلم والعقل إذا سمعوا قائلا يقول: قال رسول الله في شيء قد ثبت عند العلماء، فعارض إنسان

جاهل فقال: لا أقبل إلا ما كان في كتاب الله تعالى، قيل له: أنت رجل سوء، وأنت ممن يحذر منك النبي ، وحذر منك العلماء وقيل له: يا جاهل، إن الله أنزل فرائضه جملة، وأمر نبيه أن يبين للناس ما أنزل إليهم، قال الله : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤] فأقام الله تعالى نبيه عليه السلام مقام البيان عنه، وأمر الخلق بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وأمرهم بالانتهاء عما نهاهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر:٧]، ثم حذرهم أن يخالفوا أمر رسول الله فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]، وقال : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥]، ثم فرض على الخلق طاعته في نيف وثلاثين موضعا من كتابه تعالى وقيل لهذا المعارض لسنن رسول الله ، يا جاهل قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣] أين تجد في كتاب الله تعالى أن الفجر ركعتان، وأن الظهر أربع، والعصر أربع، والمغرب ثلاث، وأن العشاء الآخرة أربع؟ أين تجد أحكام الصلاة ومواقيتها، وما يصلحها وما يبطلها إلا من سنن النبي ؟ ومثله الزكاة، أين تجد في كتاب الله تعالى من مائتي درهم خمسة دراهم، ومن عشرين دينارًا نصف دينار، ومن أربعين شاة شاة، ومن خمس من الإبل شاة، ومن جميع أحكام الزكاة، أين تجد هذا في كتاب الله تعالى؟ وكذلك جميع فرائض الله، التي فرضها الله في كتابه، لا يعلم الحكم فيها إلا بسنن رسول الله هذا قول علماء المسلمين، من قال غير هذا خرج عن ملة الإسلام، ودخل في ملة الملحدين، نعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى. اهـ

وقال أبومحمد علي بن حزم في كتابه الإحكام في أصول الأحكام (١/٩٦-٩٧): لما بينا أن القرآن هو الاصل المرجوع إليه في الشرائع نظرنا فيه فوجدنا فيه إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله ، ووجدناه يقول فيه واصفا لرسوله : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤]؛ فصح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله إلى رسوله على قسمين: أحدهما وحي متلو مؤلف تأليفا معجز النظام وهو القرآن، والثاني: وحي مروي منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله وهو المبين عن الله مراده منا.

قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤] ووجدناه تعالى قد أوجب طاعة هذا القسم الثاني كما أوجب طاعة القسم الاول الذي هو القرآن ولا فرق فقال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[النساء:٥٩] كانت الأخبار التي ذكرنا أحد الأصول الثلاثة التي ألزمنا طاعتها في الآية الجامعة لجميع الشرائع أولها عن أخرها، وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فهذا أصل، وهو القرآن.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فهذا ثان وهو الخبر عن رسول الله ، ثم قال تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فهذا ثالث وهو الإجماع المنقول إلى رسول الله حكمه، وصح لنا بنص القرآن، أن الاخبار هي أحد الأصلين المرجوع إليهما عند التنازع، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النساء:٥٩]. انتهى

وفي حديث المقدام بن معدي كرب عند أحمد (٤/١٣٢) وغيره قال: قال رسول الله : «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى**

أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا القُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الحِمَارِ الأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ، إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ».

فهذا دليل ونهي وإخبار عن ظهور هذه الطوائف التي ترد الآثار النبوية والأحاديث المروية بدعوى أنها ليست من القرآن وهم بهذا الصنيع يردون القرآن ولهذا كفر العلماء القرآنيين.

فالله أمرنا أن نتبع رسول الله فقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[آل عمران:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[الحشر:٧]، وقال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

والرسول قد حثنا كما تقدم في غير ما حديث على الإتباع؛ ففي حديث العرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رَسُولُ الله يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ الله؟، قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» أخرجه أبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقد تقدم.

وقال شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية (١٩-٢٠): من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله باطنا وظاهرا واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار واتباع وصية رسول الله حيث قال: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس ويقدمون هدي محمد على هدى كل أحد ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة. اهـ

علامات أهل البدع:

ولبغض أهل البدع للآثار؛ فإنهم أبغضوا حملتها، وتنكروا لهم وعادوهم وازدروهم، ونبذوهم بالألقاب القبيحة حتى أصبحت هذه السمة من أبرز علاماتهم.

قال الصابوني في عقيدة السلف أهل الحديث (٢٩٩): وعلامات البدع على أهلها بادية ظاهرة، وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ، واحتقارهم لهم وتسميتهم إياهم حشوية وجهلة وظاهرية ومشبهة، اعتقادًا منهم في أخبار الرسول أنها بمعزل عن العلم، وأن العلم ما يلقيه الشيطان إليهم من نتاج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة، وهواجس قلوبهم الخالية من الخير، وحجج! العاطلة بل شبههم الداحضة الباطلة. أولئك الذين لعنهم الله، فأصمهم وأعمى أبصارهم. ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء.

سمعت الحاكم أبا عبدالله الحافظ يقول: سمعت أبا علي الحسين بن علي الحافظ يقول: سمعت جعفر بن أحمد بن مناف الواسطي يقول: سمعت أحمد بن

سنان القطاف يقول: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، فإذا ابتدع الرجل نزعت حلاوة الحديث من قلبه.

وسمعت الحاكم يقول: سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد الحنظلي ببغداد يقول: سمعت محمد بن إسماعيل الترمذي يقول كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي عند إمام الدين أبي عبدالله أحمد بن حنبل، فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبدالله ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث فقال: أصحاب الحديث قوم سوء. فقام أحمد بن حنبل وهو ينفض ثوبه ويقول: زنديق زنديق، حتى دخل البيت.

وسمعت الحاكم أبا عبدالله يقول: سمعت أبا نصر أحمد بن سهل الفقيه ببخارى يقول: سمعت أبا نصر بن سلام الفقيه يقول: ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناده. اهـ

والكلام يطول على فساد أصحاب هذا القول وأما الفريق الثاني فآمن بما جاء متواتر عن رسول الله ورد ما جاء آحاد مع أن تقسيم الحديث إلى أحاد ومتواتر تقسيم مبتع ما أنزل الله به من سلطان والواجب على المسلم الانقياد لما جاء به رسول الله إذا صح سنده وعدلت رواته وسلم من الشذوذ والعلة سواء كان ذلك في الأحكام أو العقائد.

وجوب قبول خبر الآحاد في العقائد والأحكام:

الأدلة على قبول خبر الواحد أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن يُذكر.

أخرج الخطيب في الفقيه والمتفقه رقم (٢٨٠): قال الشافعي: فإن قال قائل: فأين الدلالة على قبول خبر الواحد عن رسول الله ؟ قيل له إن شاء الله: كان الناس مستقبلي بيت المقدس، ثم حولهم الله إلى البيت الحرام، فأتى أهل قباء آت

وهم في الصلاة، فأخبرهم: أن الله أنزل على رسوله كتابًا، وأن القبلة حولت إلى بيت الله الحرام، فاستداروا إلى الكعبة وهم في الصلاة وأن أبا طلحة وجماعة كانوا يشربون الشراب فضيخ بسر، ولم يحرم يومئذ من الأشربة شيء، فأتاهم آت فأخبرهم أن الخمر قد حرمت فأمروا أناسا فكسروا جرار شرابهم ذلك، ولا أشك أنهم لا يحدثون مثل هذا إلا ذكروه لرسول الله ، إن شاء الله، ويشبه أن لو كان قبول خبر من أخبرهم وهو صادق عندهم، مما لا يجوز لهم قبوله، أن يقول لهم رسول الله : قد كنتم على قبلة لم يكن لكم أن تتحولوا عنها إذ كنت حاضرا معكم حتى أعلمكم أو يعلمكم جماعة أو عدد يسميهم لهم، ويخبرهم أن الحجة تقوم عليهم بمثلها، لا بأقل منها، إن كانت لا تثبت عنده بواحد، والفساد لا يجوز عند رسول الله ، ولا عند عالم، وهراقه حلال فساد، ولو لم تكن الحجة أيضًا تقوم عليهم بخبر من أخبرهم بتحريم الخمر لأشبه أن يقول لهم: قد كان لكم حلالًا، ولم يكن عليكم إفساده حتى أعلمكم أن الله حرمه أو يأتيكم عدد يحدهم لهم بخبر عني بتحريمه وأمر رسول الله أم سلمة أن تعلم امرأة أن تعلم زوجها إن قبلها وهو صائم لا يحرم عليه ولو لم ير الحجة تقوم عليه بخبرها، إذا صدقها لم يأمرها إن شاء الله به وأمر رسول الله أنيسًا الأسلمي أن يغدو على امرأة رجل، فإن اعترفت رجمها، فاعترفت فرجمها، وفي ذلك إماتة نفسها باعترافها عند أنيس، وهو واحد وأمر عمرو بن أمية الضمري، أن يقتل أبا سفيان، وقد سن عليه إن علمه أسلم لم يحل له قتله، وقد يحدث الإسلام قبل أن يأتيه عمرو بن أمية وأمر أنيسًا أو عبدالله بن أنيس، أن يقتل خالد بن سفيان الهذلي فقتله ومن سنة رسول الله لو أسلم أن لا يقتله وكل هؤلاء في معاني ولاته، وهم واحد واحد يمضون الحكم بأخبارهم، قال الشافعي: وبعث رسول الله ، بعماله واحدًا واحدًا، ورسله واحدًا واحدًا، وإنما بعث بعماله ليخبروا الناس بما

أخبرهم به رسول الله ﷺ من شرائع دينهم، ويأخذوا منهم ما أوجب الله عليهم، ويعطوهم ما لهم، ويقيموا عليهم الحدود، وينفذوا فيهم الأحكام، ولم يبعث منهم واحدا إلا مشهورا بالصدق عند من بعثه إليه، ولو لم تقم الحجة عليهم بهم -إذ كانوا في كل ناحية وجههم إليهم أهل صدق عندهم- ما بعثهم إن شاء الله، وبعث أبا بكر واليا على الحج وكان في معنى عماله، ثم بعث عليًّا بعده، بأول سورة براءة، فقرأها في مجمع الناس في الموسم، وأبوبكر واحد، وعلي واحد، وكلاهما بعثه بغير الذي بعث به صاحبه، ولم تكن الحجة تقوم عليهم ببعثته كل واحد منهما -إذ كانا مشهورين عند عوامهم بالصدق، وكان من جهلهما من عوامهم وجد من يثق به من أصحاب يعرف صدقهما- ما بعث واحدًا منهما فقد بعث عليًّا بعظيم، نقض مدد وإعطاء مدد، ونبذ إلى قوم، ونهي عن أمور وأمر بأخرى، وما كان لأحد من المسلمين بلغه علي: أن له مدة أربعة أشهر أن يعرض لهم في مدتهم، ولا مأمور بشيء ولا منهي عنه برسالة علي أن يقول له: أنت واحد، ولا تقوم علي الحجة بأن رسول الله ﷺ بعثك إلي بنقض شيء جعله لي، ولا بإحداث شيء لم يكن لي ولا لغيري، ولا بنهي عن أمر، لم أعلم رسول الله ﷺ نهى عنه، ولا بإحداث أمر أعلم رسول الله ﷺ أحدثه، وما يجوز هذا لأحد في شيء قطعه عليه علي برسالة النبي ﷺ، ولا أعطاه إياه، ولا أمره به ولا نهاه عنه، بأن يقول لم أسمعه من رسول الله ﷺ، أو لم ينقله إليه عدد، فلا أقبل فيه خبرك وأنت واحد، ولا كان لأحد وجه إليه رسول الله ﷺ عاملًا يعرفه أو يعرفه له من يصدقه فصدقه أن يقول له العامل: عليك أن تعطي كذا أو تفعل كذا، أو يفعل بك كذا، فيقول: لا أقبل هذا منك لأنك واحد حتى ألقى رسول الله ﷺ، لا عن خبرك، وقد يمكن أن تغلط، أو يحدثنيه عامة يشترط في عددهم وإجماعهم على الخبر عن رسول الله ﷺ، وشهادتهم معا أو متفرقين، ثم لا يذكر أحد من خبر

العامة عددا أبدًا إلا وفي العامة عدد أكثر منه، ولا من اجتماعهم حين يخبرون تفرقهم شيئًا إلا أمكن في زمان النبي ، أو بعض زمانه حين كثر أهل الإسلام فلا يكون لتثبيت الأخبار غاية أبدًا ينتهي إليها، ثم لا يكون هذا لأحد من الناس، أجوز منه لمن قال هذا، ورسول الله بين ظهرانيهم؛ لأنه يدرك لقاء رسول الله ، ويدرك ذلك له أبوه وإخوته وقرابته ومن يصدقه في نفسه ويفضل صدقه بالنظر له، فإن الكاذب قد يصدق من نظر له، فإذا لم يجز هذا لأحد يدرك لقاء رسول الله ، ويدرك خبر من يصدق من أهله والعامة عنه كان لمن جاء بعد رسول الله ، ممن لا يلقاه في الدنيا أولى أن لا يجوز. اهـ

قال أبومحمد بن حزم في الإحكام في أصول الإحكام (١/١٠٨-١١٥): والقسم الثاني من الاخبار ما نقله الواحد عن الواحد، فهذا إذا اتصل برواية العدول إلى رسول الله وجب العمل به، ووجب العلم بصحته أيضًا، وبين هذا وبين شهادة العدول فرق نذكره إن شاء الله تعالى، وهو قول الحارث بن أسد المحاسبي، والحسين بن علي الكرابيسي.

وقد قال به أبو سليمان، وذكره ابن خويز منداد عن مالك بن أنس، والبرهان على صحة وجوب قبوله قول الله : ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[التوبة:١٢٢] فأوجب الله تعالى على كل فرقة نذارة النافر منها بأمره بالتفقه وبالنذارة، ومن أمره الله تعالى بالتفقه في الدين وإنذار قومه، فقد انطوى في هذا الأمر إيجاب قبول نذارته على من أمره بإنذارهم.

والطائفة في لغة العرب التي بها خوطبنا يقع على الواحد فصاعدا، وطائفة من الشئ بمعنى بعضه هذا ما لا خلاف بين أهل اللغة فيه، وإنما حد من حد في قوله

تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[النور:٢] أنهم أربعة لدليل ادعاه، وكان بذلك ناقضا لمعهود اللغة، ولم يدع قط قائل ذلك القول أن الطائفة في اللغة لا تقع إلا على أربعة.

وأما نحن فاللازم عندنا أن يشهد عذاب الزنا واحد على ما نعرف من معنى الطائفة، فإن شهد أكثر فذلك مباح والواحد يجزي.

وبرهان آخر، وهو أن رسول الله بعث رسولا إلى كل ملك من ملوك الأرض المجاورين لبلاد العرب، وقد اعترض بعض من يخالفنا في ذلك بأن قال: إن الرفاق والتجار، وردوا بأمر النبي فلم يقتصر بذلك على الرسول وحده.

وهذا شغب وتمويه لا يجوز إلا على ضعيف، ونحن لا نشك أن النبي لم يقتصر بالرسل المذكورين على الإخبار بظهوره ومعجزاته المنقولة بخبر الرفاق والسفار، بل أمرهم بتعليم من أسلم شرائع الإسلام ومسائل العبادات والأحكام، ليس من شيء من ذلك منقولًا على ألسنة الرفاق والسفار، وبعثه هؤلاء الرسل مشهورة بلا خوف، منقولة نقل الكواف.

فقد ألزم النبي كل ملك. ورعيته قبول ما أخبرهم به الرسول الموجه نحوهم من شرائع دينهم.

وكذلك بعث رسول الله معاذًا إلى الجند وجهات من اليمن، وأبا موسى إلى جهة أخرى، وهي زبيد وغيرها، وأبا بكر على الموسم مقيًا للناس حجهم، وأبا عبيدة إلى نجران، وعليًّا قاضيًا إلى اليمن، وكل من هؤلاء مضى إلى جهة ما، مُعلِّمًا لهم شرائع الإسلام، وكذلك بعث أميرا إلى كل جهة أسلمت، بعدت منه أو قربت، كأقصى اليمن والبحرين وسائر الجهات والأحياء والقبائل التي أسلمت، بعث إلى

كل طائفة رجلًا مُعلِّمًا لهم دينهم، ومُعلِّمًا لهم القرآن، ومفتيًا لهم في أحكام دينهم، وقاضيًا فيما وقع بينهم، وناقلًا إليهم ما يلزمهم عن الله تعالى ورسوله وهم مأمورون بقبول ما يخبرونهم به على نبيهم .

وبعثه هؤلاء المذكورين مشهورة بنقل التواتر من كافر ومؤمن، لا يشك فيها أحد من العلماء ولا من المسلمين، ولا في أن بعثهم إنما كانت لما ذكرنا من المحال الباطل الممتنع أن يبعث إليهم رسول الله من لا تقوم عليهم الحجة بتبليغه، ومن لا يلزمهم قبول ما علموهم من القرآن وأحكام الدين وما أفتوهم به في الشريعة، ومن لا يجب عليهم الانقياد لما أخبروهم به من كل ذلك عن رسول الله ، إذ لو كان ذلك لكانت بعثته لهم فضولًا، ولكان عليه السلام قائلا للمسلمين: بعثت إليكم من لا يجب عليكم أن تقبلوا منه ما بلغكم عني، ومن حكمكم ألا تلتفتوا إلى ما نقل إليكم عني وألا تسمعوا منه ما أخبركم به عني، ومن قال بهذا فقد فارق الإسلام.

وكذلك من نشأ في قرية أو مدينة ليس بها إلا مقرئ واحد، أو محدث واحد، أو مفت واحد، فنقول لمن خالفنا: ماذا تقولون؟ أيلزمه إذا قرأ القرآن على ذلك المقرئ أن يؤمن بما أقرأه، وأن يصدق بأنه كلام الله تعالى، ويثبت على ذلك أم عليه أن يشك، ولا يصدق بأنه كلام الله ؟ فإن قالوا: يلزمه الإقرار بأنه كلام الله تعالى.

قلنا: صدقتم، فأي فرق بين نقلهم للقرآن وبين نقلهم لسائر السنن، وكلاهما من عند الله تعالى، وكلاهما فرض قبوله؟ وإن قالوا: عليه أن يشك فيه حتى يلقى الكواف، أتوا بعظيمة في الدين ونسألهم حينئذ فيمن لقي من ذلك اثنين أو ثلاثة أو أربعة، فلا بُدَّ لهم من حد يقفون عنده من العدد، فيكون قولهم سخريا وباطلا،

ودعوى بلا برهان، أو يحيلوا على معدوم فيما لا يصح على قولهم قبول القرآن والدين إلا به، وفي هذا إبطال للدين والقرآن جملة، والمنع من اعتمادهما، ونعوذ بالله من هذا، وهكذا القول في وجوب طاعة من أخذ عن أولئك الرسل قرآنا أو سنة وبلغ ذلك إلى غيره، ولإنها بلاد واسعة لا سبيل لكل واحد من أولئك الرسل إلى لقاء جميعهم من رجل وامرأة، لكن يبلغ ويبلغ من بلغه هو وهكذا أبدًا لئلا يقول جاهل هذا خصوص لأولئك الرسل، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات:٦].

لا يخلو النافر للتفقه في الدين من أن يكون عدلا أو فاسقا ولا سبيل إلى قسم ثالث، فإن كان فاسقا فقد أمرنا بالتبين في أمره وخبره من غير جهته فأوجب ذلك سقوط قبوله، فلم يبق إلا العدل.

فكان هو المأمور بقبول نذارته.

وهذا برهان ضروري لا محيد عنه رافع للإشكال والشك جملة، وقد بينا هذا النوع من البرهان في كتابنا في حدود الكلام المعروف بالتقريب قال علي: وقد توهم من لا يعلم أنا إنما أوجبنا قبول خبر العدل من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾.

وقد أغفل من تأول علينا ذلك، ولو لم تكن إلا هذه الآية وحدها لما كان فيها ما يدل على قبول خبر العدل ولا على المنع من قبوله، بل إنما منع فيها من قبول خبر الفاسق فقط وكان يبقى خبر العدل موقوفا على دليله، ولكن لما استفاضت هذه الآية التي فيها المنع من قبول خبر الفاسق إلى الآية التي فيها قبول نذارة النافر للتفقه،

صارتا مقدمتين أنتجتا قبول خبر الواحد العدل دون الفاسق بضرورة البرهان، وبالله تعالى التوفيق.

وقد أوجب الله تعالى على كل طائفة إنذار قومها، وأوجب على قومها قبول نذارتهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

فقد حذر تعالى من مخالفة نذارة الطائفة – والطائفة في اللغة تقع على بعض الشيء كما قدمنا – ولا يختلف اثنان من المسلمين في أن مسلمًا ثقة لو دخل أرض الكفر فدعا قومًا إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن وعلمهم الشرائع لكان لازمًا لهم قبوله، ولكانت الحجة عليهم بذلك قائمة.

وكذلك لو بعث الخليفة أو الأمير رسولًا إلى ملك من ملوك الكفر، أو إلى أمة من أمم الكفر، ويدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم القرآن وشرائع الدين، ولا فرق.

وما قال قط مسلم إنه كان حكم أهل اليمن أن يقولوا لمعاذ ولمن بعثه عليه السلام إلى كل ناحية معلما ومفتيا ومقرئا. نعم أنت رسول رسول الله وعقد الايمان حق عندنا.

ولكن ما أفتيتنا به وعلمتنا من أحكام الصلاة ونوازل الزكاة وسائر الديانة عن النبي وما أقرأتنا من القرآن عنه عليه السلام، فلا نقبله منك ولا نأخذه عنك، لان الكذب جائز عليك، ومتوهم منك، حتى يأتينا لكل ذلك كواف وتواتر. بل لو قالوا ذلك لكانوا غير مسلمين.

وكذلك لا يختلف اثنان في أن رسول الله إنما بعث من بعث من رسله إلى الآفاق لينقلوا إليهم عنه القرآن، والسنن وشرائع الدين، وأنه عليه السلام لم يبعثهم إليه ليشرعوا لهم دينا لم يأت هو به عن الله تعالى، فصح بهذا كله أن كل ما نقله الثقة عن الثقة مبلغا إلى رسول الله من قرآن أو سنة ففرض قبوله، والاقرار به والتصديق به، واعتقاده والتدين به، وأن كل ما صح عن صاحب أو تابع أو من دونهم من قراءة لم تستند إلى النبي أو من فتيا لم تسند إليه ، فلا يحل قبول شيء من ذلك لأنه لم يوجبه الله تعالى ولا رسوله ، وكل ذلك قد صح عن الواحد بعد الواحد من الصحابة والتابعين، وليس فضلهم بموجب قبول آرائهم، ولا بمانع أن يهموا فيما قالوه بظنهم، لكن فضلهم معف على كل خطأ كان منهم، وراجح به، وموجب تعظيمهم وحبهم، وبالله تعالى التوفيق.

وبرهان آخر: وهو أنه قد صح يقينا وعلم ضرورة أن جميع الصحابة أولهم عن آخرهم قد اتفقوا دون اختلاف من أحد منهم، ولا من أحد من التابعين الذين كانوا في عصرهم، على أن كل أحد منهم كان إذا نزلت به النازلة سأل الصاحب عنها وأخذ بقوله فيها، وإنما كانوا يسألونه عما أوجبه النبي عن الله تعالى في الدين في هذه القصة، ولم يسأل قط أحد منهم إحداث شرع في الدين لم يأذن به الله تعالى، وهكذا كل من بعدهم جيلا فجيلا لا نحاشي أحدا، ولا خلاف بين مؤمن ولا كافر قطعا في أن كل صاحب وكل تابع سأله مستفت عن نازلة في الدين، فإنه لم يقل له قط: لا يجوز لك أن تعمل بما أخبرتك به عن رسول الله حتى يخبرك بذلك الكواف كما قالوا لهم فيما أخبروا به: أنه رأى منهم فلم يلزموهم قبوله.

فإن قيل: فاجعل هذه الحجة نفسها حجة في قبول المرسل، قلنا: ليس كذلك لانه لم يصح الاجماع قط، لا قديما ولا حديثا على قبول المرسل، بل في التابعين من لم يقبله كالزهري وغيره، يسألون من أخبرهم عمن أخبرهم حتى يبلغوه إلى النبي ، وإنما سقط ذلك عمن ليس في قوته فهم الإسناد ومعرفته فقط، وقد قال الزهري لأهل الشام: ما لي أرى أحاديثكم لا خطم لها ولا أزمة، فصاروا حينئذ إلى قوله، وغير الزهري أيضًا كثير.

فصح بهذا إجماع الأمة كلها على قبول خبر الواحد الثقة عن النبي ، وأيضًا فإن جميع أهل الإسلام كانوا على قبول خبر الواحد الثقة عن النبي ، يجزي على ذلك كل فرقة في علمها كأهل السنة والخوارج والشيعة والقدرية حتى حدث متكلمو المعتزلة بعد المائة من التاريخ فخالفوا الإجماع في ذلك، ولقد كان عمرو بن عبيد يتدين بما يروي عن الحسن ويفتي به، هذا أمر لا يجهله من له أقل علم.

وبرهان آخر: وهو أنه عدد محصور فالتواطؤ جائز عليهم وممكن منهم، ولا خلاف بين كل ذي علم بشيء من أخبار الدنيا، مؤمنهم وكافرهم، أن النبي كان بالمدينة وأصحابه مشاغيل في المعاش، وتعذر القوت عليهم لجهد العيش بالحجاز، وأنه عليه السلام كان يفتي بالفتيا، ويحكم بحضرة من حضره من أصحابه فقط، وإن الحجة إنما قامت على سائر من لم يحضره عليه السلام بنقل من حضره وهم واحد واثنان، وفي الجملة عدد لا يمتنع من مثلهم بالتواطؤ عند خصومنا، فإذ جميع الشرائع إلا الاقل منها راجعة إلى هذه الصفة من النقل، وقد صح الإجماع من الصدر الأول كلهم، نعم وممن بعدهم على قبول خبر الواحد، لإنها كلها راجعة إليه وإلى ما كان في معناه، وهذا برهان ضروري، وبالله تعالى التوفيق.

وبالضرورة نعلم أن النبي ﷺ لم يكن إذا أفتى بالفتيا أو إذا حكم بالحكم يجمع لذلك جميع من بالمدينة، هذا ما لا شك فيه، لكنه عليه السلام كان يقتصر على من بحضرته، ويرى أن الحجة بمن يحضره قائما على من غاب، هذا ما لا يقدر على دفعه ذو حس سليم، وبالله تعالى التوفيق.

قال علي: وأقوى ما شغب به من أنكر قبول خبر الواحد أن نزع بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[الإسراء:٣٦].

وهذه الآية حجة لنا عليهم في هذه المسألة، لانا لم نقف ما ليس لنا به علم، بل ما قد صح لنا به العلم، وقام البرهان على وجوب قبوله، وصح العلم بلزوم اتباعه والعمل به، فسقط اعتراضهم بهذه الآية، والحمد لله رب العالمين. اهـ

ورد خبر وحديث الواحد العدل خطر عظيم، قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٤/ ١٤٨٧): وقد ذهب جماعة من أصحاب أحمد وغيرهم إلى تكفير من يجحد ما ثبت بخبر الواحد العدل والتكفير مذهب إسحاق بن راهويه. اهـ

وقال (٤/ ١٤٦٣): ولهذا كان جميع أئمة الحديث الذين لهم لسان صدق في الأمة قاطعين بمظمون هذه الأحاديث شاهدين بها على رسول الله ﷺ جازمين بأن من أنكر مضمونها فهو كافر. اهـ

قال في شرح الكوكب المنير (٢/ ٣٥٢): (ولا يكفر منكره) أي: منكر خبر الآحاد في الأصح حكى ابن حامد الوجهين عن الأصحاب، ونقل تكفيره عن إسحاق بن راهويه. والخلاف مبني على القولين بأنه يفيد العلم أو لا فإن قلنا: يفيد العلم، كفر منكره، وإلا فلا ذكره البرماوي وغيره، لكن التكفير بمخالفة المجمع عليه لا بد أن يكون معلوما من الدين بالضرورة. اهـ

ورد خبر الآحاد طعن في طريقة رسول الله ، قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٤/ ١٥٦٠-١٥٦٢): وربما يرتقي هذا القول إلى أعظم من هذا، فإن النبي آدى هذا الدين إلى الواحد؛ فالواحد من أصحابه ليؤدوه إلى الأمة وينقلوه عنه، فإذا لم يقبل قول الراوي؛ لأنه واحد رجع هذا العيب إلى المؤدي، نعوذ بالله من هذا القول والاعتقاد القبيح.

قال: ويدل عليه أن النبي بعث الرسل إلى الملوك: إلى كسرى وقيصر وملك الاسكندرية وإلى أكيدر دومة وغيرهم من ملوك الأطراف، وكتب إليهم كتابًا على ما عُرف ونُقل واشتهر، وإنما بعث واحدًا واحدًا ودعاهم إلى الله تعالى والتصديق برسالته لإلزام الحجة وقطع العذر؛ لقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥] وهذه المعاني لا تحصل إلا بعد وقوع العلم ممن أرسل إليه بالإرسال والمرسل، وأن الكتاب من قبله الدعوة منه. اهـ

وقال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٤/ ١٦٠٩) مبينًا أن السلف قد أجمعوا على قبول خبر الآحاد المقام الثامن: وهو انعقاد الإجماع المعلوم المتيقن على قبول هذه الآحاديث وإثبات صفات الرب بها؛ فهذا لا يشك فيه من له أقل خبرة بالمنقول، فإن الصحابة هم الذين رووا هذه الأحاديث وتلقاها بعضهم عن بعض بالقبول ولم ينكرها أحد منهم عن من رواها، ثم تلقاها عنهم جميع التابعين من أولهم إلى آخرهم، ومن سمعها منهم تلقاها بالقبول والتصديق لهم، ومن لم يسمعها منهم تلقاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابعوا التابعين مع التابعين.

هذا أمر يعلمه ضرورة أهل الحديث كما يعلمون عدالة الصحابة وصدقهم وأمانتهم ونقلهم ذلك عن نبيهم كنقلهم الوضوء والغسل عن الجنابة وإعداد الصلوات وأوقاتها ونقل الأذان والتشهد والجمعة والعيدين، فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها جاز عليهم ذلك في نقل غيرها مما ذكرناه، وحينئذ فلا وثوق لنا بشيء نقل لنا عن نبينا البتة، وهذا انسلاخ من الدين والعلم والعقل، على أن كثيرًا من القادحين في دين الإسلام قد طردوه وقالوا: لا وثوق لنا بشيء من ذلك البتة. اهـ

فماذا بعد الحق إلا الضلال فمن رد شيئًا من أخبار رسول الله الصحيحة لمجرد الهوى فهو ضال مضل منحرف عن الطريق المستقيم وواقع في الضلال المبين ومتهم في ديانته ومطعون في عدالته.

[حجية السنة]

٩٥- وَإِنَّمَا طَعَنَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَصْحَابِهِ؛ لِأَنَّا إِنَّمَا عَرَفْنَا اللهَ، وَعَرَفْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَعَرَفْنَا الْقُرْآنَ، وَعَرَفْنَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ بِالْآثَارِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ إِلَى السُّنَّةِ أَحْوَجُ مِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْقُرْآنِ.

قوله: (**وإنما طعن على رسول الله وأصحابه... الخ**) هذه الفقرة متممة للتي قبلها، فيجب على المسلمين توقير النبي وتعزيزه وإجلاله وتعظيم أمره ونهيه، فهو عبدالله ورسوله وصفوة خلقه، المتكلم بالوحي المبين ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤].

والطعن في رسول الله وفي أصحابه طعن في دين الله الحق؛ لأن الدين إنما جاءنا من قبلهم فهم حملته وحفاظه وهم نقاله ومعلموه فلا يطعن فيهم إلا زنديق نعوذ بالله من الخذلان. وانظر لما وقع في غزوة تبوك من الاستهزاء بالصحابة من بعضهم، قال الله في شأن ذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:٦٥-٦٦].

حاجة السنة إلى القرآن:

وقوله: (**فإن القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن**) لأن السنة مفسرة للقرآن وموضحة له وقاضية عليه تبين مجملة وتخصص عامة وبها يعرف تفسيره،

ناسخه ومنسوخه والرسول كان يتأول القرآن، ويعمل به كما في حديث عائشة ، أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٣/ ١٣٨): فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه. اهـ

فالقرآن يأتي بالأمر وكيفية فعل هذا الأمر يتلقى عن النبي ثم هي وحي أوحاه الله إلى نبيه محمد قال الله : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤].

وفي الحديث: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»، وفي مقدمة سنن الدارمي (٦٠٥) عن المقدام بن معد يكرب: أن رسول الله حرم أشياء يوم خيبر الحمار وغيره، ثم قال: «**لَيُوشِكُ الرَّجلِ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يُحَدَّثُ بِحَدِيثِي فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله، مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ، اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ، حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله، فَهُوَ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى**».

وبوب الإمام الدارمي باب السنة قاضية على كتاب الله وساق بسنده رقم (٦٠٦) عن يحيى بن أبي كثير قال: السنة قاضية على القرآن وليس القرآن بقاض على السنة وقد بين الله في القرآن وحث وأمر بالأخذ بالسنة لأهميتها؛ لأنها والقرآن خرج من مشكاة واحدة، فيجب اتباع السنة كما يجب أن يؤخذ بالقرآن.

قال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١٩٩-٢٠١): فالسنة ما شرعه النبي لأمته فيلزم اتباعه فيه؛ لأن الله أوجب طاعته على الخلق، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝١٣١ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آل عمران:١٣١-١٣٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ

عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[النساء:٦٩]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[المائدة:٩٢] وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾[النساء:٨٠]، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[الحشر:٧].

أنا محمد بن عيسى بن عبدالعزيز الهمذاني، نا صالح بن أحمد الحافظ، نا محمد بن حمدان الطرائفي، نا الربيع بن سليمان، قال: قال الشافعي: فرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله، فقال في كتابه: وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم، وقال: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:١٥١]، وقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤]، وقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾[البقرة: ٢٣١]، وقال الله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾[النساء:١١٣]، وقال: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾[الأحزاب:٣٤].

قال الشافعي: فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله .

قال الشافعي: وهذا يشبه ما قال - والله أعلم - لأن القرآن ذكر وأتبعه الحكمة، وذكر الله تعالى منه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز والله أعلم - أن يقال الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله ، وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله . اهـ

وقال رقم (٢٥٩): قال الشافعي: وقد سن رسول الله مع كتاب الله، وسن فيما ليس فيه بعينه نص كتاب، وكل ما سن فقد ألزمنا الله اتباعه، وجعل في اتباعه طاعته، وفي العنود عن اتباعها معصيته، التي لم يعذر بها خلقا، ولم يجعل له من ترك اتباع سنن رسول الله مخرجًا، وما سن رسول الله فيما ليس لله فيه حكم، فبحكم الله سنه، وكذلك أخبرنا الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]. اهـ

وقال رقم (٢٧٣): قال الشافعي: فلم أعلم من أهل العلم مخالفًا في أن سنن رسول الله من ثلاثة وجوه، فاجتمعوا منها على وجهين، والوجهان يجتمعان ويتفرعان، أحدهما: ما أنزل الله فيه نص كتاب، فبين رسول الله ، مثل نص الكتاب، والآخر: ما أنزل الله فيه جملة كتاب، فبين عن الله تعالى معنى ما أراد وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما، والوجه الثالث: ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب، فمنهم من قال: جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق في علمه من توفيقه لرضاه، أن يسن فيما ليس نص كتاب ومنهم من قال: لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب، كما كانت سنته لتبيين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة:١٨٨]، وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ

ٱلرِّبَوٰاْ﴾[البقرة:٢٧٥]، فما أحل وحرم، فإنما بين فيه عن الله، كما بين الصلاة ومنهم من قال: بل جاءته به رسالة الله، فأثبتت سنته بفرض الله ومنهم من قال: ألقي في رُوعه كل ما سن، وسنته: الحكمة الذي ألقي في رُوعه عن الله. قال الشافعي: وأي هذا كان فقد بين الله تعالى أنه فرض فيه طاعة رسول الله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله . اهـ

[النهي عن الكلام والخصومة في القدر]

٩٦- وَالْكَلَامُ وَالجِدَالُ وَالْخُصُومَةُ فِي الْقَدَرِ خَاصَّةً مَنْهِيٌّ عَنْهُ عِنْدَ جَمِيعِ الْفِرَقِ؛ لِأَنَّ الْقَدَرَ سِرُّ اللهِ، وَنَهَى الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الْقَدَرِ، وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْخُصُومَةِ فِي الْقَدَرِ، وَكَرِهَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالتَّابِعُونَ، وَكَرِهَهُ الْعُلَمَاءُ وَأَهْلُ الْوَرَعِ، وَنَهَوْا عَنِ الْجِدَالِ فِي الْقَدَرِ، فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالْإِقْرَارِ وَالْإِيمَانِ، وَاعْتِقَادِ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي جُمْلَةِ الْأَشْيَاءِ، وَتَسْكُتُ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ.

الشرح:

يشير إلى ما أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٨) من حديث عائشة قالت: «**أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الخَصِمُ**»، والقدرية داخلون في هذا الحديث دخولًا أوليًا حيث وهم يخاصمون بالباطل ويجادلون عنه، وعند أحمد (٢/ ١٧٨) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي القَدَرِ قَالَ: وَكَأَنَّمَا تَفَقَّأَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الغَضَبِ قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ: «**مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟! بِهَذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**» قَالَ: فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ اللهِ لَمْ أَشْهَدْهُ بِمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ المَجْلِسِ أَنِّي لَمْ أَشْهَدْهُ. وأخرجه ابن ماجه (٧٥).

قال البغوي في شرح السنة (١/ ٢٦٢): إنما جاء هذا في الجدال بالقرآن من الآي التي فيها ذكر القدر والوعيد، وما كان في معناهما على مذهب أهل الكلام والجدل. اهـ

وجاء عند ابن بطة في الإبانة (١٥٠٩) وما بعده وغيره بأسانيد يقوي بعضها بعضًا عن ابن عمر : «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ**».

وجاء عن حذيفة وأبي هريرة، وفي مسلم رقم (٢٦٥٦) عن أبي هريرة قال: جاء مشركوا قريش يخاصمون في القدر؛ فأنزل الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩]. ولمزيد من الآثار يراجع كتاب الإبانة عن شرعية الفرقة الناجية .

فالواجب على المسلم الإيمان بالقدر كما أراد الله وبأن الخير والشر منه وأن الله بكل شيء عليم ولا يمكن أن يخرج شيء عن مشيئته وإرادته على ما بينا قبل، فالقدر هو سر الله كما قال علي بن أبي طالب ، والتوغل والوسوسة فيه قد يجر إلى الحيرة والشك والعياذ بالله تعالى.

قال الطحاوي في عقيدته : وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسُلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣] فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب، كان من الكافرين. اهـ

وقد تقدم بيان نهي الله عن الجدال المذموم وبينا كذلك حقيقة الإيمان بالقدر عند أهل السنة والجماعة، ثم اعلم أن الواجب على المسلمين الانقياد لشرع الله وقدره بعيدًا عن تخرصات أهل البدع والأهواء وبعيدًا عن علم الكلام الذي جر الويلات على المسلمين.

وأصبح حال أصحابهم في التخبط ما الله به عليم مع الشر الذي زرعوه في الأمة، وما زالت الأمة تأن منه، لكن إن كان جدال السني معهم لرفع الشبهة وإقامة الحجة فلا بأس، فقد أخرج اللالكائي (١٣٢٥) بأسانيد عن عمر بن عبدالعزيز أنه دَعَا غَيْلَانَ لِشَيْءٍ بَلَغَهُ فِي الْقَدَرِ، فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ يَا غَيْلَانُ مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكَ؟ قَالَ: يُكْذَبُ عَلَيَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُقَالُ عَلَيَّ مَا لَا أَقُولُ، قَالَ: مَا تَقُولُ فِي الْعِلْمِ؟ قَالَ: نَفَذَ الْعِلْمُ، قَالَ: أَنْتَ مَخْصُومٌ اذْهَبِ الْآنَ، فَقُلْ مَا شِئْتَ يَا غَيْلَانُ، إِنَّكَ إِنْ أَقْرَرْتَ بِالْعِلْمِ خُصِمْتَ وَإِنْ جَحَدْتَهُ كَفَرْتَ، وَإِنَّكَ إِنْ تُقِرَّ بِهِ فَتُخْصَمَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجْحَدَ فَتَكْفُرَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَتَقْرَأُ يَاسِينَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: فَقَرَأَ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[يس:٧] قَالَ: قِفْ، كَيْفَ تَرَى؟ قَالَ: كَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: زِدْ، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا﴾[يس: ٩]، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: قُلْ: ﴿سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[يس:٩]، قَالَ: كَيْفَ تَرَى؟ قَالَ: كَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَاتِ قَطُّ، وَإِنِّي أُعَاهِدُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا كُنْتُ أَتَكَلَّمُ فِيهِ أَبَدًا، قَالَ: اذْهَبْ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِبًا بِمَا قَالَ فَأَذِقْهُ حَرَّ السِّلَاحِ، قَالَ: فَلَمْ يَتَكَلَّمْ زَمَنَ عُمَرَ، فَلَمَّا كَانَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِالْمَلِكِ كَانَ رَجُلًا لَا يَهْتَمُّ بِهَذَا وَلَا يَنْظُرُ فِيهِ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ غَيْلَانُ، فَلَمَّا وَلِيَ هِشَامٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ

كُنْتَ عَاهَدْتَ اللهَ لِعُمَرَ لَا تَتَكَلَّمُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا أَبَدًا؟ قَالَ: أَقِلْنِي فَوَاللهِ لَا أَعُودُ، قَالَ: لَا أَقَالَنِي اللهُ إِنْ أَقَلْتُكَ، هَلْ تَقْرَأُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اقْرَأْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَقَرَأَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: قِفْ، عَلَى مَا اسْتَعَنْتَهُ، عَلَى أَمْرٍ بِيَدِهِ لَا تَسْتَطِيعُهُ، أَوْ عَلَى أَمْرٍ فِي يَدِكَ أَوْ بِيَدِكَ؟ اذْهَبَا فَاقْطَعَا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَاضْرِبَا عُنُقَهُ وَاصْلُبَاهُ. اهـ

قال شيخ الإسلام في الفتوى الحموية (٢٠٧): كيف يكون هؤلاء المتأخرون، لاسيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه أمرهم حيث يقول:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

وأقروا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به أو منشئين له فيما صنفوه من كتبهم، كقول بعض رؤسائهم:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أَقْرَأُ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠].

وأَقْرَأُ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[طه:١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. اهـ

ويقول الآخر منهم: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي. اهـ

ويقول الآخر منهم: أكثر الناس شكًّا عند الموت أصحاب الكلام. اهـ

وقد حذر العلماء في عقائدهم وكتبهم مما حذر منه هذا الإمام من الكلام والخصومات في القدر.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢٥٩): عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي إلى رسول الله ؛ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**» رواه مسلم (١٣٢).

الإشارة بقوله: «**ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**» إلى تعاظم أن يتكلموا به، ولمسلم أيضًا عن عبدالله بن مسعود قال: سئل رسول الله عن الوسوسة؟ فقال: «**تِلْكَ مَحْضُ الإِيمَانُ**»، وهو بمعنى حديث أبي هريرة، فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان.

هذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ثم خلف من بعدهم خلف، سودوا الأوراق بتلك الوساوس، التي هي شكوك وشبه، بل وسودوا القلوب، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولذلك أطنب الشيخ في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه.

وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾[التوبة:٦٩] أي: كالخوض الذي خاضوه، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذي خاضوا.

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض؛ لأن فساد الدين إما في العمل وإما في الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثاني من جهة الشبهات. وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأئمة مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع.

وقوله: (فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين) اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع.

ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما في الإنجيل: (يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا)؛ ولهذا كان سلف هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلومًا لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم.

فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورًا، بحيث لا يتوقف فشفاء العي السؤال، ومن سأل متعنتًا غير متفقه ولا متعلم، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره.

قال القرطبي ناقلًا عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهمًا راغبًا في العلم ونفي الجهل عن نفسه، باحثًا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه فلا بأس به، فشفاء العي السؤال، ومن سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره.

قال ابن العربي : الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة، وإيضاح سبل النظر، وتحصيل مقدمات الاجتهاد، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد، قال: فإن عرضت لك مسألة: أتيت من بابها، ونشدت من مظانها، والله يفتح وجه الصواب فيها. انتهى.

وقال : «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»، رواه الترمذي وغيره.

ولا شك في تكفير من رد حكم الكتاب، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له، بين له الصواب ليرجع إليه، وهو سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل، لكمال حكمته ورحمته وعدله، لا بمجرد قهره وقدرته، كما يقول جهم وأتباعه. اهـ

وهذه الفقرة شملت التوجيه والربط بمنهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين في النهي عن الخوض في هذا الباب وغيره من الأبواب بما يؤدي إلى الحيرة وترك الحق الذي جاءنا من عند الله وعند رسول الله .

المحتويات

مقدمة ٥

ترجمة الإمام الحسن بن علي بن خلف البربهاري ١٧

اسمه ونسبه: ١٧

مذهبه وثناء العلماء عليه: ١٧

من صفاته: ١٨

ومن عباراته: ١٨

محنته: ١٨

زهده وورعه: ١٩

مشايخه وطلابه: ١٩

مؤلفاته: ١٩

وفاته: ٢٠

مصادر ترجمته: ٢٠

كتاب شرح السنة للبربهاري ٢١

[مقدمة المؤلف] ٢٥

تعريف الحمد: ٢٥

الفرق بين الحمد والشكر: ٢٧

[أقسام الهداية] ٣٢

[الإسلام] ٣٧

[منة الله على عباده بالإسلام] ٣٩

[أمة محمد ﷺ خير الأمم] ٤٢
معاني الأمة: ٤٧
[سؤال الله عز وجل التوفيق] ٤٩
[السنة والإسلام] ٥١
[وجوب لزوم طريقة الجماعة] ٥٥
معنى الجماعة: ٥٥
[أساس الجماعة هم أصحاب محمد ﷺ] ٦٢
سبب البدعة: ٦٣
[العذر بالجهل] ٦٨
إحكام أمر الدين: ٧١
[بيان النبي ﷺ الدين للناس وطرق ذلك] ٧٥
[وجوب إتباع النبي ﷺ] ٨١
[مجيء الدين من عند الله عز وجل وبيان فساد الرأي] ٨٣
بيان أن سبب ضلال أهل البدع تقديم العقل على النقل: ٨٥
بيان أن الدين توقيفي: ٩٢
[النهي عن اتباع الهوى] ٩٤
بيانُ خطإٍ في إطلاقٍ للمؤلف: ٩٥
القول في تكفير المعين: ٩٧
بيان السواد الأعظم: ١٠٩
[ترك السنة ظهور للبدعة] ١١٢
التحذير من المحرمات: ١١٣

[الحذر من صغار المحدثات]..١١٦
أسباب الوقوع في البدع: ١١٦
مخالفة البدعة للصراط المستقيم: ١٢٢
[عرض الأمور على طريقة الصحابة رضوان الله عليهم] ١٢٤
[أنواع الخروج عن الطريق]..١٢٨
الحذر من زلات العلماء: ١٣٠
ذم التقليد:...١٣٣
[وجوب الاستسلام والانقياد] ١٣٦
[تبليغ السلف لجميع الدين]...١٣٧
حكم ساب الصحابة: ١٣٨
[القول في القياس] ١٤١
تعريف القياس: ١٤١
أركان القياس..١٤١
حكم القياس: ١٤٢
حكم القياس في التوحيد والعقائد:...١٤٦
أنواع القياس في باب التوحيد: ١٤٧
أركان الإيمان بالنبي : ١٤٨
الكلام على الكيف:..١٥٠
[بدعة علم الكلام والخصومة والجدال]..١٥٤
[القواعد في وصف الله عز وجل]..١٦٠
بيان أن الكلام في الرب تعالى محدث: ١٦٠

[بيان أن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير] ١٦٨
[أزلية الله وأبديته] ١٧٠
التسلسل في الحوادث: ١٧٠
[بيان علم الله عز وجل المحيط بكل شيء] ١٧٥
[إثبات استواء الله عز وجل على عرشه ومعيته لخلقه] ١٧٧
إثبات صفة العلو لله عز وجل: ١٧٨
استواء الله عز وجل على عرشه: ١٨٥
معية الله عز وجل لخلقه: ١٨٩
أقسام المعية: ١٩١
[النهي عن السؤال عن كيفية الصفة] ١٩٣
بيان قول الله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: ١٩٣
[القرآن كلام الله غير مخلوق] ١٩٦
[المراء في القرآن كفر] ٢٠٠
[الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة] ٢٠٣
من يرى الله تعالى في الموقف يوم القيامة: ٢١٠
[الإيمان بالميزان الذي توزن به أعمال العباد يوم القيامة] ٢١٣
مسألة: هل يوزن الكفار؟ ٢١٥
[الإيمان بنعيم القبر وعذابه] ٢١٦
[الإيمان بمنكر ونكير] ٢٢٢
[الإيمان بالحوض] ٢٢٥

[الإيمان بالشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد عليه الصلاة والسلام]....... ٢٢٩
الآيات الواردة في نفي الشّفاعة والشفيع:.................................... ٢٣٠
الآيات في إثبات الشّفاعة والشفيع: ٢٣٢
الجمع بين الآيات المثبتة والآيات النافية:.................................... ٢٣٣
شروط الشفاعة المثبتة: ٢٣٣
وشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة أنواع: ٢٤٠
[الإيمان بالصراط المنصوب على متن جهنم]............................ ٢٤٢
الصراط نوعان: ٢٤٥
شروط الصراط خمسة: ٢٤٦
[الإيمان بالأنبياء والملائكة] ٢٤٨
الإيمان بالملائكة:... ٢٥٢
[الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان] ٢٥٧
[آدم عليه السلام كان في جنة الخلد ثم اهبط منها بمعصيته].............. ٢٦٤
[الإيمان بالمسيح الدجال] ٢٦٦
بعض الأحاديث الواردة في صفة الدجال وفتنته: ٢٦٧
[الإيمان بنزول عيسى عليه السلام] ٢٧٧
[مسائل الإيمان].. ٢٨٠
تعريف الإيمان:.. ٢٨٠
الفروق بين الإقرار والتصديق:.. ٢٨٠
القول في زيادة الإيمان ونقصانه:.. ٢٩٤
القول في مرتكب الكبيرة:.. ٢٩٨

مسألة الاستثناء في الإيمان: ٣٠٠

العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام: ٣٠٥

مذاهب الناس في الإيمان: ٣٠٦

باب من جعل الإيمان المعرفة بالقلب وإن لم يكن عمل: ٣١٢

[فضائل الصحابة رضوان الله عليهم].. ٣١٤

ذكر شيء من فضائل الصحابة: ٣١٦

فمن فضائل الصديق الأكبر (أبوبكر رضي الله عنه): ٣١٦

ومن فضائل عمر : ٣٢٠

ومن فضائل عثمان : ٣٢٢

ومن فضائل رابعهم وهو: علي بن أبي طالب.. ٣٢٤

[واجب المسلم تجاه صحابة رسول الله ﷺ] ٣٣٣

الأولى: ذكر فضائلهم: ٣٣٣

المسألة الثانية: سلامة القلوب عليهم:.. ٣٣٦

المسألة الثالثة: الكف عما شجر بينهم:.. ٣٣٩

[السمع والطاعة لأئمة المسلمين] ٣٤١

طرق الخلافة والإمارة: ٣٤٤

[الصلاة والحج خلف الأئمة وإن جاروا] ٣٤٦

الصلاة بعد الجمعة:.. ٣٥٠

[الخلافة في المسلم من قريش].. ٣٥٢

[تحريم الخروج على الحاكم المسلم].. ٣٥٥

[النهي عن قتال السلطان المسلم والخروج عليه].. ٣٥٨

أعظم عونٍ لولي الأمر على القيام بواجبه: ٣٦٣

[قتال الخوارج البغاة وطرق التعامل معهم] ٣٦٤
أولًا: يجب على أولياء أمور المسلمين قتال بغاتهم والتنكيل بهم: ٣٦٧
ثانيًا: إقامة حد الحرابة عليهم: ٣٦٨
ثالثًا: عدم موالاتهم وحبهم ويجب بغضهم: ٣٦٩
رابعًا: عدم معاونتهم أو إعانتهم: ٣٦٩
خامسًا: عدم إيوائهم: ٣٧٠
سادسًا: عدم الفرح بنصرهم أو تسلطهم: ٣٧١
سابعًا: مناصرة أولياء الأمور في التصدي للخوارج: ٣٧١
ثامنًا: عدم تكثير سوادهم: ٣٧٢
تاسعًا: عدم التشكك في ضلال الخوارج: ٣٧٣
عاشرًا: الدعاء عليهم: ٣٧٣
الحادي عشر: التحذير من الخوارج وشرهم وبيان ما هم عليه من الضلال:... ٣٧٤
الثاني عشر: عدم الركون إليهم وإلى عهودهم: ٣٧٤
الثالث عشر: عدم الاغترار بدعايتهم والتنبه لشعاراتهم: ٣٧٥
الرابع عشر: رفع شبههم ودفعها، وهذا يكون للعلماء والدعاة: ٣٧٥
الخامس عشر: البعد عن مجالسهم وأماكن شبههم........................... ٣٧٨
السادس عشر: خداعهم والمكر بهم: ٣٧٩
السابع عشر: البدء بقتالهم قبل غيرهم: ٣٧٩
الثامن عشر: حماية المواطنين من شرهم وضررهم: ٣٧٩
التاسع عشر: السعي بالتفريق بينهم: ٣٨٠
العشرون: التحذير من شرهم قبل وقوعه وبث العقيدة السلفية بين المسلمين: .. ٣٨٠
الحادي والعشرون: عدم السماح لهم بإنشاء مدارسهم ومعاهدهم...:......... ٣٨١

الثاني والعشرون: هجرهم: ٣٨٢
الثالث والعشرون: عدم إعانتهم بإظهار شعائرهم المخالفة لدين الإسلام الحق: ٣٨٣
الرابع والعشرون: لا يعطون شيئًا من المال إن كانوا مصرين على باطلهم: ٣٨٤
الخامس والعشرون: مداراة من يرجى رجوعه بالمال وغيره: ٣٨٥
السادس والعشرون: تعليم المقاتلين ضد الخوارج ما يقدمون عليه: ٣٨٥
[لا طاعة في معصية الله] ٣٨٨
[عدم الشهادة في عواقب العباد] ٣٨٩
[التوبة إلى الله وشروطها وأنواعها] ٣٩٣
حكم التوبة : ٣٩٤
التوبة من جميع الذنوب والمعاصي: ٣٩٤
شروط التوبة: ٣٩٥
أولًا: شروط التوبة فيما لا تعلق له بحق آدمي: ٣٩٦
ثانيًا: شروط التوبة فيما تعلق به حق آدمي: ٤٠٠
ثالثًا: توبة الكافر: ٤٠٣
رابعًا: توبة المنافق: ٤٠٤
خامسا: توبة المبتدع: ٤٠٨
مسألة في التوبة المطلقة: ٤١٣
مسألة في تبديل السيئات حسنات بالتوبة: ٤١٤
[مشروعية رجم الزاني المحصن] ٤١٦
[المسح على الخفين] ٤١٨
[قصر الصلاة في السفر] ٤٢٣

[الصوم في السفر].. ٤٣٣

[الصلاة في السراويل]... ٤٣٥

[النفاق وخطره] ٤٣٧

[دار الدنيا هل هي دار الإسلام] ٤٤٠

الدور التي تشملها دار الإسلام: ٤٤٠

[أحكام أهل الملة].. ٤٤٤

[الصلاة على من مات من أهل القبلة].................................... ٤٤٧

[الخروج من الإسلام]... ٤٥٢

[إثبات صفة الأصابع لله عز وجل] ٤٥٥

[إثبات نزول الله عز وجل إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر]........... ٤٥٨

[إثبات صفة القدم لله عز وجل] ٤٦٠

[إثبات صفة الهرولة لله عز وجل على ما يليق بجلاله].................... ٤٦٢

[إثبات الصورة لله عز وجل] ٤٦٥

[قول النبي ﷺ رأيت ربي في أحسن صورة].............................. ٤٦٧

[التسليم لما صح من الأحاديث وعدم الرد لها] ٤٦٩

القول في التفويض: ٤٦٩

مذاهب الناس في باب الأسماء والصفات:.................................. ٤٧٠

أولاً: مذهب السلف الصالح في الأسماء والصفات: ٤٧٠

ثانيًا: مذهب أهل البدع في الأسماء والصفات:............................. ٤٧١

[كفر من زعم أنه يرى الله في الدنيا بعينه]................................ ٤٧٦

أقسام الناس في الرؤية: ٤٧٦

[النهي عن التفكر في ذات الله عز وجل] ٤٨٢
[الخلق كله مأمور من الله أمر كوني]........................ ٤٨٦
أقسام المخلوقات: ٤٨٦
[بيان علم الله عز وجل الأزلي الأبدي المحيط بكل شيء] ٤٨٩
[لا نكاح إلا بولي وبعض أحكام النكاح]........................ ٤٩٢
[بعض أحكام الطلاق]........................ ٤٩٨
تحريم زواج التحليل: ٤٩٩
الزواج بنية الطلاق: ٥٠٠
[تحريم قتل النفس المعصومة]........................ ٥٠٢
من يجوز قتلهم:........................ ٥٠٣
منهم المرتد:........................ ٥٠٣
ومنهم قاتل النفس المعصومة: ٥٠٥
ومنهم الزاني المحصن: ٥٠٦
ومنهم الصائل إذا لم يدفع إلا بالقتل:........................ ٥٠٦
ومنهم المحارب: ٥٠٨
ومنهم من أبى قبول الفرائض:........................ ٥١٠
ومنهم سابُّ النبي ﷺ: ٥١١
ومنهم جاسوس الكافرين على المسلمين:........................ ٥١٢
ومنهم من أراد تفريق جماعة المسلمين: ٥١٣
ومنهم من بويع له في وجود خليفة غيره:........................ ٥١٤
ومنهم الساحر: ٥١٤
والساحر كافر لأمور: ٥١٦

ومنهم اللوطي: ٥١٨

ومنهم أهل الغي: ٥١٩

قتل شارب الخمر المستحل لها: ٥٢٠

ومنهم تارك الصلاة: ٥٢١

[ما لا يفنى من المخلوقات] ٥٢٣

إثبات العرش: ٥٢٩

الإيمان بالعرش: ٥٢٩

والعرش أعظم المخلوقات: ٥٣١

وهو مركب من أعضاء وأجزاء: ٥٣١

وحملة العرش من أعظم المخلوقات: ٥٣١

وهو أعلى المخلوقات: ٥٣٢

أين كان العرش قبل خلق السموات والأرض؟ ٥٣٢

ومذهب أهل البدع في العرش: ٥٣٣

إثبات الكرسي: ٥٣٤

إثبات اللوح والقلم: ٥٣٧

إثبات الصور: ٥٣٨

[الإيمان بالبعث والنشور] ٥٤٠

[بيان قول الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾] ٥٥٠

[الإيمان بالقصاص يوم القيامة] ٥٥١

[وجوب إخلاص العمل لله عز وجل] ٥٥٥

[الرضا بالقضاء] ٥٦٢

[الصبر على حكم الله] ٥٦٣

[الإيمان بما قال الله]..٥٦٥
[وجوب الإيمان بالقدر]..٥٦٦
[مراتب الإيمان بالقدر]..٥٧١
وهنا مسألة وهي حكم الرضا بالمقدور؟ ٥٧٢
ومراتبه أربعة: ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها: ٥٧٤
الأولى: العلم:.. ٥٧٤
المرتبة الثانية: الكتابة:.. ٥٧٥
المرتبة الثالثة: المشيئة:.. ٥٧٦
المرتبة الرابعة: الخلق:.. ٥٧٧
وأنواع التقدير: ٥٧٨
إرادة الله عز وجل:.. ٥٧٨
الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية: ٥٧٩
مذاهب الناس في الإيمان بالقدر: ٥٨٠
الجبرية:.. ٥٨١
القدرية: ٥٨٢
[التكبير على الجنازة] ٥٨٨
[ملائكة القطر] ٥٩٢
[الإيمان بسماع أهل قليب بدر لكلام رسول الله] ٥٩٤
مسألة: هل يسمع الأموات مطلقًا أم لا؟ ٥٩٤
[الأجر على المرض] ٥٩٨
الشهيد: ٥٩٩
شهداء أمة محمد : ٦٠١

[الإيمان بتألم الأطفال]... ٦٠٤

[دخول الجنة برحمة الله عز وجل] ٦٠٧

[وما ربك بظلام للعبيد]... ٦١٠

النهي عن الاعتراض على القدر ٦١٧

[الطعن في الآثار زندقة] ٦١٨

علامات أهل البدع: ٦٢٢

وجوب قبول خبر الآحاد في العقائد والأحكام: ٦٢٣

[حجية السنة].. ٦٣٦

حاجة السنة إلى القرآن: ٦٣٦

[النهي عن الكلام والخصومة في القدر] ٦٤١

المحتويات... ٦٤٨